ABDUL - AZIZ AL - QASSAB

مذكرات
MEMOIRS

مذكرات عبد العزيز القصاب

إعداد وتحقيق: د. خالد عبد العزيز القصاب



مذكرات
MEMOIRS

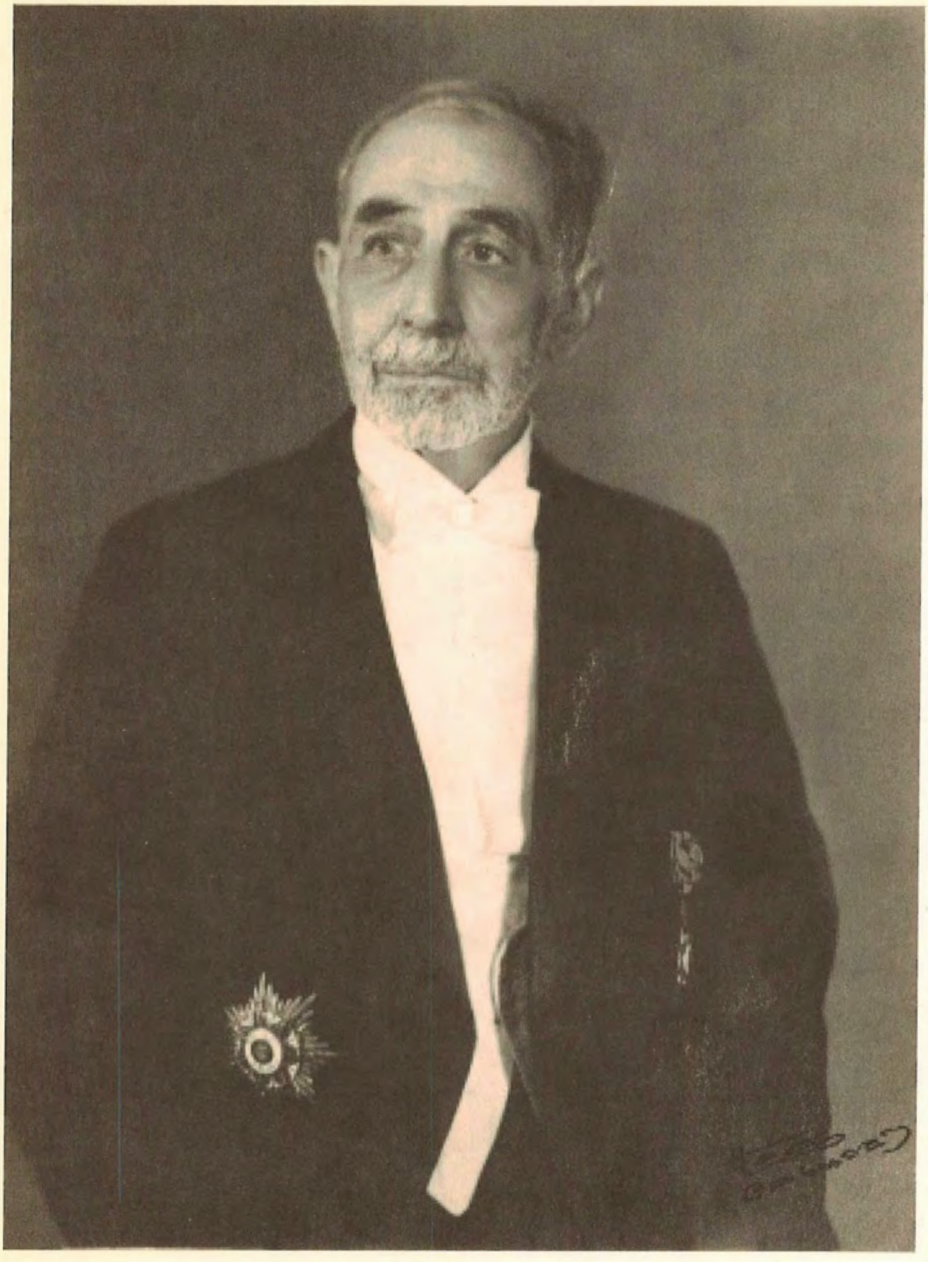
مذكرات عبد العزيز القصاب

إعداد وتحقيق:
د. خالد عبد العزيز القصاب

مذكّرات عبد العزيز القصّاب / مذكّرات
إعداد وتحقيق : د. خالد عبد العزيز القصّاب / العراق
الطبعة الأولى ، 2007
حقوق الطبع محفوظة

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : 9157 ، هاتف 5605432 ، هاتفاكس :5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكتروني: www.airpbooks.com
الإشراف الفنّي :
ستديو سيجي ®
خطوط الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردنّ**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
التنفيذ الطباعيّ : **مصطفى قانصو للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان**

ISBN 9953-36-953-4



عبد العزيز القصاب

المحتويات

ثـوب العرس الأول

رحل والدي عبد العزيز القصاب قبل أكثر من ثلاثين عاما ، تاركا لي على مكتبه نسخة من ذكرياته التي طبعت عام ١٩٦٢م ، بعد أن أشبعها بخطه الجميل تقويما وتهذيبا ، مضيفًا إليها فقرات وفصولاً في غاية الأهمية . وكانت هذه النسخة تتحداني لإعادة كتابتها في طبعة ثانية ، فأمعنت في تحقيقها وتنسيقها وقرأت ما بين سطورها ، وما إن أكملت واجبي حتى راودتني فكرة إضافة فصل عليها يعبر عن انطباعاتي عن شخصية والدي كما عرفتها عن كثب .

ورجعت أسبر غور طفولة ذاكرتي إلى سنين سبقت دخولي المدرسة . كنا نسكن في دار على ضفة دجلة لا تبعد عن الباب الشرقي إلا قليلا ، ولا يفصلها عن حافة النهر إلاّ درب ضيق أصبح فيما بعد شارع المتعة والترف : «أبو نؤاس» . كانت الدار محشورة في غابة كثيفة خضراء تخترقها سيقان النخيل الرشيقة . ولم يكن في جوارنا إلا دار أخرى هي دار عبد المحسن السعدون .

وفي هذه السنين الأُوَل لا تساعدني ذاكرتي الهشة إلاّ على استحضار يوم واحد غلب عليه الحزن والخوف ووالدي ينطلق مسرعا استجابة لاستغاثة زوجة السعدون ، وانتحار رئيس الوزراء . وما إن رحل عبد المحسن حتى قرر والدي الرحيل إلى الضفة المقابلة من النهر . فشحننا مع متاعنا في «دوبة» كبيرة عبرت بنا الشط الى حيث استأجر دارا في كرادة مريم بيت بعمارة بغدادية رقيقة ذات شرفة طويلة ، دهنت بلون شذري جميل . وكرادة مريم آنذاك لم تكن إلا غابات نخيل تتخللها بيوت متباعدة وآبار للسقي سميت بالكرود ، وأصحابها سميوا بالكرادة . .

وغلب على هذه الطبيعة الساحرة حركة صيادي السمك المستمرة ، يبحرون بزوارقهم عند الفجر ، تبعثر سكون الليل بإيقاعات صرير مجاديفها . ثم تنتشر الشباك

عبر النهر ، وترتجف الأسماك الفضية البراقة سجينة حبالها . ويرجع الصيادون عند المساء الى قريتهم الطينية قرب دارنا بزقاقها الضيق ، الذي تنبعث منه رائحة السمك المقلي ، وتغطيه شباك الصيد المعلقة من قمم النخيل لتجف قبل أن تستعمل مرة أخرى في فجر يوم جديد .

كانت دجلة في تلك الأيام تعج بالحياة . مشاهد كثيرة علقت في ذهني ، منها سباق للقفف بأعلامها البراقة نظمه نادي العلوية ، وطائرات مائية تدور وترسو في النهر لتستقر أمام دار قائد القوة الجوية البريطانية على شاطئ (السنك) . ومشاهد احتفالية أخرى تبلغ أوجها أيام الجمعة والسبت والأحد ، عشرات الزوارق المحملة بحطب الطرفة والسمك تنساب على سطح الماء الى الجزر والجراديغ[1] في جنوب المدينة على أنغام الكمنجات البغدادية المشبعة بإيقاعات «الدنابك» . صور وكأنها لوحة الكرنفال في فينسيا للفنان «كاناليتو» . واذكر أيضا مهرجانا نهريا للملاهي والمسارح في الجزر الرملية وسط النهر في سنة ١٩٣٢ دام ثلاثة أيام .

وما إن يأتي المساء حتى يضاء عقد طويل من الأنوار المتلألئة في شارع أبي نؤاس نسمع من «مقاهيه» أنغام أم كلثوم ينقلها لنا النسيم قوية مرة وضعيفة أخرى على سطح المياه المرتجفة . وكانت هذه المغريات تجذبني للعبور الى الصوب الآخر ؛ صوب الملاهي والمرح ، لكن ذلك كان مرهونا بموافقة والدي ، التي كان لحصول عليها أشق عليّ من الحصول على تأشيرات السفر . ولم أحظ بهذه الحرية الاّ عـد دخولي كلية الطب .

كانت لوالدي شخصية صارمة أملت على حياتنا العائلية الالتزام والانتظام ، نجتمع سوية على المائدة ، ولكل كرسيه الخاص ، نتحادث معا بصوت هادئ ، ونعوض عن الضحك بابتسامات مؤدبة ، إلا أن صرامته لم تحجبنا عن حبه حبا عميقا ، ربما كان ذلك راجعا الى الكثير من العلامات الصغيرة التي تفصح عن حبه لنا ، فما كانت صرامته المخيفة إلاّ قشرة صلبة تحيط بنفس مرهفة مشبعة بالحب لكل من حوله .

وحكايات حبه لأبنائه ورعايته لهم كثيرة ، أذكر منها قصة واحدة ذات دلالات عميقة :

---

(١) الجراديغ : المفرد جرداغ ، كلمة غير عربية ، وهي غرف تتكون من أعمدة الخشب لها سقف من الحصير وكذلك جوانب الغرفة ، يتم إنشاؤها في الصيف على شواطىء دجلة ، ويتخذها أصحابها محلات للابتعاد عن الجو الحار ، وكذلك للتسلية والطرب .

كنت ، وأنا طالب في الصف الخامس الابتدائي ، منغمرًا في أولى هواياتي الكثيرة وهي جمع الطوابع البريدية . كنت مغرما بأشكال الطوابع وألوانها ، المعبرة عن المواقع والأجناس البشرية المتعددة ، وكنت أحلم في مجموعتي ليل نهار . وفي يوم مشؤوم من الأيام كلفني والدي بجلب وثائق مهمة محفوظة في غرفة شتوية في أعلى البيت . وما إن اطلعت على الطوابع الغالية وصور الملك فيصل وغازي عليها حتى انهارت عزيمتي ، فانتزعتها جميعا من الوثائق عدا الوثيقة التي طلبها والدي . وفي وقت لاحق استدعاني أبي قائلا إن هناك من يشتري طوابع فما لديك منها؟ ، وعرضت عليه ما لديّ ببراءة الطفولة وطوابع فيصل وغازي بينها . واختفت الابتسامة من وجه والدي لتحل محلها علامات غضب شديد . وكنت وأنا أشاهده مزمجرا لا أشعر بالآمي ، خائفا من أن أفقد والدي بنوبة قلبية . انتهت الزوبعة بصعود والدي الى الشرفة ليرمي بمجموعتي في قاع النهر لتقبر كما تستحق .

ومرت السنون وإذا بأبي يستدعيني وأنا طالب في كلية الطب ، قائلاً إنه سمع بهواية أولاد أخي بجمع الطوابع فما رأيك بإعطاء هذه المجموعة لهم؟ . نظرت الى يده الممدودة نحوي ولم أصدق عيني ، لقد احتفظ بمجموعة طوابعي وهو في قمة غضبه عليّ ولم يكن قد رماها الى قاع النهر . كان في ذلك لي قمة الحنان الأبوي .

وزاد في عجبي أيضا كيف تمكن أبي بثقافته العثمانية أن يؤمن بسنّة التطور ويجاري مسيرة أولاده في القرن العشرين . وهذه حكاية أخرى مع هوايتي الثانية : حبي للفنون التشكيلية . كان بيتنا بعيدا عن الفن ، خاليا من أي ورقة أو علبة ألوان للرسم . وفي يوم من الأيام فتح أبي باب غرفتي بصورة مفاجئة ، وكنت أحدق في تمثال صغير (لفينوس ميلو) لأرسمه . وبدت على وجهه علامات قلق وأغلق الباب بسرعة وكأنه قد فقد ابنه الى الأبد لعارية أغريقية .

وراقب والدي تطور هوايتي للفن واجتاز الهوة السحيقة التي كانت تقف بيننا ، حتى وافق عام ١٩٥٠ على طلبي لاستعمالي بيته الجديد على النهر ، والذي بناه له ، المهندس المعماري جعفرعلاوي ، لافتتاح أول معرض لجماعة «الرواد» الذي دام لمدة ثلاثة أيام . معرض أصبح علامةً مهمةً ومنعطفا في تاريخ الفن العراقي الحديث .

وقف والدي بإعجاب بين لوحات فائق حسن وجواد سليم وأصدقائنا الآخرين ، وبين المئات من الزائرين . والمعرض يعج برموز كثيرة لشباب أراد أن يغيّر كل شيء : أحذية تسلق جبال ، فؤوس ، أكواب معدنية موقعة معلقة فوق الموقد ، ولوحات فنية

تعلن عن ولادة حركة جديدة لرواد الطبيعة العراقية من الشمال الى الجنوب .

وفي هوايتي الأخرى ، تذوق الموسيقى الكلاسيكية ، وجدت نفسي هاربا منه ، سجينا في غرفتي ، أتصبب عرقا وأنا أتدرب على الكمان ، غير متوقع أن يكتب لي والدي رسالة خاصة وأنا في لندن ، كيف أنه اهتم بتنظيم مجموعة أسطواناتي بحنان ورفق .

راقبت أبي وأنا قابع في آخر مجلسه يوم الجمعة ، فاغرًا فاهي ، مستمعا الى ما يدور فيه من حوار . مجلس تغطيه العمائم الخضراء والبيضاء والسوداء ، ورجال سياسة أفندية من مختلف المشارب والاتجاهات ، شيوخ الجبال المتمنطقون بأحزمتهم العريضة ، ورؤساء عشائر من رجالات ثورة العشرين . تجمعهم صداقات عميقة واحترام متبادل . صورتهم تدل على انعدام التعصب لطائفي والعرقي وتفصح عن التسامح والانفتاح وتقبل الرأي لآخر . كان من جملة الساسة الحاضرين دائما : حكمت سليمان ، وعلي جودت الأيوبي ، ورشيد عالي الكيلاني . سياسيون لم تجمعهم مع والدي أي وزارة أو حزب سياسي . وفي الأعياد كان المجلس يضم رجال الطوائف الدينية الأخرى ، ممثلة بالبطارقة بألوان ألبستهم البراقة وحتى الحاخامين اليهود .

وفي رأيي أن والدي لم يكن سياسيا مغامرا طامعا بمواقع رئاسية . كنت أتذكر أياما متعددة ونحن نراقب تكليفه بمناصب وزارية أو رئاسية يقابلها بالرفض . وفي قناعتي أنه إداري بطبيعته . . . نجح الى حد بعيد في تحقيق العدالة ومكافحة الفساد في النواحي النائية من البلاد ، وكذلك كسب ثقة الناس واحترامهم لدوره في استفتاءات انضمام لواء الموصل الى العراق .

وكان في مسيرته عموما يرفض أساليب العنف ويعارض تدخل الجيش في السياسة . وفي يوم حزين اغرورقت عيونه بالدموع عندما شاهد ، وهو في شرفة مجلس النواب ، جموع الشباب تتساقط من الجسر تحت وابل رصاص الشرطة من المآذن على الصوبين ، فاستقال من رئاسة المجلس مع النواب المعارضين لمعاهدة (بورتسموث) وأحرج الوزارة القائمة .

وأعجبت كذلك بمواقف الجبهات المتصارعة في احلبة السياسية ، وكيف كان ممكنا أن يتحاور مع ياسين الهاشمي وهو البديل المنتظر لوزارة المدفعي عام ١٩٣٥ ، والتي كان والدي وزيرا للداخلية فيها ، حوار غايته التفاهم في سبيل مصلحة البلاد

العليا . وكذلك كيف كانت تدار في البلاط الملكي الاجتماعات التي ضمت رجال الأحزاب المعارضين مع المسئولين في الدولة في الظروف الصعبة ، وربما كان والدي عنصر موازنة مهما في هذه الاجتماعات .

ومن جملة ما وجهته لنفسي من الأسئلة كيف كان أبي ينظر الى المرأة وحياته ارتبطت بأربع زوجات بصورة متعاقبة؟ مشاهداتي الكثيرة أقنعتني بحبه وإخلاصه ووفائه لهن . ففي زاوية من دارنا في كرادة مريم قبعت عجوز عمياء مقعدة في فراشها . كانت هذه العمياء المقعدة هي كل ما بقي من (مريم خان) والدة زوجته الأولى نورية ، التي كانت حبه الأول منذ أيام دراستة في اسطنبول ، والتي شاء القدر أن تموت على كرسي مركب الأسنان في سامراء وهي حامل بطفلها الثاني ، بعد أربعة سنوات فقط من زواجها . اعتنى والدي بـ(مريم خان) وفاء لزوجته حتى توفت بعد أربعين عامًا .

وتلاحقه المأساة الى زواجه الثاني ووفاة (صبيحة الجلبي) وطفليها في ظرف أسبوع فقط ، ضحية لمرض الدفتريا الذي فتك في جموع المجاهدين في السماوة أثناء الحرب العالمية الأولى .

وعشت أنا حياتي مع أختيّ وأخي نفتقر الى حنان الأم ، فقد توفت والدتي(شريفة ثابت) ضحية اختلاطات ولادة أخي الصغير (سعدون) بعد زواج دام خمس سنوات . وخالي هو(نوري ثابت) ، صاحب جريدة (حبزبوز) ، أراد الانتحار برمي نفسه من الشرفة لفقدانه حبيبته الأخت الشابة . وعجب (عبد المحسن السعدون) وهو في موكب تشييع والدتي أن يرى عبد العزيز يبكي زوجته ، قال لـ(علي محمود الشيخ علي) هل من الممكن أن يبكي رجل أمام الناس لفقدان زوجته؟

ولم تسلم من المآسي إلا زوجته الرابعة ، (ماهية حويز) التي اعتنت بأبي في شيخوخته وتوفت بعده .

وفي صورة أخيرة رقد والدي على فراشه الأخير بعد أن أدركه تعب الحياة ومشاقها ، وكنت مع إخوتي حوله وهو مربوط بشرايين الحياة الطبية من تغذية وقناني الأوكسجين . وأختاي جالستان على حافة سريره تقرآن له من سورة ياسين وهو يتلاشى في غيبوبة وهذيان ، يصف لنا ما يتراءى له من صالة كبيرة في قصر منيف ينتظره ، سقفها مرصع بزخارف جميلة . ثم يصحو قليلا ليوقف تنفسه المتسارع

وليصلح لإخوتي تلفظهم لكلمات من القرآن أخطأوا فيها ، ثم يلتفت الى أخي الكبير عبد المجيد طالبا شيئا احتفظ به في غرفة نومه . وجلب أخي (صرة) ملفوفة فتحها أمامه . قال أبي : لا ليس هذا . فقد كان يبحث عن أورق فيها وصيته بمنحة لجامعة بغداد .

ثم يتثاقل نفسه ويقف أخيرا ، ومددت يدي لأجس نبضه بعد أن توقف . أجهشت بالبكاء قائلاً لنفسي : لا . . . هذا ليس من الآلاف من مرضاي . لا . . . هذا أبي وقد انتهى .

وقطعنا شرايين الحياة التي ربطته بالأجهزة المجاورة وودعناه إلى الأبد ، والتفتنا إلى الصّرة المفتوحة على الأرض ، وإذا بها ثوب عروسه الأولى الناصع البياض . . احتفظ به ستين عاما . . .

خالد القصّاب

بسم الله الرحمن الرحيم

عليه توكلت وبه أستعين

الحمد لله رب العالمين ، حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطاهرين .

وبعد ، فإني أنا الراجي رحمة ربه ، عبد العزيز بن السيد محمد بن السيد عبد اللطيف بن السيد محمد بن السيد حسين بن السيد علي بن ناصر بن الشيخ درع الجشعمي ، طالما فكرت بضرورة تسجيل ذكرياتي وما صادفته في حياتي ، وكنت أؤجل ذلك لضيق المجال وكثرة الأشغال .

وبإلحاح من أفراد أسرتي ، أخرجت الفكرة إلى حيز التنفيذ ، بعد أن أيقنت أن الدنيا دار فناء ، لا يبقى منها إلا ذكر الإنسان وصالح الأعمال ، يتداولها الأجيال والأحفاد .

وهاأنذا أبدأ متكلاً على الله جل جلاله ، راجيًا ممن يقف على هفوة أو تقصير ، إسدال ستار عفوه عليها .

ولله العصمة وحده[1] .

(١) بدأ عبد العزيز القصاب بتسجيل مذكراته في صيف ١٩٥٣ عندما كان في لندن للمعالجة الجراحية .

القسم الأول

الطفولة وأيام الدراسة

في بغداد وإسطنبول

الفصل الأول
الطفولة والدراسة في بغداد

السنوات الأُوَل

ولدت في بغداد سنة ١٣٠٥ للهجرة ، الموافق ١٨٨٢ ميلادية في بيت معروف بالتقوى والكرم والصلاح ، سمي ببيت (آل القصاب) . وسبب هذه التسمية أن جدنا الشيخ درع الجشعمي[1] قد سمّي بذلك عندما أقام مآدب وحفلات لختان أولاده ، فنحرت الكثير من الأغنام والإبل ، ودعي لها أهل راوه ، فأطلقوا عليه اسم (القصاب) . والشيخ درع هو أول من نزل قرية راوه في أعالي الفرات وتزوج امرأة من سادتها ، وكان معاصرا للشيخ رجب الراوي الكبير رحمه الله حوالي سنة ١٦٥٦ ميلادية .

وأول من نزح من العائلة إلى بغداد ، حفيده الشيخ حسين ، الذي نزل في محلة سوق حماده في جانب الكرخ ، وأخذ يتاجر بالأقمشة والحبوب والخيول والأغنام ، وكان له عملاء في توابع بغداد ، لا تزال تربطنا مع أبنائهم صداقةٌ متينةٌ مستمرة حتى اليوم .

وأكبر إخوتي هو الحاج محمد رشيد ، وكان إمامًا في جامع الشيخ صندل ، وخطيبًا في جامع الشيخ معروف الكرخي ، وهو من المتخصصين في علم الفقه ، ومن المنتسبين إلى الطريقة النقشبندية . توفي رحمه الله سنة ١٩٢٩ ، ولم يعقب .

والأخ الثاني هو عباس حلمي ، من علماء بغداد المعروفين ، كان يلقي الدروس

---

(١) درع الجشعمي : شيخ عشائر (جشعم) التي سكنت جنوب العراق ورعى أفرادها الإبل والأغنام وعمل قسم منهم في الزراعة .

[يوسف العزاوي (عشائر العراق) طبعة ١٣٣٤ هـ ، وشيخ إبراهيم الراوي الرفاعي (بلوغ الأرب) طبعة ١٣٣٠هـ - بيروت .]

العلمية في مسجد المدني قرب دارنا صباحًا ، وفي دار الفتوى بجانب الرصافة (وكان أمينًا لها) ، ويدرّس أيضًا في جامع الشيخ صندل بجانب الكرخ بعد الظهر ، وكل ذلك حسبة لله تعالى . ثم عين مدرسًا في كلية سامراء العلمية سنة ١٨٩٨ ، وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٩١٧ . وكان الشيخ عباس ورعًا تقيًا كريمًا ، قرأ عليه الكثيرون من علماء العراق ، ومنهم : الشيخ قاسم القيسي ، والشيخ إبراهيم الراوي ، والشيخ أمجد الزهاوي ، والشيخ نجم الدين الواعظ ، وعبد الملك الشواف ، ومحمد سعيد الحديثي ، وشهاب الدين الهيتي ، وطه السامرائي ، وحسن تقي الدين الدوري ، وقد عمل الكثير منهم في التدريس والقضاء والإفتاء وشغلوا أهم المناصب العلمية الكبيرة .

أعقب السيد عباس ولدًا واحدًا هو السيد عبد الله وأربع بنات . وقبل إعطاء هذه الذكريات للطبع (عام ١٩٦٢) فوجئنا بفقدان ابن أخي عن عمر لم يتجاوز الستين عامًا . ومما زاد في ألمنا أنه لم يخلف سوى ولد واحد هو غازي .

درس عبد الله عباس القصاب العلوم العربية في المدارس العلمية كما أراد والده . وبعد وفاة أبيه دخل كلية الحقوق وتخرج فيها سنة ١٩٢٧ ، عين بعدها مديرًا لناحية الحيرة . ولنجاحه في إدارة هذه الناحية عين قائم مقام للسماوة ، ثم مديرًا لقضايا العشائر في وزارة الداخلية ، ثم متصرفًا للديوانية ومنها وزيرًا للداخلية ، ثم متصرفًا للموصل ، ثم أمينًا للعاصمة ، ثم مديرًا عامًا لجمعية التمور العراقية . وانتخب نائبًا عن المحمودية ، وأخيرًا انتخب نائبًا لرئيس مجلس الاتحاد العربي(العراقي الأردني الهاشمي) سنة ١٩٥٨ . وكان في هذه الوظائف مثلاً حسنًا لحسن السمعة والاستقامة والإخلاص حتى وافاه الأجل يوم الخميس ١٨ كانون الثاني ١٩٦٢ ، عليه رحمة الله .

والأخ الثالث هو السيد عبد الرحمن ، وكان يشتغل في التجارة وأصبح عضوًا في مجلس بلدية الكرخ . وقد تولى إدارة بيتنا ، مسترشدًا بأخيه الأكبر عباس . توفي سنة ١٩١٠ وأعقب ابنة واحدة .

والأخ الرابع هو السيد أمين ، وكان يساعد أخاه عبد الرحمن بأعماله التجارية . انتخب عضوًا في مجلس أمانة العاصمة قبل أن يتوفى سنة ١٩٣٤ ، وأعقب ولدين وثلاث بنات .

والأخ الخامس هو عبد الفتاح ، وكان مديرًا للمدارس الرسمية في العهد

العثماني ، استقال من منصبه عند دخول الإنكليز بغداد وانصرف بعد ذلك إلى الزراعة والبيع والشراء . توفي سنة ١٩٣٥ وأعقب ثمانية أولاد[٢] .

الشيخ عباس وطلابه

ومما أتذكره عن حماسة طلاب الشيخ عباس للاستفادة من دروسه ، حكاية عن الشيخ أمجد الزهاوي :

طرق باب بيتنا في ليلة شتاء باردة ، والمطر ينهمر بغزارة وأزقة بغداد تغمرها المياه والأطيان ، وهو ملتفٌ بعباءة ولابس (جزمة) في قدمه . صرخ أخي في وجهه قائلاً : «ماذا جاء بك من (الحيدر خانة) إلى (سوق حماده)؟» ، أجابه أمجد : «عندي إشكال في درسي ، أرجو إيضاحه لي» . قال له الشيخ عباس : «أخذت درسًا مني في جامع المدني صباحًا ، ثم درسًا آخر في دار الفتوى في الرصافة بالقرب من دارك مساءً ، أفلا يكفيك هذا؟» . ثم أجلسه بجانبه يشرح له مشكلته قبل أن يدعه ينصرف في ظلام الليل البارد تحت زخات المطر .

محل إقامتي

كنت وإخوتي المرحومون الخمسة نقيم في دار كبيرة من طابقين ، شيدها والدنا في (سوق حماده) ، وكان لكل منا غرفة أو غرفتان نقيم فيهما مع زوجاتنا وأطفالنا . كنا نتناول طعامنا معًا على سفرة (مائدة) واحدة . وفي الدار غرفة كبيرة لاستقبال زوارنا الكثيرين القادمين من كل حدب وصوب . وكان أخونا الأكبر محمد رشيد يشرف على نفقاتنا من مأكل ومشرب ، وأخي عبد الرحمن يشرف على النفقات الأخرى .

واستمرت هذه الحالة إلى أن عيّنت قائم مقام لسامراء ، وكان قد انتقل إليها قبلي أخي عباس للتدريس والإفتاء ، لكننا لم نتوقف عن الاستمرار في اجتماعاتنا العائلية في هذه الدار كلما رجعنا إلى بغداد .

ولما أصبحت وزيرًا للداخلية للمرة الأولى سنة ١٩٢٦ ، انتقلت إلى دار عمي السيد إبراهيم الملاصقة لدارنا والواقعة على شارع موسى الكاظم . مكثت في هذه

---

(٢) والأخ السادس هو عبد العزيز ، كاتب هذه المذكرات ، وهو أصغر إخوته . أعقب ثلاثة أولاد وابنتين .

الدار سنتين ، انتقلت بعدها إلى (البتاوين) في جانب الرصافة ، إلى دار على النهر ، في المنطقة التي اخترقها شارع أبي نواس في وقت لاحق[٣] .

وفي سنة ١٩٣٠ انتقلت إلى دار على الشاطئ الأيمن من دجلة ، في منطقة (كرادة مريم) . بقيت في هذه الدار حتى توفقت إلى تشييد أول دار امتلكتها على أرض قريبة منا ، سنة ١٩٣٨ ، وهي الدار التي أسكنها حاليًا[٤] .

كتّاب الملا الدولعي

عند بلوغي الخامسة من عمري ، أدخلني والدي المرحوم في كتّاب الملا محمد أمين الدولعي لتعلم القراءة والكتابة . كان هناك في ذلك الوقت خمسة كتاتيب في جانب الكرخ ، وعدد أكثر منها في جانب الرصافة ، والكتّاب هذا هو أول مدرسة أنتمي إليها .

كان الدولعي إمامًا للمسجد المسمى باسمه ، ويقع في (سوق حماده) . عاش هذا الرجل عمرًا طويلاً يقال إنه قارب مائةً وثلاثين عامًا . كان صالحًا ، تقيًا ، يصوم أيام السنة كلها ولا يفطر إلا في أيام الجمع والأعياد . كان قوي البنية وهو في عمر المائة . يدرس الطلاب عليه مبادئ القراءة ، ويتعلمون الكتابة على صفائح (التَنَكْ) المعدنية الخفيفة ، وإن أرادوا أن يمسحوا ما عليها ، غسلوها بالماء أو لطعوها بألسنتهم ليتمكنوا من الكتابة عليها مرة أخرى .

كنت أذهب صباح كل يوم للكتّاب برفقة أخي عبد الفتاح . وفي أحد الأيام بينما كان الملا يقرئني الألف باء ، أخطأت في قراءة الحروف ، فقرص ظاهر يدي بإصبعيّ السبابة والوسطى ، وشعرت بألم شديد ، كأنها قرصة آلة حديدية ، وأجهشت بالبكاء . أخذ الملا يلاطفني ويمسح رأسي ، ولما عجز عن إسكاتي ، أمر أخي عبد الفتاح أن يأخذني إلى البيت . رجعت إلى أبي شاكيًا باكيًا ، وطلبت منه أن لا يرسلني إلى هذا الملا مرة أخرى .

نفذ والدي طلبي ، ونقلني إلى كتّاب الملا عبد الله السويدي بعد أن مرَ على

---

(٣) كانت هذه الدار مجاورة لدار عبد المحسن السعدون وتبعد قليلا عن الباب الشرقي .

(٤) تمكن كاتب المذكرات ، ولأول مرة ، من بناء أول دار ملك له عام ١٩٣٩ ، بعد أن تبوأ جميع مناصبه الإدارية والوزارية وأشرف على التقاعد .

دراستي شهران فقط ، مع العلم أن الدولعي كان قد علم والدي وأعمامي وإخوتي القراءة والكتابة من قبلي .

كتّاب الملا عبد الله السويدي

درّس هذا الملا في مسجده المشهور في محلة (جامع عطا) . وكان رحمه الله شديدًا صارمًا ، لا يضاهيه في ذلك أحد . وطلابه لا يتجاوز عددهم الثمانين ، يقبلهم من سن الخامسة أو السادسة وحتى الرابعة عشرة . وله نظام خاص ودوام يبدأ قبل طلوع الشمس وينتهي بعد صلاة العصر . كان يسقي تلاميذه ، شتاءً وصيفًا ، حليبًا أو شاي (دارسين) . ومن يتأخر عن الدوام يضربه على قدمه ثلاث مرات بالعصا ، ولديه (صلاّبة)(٥) يشد عليها الطلاب المخالفين لتعاليمه من أرجلهم . ومن جملة تعاليمه الغريبة ، هو أن يعلن الطالب عن قدومه بوضع فمه في ثقب مفتاح الباب وينادي بصوت خافت مستمر طالبًا فتحه ، ولا يسوغ له طرق الباب أبدًا ، ومن يخالف ذلك يضرب . وكان يمنع الطلاب من البصاق على أرض المسجد ، والمنع هذا يسري على المصلين جميعهم ، شبابًا وشيبًا . ومن عاداته أيضًا أن لا يفتح أبواب المسجد للمصلين إلا بعد الأذان وفي وقت الصلاة فقط .

ويُقسّم الملا السويدي طلابه الكبار إلى كتل عمل متفرقة : فمنهم من يُكلف بإعداد الحليب والشاي ، ومنهم من يكنس وينظف المسجد ، ومنهم من يكلف بالأذان وإقامة الصلاة ، ومنهم من يكلف بتعقب الطلبة الفارين من الكتّاب . وكان الملا يشارك طلابه في أعمالهم ، وحتى في كنس أرض المسجد ، على الرغم من كونه الإمام فيه .

ومما أتذكره ولن أنساه ، هو أني أفقت ذات يومًا متأخرًا بعد طلوع الشمس ، فبكيت خوفًا من القصاص ، ورافقني أبي إلى الملا . همست في ثقب المفتاح كالعادة ، ودخلت وأنا أتأبط كتابي وخلفي أبي . استقبل الملا والدي مهللاً مرحبًا وقال أبي له : «هذا عبد العزيز ، تأخر هذا اليوم ، الله الله فيه» ، ولاحظت أنه كان يشير إلى الملا بضربي . كنت أراقبهم وأنا أرتجف خوفًا ، وأخرج والدي من جيبه قطعةً من النقود تسمى(الجرخي) دسها في يده ، وأعتقد أنها تساوي عشرين قرشًا آنذاك ،

(٥) صلاّبة : خشبة على شكل صليب .

سلمها إليه وخرج .

وما إن أغلق الملا الباب خلف والدي حتى التفت إليّ وخاطبني : «لماذا جئت بوالدك؟ هل ليشفع لك؟ تعالوا مدّوه!» . قام أحد الطلبة الكبار بوضع قدمي في (الفلقة)[٦] وضربني الملا ثلاث خيزرانات عقابًا لتأخري ، وبعد هذا العقاب لم أتأخر عن موعد الدراسة أبدًا .

وأتذكر أيضا حادثةً أخرى عند هذا الملا : كنت أتعلم حروف الهجاء وكان (الخلفة)[٧] المكلف بتعليمي هو توفيق الحسن الخانجي ، جارنا في سوق حماده ، وهو من تجار بغداد اليوم . وكان يلفظ حرف السين بلكنته المعروفة ، فضحكت . كنت على بعد عشرة أمتار من الملا إلا أنه سمعني ، فتوجه إليّ والعصا في يده وأخذ يضربني بقسوة . كان في آخر طارمة المسجد رجل مسن من أبناء الثمانين ، اسمه سيد مويل العاني ، وهو مرافق الطالب عيسى العطا . قام هذا الرجل وألقى بجسمه فوقي ليقيني من ضرب الملا الشديد قائلا له : «قتلت ابن السيد محمد يا ظالم» .

كان الملا عبد الله السويدي رحمة الله عليه تقيًا ، نشطًا ، قانعًا وحريصًا على تربية الأولاد وتعليمهم . كان أسمر اللون ، رفيع الصوت ، ذا لحية كوساء . ينتسب أبوه إلى عائلة السويدي وأمه سودانية . وقد تعلمت عنده القراءة والقليل من الكتابة ، وختمت القرآن بعد بقائي معه خمسة شهور لم أعاقب أثناءها إلا في المرتين اللتين ذكرتهما .

وعندما ختمت القرآن الكريم ، أقيمت لي حفلة الختام المعتادة وتسمى (زفة الختمة) ، والعادة في هذه الزفة أن يخرج الطلاب جميعهم إلى زقاق المحلة يتقدمهم أحدهم حاملاً (الرَحْلة)[٨] على رأسه ، وهي مزينة بالبراقع والورود الملونة ، وعلى (الرَحْلة) المصحف الشريف . وفي الصف الثاني ، يسير الطالب الخاتم محاطًا بثلاثة أولاد ، يقرؤون دعاء الختمة ومن خلفهم يردد بقية الأولاد ، كما يلي :

المتقدمون : الله ينصر السلطان . . .

المرددون : آمين . . .

المتقدمون : بجاه سيد الأكوان . . .

---

(٦) الفلقة أو الفلق : خشبة تشد عليها أقدام الطالب لضربها .

(٧) الخلفة أو الخليفة : وهو الذي ينوب عن الملا .

(٨) الرحلة : خشبة تشبه السرج لوضع الكتاب عليها

المرددون : آمين . . .

المتقدمون : يا رب الدين والأيمان ، أدم دولة بني عثمان . .

الهي بالنبي جرجيس ، أجرنا من جنود إبليس ، بأهل الذكر والتقديس . . أدم دولة بني عثمان . . . إلهي انصر أفندينا ، الحاكم بالعدل فينا ، أدمه يا عظيم الشأن . . .

المرددون : آمين . . . الحمد لله الذي تحمدا ، حمدًا كثيرًا ليس يحصى عددا ، وأنزل القرآن نورًا وهدى ، على النبي محمدا . . .

في المدرسة الابتدائية

توفي والدي وأنا في السابعة من عمري ، وقام بتربيتي إخوتي الكبار رشيد وعباس وعبد الرحمن ، فأدخلوني المدرسة الابتدائية وهي أول مراحل الدراسة الحكومية .

كان في جانب الكرخ مدرسة ابتدائية واحدة تقع بالقرب من المستشفى الذي بناه مدحة باشا[٩] . انتميت إلى هذه المدرسة بعد أن ختمت القرآن ثلاث مرات . كان مدير المدرسة آنذاك ، عمر أفندي فارس الجبوري ، وهو من أهل العلم . درست في هذه المدرسة سنة واحدة تعلمت فيها مبادئ القراءة التركية ، والتحقت بعدها بالمدرسة الرشدية .

في المدرسة الرشدية

تقع هذه المدرسة في محلة (جديد حسن باشا) في جانب الرصافة ، في موقع متصرفية لواء بغداد . وفي السنة الأولى لم أتمكن من النجاح لعدم تمكني من قراءة الكتب التركية كما هو مطلوب ، وبعدها توالى نجاحي من صف إلى آخر حتى تخرجت فيها بعد أربع سنوات . كان المتخرجون معي رشيد الخوجة وابن عمه شاكر الخوجة ، ورؤوف الكبيسي ، وفؤاد الجيبه جي ، وتلميذ آخر من أصل تركي .

---

(٩) مدحة باشا : من أبرز ولاة بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) ، له أعمال كثيرة ومهمة . كان نزيهًا دؤوبًا ومحبًا للإصلاح ، متأثرًا بثقافة أوربية حديثة . أسس مستشفى الغرباء بجانب الكرخ والتي أصبحت مقرًا للمجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٤) . وسمي بأبي الأحرار لدوره في إعلان الدستور العثماني . توفي في ظروف غامضة في مدينة الطائف بالسرطان وأشيع أنه مات مسمومًا .

كانت المدرسة الرشدية هي الوحيدة في بغداد ، وما أذكره عن أحد معلميها الأفاضل واسمه عبد الله أفندي ، مدرس العربية والفارسية والعلوم الدينية ، قسوته الشديدة . يضرب الطلاب بعصاه إن لم يحفظوا دروسهم ، ويطلب منهم جمع أصابعهم وهي محتقنة ببرد الشتاء القارس ليضربها بعصاه ثلاث مرات وهو يردد «هذه العصا من الجنة ، وسوف تترحمون على أبي وأمي» . عانيت من هذا العقاب مرةً واحدةً فقط في درس القواعد الفارسية . وفضل هذا الأستاذ لا ينسى في تعليمي الواجبات الدينية وحسن السلوك والأخلاق ، رحمه الله رحمة واسعة .

كانت دروسنا في الرشدية هي : الحساب والجغرافية والهندسة والعلوم الدينية واللغة العربية والفارسية والفرنسية وحسن الخط . والجدول اليومي يتضمن أربعة دروس ، اثنين منها صباحًا واثنين بعد الظهر ، مع فاصل خمس عشرة دقيقة بين درس وآخر ، وساعة ونصف لفترة الغداء بين الدروس الصبحية ودروس بعد الظهر . وكان الطلاب يستغلون هذه الفرص في التسامر والتعليق على الدروس ومعلميها ، وفي مراجعة واجباتهم .

وفي العطلة الصيفية انتميت إلى مدرسة المرحوم علي أفندي الخوجه الأهلية ، بناءً على رغبة أخي عباس لتعلم اللغة التركية .

في المدرسة الإعدادية

دخلت هذه المدرسة بعد تخرجي من المدرسة الرشدية ، وهي ذات سبعة صفوف ، وقُبلتُ في الصف الرابع منها .

كان مدير الإعدادية ، رجلاً تركيًا ذا أخلاق متينة وسيرة حسنة ، واسمه تحسين ، ومن المدرسين من كان من الضباط أو الأطباء العسكريين ، أذكر منهم القائم مقام(١٠) صبري بك ، والضابط خالد بك سليمان ، وقسم آخر من خريجي المدرسة الملكية في الأستانة(١١) : كنائل بك ، ومحمد علي الجلبي ، وشوكة بك ، والدكتور عرفان بك ،

---

(١٠) القائم مقام العسكري : العقيد .

(١١) الأستانة : عاصمة الخلافة العثمانية وكان لها أسماء أخرى مثل : القسطنطينية ، وإسطنبول أو إستانبول . وبعد انحلال الإمبراطورية العثمانية وقيام الجمهورية التركية الحديثة اتخذت مدينة أنقرة عاصمةً لها .

وجميل خياط ، وعلي أفندي الخوجة ، وعبد الله جميل ، والسيد يحيى الوتري وغيرهم . والظاهر أن الحكومة العثمانية قد اهتمت بمستوى هذه المدرسة باعتبارها الوحيدة في بغداد ، فخصصت لها هؤلاء الأساتذة المتميزين .

وأول من تخرج في هذه المدرسة سبعة ، أحدهم مسلم واسمه صالح محمد ، والستة الباقون من اليهود ، وهم : إبراهيم حيبم ، ومنشي ، وداود سمره ، وموشي ، وسلمان ونعيم زلخه . وفي السنة الثانية تخرج ثلاثة طلاب فقط ، هم : ناجي السويدي ، والأخوان اليهوديان منشي ويوسف . وفي السنة الثالثة تخرج اثنان فقط هما : أنا وزميلي صديق مظهر . وبعد ذلك أخذ المتخرجون يتزايدون على مر السنين .

دروسنا في الإعدادية كانت الحساب والجبر والعلوم الدينية والفيزياء والكيمياء والهندسة والحيوان والنبات والمعادن والماكنة والمثلثات والتاريخ واللغة الفرنسية وحسن الخط والرسم . كان جدول الدروس يبدأ من الثامنة صباحا وينتهي في الثالثة بعد الظهر ، ويتضمن درسين صباحا ودرسين بعد الظهر كما في المدرسة الرشدية .

إصراري على إكمال دراستي في إسطنبول

بعد أن قضيت في بغداد ، حياة طفولة وصبا سعيدةً جدًا ، صرت أتطلع لإكمال دراستي في إسطنبول ، وكان رفيقي في الدراسة صديق مظهر يتطلع إلى ذلك أيضًا .

وعند تخرجي ، فاتحت إخوتي برغبتي في السفر ، فرفضوا ذلك طالبين مني أخذ مسلك آبائي وإخوتي في تحصيل العلوم الدينية والعربية في بغداد . وأبديت إصرارًا عنيدًا على السفر حتى وإن تطلب مني ذلك الذهاب إلى إسطنبول مشيًا على الأقدام ، وأضربت عن الطعام وعن الاجتماع بإخوتي وانزويت في غرفتي ، وكان لذلك وقع كبير على أهلي فأخذوا يتداولون في ما عساهم فاعلون .

قام أخي عبد الرحمن (أبو صبيحة) يراسل أخي عباس (أبا عبد الله) في سامراء ، يشرح له حالي ويؤيد رغبتي في السفر . وأخذ أخي الأكبر رشيد يستخير الله في هذه المعضلة .

طرق سمعي في أحد الأيام حديث لعبد الرحمن مع أفراد من العائلة ، قائلاً لهم : «لقد استخرت الله في قضية عبد العزيز الليلة البارحة ، ورأيته في المنام وهو يصعد منبرا ، وبعد صعوده أربع درجات ، نزل منه وهو يحمل صندوقًا صغيرًا ناولني

إياه» . وقالت النسوة من أهل البيت : إن فلانة وفلانة ذهبا إلى جامع الست نفيسة ، فجاء (الترام) متوجهًا إلى الكاظمية وخلفه رجل يركض مسرعا ، وبعد جهد لحق به ، وهذا في عرفهم أن الفأل حسن وأن عبد العزيز سيلحق بقافلة السفر حتمًا .

فرحت كثيرًا بسماع حديث العائلة وتفاؤلها ، وقويَ أملي في السفر ، وتشجعت على الاستمرار في إضرابي . وبعد ثلاثة أيام طرق ببنا ساعي البريد وفي يده كتاب من أخي عباس . انتظرت أخي عبد الرحمن وهو يقرأ الرسالة حتى أكملها ، ثم التفت إلي يداعبني ضاحكًا وقال : «هيا البس ملابسك ورافقني للسوق لأجهز لك حاجيات السفر» .

وغمرتني هذه الكلمات بسعادة لا تنسى .

الفصل الثاني
الدراسة في إسطنبول

قافلة الرحيل

تعاقد أخي مع (المكاري[١]) حسين الركاع والمكاري المدعو (مسكين) وعكام[٢] . تضمنت القافلة أربعة عشر حصانًا وحمارًا واحدًا . خصص حصان لركوبي مع رفيقي صديق مظهر في محمل خاص متكون من حوضين مربعين من الخشب لا تغطيه مظلة ، وهو يشبه المحفة إلا أنه أصغر منها حجمًا . ورافقنا في القافلة تاجر إيراني وصيدلي ، كما صاحبنا المرحوم الحاج مصطفى آغا ، والد رفيقي صديق ، راكبًا فرسه الأصيلة . وخُصِصَتْ خمسٌ من الدواب لحمل أمتعتنا ، والبقية منها لنقل بضائع تجارية إلى حلب .

ودعنا الأهل والأصدقاء يوم السبت ١٦ حزيران ١٩٠١ ، وتحركت القافلة بنا ، متوكلين على الله ، إلى حلب . رافقنا في بداية الرحلة أخي عبد الرحمن ، والحاج عبد الوهاب القشطيني ، وأصدقاء من محلتنا كالسيد رؤوف عبد الفتاح ، ومحمود القطان وغيرهم ، راكبين خيولهم حتى منطقة (الوشاش)[٣] ، وبقي أخي السيد أمين مرافقًا لنا حتى الرمادي .

وصلنا إلى نقطة (أبو منيصير)[٤] عند منتصف الليل ، وفيها أول منزل على الطريق . أنزلت القافلة حمولتها وفرش لنا العكام وأحضر عشاءنا . وعند ذاك فقط استولى علي الندم وأخذت أفكر بوالدتي وإخوتي وعائلتي . كانت هذه أول مرة أترك

---

(١) المكاري : صاحب الدواب المستعملة للسفر (مجازي) بالعامية البغدادية .

(٢) العكام : من يقوم بإعداد الطعام للقافلة والإشراف على شؤونها الأخرى .

(٣) الوشاش : نهر عباسي قديم وسمي بنهر الخر أيضًا وهو ضمن بغداد حاليًا .

(٤) أبو منيصير : وفيه خان (النص) أي منتصف الطريق إلى الفلوجة ، ويبعد ٣٠ كيلومترًا غرب بغداد .

بها بغداد في سفرة طويلة شاقة ، معانيًا من محمل غير مريح أركبه لأول مرة . بكيت بصمت في ظلام الليل ، حذرًا من أن يسمع بكائي أحد ، خاشيًا من أن يشعر أخي أمين بحالي فيرجعني إلى بغداد . وأخذت أمد يدي إلى الطعام من غير أن أتناول منه شيئًا ، خوفًا من أن يعرف أفراد القافلة بأمري .

وعندما انبثق الفجر ، عاودنا المسير ، ووصلنا إلى (الفلوجة)[٥] ظهرًا . كان الطقس حارًا والشمس محرقة . وكان لنا هناك ابن عم اسمه محمد سعيد العبد الكريم ، رحمه الله ، ومعارف آخرون من جانب الكرخ ، أبدوا عجبهم لسفري وأنا صغير السن ، وأخذوا يلومون إخوتي . أجابهم أخي أمين : بأن سفري قد تم بناء على طلبي وإصراري ، وأنه وعائلتي جميعها لم تتمكنوا من إقناعي بالعدول عن قراري . كنت في قرارة نفسي أرى كثيرا من الصواب في رأيهم ، إلا أني تحاشيت بحث هذا الموضوع خشية أن يقرر أخي إرجاعي إلى بغداد .

تركت القافلة (الفلوجة) عصرًا ، وقضينا ليلة في الموقع المسمى (رايات) ، وبعدها مكثنا في (الرمادي)[٦] يومين كما هي عادة القوافل . وعند التهيؤ للرحيل ، أخذ أخي أمين يودعني قبل أن يقفل راجعًا إلى بغداد ؛ فلم أتمكن من السيطرة على شعوري وأجهشت بالبكاء ، فأخذ أخي يشجعني على الاستمرار ويؤيد فكرة سفري ، متمنيًا لي الخير والنجاح والعودة سالمًا .

سارت القافلة على بركة الله وأنا مغموم حزين أبكي على فراق الأهل ، وأخذ المكاري (مسكين) زمام حصاني وأخذ يسليني ويواسيني . قال لي : إنه من محلة (الجعيفر) ويعرف أهلي وأقاربي جميعا ، وإنه سيقوم بخدمتي وتسليتي عوضًا عنهم ، وسوف لن يتركني فريسةً للحزن والألم . أثر فيّ كلامه هذا وأزال الخوف عني ، وأخذت أتمتع بكلامه وحكاياته وغنائه العذب وهو يترنم بـ (العتابات)[٧] وأنساني الأهل والخلان .

كانت القافلة تتحرك عصرًا قبل غروب الشمس ، توقيًا من حرارة النهار ، وتحط رحالها بعد شروقها بقليل ، فيقوم العكام بنصب الخيمة ومد البسط والأفرشة

(٥) الفلوجة : مدينة على الفرات على بعد ٦٥ كيلومترًا غرب بغداد ، يرجع تأريخها إلى العهد السومري .

(٦) الرمادي : مركز محافظة الأنبار ، ١١٠ كيلو مترات غرب بغداد ، أسسها مدحة باشا .

(٧) العتابات : أسلوب من الغناء العراقي التراثي ، يغلب عليه الحزن .

والوسائد لننام حتى الظهيرة ، حين نجد طعامنا جاهزًا . كانت هذه هي وجبتنا الوحيدة ، هي الغداء والعشاء معًا ، هذا إذا استثنينا ما نتناوله من اللوز والفستق والزبيب أثناء سير القافلة .

وفي الطريق ، كان الحاج مصطفى آغا يرعانا بعنايته ويغمرنا بعطفه ، ويشرف على طعامنا ويشجعنا على المطالعة أثناء راحتنا بعد الغداء ، استعدادًا لامتحانات القبول في إسطنبول .

كانت للحاج مصطفى فرسٌ جميلة تتقدمنا في المسير ، أراد تقديمها هديةً للسلطان عبد الحميد ، غير أنه لم يوفق في نقلها على الباخرة وتركها في الإسكندرونة . كانت هذه الفرس شرسة عنيدة لا يتمكن غيره من ركوبها ، وطالما ضاق بها ذرعًا وأشهر مسدسه ليرميها ، فأسرع إليه لأمنعه من ذلك .

كان رفيقي في المحمل (صديق) أكبر مني سنا ، وأثقل وزنًا ، وكان العكام يضع في الجانب الذي أنا فيه وسائدَ إضافيةً حفظًا للتوازن ، وكان إذا نام رفيقي ، اختل التوازن ، فنسقط كلانا على الأرض مع محملنا ، وكل منا يلوم الآخر على حركة غير اعتيادية قام بها . وفي بعض الأحيان كنت أتعب من ركوب المحمل ، فأترك محلي ليركب الحاج مصطفى مع ولده وأرافق القافلة ماشيًا .

استغرقت سفرتنا إلى حلب ، أربعة وعشرين يومًا ، نسير ليلاً ونرتاح نهارا . قضينا يومين منها في كل من الرمادي ودير الزور ، لراحتنا ولراحة حيواناتنا وللتزود بالمؤونة .

والسفرة بمجملها كانت شاقة متعبة وممتعة في آنٍ واحد ، أكسبتنا خبرة فريدة ومفيدة .

في حلب

وصلنا حلب صباح يوم ٧ تموز ١٩٠١ ، ونزلت في إحدى خاناتها لعدم وجود فنادق فيها آنذاك . وذهبت إلى السيد محمد شريف المقيد ، صديق أخي عبد الرحمن ، وهو من التجار . عرفته بنفسي فرحب بي ورافقني لشراء ألبسة من أحد المخازن ، واخترت لي منها بذلة إفرنجية كانت أول ما اقتنيت منها في حياتي . أبدلت بها ألبستي البغدادية التقليدية من زبون وجبّة وطربوش .

مكثنا في حلب يومين ، ثم غادرناها مسرعين على ظهور الخيل إلى

الأسكندرونة ، سالكين الطريق الجبلي الوعر بغية اللحاق بالباخرة التي ستبحر بنا من هناك إلى إسطنبول . وفي حلب ودعت المكاري (مسكين) وكلي ألم لفراقه بعد أن سلاني طول الطريق وخفف عني فراق أهلي وإخوتي .

وصلنا الاسكندرونة بعد يوم ونصف ، بتنا ليلة واحدة منها في (ميلان) على رأس جبل الاسكندرونة . نزل رفاقي في أحد فنادق المدينة ، ونزلت أنا في بيت لعملاء أخي عبد الرحمن من التجار المقيمين فيها . كان الجو حارًا رطبًا ، وكان علينا الانتظار ثلاثة أيام قبل الإبحار إلى إسطنبول . وتركنا الاسكندرونة على متن باخرة تجارية ، توقفت بعد إبحارنا في جزر : (المني)[٨] و(مدللي)[٩] و(ساقز)[١٠] و(كريت) وجزر أخرى ، ولم نصل إلى إسطنبول إلا بعد تسعة أيام ، في ١٨ تموز ١٩٠١ . استغرقت سفرتنا منذ تركنا بغداد ، ستةً وثلاثين يومًا .

أيامي الأول في عاصمة الخلافة

تركت الباخرة وتوجهت مع رفاقي إلى فندق في(جمبرلي طاش)[١١] ، وفي صباح اليوم التالي أخذت أسأل عن مسكن خالي السيد سليمان أفندي (المفتي الاي)[١٢] ، المقيم إجباريًا في إسطنبول بأمر من السلطان عبد الحميد .

طلبت من زميلي في الدراسة الإعدادية ، اليهودي شاؤول جامجي ، أن يدلني عن كيفية الوصول إلى دار خالي في محلة الخاصكي ، فأجابني : بأنه يريد ليرة ذهبية أدفعها له مقدمًا قبل أن يلبي طلبي . قلت له : إن كل ما معي هو صك بعشر ليرات ، فطلب مني أن أصرف الصك أولاً ، واصطحبني إلى البنك في محلة (السركجي)[١٣] على بعد خمسة عشر ميلاً . تسلم الليرة قبل أن يرشدني إلى الترام ، طالبًا مني البقاء فيه إلى آخر الخط . ركبت الترام وحيدًا وكلي أسفٌ لتصرف

(٨) المني Limnos .

(٩) مدللي Mytilinos .

(١٠) ساقز Samos .

(١١) جمبرلي طاش : محلة في إسطنبول القديمة قرب جامع بايزيد والعمود البيزنطي .

(١٢) المفتي الاي : رتبة عسكرية دينية .

(١٣) السركجي : محلة بالقرب من قلعة توب كابي فيها محطة رئيسة للقطار ومرفأ .

هذا اليهودي الذي زاملني في الدراسة ثلاث سنوات .

وفي الترام لاحظت أن بطاقات الركاب متعددة الألوان ، وصرت أتابع الركاب الحاملين اللون المطابق لبطاقتي لأنزل معهم ، ومنعني الجابي مرتين من النزول حتى وصلنا محطة (آق سراي)(١٤) في آخر الخط . وعند وصولي أخذت أسأل أولاً عن محلة (خاص كوي) ، وضحك مني كل من سألتهم ، وقال لي أحدهم : «ولدي ، إن خاص كوي هي خارج إسطنبول ولعلك تسأل عن محلة الخاصكي؟» ، وأشار إلي باتجاهها ، ومشيت خمس عشرة دقيقة حتى دلني صاحب مقهى على دار خالي .

طرقت الباب وفتحته لي طفلة صغيرة بعمر عشر سنوات ، أخبرتها باسمي فأسرعت إلى داخل البيت ، وخرج علي شيخ بثياب النوم ، سألني : «هل أنت عبد العزيز؟» قلت : «نعم» . أخذ يقبلني وأنا أقبل يده ، وعاتبني لعدم إرسال برقية من الاسكندرونة ليكون مع أصحابه في استقبالي في الميناء ، واعتذرت له عن جهلي . ثم لبس ثيابه وأسرع معي بعربة إلى الفندق الذي نزلت فيه ، وعاد بي وبحاجياتي ، وخصص لي غرفة في الطابق العلوي من داره .

وفي أيامي الأولى في إسطنبول وصلتني رسالة من أخي عبد الرحمن ، أنشر نصها كمخطوطة ملحقة في آخر هذا الكتاب ، وتتضمن نصائح قيمة هي نموذج في أصالة الفكر وحسن الخط . ولي هدفان من نشرها : الأول : لفت أنظار أبنائي وأحفادي إلى ما ورد فيها من الوصايا السامية والتوجيهات القيمة . والثاني : رسم صورة قلمية لشخصية أخي عبد الرحمن الفريدة ، وما كان عليه من نبل القصد ونباهة الإرشاد .(١٥)

خالي المفتي سليمان الجبوري

كان السيد سليمان أفندي الجبوري(١٦) عالمًا تقيًا ، درس العلم في بغداد وتفقه فيها . دخل الجيش إمامًا وترفع إلى رتبة (مفتي الآي) ، وتنقل مع الجيش بين بغداد

---

(١٤) آق سراي : محلة القصر الأبيض وتقع قرب جامعة إسطنبول الحالية .

(١٥) راجع نص الرسالة في الصفحة ٣٠٢ (الملحق رقم ٦) .

(١٦) سليمان بن نصر الله بن محمد بن شفاعة بن خلف بن غافل الجبوري ، وهو خال والدة كاتب المذكرات .

وكركوك والسليمانية والموصل .

كانت الموصل آنذاك تسودها فتن واضطرابات يثيرها المتنفذون ورجال العشائر الكردية واليزيدية . وعينت الحكومة الفريق طاهر باشا ، واليًا وقائدًا فيها ، وكلفته بالإصلاح والتأديب . اعتز الباشا بالسيد سليمان وقربه وجعله مستشارًا له ومرشدًا للناس . وقاما معًا بتحقيق العدالة ومعاقبة المفسدين ، مؤكدين على تصميم الإدارة على تنفيذ الإصلاحات العامة بحزم ، واستتب الأمن . إلا أن ذلك لم يرق للعابثين الذين أخذوا يتربصون بهما الفرص للانتقام منهما .

وحانت لهم الفرصة عندما خطب السيد سليمان أفندي في يوم العيد في جامع نبي الله شيت عليه السلام ، وبعد أن دعا للسلطان عبد الحميد ، أثنى على إصلاحات الباشا الوالي ودعا له بالتوفيق والنجاح . استفاد الخصوم من ذلك ، فطيروا البرقيات إلى الباب العالي(١٧) محتجين على ذكر الخطيب اسم الوالي مقرونًا باسم السلطان . وعلى أثر ذلك ، صدرت الإرادة السلطانية بعزل الباشا من منصبه ، وأخذ السيد سليمان أفندي مخفورًا إلى إسطنبول حيث حوكم هناك . وقد استغرقت محاكمته سنتين ، كانت نتيجتها أن أحيل على التقاعد وفرضت عليه الإقامة الإجبارية في إسطنبول ، التي بقي فيها حتى وفاته . أما الوالي طاهر باشا ، فقد استغرقت محاكمته مدةً طويلةً أيضًا وأحيل بعدها على التقاعد .

وسليمان أفندي من العلماء النشطين ، كان خطيبًا جريئًا يحبه الأتراك عامة وأهالي الأناضول خاصةً . إذا ما دخل الجامع حمله المعجبون على الأكتاف إلى المنبر . وعند انتهاء خطبته انهالوا عليه يقبلون يديه يتباركون بها . وفي خطبه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، غير مبال بالسلطة السياسية وبعيون السلطان عبد الحميد التي كانت ترصده وتحصي عليه أنفاسه .

كنت أستمع إلى خطبه وهو ينتقد الأمراء والوزراء ، متطرقًا إلى سوء الإدارة والسياسة بلا محاباة أو مجاملة ، وأشرت عليه بالاعتدال وتجنب ذكر السلطان . كان يّرد علي : بأنه لا يخاف عبد الحميد ولا غيره من رجال الحكم ، وأن السلطان لا يتمكن من نفيه من إسطنبول إلى خارجها ، فإن أراد نفيه إلى سوريا تخوف من إثارته الناس لطلب الإصلاح والانفصال عن الدولة . وسوف ىن ينفيه إلى اليمن أو (الروم

(١٧) الباب العالي : بلاط السلطان في إسطنبول .

ايلي)[١٨] لأن الفتن والقلاقل مستعرة فيهما ولا يريد أن يزيد الطين بلة . والأناضول[١٩] منطقة آمنة وديعة ، فلن ينفيه إليها تفاديًا لأن يوجد معارضةً فيها . وأما العراق ، فقد سبق وأن أُبعد عنه تفاديًا للمطالبه بالعدالة والانفصال عن الدولة . كان يقول لي : «لا تخف علي يا ولدي فإن قبري سيكون هنا في إسطنبول ولن أخرج منها حيًا» . وهكذا كان ، فقد بقي فيها حتى فارق الحياة ودفن في مقبرة (يدي قلة) غريبًا مظلومًا ، عن عمر ناهز المائة سنة .

كان السيد سليمان رحمه الله عصبي المزاج ، شديد المراس ، سريع الغضب ، محبًا للجدل ، خطيبًا مفوهًا ومحترما لا يجاريه في ذلك أحد من زمانه ، مقنعًا بأحاديثه ووعظه .

وعندما كنت في داره ، كانت له ثلاث زوجات : إحداهن مريم خان آل كمال زاده ، المعروفين في كركوك ، وهي أم البنات . والثانية مقبولة خانم ابنة حامد أفندي الآلوسي ، من العائلة المعروفة بالعلم والصلاح والمؤلفات الدينية ، ولم يكن لها أولاد . وكانت له زوجة ثالثة في بغداد ، خلفت له ثلاثة أولاد ، هم : المرحوم محمد سعيد أفندي الذي اشتهر بالعلم ، وكان قاضيًا ومفتيًا في خانقين ثم مدرسًا في سامراء ، وكان محبوبًا من الذين يحضرون حلقاته الدراسية ووعظه ، والابن الثاني هو الملا نصر الله ، وكان إمامًا في الشطرة ، والثالث هو عبد الرحمن الذي التحق بأبيه في إسطنبول ومات فيها أيضًا .

التقديم إلى المدرسة الملكية الشاهانية[٢٠]

بعد أن استقر بي المقام في دار خالي ، صرت أدرس باستمرار استعدادًا لامتحان قبول المدرسة الملكية ، وقدمت أوراقي إلى نظيم بك ، معاون المدير ، الذي سجل اسمي وأعلمني بموعد الامتحان ومواده ، وهي : الطبيعيات والرياضيات واللغة الفرنسية . وعندما قدمت الامتحان مع رفيقي صديق مظهر ، أخفقنا كلانا ، والسبب هو أننا لم ندرس المثلثات والماكنة ، اللتين كانتا تدرسان في الصف السابع في

(١٨) الروم أيلي : المنطقة الأوربية من السلطنة العثمانية .

(١٩) الأناضول : شبه جزيرة آسيا الصغرى .

(٢٠) المدرسة الملكية الشاهانية : كلية رفيعة المستوى تجمع بين السياسة والقانون والإدارة .

الإعدادية . وعند ترفعنا لهذا الصف ، تغير منهج الدراسة وأصبحت تدرس في الصف السادس فحرمنا منها . وكنا قد راجعنا مديرية معارف بغداد ونظارة(٢١) المعارف ، طالبين تدريسنا هذه المواد ، ولم يلب طلبنا . كما شرحنا هذه الأسباب في أوراق امتحاناتنا من غير جدوى . وهكذا حرمنا من الدخول في المدرسة الملكية تلك السنة ، وأخذنا نبحث عن كلية بديلة مناسبة .

دخولي كلية الطب

أشير عليّ أن أدخل كلية الطب ، وقبلت فيها في ٣٠ أيلول ١٩٠١ ، وكانت آنذاك في محلة (قادرغة)(٢٢) . داومت فيها سنة كاملة ، درست فيها : الكيمياء والفيزياء والنبات والحيوان وعلم طبقات الأرض بصورة مفصلة ، أحببت منها درس الكيمياء أكثر من غيره . نجحت آخر السنة إلى الصف الثاني ، ومع ذلك فضلت التقديم مرة أخرى إلى المدرسة الملكية الشاهانية لأن الدراسة فيها ثلاث سنوات وفي الطبية خمس . وسعيت حثيثًا هذه المرة لامتحان القبول ، وتمكنت من الانتساب إلى المدرسة الملكية الشاهانية في السنة الثانية من وصولي إسطنبول .

في المدرسة الملكية الشاهانية

التحقت في هذه الكلية في آب ١٩٠٢ وتخرجت فيها في تموز ١٩٠٥ أي بعد ثلاث سنوات .

كان النظام في هذه المدرسة دقيقًا وقاسيًا للغاية ، والرقابة على الطلبة شديدة ، فلا يمكن للطالب دخول الصف والخروج منه كما يشاء ، بل بنظام عسكري صارم ، ولا يمكنه التغيب بلا وثيقة من والده ، كما لا يسمح له بإدخال الصحف والمجلات إلى المدرسة ، وإذا ما شوهدت معه يعاقب بأشد العقاب .

ورئيس المراقبين كان (روميًا)(٢٣) ، وهو مكلف بإعطاء درجة في الأخلاق والسلوك ، وبمراقبة الطلاب بدقة في الأروقة والحديقة والمطعم ، وكانوا يخافونه أكثر

(٢١) النظارة : الوزارة في إسطنبول .

(٢٢) قادرغة : محلة في وسط إسطنبول القديمة يخترقها شارع ديوان يولي الرئيس .

(٢٣) روميًا : أوربيًا .

من خوفهم من المدير والأساتذة .

والمواد التي تدرس ، هي : الإدارة والحقوق الدولية والأصول المالية والفقه والمجلة وعلم التفسير والكلام وقانون الأراضي والتاريخ العثماني واللغة الفرنسية وترجمتها وحسن الأخلاق .

كان الأساتذة من العلماء الممتازين في فروعهم ، منهم : أستاذ التاريخ عبد الرحمن شرف ، الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لمجلس الأعيان التركي ، وعلي حيدر أفندي ، أستاذ المجلة وشارحها ، وإسماعيل حقي أفندي ، أستاذ التفسير وعلم الكلام وصاحب المؤلفات العديدة ، ومصطفى نائل ، أستاذ الأصول المالية والاقتصاد ، وكان ناظرًا للمالية ، ومصطفى ذهني ، أستاذ الفقه وعضو مجلس المعارف الكبير ، وهو من مشاهير المؤلفين .

واستفدت من إرشادات أساتذتي وعلمهم وحسن أخلاقهم رحمهم الله جميعا رحمة واسعة .

رفاقي في الدراسة

كان عدد تلاميذ الصف الأول في الكلية ستة وأربعين تلميذًا ، أخص بالذكر منهم : عبد القادر بن الشيخ ظافر ، وأسعد البيروتي ، اللذين جمعتني بهما صداقة متينة ورفقة عزيزة في المذاكرة والتحضير للامتحانات طيلة أيام الدراسة ، وعرفت عنهما السيرة الطيبة والأخلاق العالية ، وتفرقنا مع الأسف بعد التخرج إلا أننا أدمنا المراسلات بيننا حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى .

كان عبد القادر ملازمًا لوالده الشيخ ظافر ، رئيس التكية الشاذلية ، الواقعة قرب سراي (يلدز) ، وعند وفاة والده اختير أستاذًا للغة العربية في جامعة كامبردج في إنكلترا ، وعند بلوغه سن التقاعد عاد إلى إسطنبول وتوفي فيها صيف عام ١٩٥٤ مأسوفا عليه ، رحمه الله رحمة واسعة .

وعند تخرج رفيقي الثاني أسعد البيروتي عُيِّن مأمورًا بمعيّة ولاية الشام . وبعد احتلال الفرنسيين لها نقل إلى بيروت واختارته الدولة المحتلة وزيرًا لداخلية لبنان ، ثم علمت فيما بعد أنه اغتيل لأسباب لم أعرفها ، رحمه الله رحمة واسعة .

كنت خلال مدة دراستي أبتعد عن مرافقة الزملاء الذين لا تروق لي سيرتهم ، وأتجنب الملاهي والمحلات المشبوهة ، أراجع دروسي وأسجل محاضراتي ، ساهرًا كل

يوم حتى الثالثة صباحًا ، كما إني لم أتغيب يومًا واحدًا مدة دراستي جميعها .

انتقالي من دار الخال

كانت دار خالي في محلة (الخاصكي) بعيدة عن كليتي التي تقع على شارع (ديوان يولي)[٢٤] ، خلف مقبرة السلطان محمود . وكان علي أن أمشي خمس عشرة دقيقةً في الصباح الباكر حتى أصل محطة الترام ، ثم من هناك نصف ساعة أخرى إلى الكلية ، وأرجع متعبًا عند نهاية الدوام ، هذا إضافةً لما يكلفني هذا التنقل من مصاريف .

ومن جهة أخرى ، كان الخال رحمه الله يطالع كثيرًا حتى ساعة متأخرة من الليل ، ويطلب مني الجلوس أمامه لأستمع إلى نصائحه وحكاياته وما صادفه من حوادث في حياته ، فيغلب علي النعاس وأنام أمامه ، وعندئذ فقط يأذن لي بالانصراف . وبالطبع ، كان ذلك يؤثر على دراستي كثيرا ويؤخرني عن مراجعة المحاضرات وتنفيذ الواجبات التي تفرضها الدراسة عليّ .

وبعد أن أقمت في داره سنة واحدة ، رجوته أن يسمح لي بالمغادرة والإقامة في دار قريبة من كليتي ، وشرحت له صعوبة تنقلي وتعرضي للبرد القارس والثلوج . كذلك أبديت له رغبتي في الزواج من ابنته الكبرى (نورية) لتتعهدني وترعاني في مسكني الجديد .

وبعد دراسة هذا الموضوع من جميع الوجوه ، وافق على طلبي وعقدنا الزواج ، وأخذت زوجتي ووالدتها (مريم خان) وأختها الصغيرة (نجيبة) إلى دار في محلة (لاللي)[٢٥] بشارع (إسطنبول جشمة سي) .

كانت هذه الدار تطلّ على بحر مرمره و(قوم قبو)[٢٦] من جهة ، وعلى حديقة

---

(٢٤) ديوان يولي : الشارع الرئيس في إسطنبول القديمة ، يرجع تاريخه إلى العصر الروماني ، ويبدأ من قلعة توب كابي ويمر بساحة بايزيد وجامعة إسطنبول ، وينتهي بباب توب كابي في السور غرب المدينة (باب المدافع) وهناك يتصل بالطريق الدولي القديم إلى أوروبا . وعلى هذا الشارع تقع معظم الدوائر الرسمية المهمة .

(٢٥) لاللي : محلة بالقرب من موقع جامعة إسطنبول الحالية .

(٢٦) قوم قبو : محلة من إسطنبول القديمة المطلة على بحر مرمرة .

غناء لدار كبيرة من جهة أخرى ، كانت مسكنًا للمهاجرين من بلغاريا ، وعلى بابها لوحة كبيرة من الرخام نقش عليها عبارة (فيها كتب قديمة) دلت على أنها كانت مكتبة عامة سابقًا . بقيت في هذه الدار سنتين ونصفا ولم أتركها حتى رجوعي إلى بغداد .

محاولة لاغتيال السلطان

طلبت من صديقي عبد القادر أن يأخذني لمشاهدة المراسيم التي تجرى للسلطان عبد الحميد أيام الجمع في الجامع القريب من قصر (يلدز)[٢٧] . ودار عبد القادر قريبة من الجامع ، وهو يعرف الطرق المؤدية إليه بصورة جيدة . وعند تخرجي أعدت الطلب كي لا تفوتني فرصتي الأخيرة لمشاهدة هذه المراسيم قبل أن أغادر إسطنبول . انتظرت عبد القادر ، يوم ٣١ تموز ١٩٠٥ ، ليأخذني للمراسيم من غير جدوى ، فأديت صلاة الجمعة وحدي في جامع «جمبرلي طاش» ، وتناولت بعدها الطعام في مطعم إيراني قريب ثم ذهبت إلى مقهى (آهزك) كعادتي .

وفي المقهى شعرت بجو غريب والناس يتبادلون الهمسات والإشارات . ولما أردت استجلاء الأمر جاءني القهواتي ، إسماعيل الإزميرلي ، وأسرّ إليَّ بأن قنبلةً قد ألقيت في (يلدز) بعد الصلاة ، شتتت موكب السلطان والحرس الملازم له وأدت إلى ضحايا كبيرة لا يُعرف عددها بعد . وأسرعت إلى بيتي حذرا ومتفاديًا رجال الأمن المنتشرين في كل مكان .

وفي صباح اليوم التالي ذهبت للمقهى نفسه لأطلع على الأخبار ، فوجدت تفاصيل الحدث تتصدر واجهات الصحف وتبشر بسلامة السلطان وتثني على شجاعته . ومما نشر : أن حاشية السلطان طلبت منه التريث عند الخروج من الجامع إلاّ أنه أصرّ وقال : «لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا» . وفي حكاية أخرى : أن السلطان قد تحدث إلى جمال الدين ، شيخ الإسلام ، وأطال كلامه نصف دقيقة أكثر من المعتاد . ولم يكد عبد الحميد يضع قدمه على عتبة العربة حتى دوى انفجار مروّع اهتزت له

---

(٢٧) يلدز : (وتعني النجم بالتركية) وهو موضع قصور سلطانية متعددة على قمة تل يشرف على البوسفور وعلى قصر جراغان ، محاطة بحدائق واسعة . طور هذه القصور وأضاف عليها السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) .

أرجاء (يلدز) ، فبسط الموت ظلاله على ساحة المراسيم وانتشر دخان كثيف وتناثرت الأشلاء البشرية والحيوانية هنا وهناك ، وتحطم زجاج نوافذ الأبنية المجاورة ، واستولى الرعب على السلطان وحاشيته . وعندما انقشعت سحابة الدخان كان المنظر رهيبًا ومخيفًا ومؤلمًا ، وعربة السلطان محاطة بمئات الجنود الشاهرين سيوفهم وكأنهم في عرض لرواية مفجعة .

ذكرت الجرائد التركية أن الانفجار قد نكب ثمانين عائلة وأربعمائة شخص . قتل من الأهالي والجنود ستة وعشرون وجرح ثمانية وخمسون ، كما قتل اثنا عشر رجلاً من الشخصيات التركية البارزة ، ومات الكثير منهم بتمزق القلب من شدة الانفجار ، وقتل كذلك سبعون من الخيول ، ودمرت اثنتان وثلاثون عربة .

قالت جريدة (الطان) الباريسية : إن القنبلة كانت تزن خمسة عشر كيلو غرامًا . ووصف مراسل صحيفة (فرانكفورتز سايتونغ) الألمانية هذا الحادث بقوله : «لو تأخر انفجار القنبلة نصف دقيقة لقتل السلطان وأولاده وحاشيته جميعًا» ، وأن الانفجار قد وقع على بعد خمسين مترًا من عربة السلطان . وقال لنائب الإيطالي (ايرللودوا) : «لقد حضرت تجربة المدافع الثقيلة مرارًا ولم أسمع صوت انفجار قوي كهذا الانفجار» .

من كان وراء المؤامرة

شك عبد الحميد أولاً في وليّ عهده رشاد فسجنه في قصر (جراغان)[٢٨] ، واحتج هذا وهدد بالاستعانة بالدول الأجنبية .

وعزت بعض الصحف هذا الحدث إلى عداء الأرمن الشديد للسلطان ، وبصورة خاصة أعضاء الحزب الأرمني القومي (ناشنا تسيون)[٢٩] .

---

(٢٨) جراغان : قصر منيف على ساحل البوسفور ، بناه السلطان عبد لعزيز (١٨٦١-١٨٧٦) ، يبعد عن دولمة بغجة بكيلومتر واحد . بناه المهندس (بالايان) أيضًا ، واحترق في بداية القرن . أعيد بناؤه حديثًا ليصبح أكبر فندق في إسطنبول وأحسنها .

(٢٩) الأرمن والدولة العثمانية : اندلعت في القرن التاسع عشر وبداية لقرن العشرين عدة ثورات أرمنية ، ذات طابع قومي في شرق الأناضول . وقام مثلها وعلى نطاق أبسط ، الآثوريون والأكراد ، وقامت ثورات مماثلة ضد الإمبراطورية الروسية من قبل الجاجان والداغستان والجركس في قفقاسيا . ==

لم يستطع المحققون الكشف عن المؤامرة في بادئ الأمر، حتى احتجزوا أرتالاً من الشباب الأرمني كان من بينهم (زوريس) البلجيكي، رفيق (كريستابور) زعيم الحزب، وتمكنوا من انتزاع اعتراف منه باشتراكه في المؤامرة، إلا أنه لم يعترف باشتراك غيره إلا الذين قتلوا في الحادث. وكان المتآمرون قد خططوا قبل ذلك لاغتيال عبد الحميد داخل قصر (يلدز)، إلا أن ذلك كان مستحيلاً لوجود احتياطات أمنية كبيرة حوله.

دخل (كريستابور ميكائليان) إلى إسطنبول بجواز سفر ألماني مزور وباسم مستعار هو (صاموئيل فاين)، وبصحبة شخص اسمه (زوريس) مع سيدة تدعى (روبينا)، ورجل ألماني وآخر يوناني، وكلهم حاملون هويات مزورة وبهيئات تنم على ترف وجاه، وكأنهم من الشخصيات الدبلوماسية الأجنبية البارزة. كانوا يدخلون ساحة المراسيم في (يلدز) كل جمعة ليدرسوا تفاصيل المراسيم، من خروج السلطان من القصر وركوبه العربة حتى صلاته في الجامع والرجوع منه. وفات على رجال الشرطة الاشتباه بهم وهم بملابسهم الأنيقة وعرباتهم الضخمة وهوياتهم المزورة.

فرّ (كريستابور) ورفاقه إلى (غلطة سراي)[٣٠] وأبحروا بباخرة كانوا قد حجزوا عليها مسبقا تحركت بهم إلى أوربا بعد ساعتين فقط من الانفجار.

نجاتي في حادثة (يلدز)

بينما كنت جالسًا في المقهى في اليوم التالي ليوم الانفجار، جاءني عبد القادر ظافر وأسعد البيروتي يهنئاني على سلامتي. قالوا: إنهما حضرا إلى المقهى يوم الخميس ليدعواني يوم الجمعة لتناول الغداء في دار عبد القادر، ولمشاهدة موكب السلطان بعد ذلك من محل قريب فلم يجداني، وتركا لي بطاقة الدعوة عند القهواتي

== وكانت جميع هذه الحركات موضع اهتمام وتشجيع من الدول المحيطة بالمنطقة وخارجها، أدت إلى مأس إنسانية كبيرة وهجرة وتشتت سكان هذه المناطق، أهمها ما أصاب الأرمن إبان الحرب العظمى الأولى.

(٣٠) غلطة سراي: محلة تقع على الساحل الشمالي للقرن الذهبي، فيها فنار لتوجيه الملاحة بني في عصر مملكة بيزا الإيطالية. والمحلة خاصة بالمسيحيين من بقايا الإمبراطورية البيزنطية. وهي على رأس جسر غلطة :Galata.

إسماعيل ، ثم انتظراني للغداء حتى يئسا من حضوري ، فاكتفيا بتناول الطعام ولم يخرجا لمشاهدة الموكب لأنهما سبق وأن شاهداه مرارًا فلو كنت قد تسلمت الدعوة لوقفنا جميعًا نشاهد الموكب من محل قريب من الانفجار .

وجاءني القهواتي مهرولاً معتذرًا عن نسيانه تقديم بطاقة الدعوة لي ، وحمدنا الله على سلامتنا جميعًا .

الأيام الأخيرة في إسطنبول

تخرجت في المدرسة الملكية الشاهانية ، في أول تموز ١٩٠٥ ، وقدمت طلبًا لتعييني بمعية ولاية بغداد . أجابني محاسب الوزارة ، وكان كريم العين ، بعدم وجود شاغر في الملاك . وبعد أربعة أيام من تقديم طلبي فهمت من رئيس الفراشين[٣١] أن القضية تتطلب بذلاً! وقال : عليك أن تأخذ إحدى الرتب السنية من الدرجة الثالثة أو الثانية ، وأنه مستعد لمساعدتي مقابل خمسين ليرة . أجبته : «إني قررت وعاهدت نفسي منذ كنت طالبًا في المدرسة أن لا أرشي ولا أرتشي ، ولا أسمح لأحد أن يرتشي بواسطتي ، وإني لست بحاجة لهذه الرتب» . واستهزأ بي الفراش قائلاً : «انتظر دورك إذًا» .

وفي يوم آخر ، دخلت على المحاسب من غير علم الفراش ، وبينت له أني عراقي مرت عليّ أربع سنوات ونصف وأنا بعيد عن أهلي وبلادي ، وأرغب في العودة إليها الآن . قال : «توجد لدينا وظيفة معّية تشغر في (قسطموني)[٣٢] بعد خمسة أشهر فهل تقبلها؟» ، قلت : «نعم» ، وأخذ يحرر الكتاب الرسمي مشترطًا عليّ أن أرسل له من بغداد مسبحة من نوع (درنجف) وعباءة نسائية من الصنع المحلي ، طلب ذلك مازجًا الجد بالهزل .

وعند تقديم مسودة الكتاب إلى مدير الحسابات ، طلبني للدخول إليه وأجلسني أمامه ، وأخذ يسألني عن بغداد مركز الأولياء الصالحين وسرته معلوماتي كثيرًا . كان المدير هذا ذا لحية طويلة وعمره ينوف على ستين عاما ، وعندما قرأ الكتاب أرسل على المحاسب الأعور فدخل عليه بتأدب زائد ، وصاح بوجهه قائلاً : «لدينا شاغرٌ في ولاية

(٣١) الفراش : الآذن .

(٣٢) قسطموني : Kastmonu مدينة تركية جنوبي البحر الأسود ، فيها قلعة بيزنطية .

(أدرنه)[٣٣] فلماذا لا تعطيها لهذا البغدادي وتعده بوظيفة في (قسطموني) بعد خمسة أشهر؟» . أخذ المحاسب يتذلل ويتعذر ، ثم أمره ، قائلاً «خذ هذه المسودة وأبدلها بوظيفة (أدرنه) الشاغرة ، وانقل الملاك منها إلى بغداد» .

لم تمض عشر دقائق حتى وِقع الكتاب وطلب مني المدير أن لا أنساه في الدعاء في العتبات المقدسة ، وفي مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، ولم يطلب مني شيئًا غير ذلك ، وشكرته على معروفه هذا . علمت بعدئذ أنه كان (دفتر دارًا)[٣٤] سابقًا في بغداد .

والتقيته مرة أخرى عند رئيس الكتّاب في النظارة ، وأخذني إلى غرفة تتوسطها منضدةٌ كبيرة عليها الكتب المقدسة الثلاثة ، وعلى جدرانها لوحات كبيرة كتب عليها آيات قرآنية وأحاديث نبوية في معنى الأمانة والعدل والصدق والاستقامة . أعطاني لوحة صغيرة كتب عليها القَسَم الرسمي . قرأت القَسَم وأنا أرتجف من هول الموقف ، وعند انتهائي أخذ يهنئني بوظيفتي الجديدة ، ثم قدمني إلى الناظر ممدوح باشا الذي أخذ يرشدني إلى العدل والاستقامة والعمل الحسن ، ووقع كتاب تعييني أمامي وبارك لي . كان تأريخ الكتاب ١١ آب ١٩٠٥ ، ورقمه ٧٧ والوزير موقع عليه تحت عبارة (هم نام شده ممدوح) وخرجت من الوزارة فرحًا مسرورًا .

وقبل مغادرتي إسطنبول ، طلبت من نظارة المعارف الموافقة على قيامي بالتدريس في الإعدادية في بغداد في مادة الكيمياء أو غيرها ، إضافةً لواجباتي في المعية ، وتركت إسطنبول قبل انتظار الجواب .

وداعًا لإسطنبول

صعدت الباخرة (حاجي) صباح الجمعة ١٩ آب ١٩٠٥ ، وهي راسية في مرفأ (سركجي) مستصحبًا زوجتي ووالدتها ، والخال سليمان أفندي يقبلنا ويكفكف دموعه ، وتحركت بنا ببطء حتى تلاشت إسطنبول الجميلة تدريجيًا خلف الأفق البعيد .

---

(٣٣) أدرنة : اسمها القديم (هادريان بولس) على اسم الامبروطور البريطاني هادريان ، والمدينة تقع على الحدود التركية-البلغارية .

(٣٤) الدفتر دار : مدير الحسابات وهي مكونة من كلمتين دفتر العربية ودار الأعجمية بمعنى صاحب .

انطباعاتي عن إسطنبول

كانت المدينة في عهد السلطان عبد الحميد واسعة كبيرة ، شيد معظمها على تلال مرتفعة تشرف من الجنوب على بحر مرمرة ومن الشرق على مضيق البوسفور ، الذي يصل البحر الأبيض بالبحر الأسود . ويقع القسم الأكبر من المدينة في قارة أوربا والقسم الأصغر في آسيا . يتفرع من مضيق البوسفور خليج ضيق كالنهر يسمى (القرن الذهبي) يقسم الجانب الأوربي إلى قسمين : أحدهما إسطنبول القديمة ، موقع الدوائر الرئيسية في الإمبراطورية العثمانية ، وهو القسم المحصور بين القرن الذهبي والبوسفور وبحر مرمرة ، والقسم الثاني وهو الأكبر ، يقابل الساحل الغربي لشبه جزيرة الأناضول .

تظهر المدينة للزائر بجمال رائع ، فموقعها الجغرافي الفريد وأثارها الخالدة وقباب جوامعها الزرق المحاطة بمنائرها المدببة ، ترك في ذاكرتي صورة خلابة لم يرق إليها أي انطباع عن المدن الكثيرة التي رأيتها في حياتي .

يخترق المدينة القديمة (ديوان يولي) شارعها الرئيس المزدحم ليلاً ونهارًا ، وعليه تقع أهم الأبنية الحكومية : كبناية (الصدارة العظمى) أي : رئاسة الوزراء ، ووزارات الخارجية والداخلية والعدلية والمعارف والمالية والأوقاف و(سر عسكر) أي : الحربية ومجلس شورى الدولة والمدارس الرسمية الكبيرة .

بلغ عدد نفوس إسطنبول في عهد عبد الحميد عام ١٩٠١ مليوني نسمة ، لأنها عاصمة الخلافة الإسلامية ، يؤمها الناس من جميع أرجاء الدولة العثمانية الشاسعة : كالعراق وسوريا وفلسطين ولبنان والحجاز واليمن وليبيا والروم ايلي وولايات الأناضول . وشوارع إسطنبول تعج بالناس ، تغطي العمائم البيض معظم رؤوسهم ، ويعتمر الـ(فيس) أي : الطربوش الأحمر رؤوس الآخرين من الذين يلبسون (البنطلون) . والحجاب عام عند النساء المسلمات ، ويرتدين (الإزار) المسمى (جرجف) ، والمتكون من قطعتين : العليا تستر الرأس حتى الخصر ويسمى (بله رين) والسفلى ، وهي الأكبر ، وتسمى (أتك) .

والنساء يلزمن بيوتهن لا يتركنها إلا لقضاء الأعمال الضرورية أو للتنزه في الأيام الخاصة والأعياد ، حيث يخرجن جماعات جماعات بتظاهرة ملفتة للنظر ، وهن بـ(جراجفهن) الجذابة ، حاملات (الشماسي) أي : المظلات الملونة فوق رؤوسهن لتقيهن أشعة الشمس . ولباس المرأة في بيتها بسيط جداً لا يتعدى الـ(ايتاري) أي :

الـ(دشداشة) أو الجلباب ، ويغطي البعض رؤوسهن بطرحة تسمى (يشماغ) مصنوعة في الغالب من الخام الشفاف البراق (تلبند) .

كان في عاصمة الخلافة ما يقرب من مائة ألف من طلاب العلوم الدينية والفقهية والتطبيقية ، هذا غير الطلاب المنتسبين للمدارس العسكرية والملكية . وأكثرهم موزعون على الأقسام الداخلية في المراكز الدينية لا يغادرونها إلا في أيام الجمع والأعياد . وتعقد الحلقات الدراسية عادةً في الجوامع الكبيرة ، كجامع الفاتح والسليمانية وبايزيد وغيرهما . ويقوم طلاب المدارس الدينية بالتدريس والوعظ في الأقضية والقرى أثناء عطلتهم في شهر رجب وشعبان ورمضان من كل سنة .

كان السلطان عبد الحميد يرعى الجوامع والتكايا والمدارس الدينية بصفته خليفة المسلمين ، أتته الخلافة من السلطان العثماني سليم الأول(٣٥) ، الذي تنازل له الخليفة محمد المتوكل على الله الثالث آخر الخلفاء العباسيين في مصر سنة ١٥١٧م .

والحياة في إسطنبول كانت مترفة ، فالمواد الغذائية من خضراوات وغيرها متوافرة ، ترد إليها من الضواحي ومن الدول المجاورة ، والأهلون يتمتعون بعيش رغد ، والأسواق تحتوي على كل ما يلزم الناس من مأكل ومشرب وملبس ولوازم بيتية ، وهي تتنقل من منطقة إلى أخرى كل يوم . هذا إضافة إلى الباعة المتجولين على البيوت .

وكانت الشوارع تنار بالغاز السائل (هواء غازي) ، والمياه توزع على مخازن خاصة في محلات السكن ، ينقل منها السقاة الماء إلى البيوت . والناس تتنقل بالترام الذي تجره الخيول ، وينتقل البعض الآخر منهم بالعربات أو على ظهور الخيول المطهمة أو الحمير والبغال . ولعبور القرن الذهبي كان هناك جسران ، أحدهما حديدي والآخر خشبي قديم ، يدفع من يعبر عليهما رسمًا قدره ربع القرش الصاغ .

ودور إسطنبول مشيدة من الأخشاب على هياكل من حجر ، تخوفًا من الزلازل المتكررة التي دمرت الكثير من بيوتها وعماراتها . والدور الخشبية معرضة للحرائق الكبيرة التي كانت تلتهم المحلات الواحدة تلو الأخرى ، وتكاد لا تنقطع ، وقد خصص لمكافحتها فرق متطوعين من الأهالي مع عربة تحمل مضخة ماء يدوية . وكان

---

(٣٥) سليم الأول : تاسع سلاطين آل عثمان ، اشتهر باسم (ياوز سلطان سليم) . دحر جيش إسماعيل الصفوي في إيران . ثم دحر السلطان (طومان باي) سلطان المماليك في مصر ، فنزل له الخليفة محمد المتوكل على الله الثالث عن الخلافة . و(ياوز) كلمة تركية معناها الشجاع .

من المألوف أن ترى هذه الفرق تركض في الشوارع والأزقة وهي تصرخ (يانغون وار - يانغون وار) أي : يوجد حريق ، يوجد حريق . وفي الليل يلوحون بفوانيسهم (الفنار) في الهواء محذرين الناس ، طالبين منهم المشاركة في عمليات الإسعاف وإخماد النار .

وفي مجال الترفيه ، لم يكن في عام ١٩٠١ سوى (تياترو) أي : مسرح شرقي واحد ، ومسرح للتمثيل ، وآخر خاص بـ (القره قوز) أي : الدمى .

اهتمت الحكومة العثمانية آنذاك بتحقيق الأمن والاستقرار ، فنشرت رجال أمنها وعيونها في كل موقع للمحافظة عليهما . وما إن بدأ القرن الحالي حتى تدهورت الأحوال السياسية العامة فأخذت تنذر بالخطر ، واشتدت معارضة رجال حزب الاتحاد والترقي لحكم السلطان عبد الحميد ، ثم هرب معظم أعضاء الحزب إلى فرنسا ومصر تفاديًا للتعقيب والمراقبة . وهناك الأرمن أيضًا المعادون للسلطان ، هذا بالإضافة إلى العلاقات المتوترة مع الدول المجاورة ، وبصورة خاصة دول البلقان كاليونان وبلغاريا .

ولم يرق للسلطان وحاشيته زحف القوات التركية المرابطة في سالونيك على إسطنبول عام ١٩٠٨ ، وفرضها الدستور والمجلس النيابي عليه . كانت سالونيك في ذلك الوقت مقرًا لحزب الاستقلال ، ولليهود (الدونمه) تأثير كبير عليه . وقد تم خلع السلطان في السنة التالية ، عام ١٩٠٩ ، وحل محله السلطان محمد رشاد ، أخوه وولي عهده .

إسطنبول بعد خمسة وأربعين عاما

فوجئت عند زيارتي الثانية لإسطنبول عام ١٩٤٦ بالتغيرات الكبيرة التي طرأت عليها منذ أيام دراستي فيها . فقد انخفض عدد السكان من المليونين إلى نصف المليون بعد انتقال العاصمة إلى أنقرة . وخلا شارعها الرئيس (ديوان يولي) من بنايات الوزارات والدوائر الحكومية المهمة .

لمست أثناء زيارتي ، تقديس القسم الأعظم من الأتراك لزعيمهم مصطفى كمال وترحمهم عليه . ورأيت أن الحق معهم ، فالرجل قد أنقذ البلاد من المستعمرين الأجانب ، وقاد بكفاءة الجيوش التركية وقوات المقاومة وحرر تركيا من الجيوش الإنكليزية والفرنسية واليونانية ، التي كانت قد احتلت إسطنبول وإزمير وإزميد وبورصة واطنة وماردين وقونيه ومناطق كثيرة أخرى . قاتل الأتراك بقيادته الفذة بعزم وثبات لا يوصفان ، وحققوا النصر على الرغم من تفوق القوات المحتلة بالأسلحة والذخائر ، وقاتل

الجندي التركي وهو لا يحمل غير حربة أو حتى إن كان أعزلَ من السلاح ، وتكبدت القوات اليونانية بصورة خاصة خسائر فادحة وانسحبت من ازمير وازميد عام ١٩٢٣ ، فتمكن مصطفى كمال من تأسيس جمهورية فتية عصرية مستقلة .

وبعد خمسة وأربعين عاما كانت مظاهر التقدم واضحة للعيان في حياة السكان وفي العمران . فالشوارع تنار بالكهرباء ، والماء يوزع بالأنابيب للبيوت ، والجسور الضخمة تمر فوق القرن الذهبي وفوق مضيق البوسفور لتربط أوربا بآسيا ، وتغير أسلوب بناء الدور من الأخشاب إلى الطابوق والأسمنت ، فقلت بذلك الحرائق .

اتجهت تركيا الحديثة نحو الغرب ، فاختفت العمائم البيض وأبدلت بالقبعات ، ولم أرَ عمامة واحدة ، حيث مُنع استعمالها رسميًا إلا للأئمة عند وجودهم داخل المسجد وأثناء قيامهم بالصلاة فقط .

أحيل الجامع الكبير (آيا صوفيا)(٣٦) إلى متحف ، وهو في الأصل كاتدرائية بناها القيصر (جوستانيان) سنة ٥٢٧-٥٦٥م ، وكانت جدرانها مزينة بالصور والأيقونات . وعندما فتح محمد الثاني القسطنطينية عام ١٤٥٣ غطاها بالجص وأحالها إلى جامع .

وفي عهد أتا تورك ، أبدلت الكتابة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ، وكان لذلك أثر سلبي أدى إلى ابتعاد الأتراك عن تراثهم الثقافي ، وأهملت الكثير من الكتب القيمة المدونة بالخط العربي ولم تجد من يقرؤها ، وبيع أكثرها في أسواق القاهرة والعواصم العربية الأخرى بأثمان زهيدة لا تزيد على ثمن الورق الذي كتبت عليه .

واختفى كذلك الحجاب ، ما عدا في القرى النائية ، وأصبحت النساء سافرات ، وأصبح من المعتاد رؤيتهن يشاركن الرجال في المسابح على الساحل ، بعد أن كانت لهن مسابح خاصة معزولة في العهد العثماني .

وليس غريبًا أن يكون هناك الكثير من الناس في تركيا الحديثة ممن استهجنوا هذا الاتجاه الغربي ولم يستوعبوه والتزموا بتراثهم القديم .

---

(٣٦) ايا صوفيا : كاتدرائية (حاجيا صوفيا) أو الحكمة المقدسة ، وكانت أكبر كنيسة في العالم المسيحي في القرن السادس . بنيت قبل كنيسة القديس بطرس في روما بألف عام . كان لدخول فرسان السلطان محمد الفاتح فيها أثر تاريخي كبير .

القسم الثاني

الخدمات الإدارية في العهد العثماني

الفصل الثالث
العودة إلى بغداد

الطريق إلى حلب

تركت إسطنبول على ظهر الباخرة (حاجي) ، وكان في الغرفة المجاورة لغرفتي رجل أفغاني الأصل روسي التبعية اسمه ، الحاج أحمد . وكان طويل القامة ، كبير الهامة ، محبًا للمزاح ، ويبدو أنه في الستين من عمره . عرفت منه أنه من تجار السجاد والشاي المعروفين .

وفي أحد الأيام ، وبينما كنت في الممر الخارجي للباخرة أتوضأ استعداداً لصلاة الصبح ، دفعني أحد اليهود الأسبان ، وكان منهم الكثير في الباخرة ، وضربته فصرخ بلغته الإسبانية وتجمهر رفاقه حولي وحملوا علّي ، وقبل أن يمسوني انتبه الحاج أحمد وهجم عليهم يضربهم بذات اليمين والشمال ونكل بهم تنكيلاً . وقد بلغ الغضب منه حدًا مخيفًا خشيت عواقبه عليه فأخذت أهدئه وأسترضيه ، وساعدني على ذلك ربان الباخرة .

وعند وصولنا أزمير ، شكا الحاج أحمد من ألم في أسنانه فأخذته إلى الساحل . أرشدنا أحد الدلالين إلى طبيب كان من خيرة أطباء البلدة . استقبلنا هذا بحرارة وأدخلنا غرفة عملياته وكانت ممتازة لم أر مثلها في إسطنبول . قرر الطبيب قلع سنّين وتنظيف الباقية من المواد السود المتراكمة عليها نتيجة لكثرة الشاي الذي يشربه الحاج أكثر من الماء . طلب الطبيب أربعة (مجيديات)[١] ثمنًا لأتعابه ، ووافق الحاج على ذلك . وعندما أنهى الطبيب عمله بنجاح ، قلت لصاحبي : «ادفع الأجور وهيا بنا» ، وإذا به يمتنع عن الدفع ويجيبني بالتركية ما معناه : «هم أسنان ماكو ، هم أربعة مجيديات!» . قلت له : «هذا يخالف ما اتفقنا عليه وهذا عيب علينا» . لم يأبه الحاج

(١) المجيدي : قطعة نقود عثمانية فضية تساوي في عملتنا العراقية اليوم مائتي فلس .

لقولي واستمر في رفضه ، فلم أجد حلاً إلا أن أدفع الأجور عوضًا عنه . وتركنا العيادة والحاج يصيح ويكرر بصوت عال : «أسنان ماكو ، أربعة مجيديات ماكو» ، وشعرت بالخجل أمام الناس وحاولت إسكاته والابتعاد عنه .

وعند وصولنا الباخرة ، دخلنا غرفته فدفع لي المجيديات الأربعة ، وقال : إنه كان يمازحني . ثم سألني إن كان من الممكن مساعدته في رفع إحدى حقائبه ووضعها على الرف . حاولت ذلك ولم أتمكن من رفعها لثقلها . ضحك الحاج مني ورفعها بسهولة ، ثم فتحها وإذا هي مملوءة بليرات ذهبية لا يمكن عدها ، وبدأ الحاج أحمد يحدثني عن ثروته وتجارته والمحلات الكثيرة التي يملكها في مصر وغيرها ، وكيف أنه في طريقه الآن لتفقد هذه المحلات .

وعندما رَسَتْ الباخرة بنا في (مرسين) ، رغبت أن أخرج إليها بصحبته ، ونزلنا إلى القارب معًا . وقبل نزولنا طلب منا ضابط الشرطة جوازاتنا ، فأجابه الحاج أحمد : «باسبورت يوق» أي : (لا يوجد) . وعبثًا حاولت إقناع الضابط أن الحاج يحب المزاح وأن لديه باسبورت ، وأخذ الحاج إلى الساحل معتقلاً وأودعه قفص التوقيف . وبعد إلحاحي ، أعطى الحاج باسبورته للضابط فأدرك آنذاك أنه كان يمزح وصار الكل يضحك . واستمر الحاج يتجول في المدينة وهو يصيح : «باسبورت يوق» ، ورجع إلى الباخرة وهو لا يزال يصرخ : «باسبورت يوق . . باسبورت يوق . .»

وصلت الباخرة الإسكندرونة يوم السبت ٢٧ آب ، أي بعد مرور خمسة أيام من مغادرتنا مرسين . وقبل تركي لها ، بحثت عن جاري الحاج أحمد الذي أخذ يدور حول الباخرة هاربًا من توديعي والركاب يتابعونه ضاحكين ، ورجوتهم أن يمسكوه . وعند توديعي له أخذ يبكي بحرارة متألمًا لفراقي ، ودعا لي بالتوفيق والسلامة .

حلب ثم بغداد

استأجرت عربة لتقلني مع عائلتي وتركنا ميناء الإسكندرونة إلى حلب ووصلناها في العاشرة من مساء الاثنين ٢٩ آب ١٩٠٥ . نزلنا عند وصولنا في فندق إسطنبول ، الفندق الوحيد في المدينة . وأبى صديقنا القديم الحاج محمد شريف المقيد إلا أن يضيفنا في داره في اليوم التالي . بقينا عنده عشرة أيام ، قضيناها في الاستعداد للسفر إلى بغداد .

وفي أحد هذه الأيام ، وبينما كنت أتجول في المحلات التي يقيم فيها المكارون

القادمون من بغداد ، شاهدت (مسكين) ، الرجل الذي صاحبنا في سفرتنا من بغداد إلى حلب ، جالسًا في مقهى على قارعة الطريق . وفرحت لرؤيته كثيرًا ووخزته بعصاي ، قائلاً له بالتركية : «لماذا تجلس على قارعة الطريق؟» ، فأجابني معتذرًا وخائفًا من لهجتي القاسية ، ثم سألته بالعربية فيما إذا كان يعرفني فأجاب بالنفي وهو يرتجف . عرفته بنفسي وعانقته ، وأخذ يقبل يديّ ويرقص فرحًا . جلستُ معه في المقهى ، وجاء المكارون الآخرون يسلمون عليّ ، وكان أكثرهم من جانب الكرخ في بغداد .

سألت (مسكين) عن عدد الدواب في قافلته ، فأجاب : بأن لديه أربعة خيول وحمارًا واحدًا ، وأنه قد اتفق مع بعض التجار لنقل بضائعهم إلى بغداد وأنه مستعد للرجوع عن هذا الاتفاق ليكون في خدمتي . رفضت اقتراحه شاكرًا عواطفه وكريم شعوره . قال لي (مسكين) : إنه لم يعد إلى حلب منذ تلك السفرة معي ، لأن طريقها متعبة لخيوله ، ويرجح الآن المسافات القصيرة كطريق بغداد - كربلاء .

وبعد استشارة مسكين ورفاقه ، استأجرت أربعة خيول و(محفة) ، وهي تشبه الغرفة الصغيرة أو صالون السيارة ، مصنوعة من الخشب المدهون بالألوان الذهبية البراقة وفي جوانبها الأربعة نوافذ من الزجاج وباب واحد ، وفي داخلها فرش مناسب لشخصين . يحمل المحفة حيوانان ، واحدٌ من الأمام والآخر من الخلف ، وهي مريحة أثناء السير على الرغم من تمايلها الكثير . اشترينا كذلك خيمة واسعة ، واستخدمنا عكاما ليقود (التختروان)[٢] وعكاما آخر للطبخ والخدمة .

غادرنا حلب يوم السبت ٩ أيلول ١٩٠٥ يرافقنا مدير كمرك البصرة ، وهو رجل تركي محترم اغتيل فيها في وقت لاحق ، وتاجران إيرانيان وصيدلي . واختارتني هذه المجموعة لإدارة القافلة في حلها وترحالها .

اعتادت القافلة السير مساءً ، مستفيدةً من برودة الجو ، وتحط رحالها عند الفجر ، فتنصب الخيمة على ساحل الفرات ليخلد أفرادها للراحة وتناول الطعام وتقديم العلف إلى الدواب ، ثم تعاود المسير بعد العصر .

تكرر هذا النمط اليومي حتى وصلنا الفلوجة ، حيث وجدت في استقبالنا أخي عبد الرحمن ونسيبي عبد الوهاب القشطيني وصديقنا إبراهيم حلمي ، رحمهم الله .

---

(٢) التختروان : المحمل أو الهودج أو المحفة .

وقد جاءوا بعربة خاصة رافقونا بها إلى بغداد . وفي (أبي منيصير) فرحت بلقاء عدد آخر من الأصدقاء والأقرباء يترأسهم الأعمام عبد الباقي وعبد السلام . تابعنا السير حتى وصلنا بغداد في الساعة العاشرة من صباح يوم ٣٠ أيلول ١٩٠٥ ، وكان أخي الكبير الحاج رشيد ينتظرنا على باب بيتنا . وعم العائلة الفرح والسرور ، وأخذت وفود الأصدقاء والجيران تزورنا للترحاب بنا يوميًا ، وعقدت النساء مجلسًا خاصًا بهن في بيت العم السيد إبراهيم ، الملاصق لبيتنا لمدة ثلاثة أيام .

حفلة عرس معادة

أجريت لي حفلة عرس إسطنبولية بعد وصولي بغداد بعشرة أيام ، في ١٥ تشرين الأول ١٩٠٥ ، وهي إعادة لحفلة عرسي في إسطنبول . وأقام نسيبي المرحوم عبد الوهاب القشطيني وليمة عشاء في داره ليلة الزفاف ، كما قام إخوتي بتقديم جهاز عرس لائق بزوجتي ، واعتنوا بها وبوالدتها اعترافًا منهم بما غمروني به من عناية واحترام ، وردًا للجميل الذي قدمته عائلة زوجتي لي في إسطنبول .

في قلم المكتوبي

بعد انتهاء أيام الحفاوة والاستقبال ، راجعت والي بغداد ، عبد الوهاب باشا الأرناؤوطي(٣) ، وقدمت له كتاب نظارة الداخلية في إسطنبول لتعييني في وظيفتي الأولى في قلم (المكتوبي) في الولاية . رحب بي الوالي وأرسلني إلى المكتوبي ، طاهر بك ، مع أمر بالدوام عنده ، وكان ذلك في يوم الأربعاء ٥ تشرين الأول ١٩٠٥ .

كان زملائي في قلم المكتوبي : عبد الله خندة ، ورشيد مامو ، وعزت الفارسي ، ورشيد جمعة ، ومحمود الشاوي ، وعبد الرزاق الحكيم ، ومنير عباس ، وخماس ، والشيخ عارف . وكان راتبي الأول خمسمائة قرش .

إن قلم المكتوبي هو ديوان الولاية ، يقوم بتحرير المراسلات الصادرة من الوالي ومن مجلس إدارة الولاية . ويرأس (المكتوبجي) هذا الديوان يساعده (مميز القلم) أي : رئيس الكتاب . وفي المكتب دائرة للمحاسبة يرأسها (الدفتر دار) ، وهي مسئولة عن

---

(٣) عبد الوهاب باشا الأرناؤوطي : والي بغداد ١٩٠٤-١٩٠٥ ألباني الأصل ، كان قبل ذلك واليًا في الموصل .

ضبط واردات الدولة ونفقاتها العامة والأمور المالية الأخرى . وفي الديوان دائرة للمعارف لتمشية أمور المدارس والتعليم ، ودائرة للأوقاف ، وأخرى (للطابو) ، ودائرة للنافعة مسئولة عن الطرق والمواصلات . وجميع هذه الدوائر مسئولة أمام الوالي وعلى اتصال دائم بوزاراتها في إسطنبول .

كانت ولاية بغداد تشمل في ذلك الوقت لواءين فقط بالإضافة إلى لواء(٤) المركز بغداد ، هما : الديوانية وكربلاء . والأقضية الملحقة بالديوانية هي : الشامية والسماوة والحلة ، والملحقة بكربلاء هي : النجف والهندية . وأما الأقضية الملحقة ببغداد فهي : بعقوبة ومندلي وبدره وخانقين وكوت الإمارة والكاظمية وسامراء والعزيزية والجزيرة (الصويرة) .

وعند التحاقي بقلم المكتوبي خصنّي مصطفى أفندي ، مميز الدائرة ، بالمراسلات الواردة من الإداريين في أقضية بدره وسامراء ، والأوامر الصادرة لهم من الولاية . كان رفاقي في القلم يساعدونني في الاطلاع على مكاتباتهم الرسمية ، ومنحني هذا خبرة عملية في الأمور الإدارية ، كان فيه إضافة لا بد منها لمعلوماتي النظرية التي درستها في المدرسة الشاهانية .

التدريس في الإعدادية

بعد مرور شهر من عملي في قلم (المكتوبي) بُلغت بأمر تعييني للتدريس صادر من نظارة المعارف ، يكلفني بتدريس الماكنة و(القوزموغرافيا) أي : علم الفلك ، في المدرسة الإعدادية براتب شهري قدره ثلاثون قرشًا . استغربت من هذا الأمر ، فأنا لا أجيد علم الماكنة ، واعتذرت طالبًا تبديل الموضوع ولم يستجب إلى طلبي ، فاضطررت لأخذ دروس خاصة في هذه المادة عند أستاذ الرياضيات ، القائم مقام العسكري صبري بك . داومت على تدريس الماكنة و(القوزموغرافيا) لمدة شهر واحد ، حتى جاءني معاون مدير المدرسة (علي أفندي) وأظهر لي تبرمه من مدرس الكيمياء ، وطلب مني القيام بذلك عوضًا عنه . سرني ذلك كثيرًا لحبي لهذه المادة منذ أن درستها في كلية الطب .

(٤) اللواء : المحافظة .

فيضان عظيم

أصاب بغداد في عام ١٩٠٦ فيضان عظيم ، وطغت مياه الفرات ، نتيجة للرياح الشديدة ، على السهول بين النهرين ، وانكسرت سدة (السرية) التي كان قد بناها الوالي سري باشا[٥] على الجانب الأيسر من الفرات ، واكتسحت المياه السهول بسرعة مدهشة حتى وصلت إلى سدة المسعودي بالقرب من مرقد الشيخ جنيد والست زبيدة في مشارف صوب الكرخ في بغداد . ثم تدفقت المياه المتلاطمة وغمرت (سوق حمادة) و(علاوي الحلة) ، وهرع السكان رجالاً ونساءً ، فلاحين وعمالاً وجنوداً ، لإنقاذ صوب الكرخ من الغرق ، شاركهم في ذلك الوجهاء والعلماء والشيوخ ، وانهمك الجميع بتقوية السداد بالحصران والأتربة والأخشاب على مدى أسبوع .

كان هذا الفيضان من أفظع الفيضانات في تاريخ العراق ، وأدى إلى خسائر جسيمة في المباني والمزارع والمواشي وراح ضحيته نفوس بريئة ، وأصبحت المنطقة المغمورة وكأنها بحر خضم تخوضه الزوارق والسفن لنقل الناس بين المدن ، واستمر ذلك لمدة طويلة .

ونتيجة لذلك ، شكلت الحكومة لجنة لتقدير أضرار الفيضان برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعينتني سكرتيرًا لها . وأذكر أن الإحصائيات التي توصلنا إليها أشارت إلى انهيار أكثر من مائة وخمسين دارًا ووفاة سبعين شخصًا تحت الأنقاض . واقترحت اللجنة تعويضات مناسبة للمنكوبين ، ونفذت الدولة هذه التعويضات .

ويذكر الأحياء من رجال الكرخ الذين عاصروا هذا الفيضان ما قاساه الأهالي من رعب وتشتت ، وما قالته العجائز والشيوخ من أهازيج كثيرة .

---

(٥) سري باشا : والي بغداد ١٨٨٩ أقام سدة (السرية) على الجانب الشرقي من الفرات . وفي سنة ١٩٠٠ ، وبأمر من السلطان عبد الحميد ، أنشأ سدًا بسيطًا على شط الهندية لدفع المياه إلى شط الحلة ، بإشراف المهندسين الفرنسيين (شوندوفير) و(ديووان) ، واستعمل لبناء هذا السد ، طابوق من برج بابل . وأهمل السد في عام ١٩٠٩ عندما باشر المهندس (وليم ويلكوكس) ببناء سدة جديدة بشكل أفضل .

الفصل الرابع
في سـامـراء

قائم مقام بالوكالة

مرَّ على تعييني في قلم المكتوبي سنة ونصف ، طلب مني بعدها المكتوبجي ، طاهر الحضور إلى دار الوالي ، أبو بكر حازم[1] ، بناءً على طلبه . أقلقني هذا الطلب المفاجئ وفكرت عما عسى أن يكون سببه ، فهل هناك خطأ ارتكبته؟ أو تقصير في واجبي؟ أو أن هناك شكوى أو وشاية ضدي؟ .

رحب بي الوالي ، وأخذ يثني على سلوكي وأعمالي ، وقال : إنه قرر تعييني لوكالة قائم مقامية سامراء ، فقد سافر قائم مقامها إلى الحج وسيكون ذهابه بلا رجعة . وأخذ ينتقد سلوكه وإدارته للقضاء .

لم أتوقع هذا التكليف وترددت بالقبول ، واعتذرت لصغر سني وعدم إكمالي الثلاث سنوات ، وهي المدة القانونية لخدمتي في قلم المكتوبي . وتخوفت كذلك من الفشل لوجود أخي الكبير ، عباس أفندي ، مدرسًا مقيمًا في سامراء ، وطلبت إعفائي من هذه المهمة . إلا أن الوالي أصر على قبولي ، وقال : إنه يعرف أخي عباس ، وإنه متأكد من أنه سوف لن يتدخل في شؤوني ، ولم يشفع تكراري للاعتذار . قال لي طاهر بك : بأن الوالي قد اعتمد عليك وهو واثق منك ، والواجب يقضي إطاعتك لأوامره ، فاضطررت إلى القبول .

أخذ الوالي عند ذاك يلاطفني ويداعبني ، وقال : «عليك أن تجتهد بإطالة شعر لحيتك» . ثم أخذ يرشدني ويحثني على تحقيق العدل بين الرعية ، ومعاملة الصغير كولدي والكبير كأبي ، وأن أكون عفيفًا نزيهًا .

---

(١) أبو بكر حازم بك : والي بغداد ١٩٠٧-١٩٠٨ وقت إعلان الدستور . اختلف مع ناظم باشا رئيس الهيئة الإصلاحية واستقال .

انصرفت من دار الوالي وأنا مرتبك وشاعر بأهمية الواجب الملقى على عاتقي . وفي اليوم التالي ، ذهبت إلى حلاقي ، الحاج صالح ، في سوق السراي وأخبرته بنصيحة الوالي ووظيفتي الجديدة ، فوعدني أنه سيبذل جهده لإطالة ذقني في فترة قصيرة ، وبدأ يلح بالموس على وجهي حتى ظهرت بوادر الشعر بعد خمسة أيام[٢] .

سافرت إلى سامراء بعربة تجرها الخيول ، ووصلتها بعد سفرة شاقة استغرقت من الفجر حتى المساء . وفي صباح يوم ١٥ تشرين الأول ١٩٠٧ ، ذهبت إلى سراي الحكومة ووجدت غرفة القائم مقام خالية من الأثاث ، وفيها دكة عليها مقعد صغير ملطخ بالحبر ، ففرشت عليه منديلي وجلست عليه ، وتوافد الموظفون للترحيب بي . وبعد برهة تجولت في غرف السراي الأخرى وإذا بها قديمة وقذرة جميعها .

مقتل مفتش الأغنام

كان مقتل حسين أفندي ، مأمور تفتيش الأغنام ، أول قضية عرضت عليّ ، وقد حدثت قبل وصولي بيوم واحد . وعند التحقيق ، علمت أن المأمور هو من مدراء المال المفصولين ، أرسلته الولاية مع قوة مسلحة للإشراف على تعداد الأغنام عند العشائر في منطقة سامراء لأخذ الرسوم عليها ، وأنه قد طالب برسوم من عشيرة (البو عباس) من غير أن تكون لديهم مواشٍ . وتعرض رجال هذه العشيرة للاعتداء والإهانة فثاروا عليه وقتلوه مع جنديين من القوّة المسلحة المصاحبة له .

وأخذنا بتعقب القتلة وألقينا القبض عليهم ، وأرسلت السيد حمدي وأخاه من رؤساء (البو عباس) إلى بغداد تأديبًا لهم وإنذارًا لباقي الرؤساء ، وطلبت من الولاية حجزهم لمدة مناسبة توطيدًا للأمن .

وقد نظم الأستاذ حسن النقي الدوري الأبيات التالية لهذه المناسبة :

آل سامراء فيكم قد غدا
حاكم للعدل والفضل محيز
قد أزال الظلم عنا أرخوا
العمر يحكيه ذا العبد العزيز

٣٤٠ ٥٣ ٧٠٠ ١٠٦ ١٢٤ سنة ١٣٢٣هـ

---

(٢) احتفظ صاحب المذكرات بلحيته طيلة حياته منذ ذلك الوقت .

مع الزوار الإيرانيين

بعد مباشرتي العمل بخمسة أيام ، علمت بوقوع اعتداءات على الزوار الإيرانيين في العتبات المقدسة بسامراء . وفي إحدى الليالي ، لبست زيا إيرانيا ودخلت إلى محل غيبة الإمام المهدي ومرقد الإمامين علي الهادي وحسن العسكري ، رضي الله عنهما[٣] ، واطلعت بنفسي على ما كان يحدث من اعتداءات على الزوار . وفي اليوم التالي ، استدعيت الخدم ووبختهم وشددت عليهم النكير ، وحذرتهم من أني سأراقب كل ما يحدث بنفسي . وتحسنت الأمور بعد ذلك بشكل ملحوظ .

وفي تلك السنة ، كان موسم الزيارة مزدحمًا بشكل غير عادي ، وكان الزوار الإيرانيون يغادرون سامراء بعد انتهاء الزيارة ، إلى بعقوبة عبر الصحراء ، مما يعرضهم إلى قطاع الطرق . أعلمت الولاية بهذا الأمر ، فأرسلت لنا تعليمات تقضي بحمل الزوار على السفر إلى بعقوبة عن طريق بغداد تأمينًا لسلامتهم . إلا أن الزوار أصروا على سفرهم عبر الصحراء ، وتوسطوا ممثل إيران لديّ للسماح لهم بذلك من غير جدوى .

وأخذت أراقب الزوار لمدة خمسة أيام ، وفي اليوم السادس شاهدت ، أثناء تجوالي متنكرًا ، جماعة من رؤساء القوافل الإيرانية يتداولون الحديث مع نائب القنصل الإيراني ومعاون الجندرمة[٤] ، ويتفقون معهم على الخروج صباحًا بعد فتح أبواب أسوار المدينة لهم ، على أن يدفعوا (قرانًا)[٥] واحدًا عن كل زائر ، نصفه لنائب القنصل والنصف الآخر لمعاون الجندرمة .

كانت سامراء آنذاك محاطة بسور ضخم مرتفع تقفل أبوابه ليلاً . ولمنع الزوار من الخروج ، غلقت أبوابه الأربعة ، وأنجزت مفاتيحها ، ورجعت إلى بيتي المقابل لدار قائد الجندرمة .

وعند الفجر ، سمعت أفراد القوافل يخبرون قائد الجندرمة أن مفاتيح السور عند القائم مقام ، وأخذه العجب وطلب منهم الانتظار حتى شروق الشمس . وفي الصباح ،

(٣) مرقد الأئمة في سامراء : علي الهادي (الإمام العاشر) وحسن العسكري (الحادي عشر) والمهدي (الثاني عشر) (ع) .

(٤) الجندرمة : قوات الشرطة العسكرية (الدرك) والكلمة فرنسية الأصل : Gendarme .

(٥) القران يساوي عشرين فلسا .

طالبني الأهالي بفتح أحد الأبواب للتزود بالماء من النهر ووافقت على طلبهم ، وطلبت من الجندرمة في الوقت نفسه منع الإيرانيين من الخروج . إلا أن ذلك لم يجد نفعًا إذ اقتحم الأبواب ستمائة خيال إيراني مرة واحدة وتمكنوا من مغادرة القضاء .

زيارة الشاه زاده أحمد خان

وصل سامراء سنة ١٩٠٧ ، (الشاه زاده) ، الأمير أحمد خان بن مظفر شاه ، ولي عهد إيران مع والدته . وكان عمره خمسة عشر عامًا . وقمت له بواجب الاستقبال والضيافة على أحسن وجه ، ووفق أوامر الولاية .

وبعد بقائه أربعة أيام أخذ يستعد للعودة ، فأرسل لي مع نائب القنصل هديةً مكونة من شال وساعة ذهبية ، فاعتذرت عن قبولها . ويظهر أن (الشاه زاده) لم يرق له هذا الرفض ، فطلب من الوالي عند رجوعه إلى بغداد ، تنحيتي عن وظيفتي . وسأله الوالي عن السبب فلم يبدِ سببًا وألح على طلبه .

وبعد مغادرته العراق ، ذهب القنصل العام الإيراني في بغداد إلى الوالي وأعلمه بأن غضب (الشاه زاده) هو نتيجة لرفضي هديته ، وطلب منه عدم تنفيذ طلبه . أخبرني الوالي حازم بك نفسه بذلك ، كما أكد عليه نائب القنصل في سامراء .

تخمينات الحاصل الصيفي

بعد مباشرتي في سامراء بعشرة أيام ، قدم لي مدير المال تقريرًا يطلب فيه تعيين لجنة لتخمين الحاصلات الزراعية الصيفية على شواطئ دجلة كالرقي والبطيخ . واستغربت من طلبه هذا ؛ لأن الفصل كان خريفًا ومياه النهر قد غطت الشواطئ وليس هناك زرع أو بطيخ .

كان ذلك في شهر رمضان ، وجمعت مجلس إدارة القضاء للتداول في الأمر ، وأصرّ مدير المال على طلبه ، وقال : إن المعتاد هو تشكيل لجنة كل سنة للتحقيق مع الزراع عن حجم الأرض المزروعة ووارداتها ، معتمدة على إفادات الشهود وتحليف المزارعين . ورفضت هذا المقترح لأنه يخالف نظام الأعشار ، فقد كان من الواجب تعيين المخمنين قبل الموسم أو حال نضج الحاصل . طلبت من أعضاء مجلس الإدارة إبداء رأيهم فلم يبد أحد منهم أي وجهة نظر ، وتدخل مدير المال مرة أخرى ، وقال لأعضاء المجلس : «لماذا لا تتكلمون؟ فهل يوجد غيركم من يقوم بالتخمين فيما إذا

اتفقنا على تشكيل اللجنة؟» .

أبرقت إلى الولاية حول هذا الموضوع ، وجاء ردها سريعًا ، طالبًا التحقيق في هذا الأسلوب غير النظامي وتأمين حقوق الخزينة بالطريقة التي أراها مناسبة . اشترطتُ أن يستوفى العُشرْ تحت رقابة أشخاص أمناء يعينون من قبلي على أن لا يلحقوا بالزراع أي ضرر ، وأن يشرفوا على عمل الملتزم الذي اخترناه . وعينت السيدين : طالب وعباس حمدي ، رؤساء (البو عباس) ، وهما من خيرة أهل سامراء ، وأرفقتهما بالملتزم ، وأنهوا تخميناتهم بعشرة أيام فقط . . وتبين لي بعد ذلك أن غاية مدير المال كانت ابتزاز الأموال من الزراع لفائدته الخاصة ، وأنه كان المسؤول عن الإهمال وسوء التصرف .

قضية عشيرة البو عيسى

بلغني بصورة خاصة أن أفرادًا من عشيرة (البو عيسى) قد اشتروا خمسًا وثلاثين بندقية يونانية من الطراز الحديث من أحد تجار الكويت بثمن ثلاث ليرات للبندقية الواحدة ، استعدادًا لقتال (البو عباس) والانتقام منهم من حادثة قديمة .

أخبرت الولاية ، وطلبت إرسال ثلاثين جنديًا خيالاً لجمع هذه الأسلحة لتفادي وقوع صدام مسلح . وقبل وصول القوة ، جلبت رؤساء (البو عيسى) ، وهم : كريم وأولاد عمه ، وأوقفتهم بالسراي لمنعهم من مقاومة جمع الأسلحة . وأرسلت مع الخيالة دليلاً أمينًا صاحبهم إلى مضارب البو عيسى وزودته بتعليمات خاصة . ووصلت القوة بيوت العشيرة مع مطلع الفجر وأحاطت بها ، وتمكنت من جمع البنادق جميعها وأرسلتها إلى بغداد .

واعترف رؤساء (البو عيسى) ، بعد أن أطلقت سراحهم ، بنواياهم السيئة ، وشكروني على عملي الذي قمت به حقنًا لدماء الأبرياء من العشيرتين .

استيفاء ضريبة الأغنام

طلب مني مدير المال قوة من الخيالة لاستيفاء ضريبة الأغنام من عشيرة (البوصكو) في شمال تكريت . وقد أرسلت الولاية القوة بقيادة الضابط (كيلان أفندي) لترافق مدير المال في مهمته . وبعد عشرة أيام ، رجع مدير المال من غير أن يقدم معلومات عما حدث ، وماطل في تقديم تقريره وأبقى تفاصيل ما جرى سرًا بينه وبين الضابط . علمت بعدئذ من أحد أفراد القوة بأنهم قبضوا رسومًا عن أربعة عشر

ألفًا من الأغنام من غير أن يقدموا وصلاً بذلك ، وأن المبلغ قد اقتسمه الضابط ومدير المال ، وهم عازمون على تقديم تقرير عن خمسمائة رأس من الغنم فقط .

استدعيت مدير المال وشددت عليه بضرورة تقديم تقرير كامل ، وأعلمته بأني أعرف مقدار الضريبة التي جمعها وهددته بإبلاغ الولاية . فأضطر إلى جمع أفراد القوة العسكرية وطالبهم بإرجاع الأموال المقسمة عليهم ، ثم قدم بعدها تقريرًا صحيحًا بالمبالغ المستوفاة . وكان نتيجة ذلك أنني فقدت ثقتي به فطلبت من الولاية تنحيته عن وظيفته ، ونفذت الولاية الطلب .

أرسلت الولاية بعد ذلك موظفًا آخر يدعى علي أفندي ، ليقوم بمهام مدير المال وكالةً . وعند وصوله أبديت له النصح لأن يكون عفيفًا ومستقيمًا فوعدني بذلك . واستمر بتنظيم دائرته والمعاملات المالية بشكل سليم لمدة شهرين ، جاءني بعدها إلى البيت وأخرج منديله وأخذ يبكي . سألته عن سبب بكائه ، فقال : «أنا متزوج من امرأتين ولي أولاد أرسلت أحدهم إلى إسطنبول للدراسة ، وإن راتبي لا يكفي لإعالتهم ، ولم ألمس منك المساعدة لي للارتزاق والحصول على موارد فوق راتبي» .

دهشت لهذه الوقاحة والدرك الذي وصل إليه الفساد المستشري في جهاز الحكومة ، وتملكني أسفٌ شديد . أجبته : بأن لا يتوقع مساعدتي له على الباطل ، وأن مساعدتي له ستقتصر على توصيتي بتثبيته بوظيفته ، وإلا فله أن يطلب النقل لمحل آخر يحقق فيه رغباته . أجابني وهو يقسم بإيمان مغلظة : بأنه سيستمر بعمله بدقة ونزاهة . وقدمت مقترحًا بتثبيته أصيلاً في وظيفته ، لكن الولاية رفضت ذلك بالنظر لسرقاته العديدة السابقة التي كان قد سيق بموجبها للمحاكم .

قضية فرقة البيجات في تكريت

في ناحية تكريت فرقةٌ تسمى (البيجات) قوامها مائة وعشرون شخصًا تمتهن تهريب الدخان والملح ، وقد لاذ بها نفر من الهاربين من الجندية من الموصل والدليم وبعض الرجال الذين اتخذوا من الشقاوة مهنةً لهم .

وفي سنة ١٩٠٧ ، اعتدى قسم من هؤلاء المفسدين على قافلة متكونة من اثنتي عشرة عربة من عربات الدائرة السنية وهي في طريقها إلى الموصل ، وسلبوا دوابها وكل ما فيها . وعلى أثر ذلك ، صدر الأمر بتعقب الجناة واسترداد المواد المنهوبة . فأمرت قائد الجندرمة ، عبد الرحمن أفندي ، بجمع قوته المكونة من ثلاثين خيالا

للقيام بهذا الواجب .

وعند وصوله تكريت ، اجتمع برؤساء (البيجات) وضغط عليهم فتعهدوا بإرجاع المنهوبات وتسليم المجرمين . ولما وجد القائد أن الأمر سهلٌ ، تمادى وطالبهم بتسليم جميع الهاربين من الخدمة العسكرية ودفع مبالغ كبيرة مقابل أتعابه . وقام السيد حمدي ، نقيب تكريت ، بدور الوسيط بين الطرفين ولمنفعته الخاصة أيضًا .

تصلب رؤساء البيجات تجاه هذه المطالب وتأزم الوضع ، فتحصن قائد الجندرمة في وسط تكريت استعدادًا لضرب الجناة في بيوتهم . ووقع اشتباك مسلح عنيف قتل فيه (اليوزباشي)(٦) عبد الرحمن أفندي قائد القوة وجرح ابنه ، وقتل اثنان من أفراد قوته مع ثلاثة آخرين . وبعد اندلاع القتال ، هرب النقيب حمدي إلى سامراء وجاءني إلى دائرتي وقت الظهر قائلا : إن القائد كان يريد الحصول على مبالغ من البيجات مقابل الفارين من الجندية ، وستصلك أخباره بعد قليل . سألته عن سبب مجيئه ، فقال : إنه ترك تكريت صباحًا ، وهو يقصد بغداد لأمور خاصة به . قلت له : «كيف تترك القائد وهو في أزمة؟» ، أجاب : بأنه أراد التدخل لكن اليوزباشي لم يصغ لكلامه . وودعني على عجل وهو في حالة ارتباك ظاهر ، واستقل إحدى العربات إلى بغداد قبل موعدها المقرر للسفر .

وبعد قليل ، جاءني جندي من الفصيل في تكريت وشرح لي ما حدث هناك ، فأمرت بالقبض على النقيب بعد أن تأكدت من أنه كان وراء الحوادث ، لكنه كان قد اجتاز حدود القضاء فلم نتمكن من اللحاق به ، وطلبت من الولاية اعتقاله .

حدث كل ذلك عند استقالة الوالي أبو بكر حازم وتولي ناظم باشا ، الوزير ورئيس الهيئة الإصلاحية ، ولاية بغداد وكالةً(٧) . وصدر من الولاية أمر لي بالسفر

(٦) اليوز باشي : اسم مركب من (يوز) بمعنى مئة بالتركية و(باش) بمعنى رأس ، أي : رئيس مائة من الجند وتعادل رتبة النقيب .

(٧) ناظم باشا : رئيس الهيئة الإصلاحية التي أرسلت إلى بغداد قبل إعلان الدستور ، وهو غير الفريق حسين ناظم باشا والي بغداد ١٩١٠-١٩١١ . استدعي إلى إسطنبول وأصبح وزيرا بعد الحركة الرجعية واقتحام كتائب حامية اسطنبول للبرلمان في ١٣ نيسان ١٩٠٩ . وعلى أثر ذلك تحرك محمود شوكة باشا من سالونيك ودخل القسطنطينية في ٢٤ نيسان ١٩٠٩ ، وقتل ناظم باشا مع الأمير الدرزي محمد أرسلان ، النائب العربي . وخلع مجلس الأعيان والنواب ، السلطان عبد الحميد الثاني ، ونصبوا بدلاً منه أخاه محمد رشاد في ٢٧ نيسان ١٩٠٩ .

الى تكريت مع قوة عسكرية إضافية بقيادة (البكباشي)[٨] الحاج نامق بك الى تكريت .

تأكدنا عند التحقيق بأن القتال كان نتيجة لمبالغة الجندرمة في طلباتها ومضايقاتها للبيجات وطردهم من المدينة ، ثم ملاحقتهم في الجزيرة خارج تكريت . وشرح لي الرؤساء المحايدون القضية على حقيقتها ، وطلبوا أن لا أتوسع فيها ، وهم يضمنون تعاون رؤساء البيجات معي وإرجاع المنهوبات ، وتسليم المجرمين خلال ثلاثة أيام . كذلك تلقيت أمرًا سريًا من الوالي يطلب مني إنهاء القضية بسرعة بمناسبة إعلان الدستور العثماني الجديد .

ورجع السيد حمدي إلى تكريت بلا علم الولاية مستفيدًا من إعلان الدستور . وقال لي : إن رؤساء البيجات غير مطمئنين لاتفاقك معهم لأنك لم تقبل منهم مالاً . أكدت له أن وعودي تستند إلى أوامر الولاية . ثم طلب مني أن أقسم بالقرآن ليصدّق وليخبر الرؤساء بذلك . تناولت المصحف الكريم وأقسمت له بحضور قائد المفرزة ، الحاج نامق بك ، بالالتزام بالاتفاق . وبلغت الوقاحة بالنقيب أن قال : إنه لا يزال غير مطمئن لوعدي . فثارت ثائرتي وأمرت الحاج نامق بأن يلقيه في النهر من فوق الطار المرتفع[٩] . واحتج النقيب ، قائلاً : «كيف يمكنكم عمل ذلك وقد أعلن الدستور؟» . كررت أمري على الحاج نامق ، فرفعه بين يديه وأسرع به ليلقيه في النهر ، وهو يصرخ ويستنجد ويتوسل ويتعهد بأن لا يتدخل بهذه الأمور بعد اليوم . وأطلقت سراحه ، وذهب إلى بيته باكيًا .

وفي اليوم التالي ، علمت أن السيد حمدي ذهب إلى البيجات ، وشاهد اثنين من الشقاة المطلوبين للعدالة وهما موثقان بالحبال ، استعدادًا لتسليمهما للقوة العسكرية ، فراح يفك وثاقهما ، قائلاً : «لماذا تسلمون إخوانكم للحكومة فتخسرونهم؟» وهكذا أفسد النقيب كل محاولاتنا للاتفاق مع رؤساء البيجات ، وهرب بعد ذلك إلى بغداد شاكيًا الحالة في تكريت ، وطالبًا سحب القوة العسكرية منها .

---

(٨) البكباشي : رتبة عسكرية تعادل رتبة مقدم . وهي مكونة من (بيك) بمعنى ألف وتقرأ الكاف نونًا ، ومن (باش) بمعنى رأس وهو رئيس ألف من الجند .

(٩) الطار : الشرفة .

أمرت القوة العسكرية بتعقب الجناة ، فعاد القتال بين المفرزة والبيجات ، وقتل ستة منهم وقبض على عشرة أحيلوا للمحاكم ، ولم يصب أحد من أفراد القوة العسكرية . وطلب النقيب التحقيق بما جرى ، ولم يسفر ذلك عن لوم الإدارة على تصرفها ، وظهر الدور السيئ الذي قام به النقيب بوضوح فأحيل إلى المحاكم ، وتقرر حبسه لمدة سنة ونصف . وهكذا انتهى النقيب فتخلص القضاء منه . وظهر لنا بعدئذ أنه كان مسندًا من (أبي الهدى الصيادي)(١٠) الشخصية المعروفة في إسطنبول .

الاحتفالات بإعلان الدستور

طلبت الولاية من ملحقاتها جميعًا تزيين دوائر الحكومة وإقامة الاحتفالات بمناسبة إعلان الدستور العثماني ، في ٨ شباط ١٩٠٨ . وأقام مدير ناحية تكريت ، كاني مصطفى أفندي الأعرج ، وهو تركي الأصل ، معالم الزينة في دائرة الحكومة . وصادف في هذه الأثناء أن جُلِبتْ جثث القتلى من الشبقاة ، فأمر بتعليق رؤوسهم مع فوانيس الزينة . كما طلب من أقارب أصحاب الرؤوس المقطوعة من التكارتة من البوناصر والحديديين وقوفهم بجانبها تلك الليلة وحتى الصباح .

وعندما سمعت بذلك ، أمرت بسحب يد هذا المدير حالاً . فجاءني إلى سامراء وأنبته على عمله ، وأجابني باللغة التركية بما معناه : «في هذه الأيام المباركة يجب تعليق رؤوسٍ كثيرةٍ» .

وفاة زوجتي

فجعت بوفاة زوجتي ، أم ابني الأول عبد المجيد ، في تشرين الثاني ١٩٠٨ بعد مرض لم يمهلها أكثر من ٢٤ ساعة ، وقد تركت وفاتها أثرًا كبيرًا محزنًا في نفوس عارفيها ، وما زال الأحياء منهم يذكرونها بألم شديد(١١) .

---

(١٠) أبو الهدى الصيادي : ١٨٤٩-١٩٠٩ شيخ رفاعي من حلب اعجبَ به السلطان عبد الحميد لأعماله الخارقة كالضرب بالسيوف واللعب بالنار ، واعتبرها من كرامات الأولياء ، أمر له بقصر فخم أصبح منتدى لأعيان إسطنبول وصار السلطان يستشيره في مشاكله .

(١١) توفيت زوجته الأولى (نوريه) عندما قلع سنها المتطبب الوحيد في سامراء الحلاق فهد ، وهي حامل في شهرها السابع .

الجراد يكتسح سامراء

اكتسح الجراد في سنة ١٩٠٨ مدينة سامراء بشكل لم يسبق له مثيل ، وأتلف المزارع وقضى على سعف النخيل ، والتهم الألبسة والحبوب والطعام المطبوخ ، وهجم أخيرًا على جدران السور والبيوت وأكل الجص الذي يغطيها . كافحناه بشدة لمدة خمسة عشر يوما ، مستعينين بالأهالي ورجال العشائر من غير الحصول على نتائج تذكر . وقد ترك الجراد وراءه خسائر كبيرة لا يزال الناس يتذكرونها .

مشروع للبرق والبريد

لم يكن في سامراء خدمات للبرق والبريد ، وكنا نرسل البرقيات والرسائل إلى الكاظمية ومنها إلى بغداد ، حتى نفذت الولاية طلبي بتأسيس دائرة برق وبريد ، وأرسلت لها مفتشًا هو فهمي أفندي الذي شرع بإمداد الخط ، وتسلم المأمور عزيز أفندي مسؤولية الدائرة بعد أن تم الانتهاء منها في ٢٩ تشرين ١٩٠٨ .

الهيئة الإصلاحية في بغداد

تألفت هيئة إصلاحية في إسطنبول برئاسة الوزير ناظم باشا ، وجاءت الهيئة إلى بغداد قبل إعلان الدستور ، وضمت لها أعضاء من رؤساء الدوائر الرسمية المطلعين على شؤون الموظفين . وقامت بأعمالها ففصلت بعض الموظفين وحرمت قسمًا منهم من وظائف الدولة بصورة دائمة . ضمت الهيئة الإصلاحية في بغداد أيضًا الأشراف والعلماء والأعيان المعارضين لسياسة الاتحاد والترقي ، المتحيزة للعنصر التركي . واصطدم الوالي أبو بكر حازم مع الهيئة فاستقال من منصبه ، فأودعت الولاية وكالةً إلى ناظم باشا رئيس الهيئة وأخذ يعالج الأمور بصبر وتعقل .

وقامت في ذلك الوقت ببغداد مظاهرات وهرج ومرج بسبب الخلاف بين الجمعية المحمدية ورجال حزب الاتحاد والترقي(١٢) .

غادر ناظم باشا بغداد للالتحاق بوظيفته كوزير للعدلية ، وقام محله الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني وكالةً أيضًا .

---

(١٢) الجمعية المحمدية : تألفت في بغداد وكان أعضاؤها من الوجهاء ورجال الدين الذين لم يستسيغوا اندفاع الاتحاديين العنصري واللا ديني ، وسميت أيضًا بجمعية (المشور) .

الفصل الخامس
في السماوة

قائمَ مقامٍ أصيلاً للمرة الأولى

ورد سؤالٌ في زمن وكيل الوالي ناظم باشا من نظارة الداخلية في إسطنبول ، يستفسر عن سلوكي وخدمتي في (المعية) وفي سامراء خلال الثلاث سنوات الأخيرة ، فأجابت الولاية بشكل جيد ، فصدرت الإرادة السنية بتعييني قائمَ مقام أصيلاً لقضاء السماوة في زمن الوالي (نجم الدين منلا)[1] ، الذي تسلم الولاية من الوكيل محمد باشا الداغستاني[2] .

بلغت خدمتي في سامراء سنةً وخمسة أشهر كنت أتقاضى أثناءها راتبًا قدره سبعمائة وخمسة وعشرون قرشًا ، منها مائتان وخمسون قرشًا عن وكالة القائم مقامية . وكانت الليرة الذهبية آنذاك تساوي مائة قرش صاغ .

تركت سامراء في ٨ شباط ١٩٠٩ ، وعند وصولي بغداد في ٩ شباط ، فاجأني موظفو الإدارة والمالية بأسفهم لنقلي إلى السماوة ، حيث الإدارة مفقودة والأمن

(١) نجم الدين منلا : والي بغداد ١٩٠٨-١٩٠٩ استلم الولاية من محمد فاضل باشا الداغستاني واستدعي لتولي وزارة العدل في إسطنبول عند نهاية ولايته . .

(٢) محمد فاضل باشا الداغستاني : قائدٌ شجاعٌ من أعاظم الرجال تسلم وكالة ولاية بغداد عدة مرات وقاد المجاهدين وقاتل الإنكليز في عربستان . استشهد في معارك حصار الكوت في ٦ جمادي الأولى ١٣٣٤هـ ١٩١٥م . وهو في الأصل من الجاجان في ققفاسيا ، رباه ورعاه الشيخ شامل الثائر الباسل ضد هيمنة القياصرة الروس مع ابنه غازي محمد . التجأ الاثنان بعد القضاء على ثورة الإمام شامل إلى بلاط السلطان عبدالحميد وعُيّنَ هناك في حماية السلطان ، أبعده عبدالحميد إلى بغداد خوفاً من شجاعته . احتفظ في بيته في بغداد في منطقة باب المعظم بحديقة تضم مختلف الحيوانات الضارية .

مضطرب . وأطلعني مصطفى أفندي ، مميز المحاسبة ، على سجل القضاء ، موضحًا أنه قد تبدل ثلاثة وثلاثون قائم مقامًا ، أصيلاً ووكيلاً ، في سنة واحدة فقط . كان بعضهم يستقيل قبل أن يغادر بغداد لمجرد معرفته عن الحالة فيها ، والبعض الآخر يستقيل بعد دوامه أسابيع أو أيامًا . وهناك واحدٌ منهم فقط ، تمكن من البقاء كوكيل لمدة ثلاثة أشهر .

عم الأسف على كل من علم بتعييني ، ومنهم وكيل الوالي ، محمد باشا الداغستاني ، ومعاونه والدفتردار ، واتفقت معهم على الالتحاق بوظيفتي على أن أقدم استقالتي بعد مرور شهر واحد .

الطريق إلى السماوة

تركنا بغداد في ٣ آذار ١٩٠٩ بعربة خاصة . وعند وصولنا المسيب(٣) ، قضينا سواد الليل فيها عند صديقنا الحاج مهدي ، وهو من وجوه البلدة ورؤسائها . وفي صباح اليوم التالي ، استأجرنا (كعد) وهو نوع من السفن النهرية انساب بنا مع مياه الفرات ، ووصلنا الكوفة(٤) عند المساء . ثم تركنا (الكعد) هناك وذهبنا إلى النجف لزيارة مرقد الإمام (علي) عليه السلام ، وقضينا ليلتنا في دار القاضي السيد أحمد رفيق الحديثي . ثم عاودنا السفر في السفينة إلى الشامية(٥) حيث نزلنا ضيوفًا على القائم مقام عاكف أفندي الآلوسي . وفي صباح اليوم التالي أحضر لنا زورق صغير مع

---

(٣) المسيب : قضاء من أقضية محافظة كربلاء ، يقع على الفرات قبل تفرعه إلى شط الحلة والهندية ، يبعد ٦٢ كم جنوب غربي بغداد .

(٤) الكوفة : من أهم المدن الأسلامية في صدر الإسلام ، أسست سنة ١٧هـ على الجانب الأيمن لنهر الكوفة ، وهي تبعد عن النجف ١٠كيلومترات وينسب إليها الخط الكوفي ، وكانت منافسة للبصرة في النحو والفقه واللغة ، وهي اليوم مركز قضاء تابع لمحافظة النجف .

(٥) الشامية : مدينة قائمة على الضفة اليسرى من نهر الشامية (من فروع الفرات) وهي تبعد عن الديوانية ٢٥ ميلاً ، وكانت تعرف باسم الحميدية في عهد السلطان عبد الحميد . وكانت تسمى أيضًا أم البعرور .

الدوافيع[٦] لنقلنا إلى الديوانية[٧]، ووصلنا موقع (الشافعية) على (هور)[٨] (ابن نجم)، وكان الجو عاصفًا والمياه هائجة. وكانت هذه هي تجربتي الأولى لركوبي زورقًا صغيرًا في أحوالٍ جوية رديئة. وفي(الشافعية) وجدت في انتظاري بعض جنود الجندرمة، رافقني ثلاثةٌ منهم على ظهور الخيل إلى الديوانية التي وصلناها بعد الغروب.

كان المتصرف آنذاك هو طاهر بك، المكتوبي في ولاية بغداد سابقًا. ولمعرفته بي، رحب وفرح بتعييني في السماوة التابعة له. وقصَّ عليَّ طوال الليل عن حالة القضاء السيئة، وكيف أنه ذهب إليه قبل أسبوع وبذل جهودًا كبيرةً لعقد صلح بين الغربيين والشرقيين، ثم أخذ وعدًا منهم للمحافظة عليه لمدة شهرين، وما إن عاد حتى حنث أطراف النزاع بوعدهم وعادوا إلى القتال، أوصاني طاهر بك بالعمل الجاد وبالتريث لإحكام سيطرة الدولة على شؤون القضاء. وفي صباح اليوم التالي ركبنا سفينتنا ورجعنا إلى الشامية وانحدرنا منها نحو السماوة حتى وصلناها بعد يومين.

قضاء المشاكل

رست السفينة على شاطئ السماوة جنوب القشلة[٩] مساء ٨ آذار ١٩٠٩. وكان في استقبالنا وكيل القائم مقام إبراهيم بك، ومدير المال إسماعيل الجميل، والقاضي أحمد أفندي الكردي، والمفتي والمدرس نوري أفندي الدهان، ورئيس البلدية حسن الإمامي. رحب بنا الجميع وأخذوني إلى دار القائم مقام، وأخذوا نساءنا إلى دار

(٦) الدوافيع: المكلفون بدفع الزورق.

(٧) الديوانية: مدينة تقع على الجهة اليسرى من نهر الفرات، وقيل إن سبب تسميتها يعود إلى أنها كانت دار ضيافة للخزاعل، وقد شيد أول بيت حجري فيها سنة ١٢٧١هـ واتخذوه دارًا للضيافة، أي (ديوان). وفي رأي آخر سميت الديوانية لأن أراضيها كانت ملكًا لديوان السلطان. وهي مركز محافظة القادسية الآن.

(٨) الهور والأهوار: مسطحات مائية كبيرة جنوب العراق، أكثرها ماء عذب من دجلة والفرات، تتوسطها جزر صغيرة وكثيرة من صنع سكانها الذين يعيشون على صيد الأسماك وتربية الأبقار والجاموس. تأريخها قديم يرجع إلى بداية الحضارة في عصور ما قبل التاريخ.

(٩) القشلة أو القشلاق: هو مكان إقامة العسكر ويقابله في العربية الثُكنة.

مفتي القضاء .

وبعد أن استقر المقام بنا ، قام الوكيل وارتمى على (القنفة)(١٠) وقال : «أحمد الله وأشكره على الخلاص ، وصل القائم مقام وانتهت مسئوليتي الصعبة التي أهلكتني» ثم وجه الكلام إليَّ ، وقال : «يا بيك هذه السماوة مشكل أمرها ، لا يرتاح فيها القائم مقام إلا بعد غروب الشمس . يدي على قلبي من الصباح حتى المساء ، لا أدري كيف ومتى تقع الكارثة ، الحمد لله على وصولك ، فقد أرحتني من المسئولية وألف الحمد لله» .

وبعد أن تناولنا العشاء وشربنا القهوة ، شاهدنا كتلة بشرية كبيرة تقترب منا في الظلام لم نتمكن من معرفة عددها . تقدم أحدهم إلينا ونحن في الإيوان ، فصرخ الوكيل في وجهه سائلاً عما يريد ، فأجاب : «بيك ، هذا التاجر يوسف رجوان قام بتحميل سفينتين بالحنطة ويريد إرسالهما إلى البصرة هذه الليلة ، والناس متجمهرة ثائرة وأخشى أن يهجموا على السفن وينهبوا ما فيها . ونحن نسترحم منك أن تمنع السفن من السفر» . صاح الوكيل ، قائلاً : «أخرجوا من هنا ، السفن ستسافر ولن تتأخر ، وسوف لن أسمع منكم أي كلام ، أنتم أشقياء تريدون نهب التجار» . وهنا تدخلت بلطف متوخيًا الحصول على بعض التفاصيل . أجاب الوكيل : «إن الذي أمامنا هو مختار الغربيين ، جاء إلينا مع هؤلاء السوَقة» . وعندما طلبت تأجيل هذه القضية إلى الغد ، خاطب الوكيل الجماعة ، قائلاً : «هذا قائم مقامكم الجديد فراجعوه غدًا» . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع بها أهل السماوة بوصولي .

وفي الليل ، استمعت إلى أحاديث إبراهيم بك ، الوكيل ، الكثيرة عن السماوة . وانتهت سهرتنا وأنا متعب جسميًا من مشاق السفر ، وفكريًا من أقاصيص الوكيل المخيفة التي أكدها الحاضرون .

وفي صباح اليوم التالي ، اصطحبني وكيل القائم مقام ومدير المال إلى دار الحكومة ، وكانت تقع على رأس الجسر من الجانب الكبير . قال الوكيل : «هذه دائرة القائم مقام ، يصاحبك في الغرفة مدير المال وأحيانًا القاضي أو رئيس البلدية» . وأردف قائلاً : «كان سلفي الوكيل السابق يبقى في داره ولا يداوم هنا ، غير أني غيرت ذلك وصرت أداوم ساعةً أو ساعتين كل يوم» ثم قال : «إني أودعك الآن ، فقد

---

(١٠) القنفة : الأريكة . وأصلها من الفرنسية Canape .

قررت السفر في السفينة التي جئت بها أنت» . قلت له «لم هذه العجلة؟ ، إني محتاج لبقائك يومين أو ثلاثة للاستفادة من خبرتك» . فأجابني بأنه لا يتمكن من البقاء ويريد التخلص من السماوة في أقرب وقت ، وأخفقت في إقناعه وسلمني الشفرة وذهب .

ودعته بكثير من الاحترام ، فإبراهيم بك هو من آل محمد باشا آل عبد الجليل الخديوي في الحلة ، وهو والد زوجة السيد عبد الرحمن أفندي النقيب . كان عمره آنذاك ثمانين عاما ، عيّن للسماوة لمعرفته بأحوالها ورجالها ، وبقي فيها ثلاثة أشهر في وقت لم يقبل بالقائم مقامية أي شخص آخر لا أصالةً ولا وكالةً ، رحمة الله عليه .

إخراج الحنطة

غادر إبراهيم بك ، ودخل عليّ المفتي والقاضي ورئيس البلدية مع ضابط الجندرمة توفيق بك ، وكرر مختار الغربيين طلبه في الليلة الماضية ، قائلاً : «إن الأهالي ينتظرون قراركم بشأن الحنطة» . وأمرت رئيس البلدية بأخذ عضوين من مجلسه لإحصاء الحنطة المتوافرة في السوق بسرعةٍ وبشكل دقيق ، وقدموا لي تقريرًا بعد ساعتين يتضمن أن الموجود منها لا يتجاوز سبعة أطنان فقط . لذا ، أمرت قائد الجندرمة بأن يبلغ التاجر اليهودي يوسف رجوان ، بقرار الحكومة بمنع سفر السفن واحتجاز أشرعتها والانتظار إلى الغد . ونفّذت هذه الأوامر بسرعة ، وأرجعت الحنطة الى الأسواق ، لحاجة السماوة الماسة لها ، فلا يزال هناك شهر لحلول موسم الحصاد الجديد .

وقد علمت عند التحقيق في هذه القضية أن وراءها رشوةً مقدارها خمسٌ وعشرون ليرة ذهبية . وعند تبليغه المنع ، أخذ التاجر رجوان يتوسل ويتضرع ، ذاكرًا الأضرار التي أصابته ، ولم أقتنع بصحة أقواله وهددته بالعقاب إذا لم يمتثل للأوامر .

وعندما علم الناس بإرجاع الحنطة ، فرحوا واستبشروا . وكانت هذه القضية فاتحةً جيدة للثقة بالإدارة وبأسلوبها الجديد في التعامل مع الأحداث .

وفي مساء اليوم التالي ، وردت برقية من قائد الجيش في البصرة ، تتضمن ضرورة إجازة سفر السفن لأن حمولتها من الحنطة تابعة للجيش . رفضت هذا الطلب وأجبت أن السماوة خالية من الحنطة وبحاجة لها . وفي اليوم التالي ، وردت برقية

أخرى من قيادة (الاوردي)[11] في بغداد شديدة اللهجة ، تأمرني بإرسال السفن إلى البصرة ، وكررت مرة أخرى رفضي لهذا الطلب . ثم تسلمتُ برقية ثالثة من الولاية أكثر شدة في محتواها ، وأجبت عنها بالأسلوب نفسه ، موضحًا الوضع المتأزم في السماوة . وهكذا أخذت المسؤولية على عاتقي ، وسكت أخيرًا الوالي والقائد معًا ، وانتهى الأمر بسلام .

قصبة السماوة وأهلها

تقع قصبة السماوة على جانبيّ نهر الفرات ، وقسمها الواقع على الضفة اليسرى يسمى جانب القشلة ، وذلك لوجود القشلة الكبيرة التي بناها الوالي نامق باشا الكبير[12] فيه ، ويسكن هذا الجانب ضباط الجيش والتجار وقسم من فرقة (البوجامل) . ويحد السور هذا الجانب من الشمال . أما الجانب الأيمن ، الواقع جنوب الفرات ، فيسكنه أهل السماوة الأصليون ، ويقسم إلى محلتين : الشرقي والغربي ، يفصل بينهما سوقٌ كبيرٌ وطريقٌ يبدأ من رأس الجسر وينتهي بسور المدينة ، الذي يحدّ هذا الجانب من الجنوب ، أي من جهة بر (الشامية) . وكانت الأسوار قديمة بالية ومتهدمة ، بنيت من الطين ، وعملت على إصلاحها للدفاع عن المدينة أمام غارات العشائر المجاورة .

يسود نفوذ القائم مقام على محلة القشلة فقط ، ويضعف هذا النفوذ على محلات الغربي والشرقي . ساد على محلة الغربي نفوذ رباط السلمان ، أحد سراكيل[13] أراضي الخناق السنية ، لكثرة أقاربه والمنتسبين إليه فيه . والمتنفذون في

(١١) الأوردي : جحفل من الجيش ، أصلها من الأوردو .

الأوردو :هي لهجة او لغة بعض مناطق باكستان وهي خليط من العربية والفارسية والبشتو ، تكونت نتيجة اختلاط افراد الجيش الذين هم من قوميات متعددة ، خليط من العرب والفرس والبشتو ، وقد كون هذا الخليط من البشر خليطًا من الكلمات صارت تسمى لغة الأوردو .

(١٢) نامق باشا الكبير : تولى ولاية بغداد مرتين ، الأولى في ١٨٥١-١٨٥٢ ، والثانية في ١٨٦١-١٨٦٧ .

(١٣) سراكيل جمع سركال : وتعني وكيل مالك الأرض في زراعتها ، وهي كلمة أعجمية أصلها (سركار) أي رئيس العمال .

محلة الشرقي متعددون ، أقدمهم طفار النعمة ، وكان عند وصولي سجينًا في بغداد ، ينوب عنه عبد الله الشاهر وصبار الحسين ، وهم من الرجال الشجعان المجيدين للرماية . وهناك متنفذون آخرون مثل عبد الله النايف ، وصلاح كصيص من فرقة (المكارية) المتحالفة مع الشرقيين .

والغربيون والشرقيون في نزاع مستمر يتقاتلون لأتفه الأسباب . وقد أدى ضعف الإدارة وتخوف المسؤولين من المتنفذين في هذه المحلات إلى تفاقم هذه النزاعات . كما كان المتنفذ في المحلة ينتفع شخصيا من النزاع ، لحصوله على نصف الدية(١٤) المخصصة للمقتول من جماعته .

أسلوب إداري جديد

تبنى المتصرفون وقائمو المقام وقادة الجيش من قبلي سياسة التوسط والاستعطاف لإنهاء القتال بين الغربيين والشرقيين ، وقد فشلت هذه السياسة في تحقيق السلام وأفقدت الحكومة احترامها وهيبتها . وكمثل للاستهتار بالسلطة ، الحكاية التالية : جاءني أحمد القادر ، مختار الغربيين ، بعد وصولي القضاء بيومين ، يحمل كتابًا من رباط السلمان ، رئيسهم ، يشرح فيه اعتداءات الشرقيين عليهم طالبًا القبض على المعتدين وتأديبهم ، وقد ختم الكتاب بعبارة (فلاح حضرته باد شاهي)(١٥) الشيخ رباط السلمان . وسألتُ المختار متجاهلاً عمن يكون (الباد شاهي) هذا ، وقلت له : إن كانت لديه شكوى فباب دائرة الحكومة مفتوح للمواطنين ، ومزقت الكتاب ورميته بوجهه . وفي اليوم التالي ، جاءني المختار بكتاب آخر من رباط السلمان ومزقته أيضًا قبل قراءته ، وكرر ذلك مرة ثالثة وحذرته هذه المرة من العودة وأنذرته بعواقب وخيمة ، فانقطع عن المجيء .

ومما أسهم في إضعاف هيبة الحكومة ، موقف ضباط الفوج وأفراده ، وتصرف آمره المباشر والسلبي بمنع أفراد القوات المسلحة من دخول منعطفات السور الكبير وأزقته ، وتحذيره لهم من التدخل في الاعتداءات والجرائم التي تقع أمامهم ، وعدم الابتعاد عن الشارع الرئيسي للسوق . وأصبح الأهالي يهزأون من الجيش وينشدون أهزوجتهم :

---

(١٤) الدية : التعويض عن القتل ومعناها الشرعي : المال بدل النفس .

(١٥) باد شاهي : السلطان العظيم .

(حيّة وما من سم بيها) .

بدأت إدارتي للقضاء ، بفتح باب بيتي لاستقبال المواطنين من مختلف الطبقات صباح كل يوم وقبل بداية الدوام الرسمي . أتاحت لي هذه الزيارات الاستماع إلى حكايات الناس وشكاواهم ، واكتساب خبرة ذات فائدة في معالجتي لقضاياهم . وقد أوحيت لزواري بأني مطلع على أحداث الماضي والحاضر وما خفي من الأمور ، وعالمٌ بأسباب النزاع ودوافعه ، وأسباب فشل الجهود المبذولة من رجال الإدارة والجيش السابقين لحسم الخلافات بينهم .

وفكرت بطريقة جديدة لإنهاء النزاع ، وهددتُ باستخدام الفوج العسكري النظامي ، بضرب الطرفين المتنازعين عند القيام بأي عمل يخل بالنظام ما دام التوسط بينهم لم يجد نفعًا . وطلبت من الشيخ حمود الحزام الطامع بالرئاسة إبلاغ أطراف النزاع بعزمي هذا ، وأخذت أقوالي تنتشر بين الناس .

العدالة العمياء

لاحظت عند مباشرتي الإدارة ، أن السوق الكبير كان مقفلاً ، والغربيون والشرقيون يوصدون أبواب دكاكينهم خوفًا بعضهم من بعض . وقد هرب الكثير منهم بعد أن حكم عليهم غيابيًا لمجرد تعرضهم لاتهامات خصومهم ، وصدرت هذه الأحكام من غير تبليغهم بها أو إفساح المجال لهم للدفاع عن أنفسهم ضدها .

ظهر لي أيضا أن الناس قد اعتادت على إقامة الدعاوى بعضهم على بعض ، وكان القاضي يضبط إفادة المشتكي والشهود سرًا في داره من غير تبليغ المتهم ، ثم يطلب من ضابط الجندرمة تأييد كون المتهم غائبًا ، ثم يرسل الأوراق إلى محكمة اللواء في الديوانية ، التي تطلب بدورها استقدامه ليؤكد القاضي مرة أخرى هربه . فتصدر محكمة الديوانية أحكامها بالسجن أو حتى بالإعدام أحيانًا بدون علم المتهم . وعندما تنشر هذه الأحكام على الملأ في سراي الحكومة ، يعم الرعب والفزع والهرب من المدينة . وكان القاضي هو المستفيد دائمًا من ظلم هذه الأحكام ، مستعدًا للإرضاء بالرشوة . وقد أدى ذلك بالطبع إلى شل الحركة التجارية بصورة كاملة .

إعلان العفو العام

بعد أن عرفت أسباب خوف الناس ، أعلنت العفو العام عن المحكومين غيابيًا ،

وطلبت من الهاربين والمشّردين الرجوع إلى أعمالهم ، وأوعزت إلى رجال الأمن عدم التعرض لهم ، إلا إذا خالفوا القوانين مرة ثانية وبعد صدور العفو العام .

كان قراري الإداري هذا شخصيًا بحتًا ، لا يستند إلى قانون أو أمر من مصدر أعلى . كنت متأكدًا أن الحكومة عاجزة عن القبض على الهاربين أو المحافظة على المعتقلين والمسجونين ، فإن قوة الجندرمة التي لا يتجاوز عددها العشرين جنديًا كانت غير كافية لذلك . وفي وقت كان فيه الجيش يمتنع عن مساعدة الإدارة في إجراءاتها القضائية .

كان أكثر المحكومين هم من الفقراء ، ذهبوا ضحايا للإجراءات الخاطئة غير القانونية ، وكنت واثقًا أن العفو العام سيطمئن أكثرهم للرجوع إلى أعمالهم وسيشجعهم على تحسين سلوكهم .

زارني في داري ، بعد إعلان العفو بيومين ، كل من عبد الله الشاهر وجبار حسين من رؤساء الشرقيين ومعهم رهط من رجالهم المسلحين ، وأكدتُ عليهم ضرورة الاستفادة من العفو العام ، فوعدوا بالطاعة والامتثال للقرارات الجديدة ، وتركوني وألسنتهم تلهج بالشكر والثناء .

وبعد ثلاثة أيام ، جاءني مختار الغربيين ، ونقل لي رغبة رباط السلمان بزيارتي ، ورجاني أن أسمح له بذلك . حضر رباط ومعه اثنان من أتباعه ، واعتذر عن عدم مجيئه سابقا لتخوفه من الشرقيين ، وأكد لي طاعته للحكومة وشكرني وانصرف . وتوافد الناس بعد ذلك على دوائر الحكومة وهم مغتبطون شاكرون . كما أشاد متصرف اللواء رشيد بك بإجراءاتنا الجديدة .

وما إن استقر الوضع حتى توافد المظلومون عليَّ يسردون حكاياتهم : فهذا كاتب عرائض اختفى لمدة سنة كاملة من حكم لم يعرف سببه ، وبقال في السوق توارى عن الأنظار من حكم غيابي حرمه من عمله لغير سبب . ولفيف من التجار قالوا إنهم كانوا ضحية عملية ابتزاز من بعض المحتالين ، الذين وعدوهم بالتوسط للتخلص من أحكام مجحفة .

طلبت من متصرفية اللواء تنحية القاضي عن القضاء وإنقاذنا منه ، فاستدعته لمدة وجيزة وأرجعته بعدها لإكمال مدة خدمته المقررة ، والتي هي سنتان ونصف ، وصرت خلالها أراقبه مراقبةً دقيقة ، ومنعته من النظر في الدعاوى المقدمة إليه قبل اطلاعي عليها .

وبعد مرور شهرين ، تم إعلان الدستور ، وجلوس السلطان محمد رشاد على العرش . وبُلغنا بإعلان العفو العام رسميًا ، فاستبشر الناس جميعًا . وفي ١٤ نيسان ١٩٠٩ ، تأسست لجنة للتنسيق ، وأصدرت أمرًا يعزل القاضي ، وكان ذلك نهاية لأحكامه الجائرة .

تخاذل القوة العسكرية

بعد أن استتب الأمن داخل السماوة ، أردت جمع الرسوم من ملاك البساتين ، شرقيين كانوا أم غربيين وبصورة تدريجية . فصندوق المال خاو ، ورواتب الموظفين تردنا من اللواء . طلبت من ضابط الجندرمة القيام بهذه المهمة ، فأجابني : بأن ليس لديه سوى ثمانية جنود مشاة فقط ، أحدهم مكلف بحراسة الموقف ، واثنان بحراسة دار الحكومة ، والبقية لتنفيذ قرارات المحكمة . فأمرت الضابط باصطحاب جنديين من قوته لجمع الضرائب ، وقام بواجبه بشكل جيد حتى وصل إلى كرود[(١٦)] (حرب) وهي آخر نقطة من بساتين الغربيين . كان حرب منشغلاً بدوس[(١٧)] الشتوي ، وعند مطالبته بالرسوم أجاب الضابط ، قائلاً : «كيف تتجاسر وتأتي إلى هنا وتطالبني بالضرائب؟» وأخذ يضرب الضابط وجنوده بالمراوح[(١٨)] . وجاءني الجندي يخبرني بما حدث ومعه الضابط الجريح . فصحبتهم إلى مقر الفوج حيث كان الضباط مجتمعين يشربون القهوة ، وطلبت من قائدهم الاستماع إلى حكاية الضابط وهو يسردها بالتفصيل . وعند انتهائه ، قال القائد : «هذا ما قلناه ونبهنا عنه وحذرنا الفوج منه» ، ثم قال لي : «يا بك أنت لا تعرف أهل السماوة وعشائرها ، إن الدخول معهم في نزاع يؤدي إلى عواقب وخيمة» . وأجبته غاضبًا : «كيف يمكنك السكوت على إهانة ضابط الجندرمة وجنوده أثناء قيامهم بواجبهم؟ إن من الواجب عليك أن ترسل قوة الآن لتأديب المعتدين» . وامتنع القائد ، قائلاً : بأنه لن يرسل جنديًا واحدًا ، وهو غير راغب في الاشتباك والقتال مع عشائر السماوة . أجبته : إن من العار على الجيش

(١٦) الكرود جمع كرد : وهي بئر على فوهتها دولاب أفقي يديره حيوان ، وهو أسلوب متبع بكثرة لإسقاء البساتين في العراق ، ومنه كلمة كرادة .

(١٧) دوس الحبوب : دراسة الحبوب .

(١٨) المراوح جمع مرواح : وهو الذي يستعمل في ذر الحبوب .

وقائده التهرب من حوادث بسيطة كهذه ، ومن الخزي أن ينزوي الجيش المدجج بالسلاح في ثكنته ، يأكل ويشرب ولا يغضب للإهانة ، وهو المسؤول المباشر عن المحافظة على الأمن وهيبة الحكومة . سألته : كيف يمكنه معاملة أفراد قوته كالأطفال ويمنعهم من التجوال في أزقة السوق خوفًا من الأشقياء والعابثين؟ وقلت له : «هذا عار لا يرضى به الضباط ولا الجنود» . وتركت الثكنة غاضبًا وفي غاية التأثر ، وقررت توجيه كتاب شديد اللهجة له ، طالبًا منه التدخل فورًا .

وشاهدت بعد رجوعي إلى مكتبي ، مفرزة من الجيش تعبر الجسر متوجهةً إلى السراي ، وأقلقني ذلك . تصورت أن المفرزة قد أرسلت لإهانتي كما كان يحدث كثيرًا في تلك الأيام ، فقد اعتاد الجيش الهجوم على مقر الحكومة كلما لم يتسلم مخصصاته ليعتقل القائم مقام ومدير المال . وقررت الدفاع عن نفسي ، فطلبت من مرافقي أن يستعد بسلاحه وأمسكت بيدي عصًا ، منتظرًا وصول المفرزة بقلق .

وما إن وصلت المفرزة حتى انفصل عنها اليوزباشي خيري أفندي ، وأدى التحية العسكرية ، وقال بأدب بالغ : «إن جميع الضباط قد تحمسوا عند سماعهم كلامك ، واعتبروا أن الإهانة كان سببها القائد ، ولذا قرروا تنحيته عن منصبه وإناطة قيادة الفوج إلى (القول أغاسي)(١٩) أمين أفندي ، الذي أمرني باصطحاب خمسة وثلاثين مسلحًا ليكونوا رهن إشارتك ، ولينفذوا أوامرك . شكرته ، وطلبت منه القبض على المعتدين ومصادرة حاصلاتهم ، وإعلامي إن كانت هناك حاجةٌ إلى إجراءات أخرى . نفّذ الضابط واجبه بسرعة ، وشاهدت النيران تندلع من منطقة التمرد ، ونُقلَتْ الحاصلات المصادرة إلى السماوة ، وبيعت علنًا واحتسبت قيمتها على ديون المعتدين إلى الدولة ، واعتقلنا أحد المعتدين ، وطلبت من رئيس الغربيين اعتقال البقية منهم حالاً ، وإيداعهم السجن انتظارًا لمحاكمتهم . كما طلبت من الولاية تنحية قائد الفوج وإسناد القيادة إلى معاونه الشيخ السيد أمين . ثم زرت الفوج ، وشكرت قيادته الجديدة على موقفها . وقد أثرت هذه الإجراءات السريعة تأثيرًا كبيرًا في استقرار الأمن في القضاء ، ولم يقع بعد ذلك حادث يذكر لمدة سنة ونصف ، أي حتى تسلم

---

(١٩) قول أغاسي : رتبة عسكرية مساوية رتبة رائد أو وكيل قائد .

ناظم باشا ولاية بغداد[٢٠] .

وبعد فترة وجيزة ، استبدل الفوج بفوج ديالى ، وهو من صنف (الرديف) : الاحتياط تحت إمرة قادة حريصين على سمعة الإدارة ، منهم : (البكباشي) حسين أفندي القهوجي ، و(القول أغاسي) الأركان زكي بك .

وعندما علم ضباط القوة الجديدة بأني أقوم بنفسي بالإشراف على أعمال الحراسة والدورية ليلاً ، طلبوا مني أن يقوموا هم بهذا الواجب عوضًا عني ، وهكذا أخذ الجيش يتعاون مع الإدارة بشكل تام .

سراق وسرقات

بعد أن استقر الصلح بين الغربيين والشرقيين ، نهب أحدهم مسبحة من يد دلال كان يعرضها للبيع في السوق . والسارق كان من الغربيين واسمه حسن بن حسين ويلقب (بأبي الذهب) ، وهو من ذوي السوابق . وعندما أحضروه أمامي ، وقف خائفًا وهو يرتجف . سألته : لماذا قام بهذا العمل وهو محكوم غيابيًا من قبل؟ لم يجب بكلمة واحدة ، فأمرت باعتقاله . وفي طريقه إلى القشلة وعلى منتصف الجسر ، ألقى بنفسه في النهر وأخذ يسبح مع التيار . فأمرت أفراد الجيش والشرطة بأن لا يعطوه مجالاً للخروج من الماء ، حتى أنهكه التعب فسلّم نفسه وأودع السجن ، ثم أرسل إلى الديوانية مع أوراقه السابقة وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، وهكذا أصبح عبرة لغيره . وعلمتُ مؤخرًا أنه أصبح مختارًا لمحلة الغربيين في سنة ١٩٥٦ .

وبعد أن استتب الأمن بثلاثة شهور ، جاءني في أحد الأيام التاجر اليهودي يوسف رجوان والاضطراب باد عليه ، وهمس بصوت خافت ، قائلاً : إن قاصته الحديدية قد كُسرتْ ليلاً وسرق كلّ ما فيها من مال وأمانات كثيرة للناس ، وإنه الآن خائف على

---

(٢٠) ناظم باشا : الفريق حسين ناظم باشا والي بغداد ١٩١٠-١٩١١ ، كرجي الأصل لقب بمدحة الثاني لإصلاحاته الكثيرة . فتح شارع النهر (أول شارع في بغداد) وأقام سدة في شرق المدينة سميت باسمه ، ودفن الخندق وأسس غرفة تجارة بغداد . استتب الأمن في زمانه . عين وزيرًا للدفاع في وزارة كامل باشا الائتلافية (حزب الحرية والائتلاف) ، وقتل في مظاهرة نظمها حزب الاتحاد والترقي المناوئ لها ، ويقال إن الذي اغتاله هو أنور باشا . كان مصرعه في ٢٤ شباط ١٩١٣ أثناء خروجه إلى المتظاهرين من شرفة الباب العالي ، حيث كان مجلس الوزراء منعقدًا .

حياته إذا ما عرف المعتدون أنه راجعني شاكيًا . طمأنته ، وأرسلت قائد الجندرمة للتحقيق في الجريمة . وظهر أن القاصة قد كُسرتْ بطلقات نارية ، وأن الحارس المكلف بحراسة الخان كان غائبًا تلك الليلة ، منيبًا عنه شابًا هرب بعد الحادث .

استدعيت رئيس الغربيين وطلبت منه إحضار الحارس الشاب . وبعدما أحضره طلبت أن يتركه معي ومع القاضي . أدخلته الحرم في بيتي وأوثقته بإحكام على عمود الشرفة ، وأخذت أسأله عن السرقة ، فأنكر . وهددته تهديدًا عنيفا ، والقاضي يتوسل إليّ لتركه . وبعد ساعة من الزمن اعترف بجريمته ، ووعد بإرجاع المسروقات ، لكنه لم يعترف بأسماء المشاركين معه ، زاعمًا أنه سيُقتلْ إن أفشى أسماءهم . وأخذت وعدًا منه بأن لا يعود للسرقة مرةً أخرى ، وأطلقت سراحه بعد أن زودته ببعض المؤن . وفي اليوم التالي جاءني التاجر شاكرًا .

الشيخ حمود الحزام

قال لي الوالي ، نجم الدين منل ، قبل سفري إلى السماوة : «إن في بغداد رجلاً اسمه حمود الحزام يدعي أنه رئيس (بني حجيم)[٢١] وهو يطالب بتجديد رئاسته ، ويتعهد بإصلاح الحالة في السماوة إذا ما زودناه بمئتي جندي خيال ، أريدك أن تتصل به فما هو رأيك؟» أجبته بأني لا أعرف الرجل ، وأرغب بلقائه .

وجاءني الشيخ حمود وبدا واثقًا من نفسه ، وكرر طلبه للقوة العسكرية ، ووعدته بتنفيذ طلبه . عرفت منه أنه ينتسب إلى عشيرة (آل محسن) ، وهم من أشراف مكة وموضع احترام (بني حجيم) . وسبق للعشيرة أن اختارت شقيقه (محمد الحزام) لرئاستها عوضا عنه لمدة من الزمن .

أقنعني الشيخ حمود بمقدرته على المساهمه في توطيد الأمن ، واقترحت على الوالي تكريمه ، فأنعم عليه بـ(الخلعة) وألبسه (الكسوة)[٢٢] قبل أن يسافر إلى السماوة . ومنذ أيامي الأولى في القضاء ، خصصت له محلاً لسكناه في مخزن

---

(٢١) بني حجيم : مجموعة كبيرة من العشائر تقطن المنطقة بين السماوة والرميثة إلى ناحية الخضر والدراجي جنوبًا . انطلقت منها الثورة العراقية ١٩٢٠ . وتصفها (مس بل) بأنها كانت مثالاً للتفكك القبائلي يقاتل بعضها بعضًا .

(٢٢) الخلعة والكسوة : بزة الشرف .

حبوب السنية ، الواقع في الجانب الجنوبي ، وزودته بتعليمات خاصة . ونتيجةً لجهوده وتعاونه ، تمكنت من التعرف على رؤساء (بني حجيم) التي كان رجالها لا يثقون بالحكومة ويتخوفون منها ولا يأمنون زيارة القضاء . منحتهم الأمان ، فبدأوا يترددون على المدينة ، وأخذ الكثير منهم يراجعونني لالتزام الحاصلات الشتوية والصيفية .

كان أفراد العشائر يستغربون من زيارتي لهم خارج المدينة منفردًا ومن دون حماية ، ولا يصدقون أن من يزورهم هو القائم مقام المسؤول ، حيث لم يسبق لهم معرفة قائم مقام يتصرف بهذا الأسلوب من قبل . ومكنتني هذه الصلات من الحصول على وارداتٍ جديدة للدولة من عشائر (البو جياش) و(العبس) و(الزياد) و(الجواير) و(البركات) .

جاءني الشيخ حمود في أحد الأيام يخبرني بأن الغربيين والشرقيين قد عقدوا صلحًا بينهم ، ويرغبون في إجراء (عراضة) أي : مظاهرة أمام داري إعلانًا لهذا الاتفاق ، ووافقت على ذلك . واستعرضتْ أمامي جموع مسلحة مع رؤسائها وهي تردد الأهازيج المعروفة مثل (يا سيد جدك يحميها) و(يا سيد دارك مأمونة) . استغرقت المظاهرة ساعتين انقضت بعدها بسلام ، وجموعها فرحة بالوعود التي قطعتها لهم بمزاولة أعمالهم بحرية وأمن .

وحفظًا للسلام ، أمرت بمنع التجول بعد العاشرة مساءً وحتى الفجر . وأخذت على عاتقي تفتيش محلات الشرقي والغربي بعد منتصف الليل ، مكتفيًا بالضرب بالعصا كل من يخالف منع التجول . كان هذا هو خياري الوحيد للعقاب لأننا كنا نفتقر إلى وجود سجن في السراي وحرس لحمايته .

بقي حمود الحزام شهرين في السماوة . وبالرغم من خدماته الكثيرة ، لم تستجب الولاية لطلباته المتكررة لتخصيص مكافأة له تغطي راتبه ومصاريف إدارته ، مما جعلني أساعده من مالي الخاص . وربما كان سببٌ ذلك تبدل الولاة السريع في بغداد .

غادر الشيخ حمود السماوة إلى قرية الدراجي[٢٣] وهو مريض ، ثم توفي هناك عند نشوب القتال بينه وبين عمه ، عاجل الدبي .

---

(٢٣) الدراجي : قرية على الضفة الشرقية من الفرات في منتصف المسافة بين السماوة والناصرية .

قتال بين الأقارب

بعد أن تسلم الولاية الفريق ناظم باشا بعشرين يومًا ، نشب قتال بين حمود الحزام وعمه عاجل سببه خلاف حول ملكية الأراضي ، سقط نتيجته عشرة قتلى . وذهبت إلى مضارب هذه العشائر لإصلاح ذات البين ، مستصحبًا معي رؤساء من (بني حجيم) كرئيس (الصفران) ، معجون الحمادي ، ورئيس (الزياد) ، بندي الضامن ، والسيد جابر الحافظ .

وعند مرور سفينتنا أمام شاطئ عشيرة (العبس) هددتنا وحاولت منعنا من المرور ، وذلك لعداء سابق بينها وبين معجون الحمادي الموجود معنا . وبعد أن أفهمناهم قصدنا ووجهتنا ، سمحوا لنا بالمرور . ووصلنا ناحية الدراجي وبتنا فيها ليلةً واحدة عند عاجل الدبي ، ثم قضينا ليلتين عند حمود الحزام ، وتمكنا من إزالة الخلاف وعقد الصلح بينهما ، وأخذنا منهما التعهدات اللازمة للمحافظة على السلام .

وبعد مرور شهرين على هذا الاتفاق ، هجم جماعة عاجل الدبي على دائرة البريد في الدراجي ، وحطموا آلة البرق فيها لأنها (تكرش) عليهم أي بمعنى : تنقل الأخبار وتتجسس عليهم . وكتبت للولاية عن هذا الحادث ، فوعدت بإرسال أفرادٍ من الجيش لتأديب هذه العشيرة . أجبت : بأن قوةً كهذه لا تجدي نفعًا ، لأن عشائر (المنتفك)[٢٤] متحالفة مع عاجل ، وولدهُ (نايف) يترأس إحدى عشائرها . وحمود الحزام متحالف مع عشائر(بني حجيم) ، ولهذا هناك حاجة إلى قوة لا تقل عن أربعة أفواج ومئتي خيال . ولم يردني جواب من الوالي الفريق على طلبي ، قبل تركي قضاء السماوة .

الفوج يترك السماوة

أقلقني أمر الوالي الفريق ناظم باشا بسحب الفوج إلى بغداد . أخبرني بهذا القرار آمر الفوج ، الضابط الركن زكي بك ، قبل تحركه بيوم واحد . وبعد رجوعي من توديع الجيش ، رأيت في طريقي إلى السراي رجلاً جريحًا ، ودلالاً نهبت منه عباءةٌ كان

(٢٤) المنتفك (المنتفق) : اسم أطلق على اتحاد قبائل في الفرات الأوسط في القرن السابع عشر ، ثم أطلق على محافظة ذي قار . (الناصرية في العهد الملكي) .

يريد بيعها ، وبزّازًا يهوديًا يبكي لفقدان قماش سلبوه منه . وكانوا جميعهم يرددون قول المعتدين بأن الحكومة قد ولت بذهاب الجيش وليس هناك خوف من الحكومة .

تألمت كثيرًا لهذه الأوضاع المستجدة ، وقررت منع الفوضى مهما كلفني الأمر . أخذت بضعة جنود من الجندرمة معي إلى السوق ، وجلست في محل (البهبهاني) ، صاحب ماكنة كبس الصوف ، والغضب باد على وجهي . وتجمع الناس من حولي منتظرين ما سأفعل . طلبت حضور المختارين ورؤساء المحلات ، وأحضرت كذلك المعتدين وطلبت إلقاءهم أرضًا ، وبدأت أضربهم بعصايَ واحدًا بعد الآخر ، ولم أتوقف حتى رجاني رؤساؤهم بالعفو عنهم . وكنت أردد عند ضربي لهم : «أتعتقدون أن الحكومة قد ولّت؟ كلا إنها لا تزال هنا وهي أقوى من قبل ، وسوف لن أسمح لأحد بمخالفة القانون» .

ووصلتنا أخبار آنذاك عن أعمال الوالي الفريق ناظم باشا التي تبهر العقول ، ومنها سياسته في جمع القوات العسكرية في بغداد ، ستعدادًا لضرب أي تمرد ضد الدولة وأينما يقع وأعمال رائعة أخرى .

مغادرة السماوة

تعاقب على ولاية بغداد أثناء عملي في السماوة عدة ولاة لم تتح لي الظروف مقابلتهم . وكنت كلما أسمع بتعيين والٍ جديد ، أقدم طلبًا للإجازة ويرفض الطلب . وكان رفض الولاة يتضمن دائمًا الإشادةً بأعمالي والشكر والثناء عليَّ وتشجيعي على الاستمرار في عملي .

وكان قد صدر أمرٌ من الهيئة الإصلاحية بتثبيتي في القائم مقامية براتب جديد قدره ألفا قرشا ، عوضًا عن الألف وسبعمائة وخمسة وعشرين قرشًا ، راتبي السابق ، وذلك في ١١ شباط ١٩١٠ .

قدمت إلى الوالي ناظم باشا ، بعد مرور شهرين على ولايته ، طلبًا لنقلي من قضاء السماوة بعدما أصابني الكثير من الإرهاق ، وجاءتني الموافقة على نقلي إلى قضاء (الجزيرة) أي : الصويرة بعد عشرة أيام . فرحت كثيرًا وكتمت الخبر عن أهل السماوة خوفًا من معارضتهم . وبقيت أنتظر وصول بديلي ، سلطان بك الجبوري ، القائم مقام الجديد .

إلا أن الكتمان لم يدم طويلاً وشاع الخبر بين الناس ، فتجمهروا أمام السراي ،

يرجون عدم مغادرتي ، وهددوا بالعصيان والاحتفاظ بي مهما كلفهم الأمر . وبذلت جهدًا في تهدئتهم ، مبينًا لهم أن القائم مقام الجديد هو من رؤساء العشائر ، وسيسلك الأسلوب نفسه الذي عملت فيه في إدارة القضاء .

وعند وصول خَلَفي ، غادرت في السفينة (آغا جعفر) إلى ناحية (الشنافية) . وكان في توديعي جمع غفير من المشايخ والتجار وأهل البلد . وشكرت الله عز وجل على خلاصي من هذا القضاء الذي لم أرتح فيه يومًا واحدًا .

بقيت في بغداد أسبوعًا ، قابلت فيه المسئولين ، وقمت بخدمة أخي عبد الرحمن الذي كان يشكو من مرض شديد في يده . ثم سافرت بالباخرة النهرية إلى (الجزيرة) .

الفصل السادس
قائمَ مقامٍ لقضاء الجزيرة (الصويرة)

في قضاء الجزيرة

باشرت عملي الجديد في ١٤ أيلول ١٩١٠ ، وكان مركز القضاء قد نقل إلى موقع الصويرة الحالي من موقعه السابق شرق ترعة (حمد) في المنطقة المسماة (سويبط) . واتفق القائم مقام السابق طالب بك وقائد الجندرمة إسماعيل أفندي جاجان والأهلين على نقل المركز إلى موقعه الجديد ، لأن الموقع القديم كان محدود المساحة لا يسمح بالتوسع والرطوبة عالية فيه . وخططوا الموقع ، فخصصوا مناطق لدور السكن وباشروا ببنائها ، كما شقوا طرقًا مستقيمةً وبنوا سوقًا كبيرةً وجامعًا ومحلات تجارية . جرى كل ذلك من غير إعلام الولاية وموافقتها . ثم اكتظ القضاء بالمهاجرين من الحلة بعد انهيار سدة الهندية وجفاف نهر الحلة[١] .

يقع قضاء الجزيرة على الساحل الأيمن لنهر دجلة ويحد بغداد من الشرق ، ومجموع نفوسه خمسة عشر ألف نسمة معظمهم من عشائر الزبيد . وفي مركز القضاء ستمائة دار وثمانون دكانًا وثلاثة آلاف نسمة من السكان . تحيط بالمركز أراضٍ زراعية ومضارب عشائر (بني عجيل) و(الجحيشات) . ويقابل المركز أراضي قضاء العزيزية على الساحل الأيسر لدجلة . ويلتحق بالقضاء ناحية واحدة اسمها (أعيوج) .

(١) جفاف نهر الحلة : يتفرع الفرات جنوب المسيب إلى فرعين مهمين ؛ أحدهما شط الهندية (أو شط الكوفة) ، والثاني هو شط الحلة . أحال اسكندر المقدوني الماء إلى شط الحلة (شط بابل) . وحفرت أسيرة هندية جدولاً صغيرًا من شط الحلة إلى شط الكوفة في القرن السابع عشر ، ولذا سميّ بشط الهندية . تكررت مشاكل جفاف نهر الحلة وتراكمه بالطمي فبنيت سدة الهندية في زمن الوالي سري باشا ١٩٠٠-١٩٠٢ ثم سدة قويمة أخرى ١٩١١-١٩١٣ بناها (ولكوكس) ، وسدة كونكريتية حديثة سنة ١٩٨٦ لضمان تدفق المياه في شط الحلة .

إنارة القضاء

كان لموقع الصويرة أهمية كمرفأ نهري لارتفاع أرضه ولسهولة استعماله كمرسى للبواخر . وبالرغم من أهميته هذه ، افتقر المركز للإنارة الكهربائية ، فاقترحت على رئيس البلدية ، الحاج حسن اللبان ، أن يشتري خمسين فانوسًا تصرف تكاليفها من صندوق البلدية الذي كان يحتوي آنذاك على مائة وخمسين ليرة ذهبية . رفض الحاج حسن هذا الاقتراح ، محتجًا بأن الميزانية مخصصة لأمور التنظيف وإعانة الفقراء ونقل الجنائز إلى النجف الأشرف ، وعبثًا حاولت إقناعه بأن التنوير هو من أولى واجباته .

كان رئيس البلدية رجلاً متدينًا ، إلا أنه كان يستغل أموال البلدية لأعمال تجارية . ونتيجة لضغطي عليه ، قدم استقالته ، فأسندتُ رئاسة البلدية إلى الملا علي الحلاق ، أكبر أعضاء مجلس البلدية سنًا ، وأرسلت حالاً إلى بغداد ليشتري الفوانيس ، فأحضر لنا خمسين فانوسًا كبيرًا كلفت البلدية أربعمائة قرش فقط ، أي : أقل من أربع ليرات ذهبية . علقت هذه الفوانيس في طرق البلدة وفي الأسواق وعلى ساحل النهر ، وتفاجأ ربان البواخر برؤية شاطئ الصويرة يتلألأ ليلاً ، وراودهم الشك فيما إذا كان ما يشاهدونه هي الصويرة نفسها ، وتوافدوا عليّ يشكرونني على عملي .

جمال باشا في الصويرة

بعد قيامي بحسم الخلافات الكثيرة على حدود الأراضي والمقاطعات الزراعية ، وجهت اهتمامي إلى تطوير المدينة وبناء دور سكن لاستيعاب المهاجرين الكثيرين من الحلة .

ولانعدام وجود الأشجار والنخيل ، شجعت مالكي الكرود والأراضي على الإكثار من زرعها ، حيث لم يكن في القضاء آنذاك إلا بستان واحد هو بستان الخضيري . وواجهت معارضةً شديدةً من مأمور(طابو) القضاء ، الذي كان يقتلع الأشجار ويعارض كذلك في توزيع الأراضي على المواطنين . والغريب أنه تمكن من الحصول على أمر من إسطنبول يؤيده على ضرورة قلع الأشجار ، واعتبرني مسئولاً عن التنفيذ .

ومن حسن الصدف أن يمر الوالي جمال باشا(٢) بالقضاء وهو في طريقه إلى

(٢) جمال باشا : والي بغداد ١٩١١-١٩١٢ من غلاة حزب الاتحاد والترقي ، وصفَ أنه ذو ثقافة عصرية . أصبح وزيرًا للبحرية ثم تسلم قيادة الجيش الرابع في دمشق وقام بهجوم فاشل على قناة السويس ، وفي ١٤ كانون الثاني ١٩١٥ سمي بالسفاح لإعدامه رجال العرب الأحرار في ساحات ==

الكوت . انتهزت هذه الفرصة وأخذته إلى سطح دائرة القائم مقام ، وقلت له : «إن البلدة لم تكن خضراء بهذا الشكل عند قدومي إليها ، والآن تطلب نظارة (الطابو) مني ، قلع هذه الأشجار اليانعة والمثمرة ، وتطالب كذلك بأجور باهظة عن دور السكن» . أبدى الوالي سروره لآرائي في تطوير القضاء ، وطلب مني أن أقدم مقترحًا للولاية بجعل سعر المتر الواحد من الأراضي المبنية بعشرة فلوس ، والمتر من الأراضي المزروعة بالأشجار بعشرين فلسًا . وبعد مرور شهرين وافقت نظارة (الطابو) على مقترح مجلس الولاية المؤيد لمقترحاتنا ، ومنح الغارسين وأصحاب الدور أوراق (طابو) بالملكية ، وعم الفرح على الجميع . وعلمت مؤخرًا أن ما غرسناه في ذلك الوقت أصبح الآن بساتين عظيمةً ، تمتد من مركز القضاء وحتى بستان (الخضيري) في ضواحي المدينة .

وفي مجال الخدمات البلدية ، واصلنا شق الطرق في البلدة ، وبنينا دارًا كبيرةً لدائرة ناحية (أعيوج) ، وجناحًا لسكنى مديرها بمبلغ ثمانٍ وتسعين ليرةً ، جمعناها كإعانات من المزارعين . وقد سميت هذه الناحية بعد الاحتلال البريطاني بـ(الزبيدية) .

خدمات للبرق والبريد

كانت الصويرة تفتقر إلى خدمات البرق والبريد . وكانت هذه الخدمات تصلها عن طريق قضاء العزيزية بصورة غير مباشرة ، وهو يبعد عن قضائنا بنحو خمس ساعات . ونتيجة لمراجعاتي المتكررة ، وافقت الولاية على مد خط للتلغراف من بغداد سنة ١٩١٣ . وكان أول من شغل مأمورية البرق والبريد هو أحمد بك آل شعبان باشا .

وقد تفضل الشاعر خيري الهنداوي بنظم الأبيات التالية :

أنشأ خط البرق في قطرنا
من هو حصن للمعالي حريز

== بيروت ودمشق . اغتيل في ١٨ تموز ١٩٢١ في مدينة تفليس في القفقاس وهو في طريقه إلى أفغانستان بدعوة من أمان الله خان لتنظيم جيشه .

يــــا طـــــالبــًا رمـــــزًا لآثـــــاره
هي التي تكشف فـــيـــهــا الرمـــوز
يــكـفــيـك أن تــرمــز تـــاريـخـهـــــا
البـــرق مـــن آثـــار عـــبـــد العـزيـــز

٣٣٣ ٩٠ ٧٠٣ ٧٦ ١٢٥ سنة ١٣٢٧

حريق في السوق

كنت في بيتي مساء يوم ٢٥ آذار ١٩١٢ مع بعض الضيوف ، وإذا بالخادم يصيح : «السوق يحترق» . فأسرعت مع بعض الموظفين وصعدنا على سقف السوق من السلم المحاذي إلى (علوة جاسم)(٣) ، وأخذنا نحطم السقوف الخشبية المحترقة ، محاولين إيقاف سريان الحريق ، حتى نادانا رجل من الجهة المقابلة محذرًا بأن السقف تحتنا على وشك الانهيار ، وما إن تراجعنا عن موقعنا حتى انهار السقف كليًا ونجونا من هلاك محقق .

كان سبب الحريق فانوس الحارس النفطي الذي أضرم النار ، فتسربت بسرعة لتلتهم جميع الدكاكين وتقضي على السوق بأكمله . ومن حسن الحظ أنه لم تكن هناك خسائر مالية كبيرة لأن البضائع قد نقلت من السوق بسرعة . ومن المؤسف أن يكون الحريق قد قضى على أحد الحمالين المساكين وهو ينقل قاصة حديدية من أحد الدكاكين .

البو سلطان والزبيد

على أثر قتال عنيف بين عشيرة (البو سلطان) و(الزبيد) ، أمرت الولاية الجيش بإزاحة عشيرة (البو سلطان) من أراضيها في (الغبيشي) و(أم الجكاير) ومن أراضي السنية في(البغيلة) ، وأسكنتها أراضي في الحلة .

وفي زمن ولاية ناظم باشا ، طالب رؤساء (البو سلطان) : عداي الجريان والهيمص العباس ، بإعادة أراضيهم السابقة ، فشكلت لجنة من قائم مقامي الكوت

(٣) العلوة : الأسواق الرئيسة .

والجزيرة ومدير أراضي (البغيلة) السنية وضابط من الجيش ، معتمداً من الوالي لهذا الغرض .

ولم تتوصل هذه اللجنة إلى حل متفق عليه ، لمعارضة عضوها مدير أراضي السنية ، وهو تركي الأصل . وكان المحرض الرئيسي لعدم الاتفاق هو قائد الجندرمة في الكوت ، وبرفقته ثلاثون جنديا ، وهو ليس عضوا في اللجنة . وزاد الموقف توتراً تظاهر فرقة (الدليم) من عشائر (الزبيد) ، وإحاطتها بمقر اجتماعنا ، وهي تحتج و(تهوس)[٤] ، عارضةً لنا عظام وجماجم شهدائهم في القتال الماضي ، قاصدين بذلك استدرار عطف أعضاء اللجنة ورئيسها .

وفي اليوم الثالث من اجتماعنا ، عرضت عليهم مشروعًا يقضي بترك عمود نهر (الغبيشي) من دجلة حتى انعطافه ، إلى عشيرة (الدليم) من (الزبيد) ، ومن اعوجاج النهر حتى (البزايز)[٥] ، إلى عشيرة (البو سلطان) . على أن ينشأ عمود جديد ، أي : نهر مواز للنهر الأصلي ، بطول ثلاثمائة متر ، ليكون الخط الفاصل بين العشيرتين . وبهذا أرجعت أراضي (الغبيشي) و(أم الجكاير) وقسمًا من الأراضي السنية في (البغيلة) إلى (البو سلطان) ، وتركت الأراضي الواقعة غرب نهر (الغبيشي) ، إلى (الزبيد) ، بشرط أن تقوم بصيانة (بزايز) النهر كلما احتاجت إلى ذلك .

وافقت اللجنة على مقترحي هذا وخالفه مأمور السنية وحده ، فلم نتمكن من الوصول إلى اتفاق بالإجماع حتى طلبت إقصاء قائد الجندرمة عن مقر اللجنة ، فهو لم يكن من أعضائها وليس له حق التدخل في قراراتها أو التأثير على أعضائها .

وبعد التوقيع على القرار ، أخذت عشيرة الزبيد تهوس وتظهر عدم رضاها ، إلا أن اللجنة لم تلتفت لها ، وانتهى الأمر بإسكان البو سلطان في الأراضي المخصصة لها ، بعد أن حفرنا الجدول الرئيس لنهر (الغبيشي) ، وانتهت القضية بسلام .

رئاسة الزبيد

إن معظم سكان الصويرة هم من عشيرة (الزبيد) ما عدا فرقة صغيرة من عشائر

---

(٤) تهوس : تتظاهر وتهتف .

(٥) البزايز : الأراضي البعيدة عن مصدر الأرواء .

(الجبور) تسكن منطقة الديوانية في القضاء . وعندما توليت أمور القضاء ، كان رئيس (الزبيد) هو الشيخ عجيل السمرمد ، وهو شاب طموح ذو هيبة ووقار ، عرف بأطماعه بممتلكات أفراد عشيرته . كنت أسمع عنه مثلاً أنه إذا ما شاهد فرسًا جميلةً أو بقرةً ممتازة طلبها من مالكها بلا مقابل ، كما كان يستوفي ضرائب حكومية من عشيرته أكثر مما هو مكلّف بجمعها ، محتفظا لنفسه بالزائد منها . وكان يغدق الرشاوى على الموظفين ثمنًا لسكوتهم على أعماله . طلبت منه مرارًا أن يحسن معاملة أفراد عشيرته وأن ينصفهم ، ووعدني بالامتثال لنصائحي ، لكنه عاد مرةً أخرى لأسلوبه المعتاد ، وقد أدى ذلك إلى تذمر رؤساء عشيرته فطلبوا من الحكومة أن تحميهم منه وأن تقصيه عن الرئاسة .

وبعد مرور سنتين ، اضطررت لعرض هذا الموضوع على الوالي ، المشير زكي باشا[٦] ، فأمر بإجراء انتخابٍ لرئيس غيره . واجتمع السراكيل ورؤساء الفرق وانتخبوا ابن عمه مطلك الداود بالأكثرية ، وكان أكبر سنًا من الشيخ عجيل . وعلى أثر انتخابه ، طلبت الولاية حضوره إلى بغداد لإلباسه الكسوة . ومن الصدف الغريبة أن يموت الشيخ مطلك في الليل بعد أن كساه الوالي لباس الرئاسة في النهار .

أخبرتني الولاية بهذا الحدث الغريب ، وطلبت ترئيس ابنه عاصي المطلك محله ، فأجرينا المراسيم المعتادة ، واستمر برئاسته للعشيرة حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى ؛ فأعاد القائد العثماني العام ، نورالدين باشا ، عجيل السمرمد ، إلى رئاسة العشيرة ثانيةً تقديرا لخدماته التي قدمها للقوات العثمانية أثناء حصارها للكوت . واستمر الشيخ عجيل في رئاسته تحت الاحتلال البريطاني أيضا وحتى وفاته .

وفي زمن الاحتلال ، زارني الشيخ عجيل في داري في بغداد بصحبة حاكم الصويرة (الميجور جفريز) طالبًا موافقتي على تعييني قائم مقام للصويرة ، فرفضت . ثم أعاد طلبه مرة أخرى ، مستصحبًا معه (الكابتن بري) ، ورفضت أيضًا . وكان يرغبني بالقبول على أساس أن الحاكم السياسي سيترك الصويرة والإنكليز يرغبون بتعييني محله . كان سبب رفضي المتكرر هو عدم رغبتي في قبول أي منصب إداري تحت ظل

---

(٦) المشير زكي باشا : مشير الفيلق الرابع ، تولى ولاية بغداد بعد جمال باشا ١٩١٢-١٩١٣ . وهو من رجال الائتلاف . ومن آثاره دائرة البريد الرئيسة الواقعة حاليًا أمام المدرسة الثانوية المركزية .

الاحتلال الإنكليزي .

شعرت عند هذه الزيارات أن الشيخ عجيل قد أصبح ذا دراية وخبرة وحنكة بارزة متميزة عن غيره من رؤساء العشائر ، اكتسبها مع الوقت ، مما دعا السيد عبد الرحمن النقيب ، رئيس أول وزارة عراقية ، إلى أن يكلفه بأن يكون وزيرًا فيها .

واردات الأعشار

كان قسم من أراضي الصويرة يروى سيحًا في موسم الفيضان ، ويستوفى منه حصة للحكومة بنسبة الخمس ، أي : عشرين بالمائة . والقسم الآخر أراضيه عالية ، محاذية لنهر دجلة ، وتسقى بوساطة الدواليب الرافعة : (الكرود) ، ويستوفى منه العشر ، أي : عشرة بالمائة . وتتكلف الولاية بتخصيص ألف قرش ، أي : عشر ليرات ، لتحكيم السدود كل سنة اعتبارًا من شهر تشرين الأول ، ويتكلف المزارعون بتطهير الأنهار والجداول . ونتيجة لهذه الإجراءات ، لم يحصل أثناء وجودي في القضاء لمدة أربع سنوات أي كسر في هذه السدود .

أدى الفساد الإداري إلى تخمين الحاصلات الزراعية بأقل بكثير من الواقع ، وبالتالي كانت الواردات قليلة جدًا ، وربما كانت أقل من عشر مما يجب تحصيله . وفي السنة الأولى ، خرجت بنفسي لتخمين الحاصلات الشتوية ، مستصحبًا خبراء ماهرين كالسيد صالح الهنداوي والشيخ عبد المجيد رئيس (الجحيش) وغيرهما ، وتأكدنا أن التقديرات كانت قليلة جدًا مما أضر بحق الدولة ، فزدنا التقديرات . وكمثل لذلك كانت مقاطعة (بدعة حمد) مقدرة بثلاثمائة ليرة ، فيما بلغ تقديرنا لها ثلاثة آلاف وثلاث مائة ليرة .

وعندما عرضنا المقاطيع للالتزام حسب التقديرات الجديدة ، امتنع الزراع عن التزامها . فكتبت للولاية لإرسال ملتزمين من بغداد ليقوموا بالتقدير من جديد ، وقبل الاطلاع على تقديراتنا . فأرسلت الولاية ثلاث هيئات كانت تقديراتها تفوق ما توصلنا إليه ، واتفقنا مع هذه الهيئات على تقديرات منصفة وعرضنا المقاطعات بالمزايدة العلنية في مركز الصويرة ، فبلغت حصة الخزينة من الالتزامات الجديدة ستة عشر ألف ليرة ذهبية .

وأثناء جولاتنا للتقدير ، قضينا ليلتين في العزيزية من غير نوم ، وكانت محاطة بمياه الفيضان الراكدة ، وكثر فيها البعوض ؛ فكان علينا أن نجلس في العراء تحت أشعة

الشمس المحرقة . كما كانت الحيوانات تترك إصطبلاتها ليلاً إلى المحلات المرتفعة تفاديًا للبعوض .

وفي العزيزية وردتنا الكثير من الشكاوى ، وأمرٌ من الولاية للتحري عن أسبابها ، وبعد التحقيق طلبت تنحية قائد الجندرمة وآمر الشرطة لأعمالهما السيئة .

العثمانيون يوزعون الأراضي في أيامهم الأخيرة

وردني كتاب من الوالي زكي باشا يعلمني فيه عزم الوزارة على توزيع الأراضي في العراق على أهاليها ببدل زهيد ، وأنه يرتئي تطبيق ذلك في قضاء الصويرة أولاً كنموذج للمناطق الأخرى ، وطلب مني تقديم مقترحات عن أسلوب التطبيق عمليًا . وعليه ، شكّلت لجنة برئاستي وبعضوية اثنين من المهندسين وممثل عن الولاية ، واتخذنا من أراضي (الرحيبية) و(الطويل) نموذجًا لتنفيذ القرار . وبالتداول والاتفاق مع رؤساء وسراكيل الزبيد ، فوضنا هذه الأراضي لزارعيها ببدل اسمي هو عشرة قروش فقط لكل (دونم) بشرط أن يزرعوا الأشجار على حدود أراضيهم ، وأن يسجلوا أسماءهم في دائرة النفوس ، وأن يقبلوا بتطبيق قانون التجنيد العام عليهم ، وأن يقوموا ببناء القرى والمساجد في مناطقهم .

ونظمنا استمارات وتعهدات صادقت عليها الولاية ، وأرسلناها إلى إسطنبول للموافقة عليها . إلا أن المشروع توقف عند اندلاع الحرب العامة ، ولا زلت محتفظًا بمسودة قرار توزيع الأراضي حتى الآن .

الأيام الأخيرة

بعد مرور ثلاث سنوات في القضاء ، تلقيت برقية رمزية من الوالي جمال باشا يسألني فيها إن كنت موافقًا على نقلي إلى قضاء الكاظمية ، وأجبته بالموافقة . وعند إرسال الأوراق إلى إسطنبول ، سقطت الوزارة هناك ونقل جمال باشا من بغداد وحل محله زكي باشا . أكد الوالي الجديد على مقترح الوالي السابق ، وعند ورود الجواب من إسطنبول كان اسمي قد أبدل . وظهر لنا أن ذلك كان نتيجة تلاعب وتزوير مرافق الوالي للكتاب . وعلم زكي باشا بهذا ، ففصل مرافقه وأخذ مفتاح الشفرة منه .

الفصل السابع
في السماوة للمرة الثانية

عودة إلى القتال

لم تطل ولاية الوالي المشير زكي باشا ، وحل محله حسين جلال بك[١] عام ١٩١٣ . طلبني الوالي الجديد للذهاب إلى السماوة مرة أخرى لمصاحبة الجيش المقرر إرساله لتأديب العشائر ، والقبض على طفار النعمة الذي أخذ يعبث بالأمن والاستقرار . اعتذرت في وقتها عن قبول هذه المهمة ، وطلبت من قائد (الأوردي) ، محمد فاضل باشا الداغستاني ، إقناع الوالي بقبول اعتذاري .

كان طفار النعمة ذكيًا ونشطًا ، يقيم في القسم الشرقي وله فيه أتباع كثيرون ، من ضمنهم بعض الموظفين المستفيدين منه ماديًا أو من الذين يخافونه ويخشون دسائسه . وكانت له دوافع كثيرة لإثارة الفتن بين الشرقيين والغربيين ، منها استفادته ماديًا بحصوله على (دية) القتلى والجرحى من ضحايا القتال . وسبق لطفار أن سجن في بغداد سنتين بسبب ذلك ، فآلت زعامة الشرقيين أثناء سجنه إلى اثنين من المسنين هما عبد الله الشاهر وصبار الحسين ، ثم أطلق سراحه في زمن خلفي القائم مقام ، سلطان الجبوري ، الملقب (بأبي الزهدي)[٢] .

وما كاد طفار يخرج من السجن حتى عاد إلى سيرته الأولى ، واندلع القتال بين الغربيين والشرقيين مرة أخرى وعادت السماوة إلى حالتها القديمة . فأرسلت ولاية بغداد قوة عسكرية كبيرة قوامها أربعة أفواج ، بقيادة ثابت بك الكروي[٣] ، وكان من

(١) حسين جلال بك : والي بغداد سنة ١٩١٣ بعد أن كان واليًا لديار بكر ، وعزل عن ولايته لبغداد بعد حوادث السماوة في السنة نفسها .

(٢) الزهدي : نوع مبتذل من التمور .

(٣) ثابت الكروي : والد الصحفي الهزلي نوري ثابت والسيدة شريفة حرم صاحب المذكرات في وقت لاحق .

ضمنها أيضًا (البمباشي) الحاج رمزي ، وعززت هذه القوة بالسياسي ناجي السويدي[٤] ، قائم مقام قضاء الهندية .

قام السويدي بإقناع الأهالي بالمحافظة على الأمن ، وأنذرهم باستعمال القوة ضد كل من يثير أعمال الشغب . وبعد أن أكمل واجبه ، رجع إلى مقر وظيفته تاركًا القوة العسكرية تتربص بطفار النعمة للقبض عليه في الوقت المناسب .

ولم ترق لطفار سياسة السويدي السلمية وتوقف القتال ، وأخذ يخطط لفكرة تنقذه من هذا المأزق ، فتفتق ذهنه عن حيلة ماكرة أدى تنفيذها إلى وقوع خسائر كبيرة في القوات المسلحة ، وإلى تنحية الكثير من القادة ورجال الإدارة من مناصبهم .

بدأ طفار ، الذي اعتاد الاصطياد في المياه العكرة ، ببث الشكوك بين أفراد العشائر ، وأقنع عشيرة (البو جياش) بأن الجيش قد أرسل لمباغتتهم وضربهم . وصار يترصد هو حركات القطعات عند ذهابها صباح كل يوم إلى ساحات التدريب وهي مطمئنة لصفاء الجو وهدوء الحالة الأمنية ، وأوعز إلى أربعة من أتباعه بالاختفاء في نهر (السوير) المجاور لساحة التدريب . وعند وصول أفراد الجيش ، باغتهم المسلحون الأربعة بإطلاق النار ، وأسرع الجنود إلى مشاجب السلاح وردوا عليهم . وسمعت عشيرة (ألبو جياش) دوي الرصاص وظنت أن الجيش يهاجمها ، فهب رجالها للدفاع عن أنفسهم ، وانضمت إليهم عشيرة (الزياد) ، واحتدم القتال حتى غروب الشمس . واستنفد الجيش عتاده واضطر للانسحاب من أرض المعركة تحت جنح الظلام ، تاركًا وراءه أربعة عشر قتيلاً وبعض الخيول وكمية كبيرة من السلاح ومدفعًا واحدًا .

الرجوع الى السماوة

مر شهران على تعيين جاويد باشا[٥] خلفًا لحسين جلال بك ، ووصلتني برقية منه تتضمن إرادة سنية بتعييني قائم مقام للسماوة للمرة الثانية . وتركت الصويرة في

---

(٤) ناجي السويدي : من الساسة البارزين في العهد الملكي ، ولد في بغداد عام ١٨٨٢ وتوفي في منفاه في (سلسبري) في أفريقيا ، سنة ١٩٤٢ ، تولى عدة مناصب وزارية ورأس الوزارة مرة واحدة من ١٩٢٩/١٢/١٨ - ١٩٣٠/٣/٩ وكان يلقب بفقيه الدستور .

(٥) جاويد باشا : والي بغداد سنة ١٩١٣ وقائد الجيش العثماني ، عزل عند سقوط البصرة سنة ١٩١٤ وتولى الولاية من بعده سليمان نظيف بك .

١٣ نيسان ١٩١٤ عازمًا على تقديم استقالتي ، فقد تحملت الكثير من المتاعب والمشاق أثناء عملي السابق ومن غير المعقول أن أكلف بهذه المهمة ثانيةً .

استقبلني الوالي استقبالاً حارًا وأجلسني إلى يمينه ، وقال : «منذ وصولي بغداد وأنا أبحث عن شخص كفء يليق بقضاء السماوة التي افتقرت إلى الأمن والإدارة الحازمة ، وأرشدوني إليك لأنك نجحت في إدارة هذا القضاء واستقر الأمن في عهدك» . أجبته : «إني كنت أفكر بالاستقالة إلا أن الرعاية التي تحيطني بها جعلتني أعيد النظر في موقفي» . ثم بينت له أهمية القضاء وحاجته إلى إدارة حازمة بصلاحيات واسعة بعد وضع تشريعات جديدة ، ووعدته بتقديم تقرير عن المشكلات المستعجلة وكيفية التعامل معها . أجابني جاويد باشا : بأنه مخول من إسطنبول بصلاحيات كبيرة ، وأنه كان يفكر بتعييني متصرفًا للديوانية على أن يلحق السماوة بي ، إلا أنه تبلغ حديثًا بإرادة سنية بتعيين عزت بك متصرفًا لها وهو الآن في طريقه إليها ، والوقت قد فات عليه لتنفيذ رغبته .

قدمت بعد ذلك تقريرًا مفصلاً للوالي يتضمن المتطلبات التي وجدتها مناسبة ، ومنها اتخاذ السماوة مقرًا لمائة جندي من المشاة ومائة من الخيالة تحت قيادة كفوءة ونزيهة متعاونة مع الإدارة . واقترحت العفو العام عن المحكومين من قبل محكمة السماوة ، على أن تنفذ محكومياتهم عند تكرار أعمالهم المخلة بالأمن . وطلبت عزل أو نقل الموظفين الذين انحازوا إلى الشرقيين أو الغربيين ، أو الذين قاموا بأعمال سيئة أخرى . كما طالبت بتعيين رجل قدير من رؤساء العشائر لمرافقة القوة العسكرية عند جباياتها الضرائب ، على أن تخصص له نسبة معقولة من الواردات مكافأة له . واقترحت نفي بعض الأفراد الذين تكررت أعمالهم التخريبية . وطالبت بمنع المشروبات الروحية ، ونفي المومسات من السماوة . وأخيرًا أوصيت بعدم تدخل متصرف الديوانية عند تنفيذي هذه الصلاحيات الاستثنائية .

قرأ الوالي مقترحاتي بإمعان واستحسنها وكتب الشرح اللازم عليها ، وقال : «تأكد لي الآن أنك ستتمكن من إصلاح الحالة في السماوة ، وإني أخولك العمل بهذه المقترحات وتنفيذها ، وحتى تطبيقها على بقية لواء الديوانية إن وجدت ذلك ضروريًا . وعليك الاتصال بالولاية مباشرةً إضافةً إلى ارتباطك بمقر اللواء . أتمنى لك التوفيق والنجاح» .

وبهذا الجواب لم يترك لي الوالي مجالاً للاعتذار والتخلص من هذه المسؤولية

الصعبة ، واستسلمت للأمر الواقع وفوضت أمري إلى الله . أجبت الوالي : «بناء على توجيهاتكم هذه لم يبق لي مجال للاعتذار وستجدونني عند حسن ظنكم» .

قال جاويد باشا : إنه مستعد لإرسال فوجين من الجيش إلى السماوة إضافة إلى الفوجين الموجودين فيها . أجبته : بأني لست بحاجة لهذه الأفواج ولم أعتد العمل مع جيش كبير بهذا العدد ، وأنا أفضل وجود فوج واحد فقط في القضاء ، وأقترح نقل الفوج الثاني إلى موقع آخر . وطلبت منه أن يأمر بإرسال زورق مصفح كالذي هو مستعمل في بغداد للمساعدة في جباية الضرائب ، وللمحافظة على الأمن خارج السماوة ، كما طلبت منه قائمة بما فقده الجيش في القتال الأخير لإرجاعها .

قام الوالي وقبلني ، واتصل برئيس أركان الجيش ، رشيد الخوجه[٦] ، وطلب منه تزويدي بقوائم الخسائر ، والإيعاز إلى قائد البحرية في البصرة لتزويدي بالزورق المسلح .

قلت للوالي : «إن رعايتكم تشجعني على الإكثار من طلباتي ، ولي طلبٌ شخصي ، فأني لا أزال في الدرجة الثانية قي القائم مقامية وأستحق الترفيع» . أجابني : «هل من المعقول أن يتقاضى قائم مقام الهندية راتب الدرجة الأولى وهو بلا عمل وتعب ، شغله الوحيد تدخين (النركيلة) ، وقائم مقام السماوة أم المشاكل في الدرجة الثانية؟» ، ثم ناولني ورقة بيضاء وطلب مني أن أكتب عليها طلبي ، وأرسله إلى إسطنبول بعد أن كتب عليه هامشاً كله إطراء وثناء .

سافرت إلى السماوة على الطريق نفسه ، الذي سلكته في المرة الأولى ووصلتها في ٦ أيار ١٩١٤ ، وكان في استقبالي هناك جميع الموظفين والمحبين ووجوه القضاء ، وباشرت العمل في اليوم التالي .

إعادة الأمن والاستقرار

بدأت أولاً بالتحري عن أسباب القتال وما لحق بالدولة من خسائر ، فتبين أن الذين اشتركوا في القتال هم :عشائر(الشنايرة) و(الزويد) و(البوجراد) من عشيرة (البو

(٦) رشيد الخوجة : ضابط تخرج في إسطنبول وتقلد مركز رئيس أركان الجيش العثماني في بغداد ، وبعد الاحتلال عين متصرفًا لبغداد إلا أن المندوب السامي أوعز بإقالته في ٥ أيلول ١٩٢٢ لحذفه فقرات من مضبطة الاستفتاء العام لانتخاب الملك فيصل . تقلد منصب وزير الدفاع في الحكم الوطني . قام برسم خرائط مهمة عن بغداد قبل الحرب العظمى .

جياش) و(الرواشة) و(البو حمد) و(البلحة) من عشيرة (الزياد) . كتبت لرؤساء هذه العشائر مطالبًا بإعادة ما سلبوه من الجيش وأنذرتهم بعواقب وخيمة إذا ما امتنعوا عن ذلك . واستجاب جميعهم ووعدوا بتسليم ما لديهم إذا ما أعطيتهم الأمان ، وبدأوا يتوافدون على المدينة ومعهم ما غنموه من أسلحة ودواب ومعدات عسكرية . وكنت أزود الولاية بأخبارهم يومًا بيوم حتى انتهت عملية الاسترجاع بصورة كاملة في عشرين يومًا . ثم أخذ رؤساء العشائر بعد ذلك يترددون على السماوة بحرية واطمئنان . وتسلمت شكرًا من الولاية لاستقرار الأمن والسلام ، وسحبت أحد الأفواج تنفيذًا لطلبي وبقي فوج واحد . ووصلني الزورق الحربي المزود بمدفع واحد من البصرة بعد ثلاثين يومًا ، وأخذت أتجول فيه بنهر الفرات ، وكان له أثر معنوي جيد على سكان القضاء والعشائر .

المتصرف والإدارة الجديدة

انتهيت من قضية النزاع مع العشائر ، وشرعت بإصلاح الجهاز الإداري ففصلت بعض الموظفين لسوء سلوكهم ، وأقفلت محلات بيع الخمور وأبعدت المومسات إلى الناصرية .

واحتج عزة بك ، متصرف الديوانية الجديد ، على أعمالي باعتبارها مغايرة للقوانين السائدة . فأجبته : بأني مخول بصلاحيات خاصة من الوالي ، وسأستمر بتنفيذ ما أراه صائبًا مهما كلفني الأمر . وأخبرت الولاية بهذا الخلاف ، فأوعزت الولاية إلى عزة بك بعدم التدخل ، ومن يومها صار يؤيد أعمالي ويبدي رضاه .

قتال بين أخ وأخيه

احتدم قتال شديد بين (معجون الحمادي) رئيس (الصفران) وأخيه (ملاجي) اضطرني للسفر إلى مضارب العشيرة لإخماد الفتنة . أبحرت في نهر (كريم) مستخدمًا الزورق المسلح ومنه إلى الهور حيث تقيم العشيرة . وعند توسطنا الهور غرز الزورق في قاعه الطيني فتعاونا على دفعه حتى أخذ يزحف ببطء وتفادينا بذلك عطل الزورق وتوقفه الكامل . وتمكنا من الوصول إلى الساحل الذي يقيم عليه المتقاتلون الذين كانت صفوفهم يقابل بعضها بعضًا . كانت جماعة معجون

الحمادين ، وعددهم يزيد على الألف رجل ، يحاصرون (المفتول)[٧] لمدة ثلاثة أيام ، وفي داخله ملاجىء مع سبعة من رفاقه وهم يعانون الجوع والعطش . وأصدرت الأوامر لأربعة من الجنود باتخاذ موقع بين (المفتول) وبيننا ، فتمكنا من إخراج المحاصرين وحمايتهم في الزورق من غيرً أن نقدم خسائر . وعند الغروب ، طلبت من الربان الابتعاد عن الساحل حفاظًا على حياة الموجودين معنا . وتناولنا العشاء سويةً وكلنا حذرون من الجموع الكبيرة المحتشدة على الساحل ، وتحركنا عند مطلع الفجر باتجاه نهر(السوير) ومنه إلى الفرات .

وعند وصولنا السماوة ، وجدنا أن الإشاعات قد سبقتنا ، والرعب والخوف قد انتشرا بين مثيري الشغب ، من زورقنا المسلح العجيب الذي يزحف على الطين .

جباية ضرائب ورسوم الدولة

أخذت الزورق المسلح مرة أخرى بعد ثلاثة أيام في جولة إلى الرميثة[٨] لجباية الرسوم من العشائر . وفي نهر (السوير) بالقرب من مصب نهر الرميثة ، غرز الزورق مرة أخرى في قاعه الطينية ، وأكملنا سفرتنا على ظهور خيل زودنا بها ساجت الثويني أحد رؤساء (الظوالم) . وفي الرميثة ، طلبت حضور رؤساء (البو حسان) و(بني زريج) و(الخزاعل) و(الأعاجيب) و(الظوالم) ، واجتمعت عصر اليوم التالي بهم في (الحسينية) ، وأبديت لهم النصح بالالتزام بإطاعة القوانين ودفع ما بذمتهم من الضرائب . تكلم شعلان أبو الجون[٩] ، وقال : إنهم سوافقون على الجباية وهم يستفيدون من ذلك ، لكن هذا يتطلب وجود قوة عسكرية حكومية تساعدهم على إجبار المكلفين بدفع ما عليهم .

أزعجني هذا الكلام كثيرًا ، وأجبته بتهكم : بأن طربوشي وحده هو الحكومة ،

(٧) المفتول : البرج الدفاعي الدائري في قلاع جنوب العراق .

(٨) الرميثة : وهي تبعد ٤٠ كيلومتراً شمال السماوة وتقع على نهر الحلة ، كانت تسمى قبلاً بالأبيض ومنها انطلقت الشرارة الأولى لثورة ٣٠ حزيران ١٩٢٠ .

(٩) شعلان أبو الجون : رئيس عشيرة (الظوالم) ، ومن أبرز قادة ثورة العشرين ، انتخب عضوًا في المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤ ثم انتخب نائبًا في مجلس النواب . توفي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٠ . و(الظوالم) عشيرة من (بني حجيم) التي تسكن العوجة ما بين السماوة و الرميثة .

وسأجمع الضرائب بنفسي عند الضرورة وطلبت منه ترك الاجتماع . وبعد قليل بدأت أفكر فيما قلته والشدة التي أبديتها ، وراودتني الشكوك في إمكاني تنفيذ ما قلته عمليًا .

بدأت أولاً باستدعاء (علي العبد الله) رئيس عشائر (البو حسان)ـ النصيفة الشمالية ، وطلبت منه أن يدفع ما في ذمته وأن يكون قدوةً لغيره ، وهددت بترئيس غريمه وابن عمه (شلتاغ) ابن الرئيس السابق عوضًا عنه ، فاستجاب ودفع إلى الجابي خمس عشرة ليرة ذهبية . وسمع ناصر الحسين رئيس النصيفة الثانية ل(البو حسان) بما حدث ؛ فجاء طائعا ودفع خمس عشرة ليرة أخرى . عند ذاك فقط شعرت بارتياح تام ونمت ليلتي مطمئنًا .

وفي اليوم التالي ، استدعيت عبد العباس الفرهود رئيس (بني زريج) واستحصلت منه على عشرين ليرة . وعند المساء ، زرت هذا الشيخ وشكرته أمام الرؤساء الآخرين ؛ فتسابق بعد ذلك ما بقي من الشيوخ لدفع ما بذمتهم من الضرائب ، راغبين في إرضاء الحكومة حتى بلغ ما جمعناه ذلك اليوم ستمائة ليرة ذهبية .

وفي اليوم الثالث ، جاءني شعلان أبو الجون معتذرًا عما قاله في الحسينية وطلب مني الذهاب معه إلى مقر عشيرته . وهناك راقبته عن كثب كيف كان ينادي أفراد عشيرته فردًا فردًا ليحصل الديون منهم . وبعد يومين ، حل شهر رمضان ، فضيفني لبضعة أيام تمتعت أثناءها بحكاياته الممتعة وأمثاله العامية وأحاديثه الشيقة .

وفي السادس من رمضان ، أي : في ٢٨ تموز ١٩١٤ ، وردت لي برقيات ورسائل رسمية تخبرني بنشوب الحرب العالمية في أوربا ، وبإعلان الدولة العثمانية النفير العام . فأسرعت بالرجوع إلى السماوة لمواكبة هذه التطورات الخطيرة .

القسم الثالث

اندلاع الحرب العالمية الأولى

القتال في جنوب العراق ودور المجاهدين

انسحاب العثمانيين من العراق

الفصل الثامن
القتال في جنوب العراق

الإنكليز يغزون البصرة

أعلنت الدولة العثمانية النفير العام في ٣ آب ١٩١٤ ، على أثر اشتباك القوات الفرنسية والألمانية في أوربا . وفي ١٤ تشرين الثاني ، أعلنت الحرب على إنكلترا وفرنسا وروسيا ، متحالفةً مع ألمانيا ، في وقت لم تكن فيه مستعدةً عسكريًا ولا اقتصاديًا .

هاجمت القوات الإنكليزية (الفاو) في ١٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ، ولم يكن فيها قوات كافية للدفاع عنها ، بعد أن سحبت القيادة في إسطنبول فرقتين من الفيلق السادس وأرسلتهما إلى الجبهة الروسية في (وان) و(أرض الروم) ، ولم يبق في (الفاو) إلا حامية صغيرة من عسكر (الرديف) : الاحتياط[١] .

تغلغلت القوات البريطانية في شط العرب حتى وصلت عبادان ، وتبادلت النيران مع الزوارق التركية وأرغمتها على التراجع . وتقدمت إلى (كوت الزين) ثم إلى (أبي الخصيب) ، وترك الأتراك هذه المواقع بعد قتال عنيف[٢] .

---

(١) كان الفيلق السادس في العراق أربع فرق ، سحبت منها فرقة من كركوك والموصل وأرسلت إلى الجبهة الغربية ، وسحبت فرقة من بغداد وأرسلت إلى جبهة قفقاسيا ، وقد عارض جاويد باشا القائد العام سحب فرقة أخرى من البصرة .

(٢) تحركت القوات البريطانية من بومبي في الهند في ١٦ تشرين الأول ١٩١٤ ، بقيادة (الجنرال ديلامين) ، بخمسة أيام قبل إعلان تركيا الحرب . واحتلَت الفاو في ١٦ تشرين الثاني ، ثم دخلت معارك جنوب البصرة بقيادة (الجنرال باريت) وكان يصاحبه الحاكم السياسي (بيرسي كوكس) . ولم يكن هناك إلا ٤٥٠٠ جندي تركي فقط في هذه المنطقة للدفاع .

فصائل المجاهدين تشارك في القتال

أخذ الوالي والقائد العام ، جاويد باشا ، بعد انسحاب الجيش ، يستنجد بالعشائر للتطوع للقتال . وأصدر المجتهدون والعلماء الأعلام فتوى للجهاد . وتوافدت فصائل المجاهدين إلى السماوة بالسفن النهرية ، من المسيب والهندية وكربلاء والديوانية .

كان أول من وصلنا المجتهد السيد عبد الرزاق الحلو يرافقه تسعة من المجاهدين ، ونصب خيامه على ساحل الفرات الأيسر شرقي الجسر . زرته للترحيب ، ووجدته شخصيةً محترمة كلها غيرة وحماسة . قال : إنه ينتظر وصول أعداد كبيرة من المتطوعين من النجف ، وسيلتحق حال وصولهم بقوات جاويد باشا في البصرة .

وبعد وصوله بيومين ، وصلتني برقية من جاويد باشا يطلب مني تبليغ الحلو بضرورة التحاقه بقواته المقاتلة ، وهذا ملخص البرقية : «أتوسل برسول الله وآل البيت وفاطمة الزهراء أن تسرعوا في المجيء حيث أن البصرة مهددة ونحن في ضيق شديد» . قرأ الشيخ البرقية ، وقال : «الله أكبر ، الله أكبر ، سمعنا وأطعنا» ، وأخذ يستعد للسفر . رجوته التريث لرداءة الجو وتجنب الرياح الشرقية العاتية والانتظار حتى تخف حدتها ، أجابني : «يا ولدي لقد وجبت علي الحركة ، وتأخري الآن يعتبر عصيانًا» . قال لرفاقه : «أسرعوا يا أولادي» وبدأوا يفكون خيامهم ويحملونها على السفينة ، وتحركت بهم والشيخ يؤذن : «الله أكبر ، الله أكبر» .

تحولت الرياح بعد خمس عشرة دقيقة إلى شمالية غربية شديدة ساعدت السفينة على وصولها إلى (الغرفة) بسرعة فائقة . وتسلمت برقية منه مساء ذلك اليوم يخبرني بوصوله سالمًا إلى البصرة ، ، وهي على وشك السقوط . ومع ذلك عمل الشيخ على جمع المتطوعين من أفراد عشائر (الجبايش) و(المدينة) المقلدين له وتقدم معهم للقتال ، إلا أن الجيوش الإنكليزية كانت قد احتلت البصرة في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٤ ، ثم سقطت (القرنة)[٣] بعدها في ٩ كانون الأول[٤] .

(٣) القرنة : مدينة على ملتقى نهر دجلة بالفرات .

(٤) استمر انسحاب العثمانيين على محور دجلة ، ويقال إن القائد حليم بك قد سلم العمارة بعد ذلك إلى الجنرال طاوزند بعد أن استلم رشوة منه في ٣ حزيران ١٩١٥ ، ومعه مائة وأربعون جنديًا . كما سلم غضبان البنية رئيس عشيرة بني لام مدفعين كانت قد زودته بهما القوات التركية إلى القوات الإنكليزية الغازية .

خاتمة المجاهد الشيخ عبد الرزاق الحلو

أخذ الشيخ عبد الرزاق الحلو ، بعد سقوط القرنة ، يتنقل من موقع لآخر مع أربعة هم كل ما بقي من أتباعه . وعند وصوله إحدى القرى ، طلب منه بعض سكان الجبايش المقلدين له أن ينزل عن بغلته ويعطيها لهم مع حاجياته الأخرى ، قائلين : «إننا يا شيخ نريد أخذ بغلتك وحاجياتك فنحن من أتباعك وأحق بها من أهل القرى التالية وهم من أعدائنا!» . توسل إليهم الشيخ ، وقال : إنه رجل كبير السن ومريض ، أنهكه التعب ، وطلب منهم أن يساعدوه للوصول إلى القرية التالية قبل أن يسلبوه ، لكنهم لم يستجيبوا له وأخذوا كل ما لديه وما لدى رفاقه ، وتركوه يمشي إلى القرية حتى أنهكه التعب وأدركه المرض ومات . رحمة الله عليه رحمة واسعة .

تتابع وصول المجاهدين

مرت عشرة أيام على مغادرة الشيخ عبدالرزاق الحلو ، وأخذت قوافل المجاهدين من عشائر الشامية وأبو صخير والنجف تصل بأعداد كبيرة ، وأصبح من الواجب علينا العناية بهم وتزويدهم بالطعام والسكائر والحاجيات الأخرى . وكنت أقدم لهم ذلك من التبرعات التي جمعناها من أهل السماوة ، في وقت لم تستجب فيه الحكومة إلى طلباتي المتكررة لرعاية المجاهدين . وأنهكني العمل ليل نهار لتوفير الأرزاق لهم والأماكن لسكناهم . ولا بد لي هنا من تسجيل الثناء العاطر لتجار السماوة ، ومنهم : الحاج إبراهيم العبيد وإخوانه ، والحاج مهدي ، والحاج محسن وإسماعيل وعبد الله الحصيني ، وعلي البهباهاني ، والسيد عباس الأمامي ، ورئيس البلدية ، الحاج حسن الإمامي ، والمفتي ، نوري ، وعبد اللطيف الأمين ، ومنشي بلبول ، ورئيس عشيرة (آل جضعان) ، وعبد العزيز البسام ، ومحمد العساف ، وحسون المحمد صالح ، وقد شكلوا لجنة من بينهم اختصت بالعناية بالمجاهدين .

وبعد ثلاثة شهور ، وأنا منهمك بهذه المهمة ، أرسل لنا متصرف الديوانية كمية من (الشلب)(٥) الرطب لتوزيعه على المجاهدين . كان الموسم شتاءً ، فاضطررنا إلى تجفيفه على النار قبل جرشه بالماكنة الصغيرة التي لدينا ، وبصعوبة كبيرة .

(٥) الشلب : هو الرز قبل جرشه .

وقد أمرت القيادة ، بعد سقوط العمارة ، بإعداد منزل[٦] يختص بتموين المجاهدين ، مكلف بتسلم الأرزاق قبل توزيعها ، فخفف ذلك من مسئولياتنا وأعبائنا نحو المجاهدين .

وما إن سافر مجاهدو الشامية والديوانية حتى وصل السماوة المجاهد المعروف السيد محمد سعيد الحبوبي[٧] ، ومعه السيد محسن لحكيم الطباطبائي ، والسيد هادي المكوطر[٨] مع أتباعهم ، ، وأنزلناهم في الثكنة العسكرية . انتظروا عشرين يومًا قبل أن يلتحقوا بالجيش في الناصرية . ثم وصل بعد ذلك فوج الإطفائيين الفدائيين الأتراك بقيادة (كلي علي بك) وبقوا معنا يومين ، كان قائدهم أثناءها يطالب مأموري القضاء بتزويد فوجه بالأغنام والسكاير بقسوة متناهية .

ثم ضيَّفنا بعد ذلك المجاهدين الأكراد بمعية عبد الله صافي بك ، نائب كركوك ، ومعه رؤساء (الجاف) و(الهماوند) ، والسيد أحمد خانقاه ومتصرف الناصرية الجديد ، حمزة بك .

كذلك قمنا بتشكيل سرية من مجاهدي السماوة الغربيين ، وسفرناها إلى (المنتفك) بقيادة بربوتي السلمان . وعند رجوعها لم تكن السرية قد فقدت أحدًا من أفرادها ، ولذا (هوس) أهل السماوة : «ثلث الجنة لهادينا وثوية شوية لبربوتي» ، بمعنى ثلث الجنة للسيد هادي مكوطر وثلث للأكراد والقليل إلى رئيسهم البربوتي .

ومع الأيام ، تحشدت أعداد كبيرة من المتطوعين في الناصرية و(الغبيشة) وصلوها عن طريق الفرات مرورًا بالسماوة ، وعن طريق دجلة مرورًا بالكوت . بقيت هذه الحشود من المجاهدين ، أربعة أشهر ، تنتظر وصول القائد العام سليمان عسكري بك ، الذي كان يعالج في بغداد من الجروح التي أصيب بها في معركة (القرنة) . وأدى طول الانتظار هذا إلى هبوط معنوياتهم والتذمر من إهمال القيادة لهم .

---

(٦) المنزل : المستودع الرئيس للعتاد والأرزاق .

(٧) السيد محمد سعيد الحبوبي : فقيه وشاعر مبدع ولد عام ١٨٤٨ ، شترك في معركة الشعيبة وتوفي عام ١٩١٥ بعد اندحار المجاهدين .

(٨) السيد هادي المكوطر : زعيم ديني في منطقة الشنافية . قاد عشائرها في معركة الشعيبة وألقي القبض عليه بعد احتلال السماوة ، ونفي الى الهند ، واشترك في الثورة العراقية ، توفي عام ١٩٢٤ .

كارثة كبيرة

مرض ولدي محمد وأنا مشغول مع المجاهدين ، وفوجئت بأن مرضه لم يكن بسيطًا كما كنت أعتقد ، فتوفي في ١٥ كانون الأول ١٩١٤ ، في اليوم الخامس من إصابته وعمره لم يتجاوز السنتين والنصف . وفي يوم دفنه ، أحست والدته ، صبيحة ابنة عبد الكريم الجلبي(٩) ، بألم في بلعومها . ولم يكن هناك آنذاك أي طبيب في السماوة ، فالتجأت إلى المتطبب مرزا رضا ، لكنها توفيت بعد يومين من دفن ابنها . ولم يبق لدي إلا رضيعها أحمد وعمره خمسة وأربعون يومًا ، فطلبت له الطبيب المعروف (كاني بك) من بغداد ، وبقي معه أربعة أيام عالجه فيها ، وترك السماوة بعد أن طمأنني بزوال الخطر ، إلا أن طفلي مات أيضا بعد مغادرته بخمسة أيام .

حزنت كثيرًا لفقداني عائلتي جميعها مرةً واحدة ، واستعنت بإيماني في تحمل هذه الكارثة ، وفوضت أمري إلى الله .

علمت أخيرًا بأن المرض كان وباءً وافدًا نقلته إلينا أفواج الفدائيين ، ومن المحتمل أنه كان داء الخناق أو (الدفتريا) .

خلاف الجيش مع المجاهدين

شاهدت في أحد أيام مارس ١٩١٥ ، وأنا جالس في بيتي مع بعض الأصدقاء في العاشرة مساءً ، زورقًا حربيًا يرسو أمامنا ، وسمعت صوتًا يناديني منه ويطلب مني المجيء من غير أن أتبين من فيه ، وتوقعت شرًا في بادئ الأمر . دار في ذهني احتمال اعتقالي ، وقد يكون لذلك علاقة برفضي جمع المواد التموينية للجيش من الأهالي بالقوة ، ، نتيجة قناعتي بأن أهل السماوة قد ساهموا بشكل جيد في المجهود الحربي ، وأوضاعهم المعيشية كانت صعبة لا تسمح بتبرعهم بموادهم الغذائية .

ولربما سيكون اعتقالي ذا علاقة بالأمور الخطيرة التي برزت أخيرا في التفرقة بين العرب والأتراك ومطالبة العرب بحقوقهم . وفكرت كذلك في احتمال محاكمتي من غير أن تؤخذ خدماتي السابقة للدولة بنظر الاعتبار .

قررت أخيرًا تلبية النداء ، وركبت (البلم)(١٠) الذي أرسل لي . وعند وصولي ،

(٩) عبد الكريم الجلبي : من أعيان بغداد ووالد زوجته الثانية . وتسمى العائلة أيضا بالدهادي .

(١٠) البلم : الزورق النهري الصغير .

وجدت ستة أشخاص منحشرين داخل (قمارة)[11] الزورق ، كان من بينهم ضابط بلباس أركان حرب عرفت أنه مرافق القائد العام سليمان عسكري بك ، وجماعة من الأفندية من المجاهدين الأكراد : كعبد الله الصافي من كركوك ، وشقيق الشيخ محمود من السليمانية ، ومحمد علي قيردار ، وقد سبق لي معرفتهم عند مرورهم بالسماوة في طريقهم إلى الناصرية .

حشرت نفسي بينهم ، وبادرني المرافق بالسؤال عما إذا كان قد وصل السماوة مجاهدون أكراد راجعون من الناصرية ، وأجبته بالنفي . ثم دعوت الجميع لتناول الشاي في بيتي والبقاء لتناول العشاء والمبيت حتى الصباح . واعتذر الضابط وحده عن العشاء ورجع للمبيت في الزورق .

وبعد أن خلا الجو لنا في البيت ، أخذ الذوات الأكراد يشرحون لي سبب مجيئهم ، وقالوا : إن مجاهدي (الجاف) و(الهماوند) قد سئموا الانتظار في الناصرية ، ونفد ما لديهم من مال بعد أن صرفوه على أنفسهم وخيولهم ، وطلبوا من القائد سليمان عسكري أن يأمر بتزويدهم بالأرزاق ، وإلا فسيضطرون إلى الرجوع . وكان لجوابه وقعٌ سيئ عليهم حيث قال ما معناه : «إن كنتم قد اشتقتم لزوجاتكم فارجعوا إليهن» . أدى ذلك إلى غضب المجاهدين وامتعاضهم ، فقرروا الانسحاب إلى هذه الأنحاء ، ونحن جئنا للتفتيش عنهم لإقناعهم بالرجوع إلى الجبهة ، ووجدناهم في ناحية (الخضر)[12] ، إلا أن الضابط الذي أرسله القائد معنا منعنا من الاتصال بهم ولم يستمع إلى رأينا ، ولا ندري الآن ما ينوي عمله . ورجوني أن أقنع الضابط بضرورة الاتصال بالمجاهدين لإقناعهم بالرجوع عن قرارهم ، وقد وصلتنا أخبار عن ندمهم على ما عملوه .

تألمت شخصيًا لهذه الأخبار ، واستمر حديثي معهم إلى ساعة متأخرة من الليل .

---

(١١) القمارة : غرفة في باخرة أصلها من الإيطالية .

(١٢) الخضر : ناحية تقع على ضفة الفرات اليسرى على بعد عشرين ميلاً جنوب السماوة وفيها محطة للقطار . ولها أهمية استراتيجية لأنها الموقع الوحيد لتزويد القطار بالماء بين السماوة والناصرية . كان لها دور تعبوي مهم في ثورة العشرين .

الجيش يخطط لضرب المجاهدين

وصلت تلك الليلة الباخرة (الفرات) ، وعلى متنها أربعمائة جندي أغلبهم من الفدائيين . وفي صباح اليوم التالي ، تناول مرافق القائد العام الإفطار معنا وطلب مني مرافقته للسراي ، وأخذ يسألني عن الوضع العام في السماوة وعن حدودها . طفت معه ومع أربعة ضباط أركان آخرين أطراف المدينة ، وأخذوا يكشفون الأراضي ويؤشرون عليها ويتداولون بسرية تامة . وعند رجوعنا ، قلت للضابط : «لقد تجولت معكم كما تريد ، وبدأت الإشاعات تسري بين الأهالي عن سبب تجوالنا ، فاعتقد البعض أنكم تبحثون عن الجنود الهاربين من الجبهة ، وربطوا تجوالكم بوصول الباخرة المحملة بالجنود ، وبصفتي المسئول عن الإدارة والأمن أرى من الضروري أن تشرحوا لي الموقف لأشارككم المسئولية» . أجابني الضابط : بأنهم لا يقصدون السماوة وأهلها وإنما يريدون تنفيذ أوامر القائد العام لاتخاذ الإجراءات اللازمة لضرب المجاهدين الأكراد الهاربين . قلت له : «إن كان هذا هدفكم فإنكم على خطأ كبير ، وستواجهون أخطارًا عظيمة . فكيف يمكنكم ضرب الأكراد في منطقة مزدحمة بالعشائر المسلحة التي قد تحاصر جيشكم القليل العدد دفاعًا عنهم؟» قلت له : «إن كان هدفكم إرجاع المجاهدين إلى الجبهة ، فعليكم تكليفي بهذه المهمة وسأقوم بإقناعهم وحل هذه المشكلة سلميًا» .

وبعد كلامي هذا ، أخذ الضابط يفكر مليًا باقتراحي ، وطلب مني مصاحبته لدائرة البرق والبريد ، واتصل مع القيادة التي أجابته بصرف النظر عن تعقب المجاهدين والرجوع إلى الناصرية . ارتحت لهذه النتيجة ووجهت الدعوة للضابط وأفراد قوته المسلحة للعشاء ، فاعتذر الضابط لكثرة أفراد الجيش ، واقترح أن أحدد الدعوة بالضباط فقط ، وعددهم أربعون .

تناولنا العشاء سويا ، وألقى أحدهم خطابًا تلاه بأدعية الطعام ، ثم قرأ الجميع سورة الفاتحة . وودعناهم ليستقلوا باخرتهم إلى الناصرية يصاحبهم الضباط الأركان في زورقهم الحربي . وطلب مني الضابط المسئول قبل مغادرته استرداد السلاح من المجاهدين عند رجوعهم إلى السماوة .

وبعد يوم واحد ، وصل المجاهدون الأكراد وحطوا الرحال في ضواحي المدينة ، وذهبت لاستقبالهم مع ضابط الدرك ، يحيى الدين الخيال ، وسردوا علي ما تعرضوا له من إهانات مؤلمة ، واسترجعت مائة وثمانين بندقية من السلاح الموجود لديهم ، ساعدني في ذلك رؤساؤهم ومنهم نامق بك ، وأرسلت الأسلحة إلى الجبهة في الناصرية .

معركة الشعيبة

تسلم سليمان عسكري بك قيادة الجبهة من جاويد باشا بعد سقوط البصرة . وتحجفلت قوات المجاهدين في الشعيبة منتظرةً وصوله أربعة شهور . وجيء بالقائد محمولاً على نقالة صحية وهو مصاب بساقيه .

وقبل بدء القتال استشار سليمان بك أركان حربه ورؤساء العشائر والمجاهدين معه عن الخطة العسكرية . وكان رأي عجمي باشا السعدون[(١٣)] ، أبرز قادتهم ، محاصرة الشعيبة والاكتفاء بهجمات مشاغلة تعجيزية فقط ، مع غارات متكررة لقطع الإمدادات عنها من البصرة وعدم التورط بهجوم مباشر على موقع الشعيبة ، وأيد هذا الرأي رؤساء العشائر الآخرون وهيئة أركان الحرب . إلا أن القائد ومساعده (كل علي) أصرا على الهجوم المباشر على حصون الشعيبة ، على غير ما رآه مستشاروهم .

وهيأ تأخر وصول القائد أربعة أشهر في معالجة جروحه ، فرصةً جيدة للإنكليز لإحاطة الشعيبة بثلاثة خطوط دفاعية ، فحفروا الخنادق وأقاموا حواجز من أكياس الرمل والأسلاك الشائكة .

أسند عسكري بك ، خط الهجوم من جهة (الزبير) إلى قوات عجمي باشا ومجاهدي «المنتفك» وعشائر (بني حجيم) ، والجبهة الغربية إلى أتباع خيون العبيد وعبد الله الفالح السعدون والمجاهدين من عشائر الفرت والأكراد ، وتولى الجبهة الجنوبية الجيش النظامي .

بدأ الأتراك هجومهم على الشعيبة صباح يوم ١٢ نيسان ١٩١٥ . وتمكنت القوات البريطانية من الثبات في مواقعها في اليوم الأول ، وفي اليوم الثاني ، قامت بهجوم مقابل وكسرت الحصار في الجبهة الغربية ، فتزعزعت معنويات رجال العشائر من أتباع عبد الله السعدون ، واضطرت إلى الانسحاب إلى مواقعها السابقة في(الغبيشية) تتابعهم نيران المدافع الإنكليزية ومفارز الخيالة .

وفي اليوم الثالث ، وجه الإنكليز هجومهم على القوات العثمانية النظامية بقيادة

---

(١٣) عجمي باشا السعدون : من أبرز رؤساء عشائر السعدون في الناصرية ، له تاريخ طويل في القتال دفاعًا عن الدولة العثمانية وصد الهجمات المتكررة من نجد . أبدى شجاعة فائقة في معركة الشعيبة ووصف بأنه كان أعظم المقاتلين فيها . عاش في أورفه في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وتوفي في أنقرة في ٤ تشرين الثاني ١٩٦٠ وهو يستعد للحج . كان صديقًا حميمًا لكاتب المذكرات .

(كل علي) في الجبهة الجنوبية وأجبرتها على الانسحاب إلى (البرجسية) ، مقر قيادتها . وبقي أتباع عجمي السعدون يصولون ويجولون في ساحة المعركة . قاتلوا في اليوم الأول بضراوة ، ولم يتكبدوا إلا القليل من الضحايا . ثم قرروا في الأيام التالية ربط أنفسهم بالحبال ، عازمين على القتال حتى آخر قطرة من دمهم . كان عددهم في هذا القطاع خمسة وأربعين مقاتلا ، استشهدوا جميعهم .

شاهد القائد سليمان عسكري قواته تندحر وتتراجع ، وشعر أنه خسر المعركة ، فانتحر وهو على نقالته . ودفن في خيمته في ١٥ نيسان ١٩١٥ .

ومن رأيي أن سبب الاندحار الفظيع في الشعيبة هو تسرع القائد في الهجوم ، فلو أخذ برأي عجمي باشا والمجتهد الكبير محمد سعيد الحبوبي وغيرهم من المجاهدين والرؤساء ، لما وقعت الكارثة . لقد قدر عدد المجاهدين من عرب وأكراد المحتشدين في (الغبيشية) بثمانين ألفًا ، هذا عدا الجنود النظاميين[١٤] . وقد ساهم طول مدة انتظار هذه القوات لوصول القائد إلى تدهور معنوياتها[١٥] ، كما أتاح فرصة للعدو لتعزيز دفاعاته . ولو اكتفى المجاهدون بقتال المشاغلة والهجمات لقطع خطوط التموين ، لتمكنوا من النصر . وقد سبق وأن أسر المجاهدون عددًا من الجنود الإنكليز بهجماتهم خلف خطوط القتال ، فكان على القوات العثمانية أن تستمر على هذا النوع من القتال وعدم التسرع في هجومها المباشر .

وأخيرًا عليّ أن أقول إن المرحوم القائد سليمان عسكري بك ، كان جنديًا شجاعًا وجسورًا ، لكنه لم يكن قائدًا محنكًا . كان عليه أن يقدر الموقف بصورة أفضل ، وأن يستفيد من ذوي الرأي من الرجال من حوله[١٦] .

---

(١٤) بلغ عدد القوات التركية في الشعيبة ٦,٠٠٠ جندي نظامي و٢٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ مجاهد .
[شكري نديم (حرب العراق) ١٩٦٧ ص : ٣١]

(١٥) مما يذكر عن التأثيرات المعنوية أثناء معركة الشعيبة وصول مفرزة إسعاف إنكليزية من البصرة ، اعتقد الأتراك إنها قوات جديدة تدخل المعركة مما أرعبهم وأضعف عزائمهم .

(١٦) سليمان عسكري بك : قائد ناجح مشبع بكره الإنكليز . قاتل في جبهة القرنة وعبادان وأصيب بشظية في ساقه ، وتعالج لمدة شهرين قبل أن يصل إلى موقع الشعيبة في ٩ آذار ١٩١٥ .
[شكري نديم (حرب العراق) ١٩٦٧]

الانسحاب إلى الناصرية

قضت قوات الجيش النظامي ثلاثة أيام لتستريح في (الغبيشية)، انسحبت بعدها إلى الناصرية لتستعد للدفاع عنها. وأنيطت قيادة الجيش في المنتفك بالقائم مقام أحمد أوراق[١٧].

وما إن انقضت ثلاثون يومًا على معركة الشعيبة حتى أخذ الإنكليز يهددون المنتفك باتجاه (الحمار) و(العكيلة) حتى حدود مدينة الناصرية. واستمر قتال عنيف لمدة أربعة أيام، اضطر بعدها القائد أحمد أوراق إلى الانسحاب إلى (الشطرة)[١٨]، وأمر قوات الخيالة التي كانت تدافع في صوب الشامية، على الجهة اليمنى من الفرات، بالانسحاب إلى السماوة.

وانسحب المجاهدون، بواسطة السفن، إلى السماوة. ووصل إلى علمنا أن بعض هذه السفن كانت تحتوي على أسلحة تعود للجيش، فأخذنا بتفتيشها عند الجسر، ووجدنا في بعضها الكثير من الأسلحة والألبسة العسكرية الملطخة بالدماء، واسترجعنا ما مجموعه ستون بندقية مع الكثير من الحراب والألبسة وأرجعناها إلى القوات في جبهة القتال.

الحالة الأمنية

اقتربت جبهة القتال من السماوة، وصرنا نسمع هدير المدافع كلما كانت الرياح جنوبية أو شرقية، ولم تكن القيادة قد أخبرتنا بسقوط الناصرية أو باقتراب جبهة القتال منا. وتقبل أهالي القضاء توتر الحالة العامة بكل هدوء وانتظام، ولم نتعرض إلى حوادث مؤسفة كالتي وقعت في الحلة والنجف وكربلاء، وسادت المحبة والصداقة والوفاء بين الشرقيين والغربيين، وأخذ رؤساؤهم يزورونني عصر كل يوم لشرب القهوة والبقاء معي حتى المساء. وأصبح طفار النعمة، بصورة خاصة، لا يفارقني أبدًا، وأصبحت صداقته معي وثيقة أكثر من أي وقت مضى، وكان ينتقد ما حدث في المدن الأخرى، ولم يقم بأي عمل يخل بالأمن منذ رجوعي إلى القضاء وحتى وصول البواخر الإنكليزية.

---

(١٧) أحمد أوراق: ضابط بغدادي عرف بشجاعته.

(١٨) الشطرة: قضاء تابع لمحافظة ذي قار (المنتفك سابقًا) ويقع على نهر الغراف.

حكاية اليهودي سلمان بلبول

في الوقت الذي كانت فيه الحرب تدور رحاها في المنتفك، وقبل سقوط الناصرية، سمعت عند الفجر طلقات نارية متوالية، وجاءني خبر بوقوع جريمة في بيت التاجر سلمان داؤد بلبول. فهرعت فورًا إلى موقع الجريمة ووجدت سلمان مقتولاً وزوجته مصابة بجروح مع ثلاثة يهود آخرين مصابين بجروح طفيفة. وكانت هناك آثار وبقع من الدم على الحائط المجاور تشير إلى المحل الذي تسلق منه الجناة عند هروبهم إلى الطريق. وكان آمر فوج الاحتياط، (اليوزباشي) سعيد بندرة، يقيم في الدار المجاورة، وقال: إنه أطلق النار من مسدسه عند سماعه استغاثة اليهود، محاولاً إصابة المجرمين أثناء هروبهم.

لم أكن أتوقع حدوث هذه الجريمة في وقت كان فيه الأمن مستتبا، كما لم يكن متوقعًا حدوثها في جانب القشلة، أي: الجانب الكبير. وباشرت في التحقيق، وقيل لي أن أحد أفراد الدرك المكلفين بالحراسة قد أصيب بطلق ناري، وعند الكشف عليه، ظهر أن الطلقة قد أصابته في ذراعه، وكان في يديه جروح وخدوش قد تكون لها علاقة بالدم الموجود على الحائط. وعندما سألناه عن هذه الخدوش، ادعى أنه أصيب بها أثناء سقوطه على الأرض وهو يقوم بواجب الحراسة مع رفيقه.

اقتنعت شخصيًا بأن هذا الحارس هو أحد المجرمين، فأمرت قائد الدرك باعتقاله. ثم ساورتني الشكوك حول آمر الفوج أيضًا، عندما علمت أنه كان يرسل وجبات الطعام من بيته إلى الحارس المعتقل، واحتمال تورطه بالجريمة. فأرسلت برقية رمزية إلى اللواء، أطلب فيها تنحيته عن منصبه بعد أن فقدت الثقة فيه. وبدلاً من أن ينفذ اللواء طلبي، أرسل نسخة من برقيتي إليه، فجاءني معاتبًا ومتنصلاً من الجريمة، معتذرا عن إرسال وجبات الطعام إلى المتهم، ووعدني بالتوقف عن ذلك.

إن موقف إدارة اللواء حيال طلبي لم يكن حكيمًا، وافتقر إلى الكثير من الكياسة والحزم، ولم يكن منسجما مع مقتضيات المصلحة العامة، وإنما كان موقفًا خبيثًا فيه الكثير من الكيد وعدم المبالاة، أريد منه إيقاع الفتنة بيني وبين آمر الدرك لكي يفلت الزمام من يدي وتنهار السيطرة الإدارية في القضاء. أدركت هذه المحاذير بحكمة، فتجنبت الكثير من المزالق، وحافظت على التوازن وسيطرت على الوضع، دون أن أدع مجالاً للاستفزاز والاحتكاك.

ولحراجة الوضع العسكري، أصبح من الضروري تأجيل النظر في قضية التاجر

بلبول إلى وقت ملائم آخر ، حيث لم تمض عشرة أيام على حدوثها حتى اجتاحت السماوة حوادث مأساوية سنأتي على ذكرها لاحقًا .

الدفاع عن السماوة

وفي صباح يوم ٢٠ تموز ، سألني القائد العام عن الوضع في الناصرية ، وقال : إن اتصاله بها مقطوع وخطوط البرق معطلة ، وطلب مني التحري عن أسباب انقطاعها وتصليحها ، فأرسلت عاملاً ، وبعد ساعتين أتبعته بآخر ، ولم يعد أيٌّ منهما إلا في اليوم التالي ، وأخبروني أن الخط البرقي قد قطع داخل الناصرية بعد أن احتلها الإنكليز ، وأن جيش أحمد أوراق قد انسحب إلى (الشطرة) ، وأن الأراضي المحصورة بينها وبين الناصرية قد غمرتها مياه الفرات . ثم وردتني برقية من ناحية (الخضر) قبل غروب الشمس ، عن وصول زوارق حربية انكليزية قال ملاحوها إنهم في طريقهم إلى السماوة . وأخبرت القيادة بهذه التطورات .

أشرف القتال في الناصرية على الانتهاء في ٢٤ تموز ١٩١٥ ، وتلقيت أمرًا من القائد العام ، نور الدين باشا[١٩] ، بتعزيز الخطوط الدفاعية في السماوة وحفر الخنادق في شرق المدينة . وأعطيت قائد الدرك التعليمات اللازمة ، ومنها أن تخطط الخنادق نهارًا وتحفر ليلاً ، تفاديًا لأي أثر سلبي على معنويات سكان القضاء العالية .

كان ما هو متوافر لدينا آنذاك لا يتجاوز تسعين جنديًا من صنف الاحتياط ، وهم من العجزة المتسلحين ببنادق (شنايدر) القديمة ، مع سبعة عشر جنديًا من قوات الدرك . وحذرت القيادة العامة بأن الدفاع بهذه القوة الصغيرة هو أمر يكاد يكون مستحيلاً . وطالبت بإرسال قوات إضافية ، إلا أن طلبي هذا لم يستجب له .

عقدت اجتماعًا مع رئيس البلدية والمفتي وطفار النعمة ورباط السلمان ، وسألتهم إن كانوا راغبين في الدفاع عن مدينتهم ؟ فأجابوا أنهم : مستعدون للجهاد من أجل الوطن وأنهم معي دائما ، فإما الحياة بكرامة أو الموت . وقالوا : إن الحرب كانت بعيدة عنهم ، أما الآن فقد أصبحت في عقر دارهم ، وإن الجنة باتت تحت

(١٩) نور الدين باشا : عين واليًا وقائدًا عامًا في ١٩ أيار ١٩١٥ ، وعزل في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ إثر انسحابه من الكوت إلى (سلمان باك) ليخلفه خليل باشا . ونور الدين هو ابن المشير إبراهيم باشا والي طرابلس .

أقدامهم . وأكثروا من كلمات الحماسة . ومن أجل التأكد من موقفهم ، جئت بالقرآن الكريم ، وطلبت منهم أن يقسموا به . أقسم طفار ورباط مؤيدين أقوالهم بحماسة متناهية ، وإضافة لذلك أخذت عصا طفار ، وقلت لهما : «هذه عصا العباس ، أطلب منكم أن تقسموا بها أيضًا كما هو متعارف لديكم» . وأقسم بها الواحد بعد الآخر ، مؤكدين مرة أخرى على ما قالوه وتعهدوا به .

وبعد الغروب بنصف ساعة ، اجتمع ما يقرب من أربعمائة مسلح عند رأس الجسر أمام السراي وهم ينشدون (الهوسات) أي : الأهازيج ، وتحمست وأخذت سلاحي واشتركت معهم فحملوني على الأكتاف وهم يرددون : (أبواب الجنة مفتوحة) و(نرضي الله ونتنومس فيها) أي : (نتسابق للموت عليها) ، وكان أغلبهم يبكون بكاءً مرا.

ثقة تنهار وولاء مشكوك فيه

اشترك الغربيون والشرقيون على حد سواء ، ليلة ٢٢ تموز ، في إظهار حماستهم للقتال ، فوجدت من الواجب علي زيارة رؤسائهم . ذهبت أولاً إلى دار رباط السلمان ، رئيس الغربيين ، ووجدت هناك مائة وخمسين شخصًا مجتمعين على سطح الدار وطفار النعمة ، رئيس الشرقيين ، يتصدر المجلس . جلست بجانبه ، وأخذت أشكر الجميع على حميتهم وحماستهم . ولاحظت أن طفار لا يشارك البقية في حماستهم وفي موقفه برود واضح . سألت الحاضرين : متى سيخرجون إلى الخنادق؟ أجابني طفار : أن لا لزوم هناك للسرعة ، ولربما سيكون خروجهم وقت الفجر .

تركت المجلس والشكوك تساورني في موقف طفار . ورجعت إلى داري ، وقمت بتوزيع الأسلحة المتوافرة لدي على الموظفين والمتطوعين من أهالي جانب القشلة . ونصبت الكراسي أمام داري على ساحل النهر منتظرًا الوقت المناسب للخروج إلى الخنادق ، وجلس معي قائد الجيش ، (اليوزباشي) سعيد جندرة ، وقائد المنزل ، (اليوزباشي) فوزي بك ، وقائد الدرك ، (اليوزباشي) محي الدين الخيال ، والمفتي والقاضي وبقية الموظفين والأعيان . وداومت على الاتصال بالقيادة العامة ، أزودها بتطورات الموقف حال حدوثها .

وبعد مرور ثلاث ساعات ، غربت الشمس وخيم على المدينة سكون تام ، وانقطعت الأهازيج بصورة كاملة . جاءني من الشرقيين عبد الله الشاهر وجبار الحسين

وطلبوا التحدث إليّ داخل داري . قالوا : «نريد أن نتكلم عن الأرزاق ، فهل من الممكن الحصول عليها لتوزيعها على المجاهدين؟» قلت لهما : «ما هي الكمية التي تطلبونها؟ فأنا مستعد لتزويدها لكم» . أجابوني «لو عينتها أنت لنا» . استغربت لقولهم هذا ، وقلت : «إن في المنزل سمنًا وطحينًا وتمرًا ورزًا ، فما هي المقادير التي تحتاجونها؟ ليتسنى لي أن آمر قائد المنزل بتزويدكم بها» . أخذ كل منهم ينظر إلى صاحبه بصمت ، ثم قالوا : «سنخبرك فيما بعد» . قلت لهم : «إن الوضع حرج ، والفجر قد أصبح قريبًا ، فلماذا لا تأخذون الطحين لعمل الخبز أولاً» ، وكرروا قولهم بأنهم سيرجعون إلي فيما بعد وانصرفوا . أثار هذا اللقاء استغراب جميع من كان حاضرًا معي .

وفي تلك الليلة ، أشرت على الجالسين معي أن يجمعوا أولادهم وعوائلهم في دار مأمور(الطابو) جواد المعمار التي كانت محصنة ، وأرسلت ولدي الوحيد ، مجيد وجدّته معهم ، وتركت لهم بعض السلاح وبمرافقة ضابط وجنديين لحمايتهم .

بين النهب والدفاع

أخبرني قائد الجيش : بأن أفرادًا من عنده قد تركوا سلاحهم وهربوا . وبعد نصف ساعة ، هرب جنوده التسعون بأجمعهم ولم يبق لديه إلا جنديان فقط ، واحد ابن عمه والآخر من أقاربه أيضًا .

وقبل بزوغ الفجر ، رأيت جموعًا غفيرة تخرج من السوق متجهة نحو رأس الجسر بسكون بالغ ، ثم شتت هذا الهدوء صوت انفجار شديد من جهة المنزل أشبه ما يكون بتحطيم باب . وانتابني العجب من احتمال نهب مخازن الجيش ، وفكرت فيما إذا كانت جهودي مع أهل السماوة قد أخفقت جميعها . وتوجهت مع ضابط الدرك وقائد المنزل إلى الجسر للعبور إلى الجهة المقابلة حيث احتشدت الجماهير ، وما إن اجتزنا ثلث المسافة حتى لحق بنا رجل من (البو جامل) ، أمسك بي ، قائلاً : «لا تعبر فإن نيتهم سيئة» ، ونصحني بالرجوع . واستمر قائد المنزل في العبور ، فأنذره آخر بأن لا يتقدم وأن حياته في خطر . وهنا قررت أن أرميهم بالسلاح المتوافر لدي بمساعدة رجال (البو جامل) والموظفين الذين كانوا معي ، إلا أنهم رجوني بإلحاح أن أترك هذه الجموع تنهب ما تريد ، ومن يدري لعل ذلك سيشجعهم على القتال والدفاع عن مدينتهم . وفي كل الأحوال ، علينا أن نتفادى القتال بين أبناء البلد الواحد والعدو على

الأبواب ، وفي هذا فضيحة لا تغتفر .

وقبلت رجاء جماعتي ، وأخذت أنادي الجماهير بصوت عال ، بأن ما في المنزل هو لهم ، وأن هجومهم بهذا الشكل هو عمل شائن ومخز ، إلا أن من المؤسف أن ندائي لم يوقفهم من نهب كل ما في المخازن من الذخائر المخصصة للقوات العسكرية .

انبلج الفجر ، وتملكني اليأس من اشتراك أهل السماوة في الدفاع عنها . وأمرت قائد الدرك بالتحصن في الثكنة العسكرية ، وقررت أن أكون معه استعدادًا لقتال الزوارق الإنكليزية عند قدومها . كما خططنا معا للانسحاب من خلف الثكنة إذا اضطررنا الى ذلك .

توجهت إلى الثكنة ، ولحق بي السيد حسن ، رئيس البلدية ، وأخوه عباس اللامي والسيد نوري ، مفتي القضاء ، ومنشي بلبول ، رئيس الطائفة اليهودية ، راجين مني الرجوع للدفاع عن جانب القشلة . وأجبتهم بأني لم أعد قادرًا على دفع الخطر عنهم ، فأخذوا يقبلونني ويبكون متوسلين بأن مجرد وجودي معهم سيكون كافيًا لأن يشعر الغوغاء بالخجل فلن يلحقوا ضررًا بهم . تأثرت ببكائهم ورجعت إلى رأس الجسر وجلست مع الموظفين على تخوت المقهى ، وأمرت بقطع الجسر .

جاءني بعد برهة من الزمن ، صبي صغير لا يتجاوز عمره ثلاث سنوات ، قال لي : إن مهدي بن جضعان ورفيقه حافظ بن بويض ، وكلاهما من الغربيين ، يطلبان مجيئي . وتصورت أن هناك أمرًا أرادوا له الكتمان ، فذهبت إليهم مستصحبًا معي جواد مأمور (الطابو) . وعند وصولنا قريبًا من دار قدوري أفندي ، رأيتهم واقفين وهم مسلحون وسط زقاق ضيق ينفذ إلى النهر . وانتابني عند ذاك شعور بالخطر ، إلا أني فكرت بأن من الكرامة عدم التراجع واسترخصت الحياة ، وطلبت من صاحبي انتظاري في مدخل الزقاق وتقدمت نحوهم وحدي حتى أصبحت على بعد ذراع منهم ، وصرخت بهم : «ماذا تريدون؟» وإذا بهم يفرون نحو النهر . والظاهر أنهم كانوا يريدون قتلي ، لكنهم بوغتوا بمجيئي إليهم وحيدًا غير مكترثٍ بهم .

رجعت إلى صديقي جواد وأزيز الرصاص كثيف من حولنا لا نعرف مصدره . أمسك بي ، قائلاً : «هيا بنا إلى البيت» ، وركض مسرعا ، وتبعته ماشيًا ، فصاح بي : «أسرع يا بك فالوضع خطر» . وصلنا بيته وأوصدنا الباب خلفنا ، واجتمع الشمل مرة أخرى مع عوائلنا ورفاقنا المحاصرين . وعندما علمت بعبور الغوغاء إلى جانب القشلة ، أمرت حراسنا بإطلاق النار على كل من يقترب منا .

وبعد أن نهبت المخازن ، هدمت جموع الناس دار القائم مقامية وسراي الحكومة ودور الموظفين . وعبر ثلاثون مسلحًا من الغربيين بسفينة إلى الثكنة العسكرية ، وطلبوا من محي الدين ، قائد الدرك ، فتح الباب لهم ، محتالين عليه ، بقولهم : «نحن إخوانكم جئنا لمساعدتكم في الدفاع» . وانطلت الحيلة عليه ففتح الباب ، وهجموا على المحاصرين ، وانتزعوا أسلحة جنودها الخمسة والعشرين وحاولوا قتل القائد ، لولا أن هب رجال ونساء (البو جامل) الساكنون قرب الثكنة ، أنقذوه .

حدثت هذه المآسي بعيدًا عن الدار التي تحصنا بها . ولم نسمع بها إلا بعد انسحابنا إلى الرميثة .

وكما توقعنا ، توجهت الجماهير بعد أن أكملت نهبها نحونا ، فاشتبك حراسنا معها وتبادلوا إطلاق النار لمدة ثلاث ساعات . ثم جاءني أحد أعيان الغربيين واسمه محمد علي بعد أن طلب الأمان ، وأخبرنا بوصول البواخر الإنكليزية وتنصيب طفار النعمة حاكمًا على السماوة ، وقال : إن الأهالي لا تريد الإساءة إلينا ، وتطلب منا المغادرة فقط . أجبته : بأننا لن نخرج ، ونفضل الأسر على تسليم أنفسنا للغوغاء . وسمع الموظفين كلامي هذا وأجهشوا جميعهم في البكاء .

اشترطت على محمد علي ، أن يضمن وجود سفينة لنا في (الشريعة)[٢٠] المجاورة ، وأن تنفض جموع المتجمهرين من حولنا وضمان عدم تعرضها لنا قبل أن نقبل الخروج من الدار . عرض الوسيط هذه الشروط على رؤساء الغربيين والشرقيين وقبلوا بها ، وكلفوه بمصاحبتنا إلى قلعته الكائنة خارج محلة الغربيين . ثم طلبت منه دعوة بربوتي السلمان ، الشخص البارز بين الغربيين ، لمصاحبتنا أيضًا ، لكنه اعتذر قائلاً : إنه يخجل من لقائي بعد ما قامت به جماعته من فوضى وأعمال تخريبية .

وضعنا ثقتنا بالسيد محمد علي ، وتركنا جميعنا الدار وأنا أتقدمهم . وعند وصولنا الساحل ، لم نجد السفينة . قلت لوسيطنا : إن هذه أول مخالفة للشروط المتفق عليها . وأقسم إن السفن غير متوافرة ، وكان ادعاؤه هذا مطابقًا لما شاهدناه .لم يكن لنا آن ذاك إلا مواجهة الأمر الواقع والعبور على الجسر مشيا ، والرجوع الى الدار خطرا .

وعند عبورنا ، أحاطت بنا جموع النساء والرجال على جانبي الطريق ، ووجوههم وألبستهم ملوثةٌ بالطحين المنهوب من المخازن ، ولحاهم وسيدياتهم وعمائمهم يغطيها

(٢٠) الشريعة : ساحل النهر المخصص لرسو السفن والزوارق .

البياض ، يبكون ويكفخون على رؤوسهم ويصرخون : «لقد أخطأنا وقصرنا معك يا سيد وأنت الذي أحسنت إلينا ولم تسيء ، نرجو منك الصفح» . ذكرتني رؤية هذه الدموع ، باستشهاد سيدنا الحسين ، وكيف قتله العراقيون ثم بكوا عليه .

الانسحاب من السماوة

عبرنا الجسر ، وتعقبنا النهر مجتازين محلة الغربيين حتى وصلنا قلعة محمد علي . جلس الرجال في الديوان والنساء في دارة الحرم ، وذهب مضيفنا يفتش لنا عن سفينة حتى الثانية بعد الظهر . وقدمت لنا وجبة الغداء التي لم نتناول منها شيئًا ونحن في حالتنا النفسية السيئة بعد ما عانيناه من حوادث مؤلمة . ثم ركبنا السفينة متوجهين إلى الرميثة وفي حوزتنا بعض السلاح . وفي طريقنا وجدنا الشيخ غثيث الحرجان ينتظر على الشاطئ فأمرت الربان بأخذه معنا ، وما إن انضم إلينا حتى أخذ يبدي أسفه الشديد لما حدث أخيرًا .

وصلنا الرميثة ، ونزلت في دار الحكومة ونزل الموظفون في (الحسينية) . ثم زارنا كل من : ناصر الحسين وأخيه ضيدان وعلي العبد الله من رؤساء (البو حسان) ، وشعلان أبو الجون رئيس (الظوالم) مع رفاقه . رحب بنا الجميع وعرضوا خدماتهم علينا .

القائد العام يهدد بإعدامي

أبرقت حال وصولي إلى القائد العام ، نور الدين باشا ، ومتصرف الحلة ، شارحًا لهم الموقف العام وانسحابنا من السماوة ، وحاجتنا إلى المخصصات لإعاشة الموظفين وعائلاتهم .

وفي عصر ذلك اليوم ، طلبني القائد العام إلى دائرة البرق وأخذ يسألني عن تفاصيل ما حدث ، وقال لي : «إنك واهم ، والزوارق التي وصلت السماوة هي زوارقنا وليست إنكليزية ، وتركك القضاء هو جريمةٌ تعاقب عليها بالإعدام» ، أجبته : «إن كان إعدامي مقررًا لديكم فأمروا بذهابي إلى بغداد لأتلقى ما استحقه» .

وفيما أنا أتكلم مع القائد ، دخل دائرة البرق رجلٌ عار لا تستره إلا خرقةٌ بالية على عورته ، سلم علينا وجلس . كان شكله غريبا وظننته معتوهًا . سألته عن هويته فأجاب : أنه قائد الخيالة المنسحبة من الناصرية ، دخل السماوة وهو لا يدري

بسقوطها ، وما إن توسط سوقها مع قوته المكونة من مائة وثمانين خيالا حتى هجم عليهم الأهالي وسلبوهم ملابسهم وخيولهم وكل ما لديهم . أخبرت القائد عن الرجل العاري فطلب التكلم معه ، وسرد الضابط له تفاصيل سقوط الناصرية وما صادفه في السماوة . ثم دخل الدائرة عريان آخر قال : أنه (بمباشي) المفرزة ، وتقدم مثل زميله يشرح للقائد تفاصيل الهزيمة . عند ذلك طلبني نور الدين باشا مرة أخرى ليعتذر عن كلامه السابق ، وظهر لي أنه كان يجهل إلى ذلك الوقت مصير الناصرية وقائد قواتها أحمد أوراق . قال لي : «إني أشكرك على اهتمامك وعملك الدؤوب ، وإني أودع إليك الآن قيادة جبهة الفرات وأطلب منك جمع الضباط والجنود وتزويدهم بالأسلحة وإرسالهم إلى الشطرة» . وقال : إنه سيوعز إلى متصرف الديوانية لإرسال المخصصات اللازمة لنا . وطلب مني البقاء في الرميثة حتى إشعار آخر .

إعادة تنظيم في الرميثة

اجتمعت برؤساء (البو حسان) و(الظوالم) وأخبرتهم أني باق في الرميثة . وأكدوا لي ولاءهم واعتبار أنفسهم جنودًا يمتثلون لأوامري ، وكذّبوا ما أشيع أن أهل المدينة لا يرغبون ببقاء الموظفين فيها تخوفًا من بطش الإنكليز . قالوا : إن ذلك مخالف للواقع ويجب أن لا نلتفت إليه . وشكرتهم على موقفهم هذا ، وطلبت من ناصر الحسين (رئيس البو حسان) ، تخصيص عشرة من رجاله لحمايتي عوضًا عن الدرك الذين فقدت الثقة بهم بعد جريمة بلبول .

ولا بد لي هنا من الإشادة بموقف المتصرف ، عزت بك ، الرجل الغيور والإداري الحازم الذي أجاب على طلباتي بسرعة ، فأرسل إليّ بواسطة عباس القويزي ، مائة ليرة ذهبية ، وزعناها على ضباط وجنود الخيالة الذين تعرضوا للسلب ، والتي ساعدتني أيضا على إعادة تنظيم القوات وإرسالها إلى جبهة القتال .

عشيرة الأكرع تسلب الموظفين

أضاف بقاء الموظفين وعائلاتهم معي في الرميثة ، عبئًا آخر على مسئولياتي الكثيرة من غير أن يكون لبقائهم فائدة ما . وقد عانوا من إيجاد محلات لسكناهم وفقدوا كل ما ملكوه عدا الألبسة التي عليهم . فكلفت ناقل البريد المعروف (الخزعلي الهندي) بإحضار الدواب ووسائل النقل الأخرى المتوافرة لنقلهم إلى الديوانية . سافر

الجميع في صباح اليوم التالي وأرسلت معهم ابني الوحيد ، عبد المجيد ، وعمره لا يتجاوز السبع سنوات ، مع جدته والسيد عبد الواحد ، أحد أقاربي .

وصلت القافلة إلى منطقة عشائر (الأكرع) ، وخرج عليها رجالها وجردوهم من كل ما عليهم حتى تركوا الرجال والنساء حفاة عراة . كان ولدي الصغير مرتديًا (دشداشة)[٢١] نوم وفانيلة وسروالاً وعلى رأسه (طاقية) . نهب الأشقياء الدشداشة والفانيلة والطاقية وهددوه بالخناجر طالبين السروال ، لكنه قاومهم ورفض ذلك ، ورمى عبد الواحد نفسه فوق الطفل ليحميه من القتل . وابتدع عبد المجيد خدعة للتخلص من هذا المأزق ، فشق سرواله ، وقال للمجرمين : «شوفوا هذا مشقوق» عند ذاك انصرفوا عنه . وفي النهاية لم يسلم من القافلة إلا سروال ابني الصغير .

استمر النساء والرجال العراة مشيًا على الأقدام حتى الديوانية . وعند بلوغهم مشارفها ، دفنت النساء أنفسهن بالرمال ليسترن أجسامهن ، وأرسل أصحاب (الكرود) المجاورة أخبارهم إلى مقر الحكومة ، فوصل المتصرف شخصيًا للقائهم يصحبه كثيرون ، وكلهم ألم وأسى لهذه المأساة ، فستروا المسلوبين ووفروا لهم الراحة قبل أن يدعوهم يستمرون بسفرهم إلى بغداد .

عشائر السماوة تطلب عودتي

اجتمع رؤساء عشائر السماوة بي في الرميثة ، واستمعت إلى آرائهم وأسفهم على ما حدث في السماوة ، وطلبوا مني مهاجمتها والقيام بأعمال تخريبية تأديبًا لأهاليها ، الذين أجرموا وخانوا العهود . شكرتهم على شعورهم واقترحت تأجيل ذلك إلى وقت آخر . إلا أنهم بقوا حانقين ومصرين على القتال ، وبهذه الفكرة رجعوا إلى مراكزهم تاركين معي رؤساء (الظوالم) و(البو حسان) ليكونوا على اتصال دائم بي .

جاءني بعد ذلك شيوخ السماوة وتجارها وأعيانها ، راجين أيضًا عودتي ، مؤكدين لي أن الزوارق الإنكليزية قد انسحبت إلى الناصرية بعد أن بقيت فيها سويعات فقط ، نصبت خلالها طفار النعمة حاكمًا . وقالوا : إن البلدة في حالة فوضى وقد عاد القتال بين الشرقيين والغربيين كالسابق .

---

(٢١) الدشداشة : ثوب شعبي فضفاض يلبس داخل البيت وخارجه وأثناء النوم .

الرجوع للدفاع عن السماوة

كانت المدة التي بقيت فيها في الرميثة حرجة جدًا ، كنت أثناءها على اتصال دائم بالقيادة وبمركز اللواء ، وتمكنت أثنائها من إعادة تنظيم الضباط والجنود وإرسالهم إلى جبهة القتال في الشطرة ، حتى وصلني أمر من القيادة بالعودة إلى السماوة استجابة لطلب أهاليها .

دخلت السماوة يصحبني رؤساء (الظوالم) و(البو حسان) و(البو جياش) وسط استقبال وترحاب سادتها وعلمائها ، رجالاً ونساءً . وأقمت في الدار نفسها التي خرجت منها في ظروف مأساوية مؤلمة . وأسكنت الرؤساء الذين كانوا معي دورًا مستقلةً في جانب القشلة وعينت مخصصات لهم ولرجالهم ، كما اتخذت من دار نعمة أفندي ، الواقعة على النهر في صوب الثكنة ، مقرًا للحكومة ، وبدأت باجتماعات متواصلة مع الرؤساء و(الاختيارية) : المسنين ، لبحث أمور الحرب والاستعداد لهجوم العدو المرتقب . وقمنا بإصلاح الخنادق وتوسيعها ، وأودعت هذا القطاع إلى المجاهد السيد هادي المكوطر مع من يتطوع معه للدفاع من رجال العشائر .

ولضمان إنذارنا بوصول البواخر الإنكليزية بوقت مناسب ، أعطيت أوامري إلى مأمور برق ناحية الخضر بمراقبة وصولها ليل نهار . وفي حالة انقطاع الاتصال البرقي ، كلفت جنديين من الدرك مع أحد رجال عبد الله الشاهر بالخفارة في قلعته بصورة دائمة . كما أعطيت التعليمات إلى قائد زورقنا الحربي (نور قادر آغا) ليكون على أهبة الاستعداد للقتال في أي وقت نحتاج اليه . وصدرت من القيادة العامة أوامر إلى عجمي باشا السعدون للتمركز بقواته في منطقة (الرميلة) ، على بعد خمسة عشر كيلو مترًا جنوب قرية (عين صيد) القريبة من ناحية الخضر .

كنت في تلك الأيام أبقى ساهرًا لا أتمكن من النوم حتى الصباح ، متوقعًا هجوم العدو في أي لحظة ، ولا أخلد للراحة حتى أتسلم تقريرًا من مأمور برق الخضر ، يؤكد فيها عدم وجود أثر للعدو ضمن حدود القضاء .

قتال البواخر الإنكليزية

أخبرني مأمور برق الخضر في ١٠ تموز ١٩١٥ ، عن وصول باخرتين متجهتين نحو السماوة . فاستنفرت رجال العشائر ، وأخذ ما يقرب من ألف مسلح منهم مواقعهم في الخنادق . وما إن وصلت البواخر قرية (الخنينية) حتى علم الإنكليز بهذا التحشد

وانسحبوا إلى الناصرية . وعلمنا آنذاك أن طفار النعمة في السماوة ومحمود العجيرب في الخضر ، كانوا على اتصال دائم بالعدو ، يزودانه بأخبار تدابيرنا الدفاعية . وكنا مضطرين في تلك الظروف إلى تجاهلهم وإخفاء معرفتنا بخيانتهم[٢٢] .

وفي يوم ٢٦ تموز ، لم تردني أي برقية من الخضر وأخبرني مأمور البرق ، نوري أفندي ، أن الاتصال معها قد قطع ، فأرسلت الحراس لإصلاحه . انتظرت طوال الليل عبثًا وصول خبر منهم حتى اقتنعت أن وقتًا كافيًا قد مضى لأن تصل البواخر إن كانت قد بدأت هجومها ، فاستلقيت على فراشي متعبًا وأنا بملابسي . وبعد نوم نصف ساعة ، جاء خادمي ، مبروك[٢٣] ، وأمسك بيدي ، قائلاً : إن الدركي محمد ، من قلعة الشاهر ، يريدك حالاً . نزلت من السطح مذعورًا ، ووجدته واقفًا في وسط الدار مشيرًا إليّ باثنين من أصابعه قاصدًا باخرتين . أرسلت حالاً عددًا من الجنود لإنذار الرؤساء ثانية للخروج مع أتباعهم إلى الخنادق ، وطلبت من (نور قادر آغا) إحضار زورقنا الحربي ، وإذا به يكفخ على رأسه بكلتي يديه ، قائلاً : إنه فتح ماكنة زورقه في الصباح الباكر لتنظيفها . قلت له : «ما الفائدة من البكاء؟ اذهب وحاول إصلاح الزورق ، وإن لم تتمكن فقم بإغراقه قبل أن يقع غنيمة بيد العدو» .

خرجت مسرعًا نحو الخنادق وتبعني علي العبد الله ، رئيس (البو حسان) ، مع حارس شبانة من عشيرته ، اسمه محسن ، وأحد جنود الدرك . وبعد أن تجاوزنا بساتين السماوة ، أمسك علي العبد الله بيدي ، قائلاً : «أنت وين رايح؟ هذه باخرة العدو أبو السلة[٢٤] بجانبنا» . التفت نحو النهر وإذا بباخرة كبيرة تبحر نحو السماوة . حرت بما يجب علينا أن نعمله ، فنحن في أرض مستوية مكشوفة ومعرضون للقصف و بعيدون عن خنادقنا ، لم نجد موقعًا نستتر فيه إلا نهرًا صغيرًا لا يكفي لإخفاء جسم إنسان ، التجأنا إليه مع الشبانة وتخلف الدركي في البساتين . طلبت من رفيقي

---

(٢٢) كان موقف الحي الشرقي من السماوة إلى جانب الإنكليز والحي الغربي على حياد مكشوف .

[Great Britain (Confidential) Personalities in Iraq 1920 p:121)

(٢٣) مبروك : رجل أسود من زنجبار ، طويل حاد الملامح ونحيف ، كان خادمًا أمينًا لكاتب المذكرات توفي في بغداد في أوائل الثلاثينيات .

(٢٤) أبو السلة : أطلقت هذه التسمية على البواخر الحربية الإنكليزية النهرية لوجود موقع مرتفع على ساريتها مخصص لمدفع رشاش .

علي العبد الله أن يرمي الباخرة ، فتلكأ . وأخذت بندقية محسن وأطلقت النار عليها ، وأثار ذلك حماستهم ، فاسترجع محسن بندقيته وأخذ يرمي وهو واقف وتابعه علي العبد الله بالإطلاق وهو جالس . وكنا نريد من رمينا أيضا ، إيقاظ صائمي رمضان ، النيام إلى وقت متأخر من النهار .

أخذت الباخرة تمطرنا بوابل من قنابل مدافعها ورصاص رشاشاتها . ثم توقفت نيرانها بعد عشر دقائق ، ربما لأنها لم تجد من قوتنا هدفًا يستحق القتال . واستمرت في سيرها حتى اختفت بين البساتين وتبعتها باخرة أخرى . التحق بنا جمهور كبير من الأهالي نتابع البواخر ونرميها ، وكان من بين هؤلاء الكثير من الشرقيين الذين لم يعلموا بدور رئيسهم طفار النعمة الخياني . وما إن وصلنا المدينة حتى نزل الكثير عن سطوح بيوتهم ليشتركوا في القتال .

ولنرجع إلى حكاية زورقنا الحربي ، فقد هرب نور قادر آغا مع جميع أفراد طاقمه ، ولم يبق منهم إلا الجندي (مجيد الأكرع) . حاول المفتي نوري أفندي تشجيعه على استعمال مدفع الزورق ، لكنه اعتذر لجهله بأمور الرماية ، فاقترح عليه أن يحشو المدفع بقنبلة وأن يسدده نحو الباخرة كما يسدد البندقية . عمل الجندي بهذا الاقتراح ، وإذا به يصيب الباخرة في صدرها بإذن الله ، ومع إطلاقه القنبلة الثانية تحطمت قاعدة المدفع وتهاوى على قاع الزورق .

أدت هذه المقابلة القصيرة إلى انسحاب البواخر من حيث أتت ، وشجع ذلك المجاهدين لتتبعهما وإطلاق النار عليهما بلا انقطاع . وكان لرميهم تأثير كبير لأن مستوى البساتين كان أعلى من مستوى الفرات ، فكانت إطلاقات البواخر بالمقابل لا تصيب إلا قمم النخيل .

أخذ ربان الباخرة المصابة بالتخلص من حمولتها من مؤن وزوارق صغيرة ، ورماها في النهر تخفيفًا لثقلها وتسهيلاً لانسحابها . استمر القتال لأكثر من ساعة ، إلى أن تمكنت البواخر من اجتياز البساتين والوصول إلى منطقة مكشوفة تماما ، فاضطر الأهالي إلى الرجوع إلى السماوة ، فخورين بالنصر الذي حققوه من دون خسائر . ووصلت أخبار انتصارنا إلى (عين صيد) فتشجع أهلها لأن يصلوا البواخر أيضًا بنيرانهم ، حتى اجتيازها ناحية الخضر .

وعلمت في وقت لاحق ، عندما أصبحت متصرفًا للناصرية ، بأن قنبلة مدفع زورقنا الصغير قد أصابت تسعة عشر جنديًا من طاقم الباخرة الإنكليزية ، وأن ما رمته

من حمولتها في النهر أصبح غنائم ذات فائدة كبيرة لقواتنا ، وأن قطع الاتصال البرقي بين الخضر والسماوة قام به الإنكليز لتغطية أخبار فشلهم .

وبعد اندحار البواخر ، طلبت مساعدة القيادة في إصلاح مدفعنا المكسور استعدادًا لأي هجوم آخر ، ولم يستجب لطلبي . فكلفت من أعتمد عليه لبناء قاعدة جديدة له وأخفيناه في أحد البساتين بعد أن غطيناه بالقش ، وكلفت أحد الفلاحين وبراتب شهرين المحافظة عليه ، وأخبرت خلفي القائد أحمد أوراق بموقع المدفع قبل أن أغادر السماوة .

محاولة لاغتيالي

طلب مني جماعة من الغربيين التظاهر أمام داري صباحًا احتفالاً بالنصر ، وأجزتهم بذلك . ولم أتمكن بعد هذا من رفض طلب مماثل من الشرقيين للتظاهر عصرًا أسوةً بهم . وكان من الواجب علي استقبال المظاهرات ، فوقف بجانبي رؤساء (الظوالم) غثيث وشعلان ، ورؤساء (البو حسان) ناصر وضيدان وعلي ، ورؤساء (الزياد) بندي الضامن وحسين أبو كحيلة وغيرهم .

مر أمامي ثلاثمائة مسلح يهوسون ويطلقون الرصاص ، وفي هذه الأثناء تقدم نحوي أحد أتباع طفار النعمة ، واسمه حنش علي البدراوي ، وهو مجرم من أرباب السوابق ، حشا بندقيته وصوبها إلى وجهي وضغط على الزناد ، ولم تنطلق الرصاصة . وكرر ذلك مرة ثانية وثالثة ورفضت الرصاصة أن تنطلق بقضاء الله وقدره .

شاهد الرؤساء حولي ما حدث ، فاحتضنوني ودفعوني إلى داخل الدار واستغربوا من عدم هربي من أمام الجاني . أجبتهم : «أني وجدت الهرب عارًا وصعبت عليّ الهزيمة ، فواجبي هو أن أبقى في محلي بينكم دائمًا» .

أمرت بعد ذلك بتفريق المظاهرة ، وانسحب أفرادها إلا واحدًا ، هو ابن فلاح عند عبد الله الشاهر ، من الشرقيين أيضًا ، حاول اقتحام داري فاضطر الحراس إلى إطلاق النار عليه وأردوه قتيلاً . وعلى إثر هذه الحوادث أصدرت أوامري بمنع أي فرد من الغربيين أو الشرقيين من عبور الجسر إلى جانب القشلة وهو حامل للسلاح حفظًا للأمن .

الإنكليز يعاودون الهجوم

بعد انسحاب البواخر بثلاثة أيام ، قام الإنكليز بهجوم آخر على قرية عين صيد وأنزلوا جنودهم الى البر وقتلوا كل من صادفوه وأتلفوا الدواب . استنجد أهالي القرية بعجمي السعدون فأسرع مع أتباعه لإنقاذهم ،لكن وصوله كان متأخرًا بعد أن انسحبت القوات الإنكليزية إلى الناصرية .

أهازيج القتال

وهنا نموذج للـ (الهوسات) التي ألقيت ليلة سقوط السماوة في تموز الموافق ١٧ رمضان ١٣٣٤ :

يا سـيـد جـدّك يرعـانا
يـا بـيـج الـطيـبك ودايـه
يا بيج للفـاو أنتـبـعك
يـا بـيـج أنـطرنـا وطـك بـيـنـا
يا بيج إمـحـضـر للنيـبـة
للفـاو أنتـبـعك وأديلك
بهل السـوك الله يبـيع أجنانه
الثـاية بحـيـدر منصـوبه
يـا بـيـج أتـلـفـظ وادايـه
بحـشـال المونة ندهديهـا
يعـتـاز الماوي يصـفـيـهـا
يا بيج الطيـبك رفـايه
السـيـد مـرمـر ونلوجـه
يا بيج الطيـبك هللينه
هيّ النايم نايم داخل بحـمـانه
هيّ النايم نايم سـوّلك هيـبـه
من غـيـر مـرّ مـا يتـولد
نسـجـيـه من مـرنا الماذاكـه

ذنب حـيـتنه أعظم من طولهـا
يمشـاور خلهـا لراعـيـهـا

والمقصود في هذه الهوسات من كلمات سيد وبيج هو القائم مقام .

وهذه القصيدة الشعبية التي نظمها السيد محمد علي جابر السماوي بمناسبة هجوم البواخر الإنكليزية على قرية عين صيد ، وذلك بعد فشلها في السماوة بيومين أي بتاريخ ١٥ تموز ١٩١٥ :

أبعـزم الله أبتـدينا للحـرب بسـلام
المسلم لا يبـقى عن الحـرب وينام
على الكفـار لا بد مـانحـوم أحـيـام
نرضـى الله اونتـنومس بيـهـا
أمـوت على الشـهـادة وأرضي البـاري
ومن يطلع الصـاحب يطلب بثـاري
أجـاهد دون ديني وعـرضي وجـاري
منـدوم القـاد أعلـى إبلاده
التـحنّ قلوبنا يوم التـحنّ أطواب
عليـهـا أنطيح جلنا أونحت وانهـاب
لبـسنا قلوبنا فـوك الثـيـاب ثيـاب
نتـسـابق للمـوت عليـهـا
إشـتـد عـزم النشـامـة بجـيت الماطور
بعـزم الله وتبنينا ولا قـبلنا الشـور
حـزنا الشـرف والعـز والفـخـر والطور
وأعـلـوم تـشـيـع بـكـل ديـره
قـابلنا الطواب أبقلب جلمـود
ولي سـابج فـعـايل ذابح إبن سـعـود
هـذا الـنـفـع وينـك يـل تـريـد الـزود
بـهل السـوق الله يبـيع أجنانه

لـيـش تـكـود عـلـى أهـل الـعـين
يذبحـون الطفل والشـايب المسكين
بالدنيـا وطمع ذاتك تبـيع الدين
يـل بـايـع ديـن بـديـناره
بعت الآخـره بدنيـاك وربّي[٢٥]
حـزت مرضاة كوكس وأغضبت ربي
عليك بشـوم دينك يالصـرت صـبي
يل خـاسـر دنيـاه بدينه
يخايب كفرك إمن أبليس وأكثر صار
بعد وأعظم ذنب مشهور وأشهر عار
جنت مسلم صرت صوجر وقود النار
من لندن جـابو كـبـوسـه[٢٦]
جـسب مـرضـاة ربه رباط بن سلمـان
مـعـرض والنشـامـة صـورهم للدان
بعـزم الله ينصـر دولت بني عـثـمـان
آمين ويخـذل عـدوانه

مصير طفار النعمة

لم يجرؤ طفار على أن يقوم بأي عمل مخل بالأمن طيلة مدة بقائي في السماوة لثلاث سنوات وحتى وصول البواخر الإنكليزية .

وبعد تركي القضاء إلى الرميثة ، عاد طفار يحرض الشرقيين والغربيين على التمرد ، مما دعا عجمي السعدون ، قائد قوات المجاهدين ، إلى دعوته مع رباط السلمان الى اجتماع في مخيمه . لبى الدعوة رباط ولم يلبها طفار إلى أن حصل على الأمان من بريد بن حجيل رئيس فرقة (البو حمد) من عشائر (الزياد) . وعند وصولهم الخيمة حجز عليهم ، وبعد مدة أطلق سراح رباط السمان واحتفظ بطفار حتى

(٢٥) رُبّي : رُبّية : عملة هندية .

(٢٦) كبوسه : برنيطة

سقطت بغداد ، وأخذه بعد ذاك على ظهر بعير وأطلق سراحه في وسط الصحراء ، واعتقل بعد الاحتلال وسجن لمدة طويلة للأسباب نفسها التي اعتقل من أجلها سابقًا . ثم توفي بعد إطلاق سراحه بمدة وجيزة .

أيامي الأخيرة في السماوة

أدت الواجبات الكثيرة الملقاة على عاتقي أثناء الحرب ، من أمور إدارية وعسكرية والعناية بالمجاهدين المتواصلة ليلاً ونهارًا ، إلى تدهور صحتي واستفحال مرض (الاكزما) في يدي ، وأصبحت لا أنام إلا لسويعات قليلة .

رفضت الولاية طلباتي المتكررة للنقل أو الاستقالة حتى اضطررت أخيرًا إلى تكليف أخي أمين بطلب إجازة من الوالي والقائد العام ، خليل باشا[٢٧] ، لزيارة والدتي وهي على فراش الموت . ووردت موافقته برقيًا في ٣٠ تموز ١٩١٦ على أن أتمتع بها ابتداء من ١٥ آب . وعجبت من تأخر بداية الإجازة فأبرقت إلى القيادة مستفسرًا عن ذلك ، وأجابت : أنها تريد بقائي في القضاء إلى حين وصول مدفعين ثقيلين أرسلا على الشخاتير[٢٨] مع قائدها وجنودها ، وطلبت مني المساعدة في تعيين مواقع لها .

ووصل في هذه الفترة فوجان نظاميان مع زوارق حربية لتعزيز القوات الدفاعية ، وجاء معهما عزت بيك ، متصرف الديوانية ، ومعه ضابطان من أركان الحرب هما : توفيق وهبي وإسماعيل حقي . ثم تركنا المتصرف لمقابلة عجمي السعدون في بر الشامية ، وبقي الضباط معي للعمل سويةً على رسم خريطة لأراضي السماوة وتعيين المواقع الدفاعية عليها .

اعتمد الضباط المعلومات التي قدمتها لهم عن المرتفعات والأنهار والطرق

(٢٧) خليل باشا : والي بغداد وقائد الفيلق الثامن عشر ، تسلم منصبه بعد انسحاب نور الدين باشا من الكوت إلى سلمان باك . عاود الهجوم مع مستشاره الألماني (فون در غولج) وحاصر الإنكليز في الكوت لمدة ستة أشهر ، وفشلت محاولات كثيرة لرشوته وفك الحصار . استسلم له (الجنرال طاوزند) مع ١٢٣٠٩ جنود وضباط . فتح جادة في مركز بغداد سميت في وقت لاحق بشارع الرشيد ، والتي استعرضت فيها قوات الاحتلال بقيادة (الجنرال مود) في ١١ آذار ١٩١٧ . عزا البعض فشله في الدفاع عن بغداد إلى غروره بعد انتصاره في الكوت .

(٢٨) الشخاتير : وسائط نقل نهرية كبيرة ، ومفردها شختور .

والمسافات . وكانت الخريطة التي توصلنا لها هي الأولى من نوعها التي تخطط للمنطقة ، حيث لم تكن هناك أي خريطة عسكرية أخرى لاعتمادها[٢٩] .

وبعد انتهاء الضباط الأركان من مهمتهم ورجوع المتصرف ، قررنا السفر سوية إلى الديوانية ، ووكلنا القاضي بمهام القائم مقامية إلى حين تسلم القائد ، أحمد أوراق ، لها .

ودعنا إخواننا المجاهدين وتركنا السماوة على ظهور الخيل في ٢٠ آب ١٩١٦ .

الطريق إلى بغداد

وصلنا الديوانية ونزلنا ضيوفًا على متصرفها لليلة واحدة ، وتابعنا بعدها السفر إلى الحلة حيث نزلنا في دار السيد محمد علي القزويني الذي أحسن ضيافتنا وأطالها ، محذرًا من خطورة الطريق واحتدام القتال بين عشائر (البو سلطان) و(المعامرة) وعشائر (البسار) في المناطق المحاذية للطريق العام . ولما يئسنا من توقف القتال ، وجدنا أن ليس هناك مفر من المغامرة ، فتركنا الحلة بالعربات غير مستجيبين لإلحاح مضيفنا .

وفي الطريق إلى بغداد مررنا بين العشائر المتقاتلة ، وشاهدنا الحرائق تلتهم البيوت والقلاع ، وتمكنا من الوصول بعد مشاق كثيرة . وكان يصاحبنا الحاج ضيدان الحسين رئيس (البو حسان) واثنان من عمدة الشبانة ، اللذان أبليا بلاء حسنًا في حمايتنا .

وفاة والدتي

عند وصولي بغداد ، وجدت والدتي تعاني من مرض عضال لم تفد معه معالجة الأطباء ، وأقمت على خدمتها لمدة قاربت الشهر حتى توفاها الله في ٢ تشرين الأول ١٩١٩ . كانت منزلتها كبيرة بين أفراد عائلتنا ، نساءً ورجالاً ، وكان شأنها عظيمًا وحزننا لفقدانها كبيرًا ، فقد بذلت رحمها الله جهودًا خارقة في تربيتنا وإدارة أمورنا .

شيع جثمانها جمهور كبير ، وقمنا بتنفيذ اقتراح أخينا الأكبر ، محمد رشيد ، في أن يحمل جثمانها العزيز أولادها الخمسة لا يشاركهم في ذلك أحد .

---

(٢٩) لم تكن هناك أي خريطة عسكرية معتمدة للعراق عند اندلاع الحرب العالمية الأولى سوى خريطة واحدة بمقياس (١/١,٥٠٠,٠٠٠) .

[د . علي الوردي (تاريخ العراق الحديث) ص : ٨٣]

الفصل التاسع
الانسحاب الإداري والعسكري المستمر على الفرات

من السماوة إلى الهندية

بعد أن نفذت أوامر القيادة جميعها قبل مغادرتي السماوة ، قابلت القائد العام وكررت طلبي لنقلي منها بعد أن قضيت فيها ثلاث سنوات ، إلى أي قضاء آخر ، أو قبولي تطوعي للجهاد في جبهة الكوت . استجاب القائد وطلب مني اختيار القضاء الذي أريده ، فاخترت قضاء الهندية[١] ، وصدرت الإرادة السنية بتعييني قائم مقام لها . باشرت مهام وظيفتي الجديدة في ١٥ كانون الأول ١٩١٦ .

لم تساعدني المدة القصيرة التي قضيتها في هذا القضاء على القيام بأعمال مهمة في ظروف الحرب المتأزمة والحوادث المؤلمة في الحلة وكربلاء والنجف[٢] ، ماعدا تشييد وترصين سدة (السعلوة)[٣] التي انكسرت أثناء فيضان سابق وسببت غرق قسم كبير من كربلاء ، و تمكنت من إحكامها في مدة شهرين فقط . كما أمرت بتطهير جدول (بني حسن) الذي غطته طمى الفيضان ، ولم أتمكن من إنجازه لضيق الوقت .

الانسحاب من الهندية

سقطت بغداد في ١١ آذار ١٩١٧ ، وبُلغتُ بضرورة ترك الهندية والالتحاق بمتصرف كربلاء بالمسيب ، فأودعت مهام القائم مقامية إلى الشيخ عمران السعدون

---

(١) الهندية : مدينة تقع على شط الهندية (شط الكوفة) ١٠٠ كيلومتر جنوب بغداد .

(٢) أعلن أهالي النجف العصيان على الأتراك في آذار سنة ١٩١٥ وأصبحت محلاتها بإدارة أعيان المدينة . وتلاه عصيان مماثل في كربلاء في ٢٧ حزيران وفي الحلة في ٢٣ آب .

(٣) السعلوة : امرأة بدينة أسطورية تعيش على الأنهار .

رئيس (بني حسن) . وفي هذا اليوم وصلت بواخرنا الصغيرة المنسحبة من السماوة متوجهة إلى المسيب ، ودعاني قائدها للسفر بواسطتها . وطلبت منه التريث إلى حين الانتهاء من واجباتي . أحضرت سفنًا لنقل الموظفين وعوائلهم وأودعت حمايتهم إلى الحاج رمضان ، قائد الدرك ، مع ثلة من الجند ، وأرسلت ابن شقيقتي ناجي القشطيني[٤] معهم .

وعندما حان وقت مغادرتي ، ركبت قاربًا لإيصالي إلى الباخرة في وسط النهر . كانت الرياح شرقية عاتية والأمواج تتلاطم ليبلغ ارتفاعها مترين أو أكثر ، وكان بصحبتي خادمي الأسود مبروك . تجمع أهل المدينة على الشاطئ يراقبون معاناتنا ويهللون ويكبرون داعين لنا بالسلامة . ولم نصل إلى باخرتنا إلا بعد جهد وعناء لمدة ساعتين من الزمن .

تحركت بنا الباخرة عند الغروب ووصلنا سدة الهندية ليلاً . والتقيت هناك أحمد أوراق ، قائد الفرات ، وقائم مقام السماوة ومعهم القوات النظامية المنسحبة من الديوانية والحلة وكربلاء والسماوة . وكان القائد يعمل على نقل أحد المدافع الكبيرة المنصوبة على سدة الهندية . وقد سمعت خبرًا لم أتمكن من التأكد من صحته ، وهو أن القائد أحمد أوراق أراد نسف السدة بعد مرور قطعات الجيش عليها ، لكن العشائر منعته من القيام بذلك فسلمت السدة من الدمار .

في المسيب

عند وصولنا جميعًا إلى المسيب ، وبعد أن اطمأننت على وصول الموظفين ، كلفت صديقنا الشيخ مهدي بالاحتفاظ بأمتعتي وإيصالها إلى بغداد . وشاهدت وأنا على الساحل إحدى البواخر الصغيرة المتجهة إلى الفلوجة وهي تحترق ، وتصورت أنها الباخرة التي تقل ابن أختي ناجي ، فاضطربت كثيرًا ، وزاد من اضطرابي وجود طائرة إنكليزية تحوم فوق رؤوسنا . أسرعت في عبور النهر إلى الجانب الأيمن حيث يقيم القائد في دار البلدية ، وأخبرني بأنه هو الذي أمر بإحراق الباخرة لأنها قديمة لا تتمكن من الوصول إلى الفلوجة ، وأن ابن أختي لم يكن على متنها .

حاولت الرجوع إلى الجانب الأيسر والرصاص يلعلع من حولنا . وعلمت أن

---

(٤) ناجي القشطيني : ١٨٩٩ - ١٩٧٢ من رجال التربية وشاعر .

الأهالي ورجال العشائر كانوا يهاجمون مخازن الجيش وينهبون ما فيها من عتاد، فعدلت عن العبور وبقيت في دار البلدية منتظرًا وصول الجيش لمصاحبته. وجاءني الحاج شريف المدني الحجازي، وهو قائم مقام متقاعد يعمل في التجارة، طالبًا أن يصحبني في سفرتي إلى الفلوجة. كان الحاج شريف شيخًا وقورًا تجاوز السبعين، سبق لي أن عرفته وخبرت عفته واستقامته منذ زمن بعيد. أخبرني الحاج أن لديه نقودًا يريد نقلها إلى الدليم وعليه العبور إلى الجانب الأيسر لجلبها، فكلفته بشراء خبز وتمر كمتاع لنا قبل أن يغلق السوق. رجع إلينا بعد ساعة ومعه منديل فيه قليل من التمر الزهدي فقط لأن السوق كان مقفلاً. وكان معه رجلان من هيت يلتحفان بالفراء قال إنهم قد ساعدوه في إخراج ثلاثة آلاف ليرة ذهبية من أمواله، ورجاني أن أضمهم إلى قافلتنا بصحبة الجيش المنسحب.

الانسحاب إلى الفلوجة

أمر أحمد أوراق جيشه بالتحرك في ١١ آذار ١٩١٧، وركبت حصاني لأرافقه. كان معنا أسعد رؤوف، متصرف كربلاء، وعزت أفندي، مدير تحريراته، وأمين طرابلسي، قائم مقام النجف، وأحمد تركي، قائم مقام الحلة، وجميع أعضاء محكمة كربلاء، ومنهم عارف القيمقجي، وعدد آخر من موظفي كربلاء والديوانية. تلطف القائد فسمح للموظفين بركوب عربات النقل العسكرية، وكان من نصيب خادمي مبروك ركوب إحدى العربات الحاملة للمدافع.

وبعد مسيرة ساعتين، حط الجيش رحاله في منطقة (الجنابيين). كانت الرياح شديدةً والبرد قارسًا. طلبت من القائد تزويدي بخيمة وفراش فأعطاني خيمة ألمانية صغيرة تتسع لثلاثة أشخاص فقط. قال: إن لديه سريرًا واحدًا وفراشًا ومخدة، علينا أن نتقاسمها. قلت له: «أنت القائد ومن حقك أن تأخذ السرير واترك الفراش لي لأنام على الأرض».

نصبتُ الخيمة ووضعت فراشي على قطعة من (المشمع)، وهو نوع من القماش السميك، على الأرض، وطلبت من الحاج شريف وصاحبه النوم بجوار الخيمة فلا خوف عليهم من البرد وهم يلتحفون بفرائهم السميك. وما إن غربت الشمس حتى هجم على خيمتنا الصغيرة جميع الموظفين الكبار من قائمي مقام ورؤساء محاكم ومدراء مال، وقالوا: «نحن ضيوفك»، فلم يكن لي بد من الترحيب بهم وانحشرنا

جميعنا في خيمة لا تتجاوز مساحتها الأربعة أمتار .

استغرقت سفرتنا إلى الفلوجة ثلاثة أيام بلياليها ، كان الحاج شريف أثناءها يصاحبنا راجلا ، مهتمًا بتزويدنا بالخبز والتمر والبيض والحليب من القرى والمضارب على الطريق قبل أن يصل الجيش لها ، ومساعدته هذه لن تنسى رحمة الله عليه .

في الفلوجة

وصلنا الفلوجة بعد سفرة متعبة ونزلت في دار ابن عمي ، محمد سعيد عبد الكريم ، وهناك تعرضنا إلى غارات جوية مستمرة . كانت الطائرات الإنكليزية تلقي علينا قنابلها صباح كل يوم ، مما دعا القيادة إلى إصدار أوامرها للجيش بالاستمرار في الانسحاب بعد ثلاثة أيام . وفيما كنت نائمًا بعد الظهر ، أيقظني أحدهم وأخبرني بأن هناك ضابطين على الجسر ينتظران عبوري قبل أن يشعلوا النار فيه ، فأسرعت بإحضار حصاني وأمرت خادمي مبروك باللحاق بالجيش قبلي وانتظاري على الجانب الآخر من الفرات ، وأرسلت معه ناجي القشطيني وعبد الوهاب الحاج حمادي ليساعداه في الحصول على فرس من أحد (كرود) الدليم القريبة . وأسرعت بعدهم في العبور ، ورأيت الجسر يحترق بعدي .

وفي موقع (كرود) الدليم وقفت على قارعة الطريق منتظرًا ناجي . وما إن مرت ربع ساعة ، حتى رأيت أربعة رجال يسرعون نحوي ، وتأكد لي أنهم قطاع طرق كانوا يريدون سلبي ، فحثثت حصاني مبتعدًا عنهم ولم أتوقف حتى أدركت قوات الجيش المتجمعة على تل قريب ، ووجدت هناك ناجي واصلاً قبلي ، وعاتبني القائد على تأخري .

الانسحاب إلى الرمادي

تركنا الفلوجة في ٢١ آذار ، ووصلنا الرمادي بعد يومين . استقبلنا هناك الحاج حمادي العريم والحاج أمين الأسود وكلاهما أراد ضيافتي . قلت لهم إني سأنزل عند الذي يشتري لي فروة ويجلبها لي قبل شرب القهوة في ديوانه . أتاني بالفروة حمادي العريم ، حفظه الله ، وكان ثمنها خمسة (مجيديات) ، عادلت عندي آنذاك ألف (مجيدي) لشدة ما قاسيته من البرد .

وبعد ليلة في دار آل عريم ، جاءني مراسل القائم مقام العسكري ، قائد الخيالة ،

أحمد بيك الحجازي ، الذي كنت أعرفه سابقًا من السماوة ، وهو رجل مستقيم حافظ للقرآن ، وأسرَّ لي بأن الخيالة ستتحرك إلى هيت حالاً والقائد يعرض عليك مصاحبتها . طلبت منهم أن ينتظروني على قنطرة العزيزية ، وأمرت مبروك أن يحضر حصاني وفرس ناجي القشطيني للحاق بهم . تسرب خبر سفري إلى بعض الموظفين فأخذوا يستأجرون الدواب للحاق بنا خوفًا من اقتراب جبهة القتال .

وبعد مرور مفرزة الخيالة ، وكان عدد أفرادها مائة خيال ، بقنطرة العزيزية ، هاجمتنا طائرة إنكليزية قادمة من بغداد ، وألقت علينا قنبلتين أدّتا إلى تشتت خيولنا في الصحراء(٥) . وكنت على بعد مترين من الرتل ، فقفز حصاني عند انفجار القنبلة الأولى بعيدا وخبّ مسرعًا ونجوت بأعجوبة . تجمع شمل المفرزة بعد الغارة ، وفقد ناجي كيس نقوده وفيه عشرون (مجيديًا) ، فتشنا عنه بلا جدوى ، ثم لاحظنا رجالاً كثيرين من الدليم يتقدمون نحونا ، قلت لناجي : «دعنا من نقودك ولنسلم بأنفسنا وخيولنا» ، وأسرعنا نتعقب الجيش بعد أن ابتعد عنا .

قائم مقام في هيت لثلاثة أيام

وصلنا هيت(٦) ، ونصبت الخيام لمتصرف كربلاء وقائم مقامي النجف والحلة ، ونزلت أنا في دار قدمها لي أحد معارفنا بأجر زهيد . التقيت الحاج شريف المدني الحجازي ورفيقيه ، وفرحت بوصولهما سالمين مع ما حملوه من أموال .

وفي اليوم التالي ، أبلغني المتصرف بأمر وزارة الداخلية المؤرخ في ٢٢ آذار ١٩١٧ يكلفني بتشكيل قائم مقامية في هيت ، وفكرت في الأمر مليًا . كنت لا أملك آنذاك إلا ملابسي واثنتين وعشرين ليرة لا غير . تساءلت كيف لي أن أشكل قضاءً جديدًا في هذه الظروف الصعبة؟ ولم أجد بدًا من الامتثال للأمر .

ذهبت إلى مركز الناحية ، ووجدته في دار يحتل منها طابقها الثاني . وفي طابقها الأرضي مخزنان كبيران مقفلان ، سألت الضابط المكلف بحراستهما عن محتوياتهما ، أجاب : بأنهما مشحونان بالآثار القديمة التي اكتشفها الألمان في بابل ،

---

(٥) شهدت بغداد أول غارة جوية في ٥ تشرين الأول ١٩١٥ .

(٦) هيت مدينة على الفرات على بعد ١٨٥كم شمال شرق بغداد ، عُرفت بعيون (القار) منذ زمن البابليين .

جاءوا بها إلى هيت عند تهديد الإنكليز لبغداد ، وهي هنا الآن لا يسأل عنها أحد . وقال : إن الموظف الذي سلمه الآثار قال له إن قيمتها تتجاوز ملايين الليرات العثمانية .

احتوى الطابق الثاني في المركز على غرفتين : إحداهما خصصت لمدير الناحية والثانية لكاتبه . أمرت بتخصيص الغرفة الصغيرة للقائم مقام والكبيرة لمدير الناحية ، وبدأت عملي بجمع المعلومات اللازمة عن القضاء . وبعد مرور ثلاثة أيام ، ورد أمر آخر من الوزارة بالعدول عن فكرة تشكيل القضاء والانسحاب مع الموظفين إلى دير الزور(٧) .

المتصرف المستبد

تركنا هيت في ٢٥ آذار بصحبة مفرزة من الدرك ، وكان معنا المتصرف يستقل عربة خاصة ومعه سيدة قيل إنها لا ترتبط معه بعلاقة شرعية . وكانت القيادة قد زودته بمبالغ كبيرة لتوزيعها كرواتب على الموظفين لم يدفع لهم منها شيئًا ، وهم عراة جياع ، فأبدوا استياءً مريرًا . وعند وصولنا حديثة(٨) ، طالبه الموظفون برواتب ثلاثة أشهر لم تدفع لهم . استشار المتصرف من كان معه من لقائم مقامين فاقترحنا عليه توزيع رواتب شهرين على الأقل ، إلا أنه اكتفى بتوزيع راتب شهر واحد فقط . وعند وصولنا عانة(٩) ، أبدى الموظفون استياءهم مرة أخرى فنصحته بالتخلص مما لديه من مخصصات وتوزيعها فهذا أفضل من تحمل مسؤولية نقلها من محل إلى آخر وبحماية كتيبة من الحرس . وبعد إلحاحي ، وزع راتب شهر واحد آخر فقط . تألمت كثيرًا لأن أكون تابعًا لشخص مستبد كهذا وقررت الانفصال عنه ، فطلبت إجازة للبقاء في عانة متذرعًا بحاجتي إلى الراحة . واستمر هو ومن معه من الموظفين إلى دير الزور .

وصلنا عانة يوم الأربعاء ٤ نيسان واستأجرت دارا في محلة الحوش تدعى دار (آل زبالة) ، جهزها لي بالأثاث الملا (أمين دله) أحد تلامذة أخي عباس ، وساعده

---

(٧) ديرالزور : مدينة كبيرة على الضفة الغربية من الفرات ، هي الان مركز لمحافظة في سوريا .

(٨) حديثة : تقع بين هيت وعانة، موقع سد حديثة حاليًا .

(٩) عانة أو عانات أو خانة : مدينة عرفت ببساتينها ونواعيرها تقع في شريط ضيق على الساحل الغربي لنهر الفرات . كانت موقع دولة قديمة ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد وموقع معارك بين الآشوريين والبابليين .

في ذلك عبد الرحمن أبو شيمة أحد شركاء والدي السابقين . ووفرت لي هذه الدار الراحة مدة بقائي فيها لمدة ستة أشهر .

طلبني متصرف دير الزور ، عبد القادر ، وهو عسكري من المنتمين إلى حزب الاتحاد والترقي ، للحاق به عدة مرات واعتذرت مرجحًا البقاء في عانة لأنها أقرب إلى بغداد وتضمن لي وصول المساعدات المالية منها . فقد كنت كبقية الموظفين الآخرين أعاني من انقطاع رواتبي .

الفصل العاشر
في عانة ثم الانسحاب إلى الموصل

وكالة القائم مقامية في عانة

بعد انزوائي في عانه لأربعة أشهر ، وردتني في ٧ تموز برقية من متصرف دير الزور يكلفني فيها بقائم مقامية عانة وكالةً ، ورفضت طلبه معتذرًا . وبعد إرسال برقيتي بثلاث ساعات ، قصد داري جمع غفير من أشراف عانة وراوة ، منهم : الحاج مصطفى ، وحسان الفتيان ، والسيد محمد سعيد . والحاج داود ، وسعيد المفتي وغيرهم ، ومعهم محمد أفندي مدير دائرة البرق ، قالوا لي : «علمنا بتكليفك بالقائم مقامية ونحن جئناك معبرين عن شعورنا وسرورنا ، ونهنئ أنفسنا لهذا التكليف» . قالوا : «إنهم كانوا يتمنون هذا الخيار بعد أن ذاقوا الأمرين من قائم مقامهم السابق ، وهو تركي من البو كمال . ووصفوا لي كيف أنهم قبعوا في دورهم خوفًا من مداهمة رجال الدرك في أي وقت شاءوا بحجة التفتيش عن الهاربين من الخدمة العسكرية أو جمع النفقات للجيش ، في وقت كانوا فيه جياعًا لا يتوافر لهم حتى الخبز . أجبتهم : بأن الوقت قد فات لأني أرسلت برقية بالاعتذار ، أجابوني : بأنهم سيتمكنون من إرجاع البرقية لأنهم طلبوا من مدير البرق تأخير إرسالها . واعترف محمد أفندي بدوره ، واستجبت لما أراده الجميع ، وباشرت في وكالة القائم مقامية في ٨ تموز ١٩١٧ .

إعادة الثقة بالإدارة

كان أول عمل قمت به هو منع قوات الدرك من مداهمة البيوت ، فعالجت بذلك تذمر الناس من مصادرة الجيش لما لديهم من حنطة وشعير وأرزاق أخرى . سألت قائد المنزل العسكري (البمباشي) أحمد بيك ، وهو تركي عنيد عصبي المزاج ، فيما إذا كان قد حصل على ما يحتاج إليه من حبوب بطريقته التي اتبعها لحد الآن ، فأجاب بـ : «كلا» ، فقلت له : «لماذا تتعدى على الناس في بيوتهم في أمور لا جدوى منها؟»

وسألته : إن كان يريد ابتزاز الأرزاق من غير مقابل؟ فأجاب بالنفي أيضًا ، وأكد بأنه مستعد لدفع قيمة ما سيحصل عليه . عند ذاك اقترحت عليه أن أقوم أنا بجمع ما يريده من الأرزاق ، محليًا أو من المناطق المحتلة كالدليم والفلوجة ، إذا تعهد بدفع أثمانها حال تسلمها .

وبمساعدة مجلس الإدارة في القضاء ، ثبتنا أسعار المواد ، وشجعنا المتمكنين من أهالي عانة وراوة على استيراد الحبوب ، فاندفع التجار الى كل حدب وصوب ورجعوا إلينا بكميات كبيرة .

جاءني يومًا محمد سعيد المفتي ومعه ستة أطنان من الحنطة أوصلها من تلعفر إلى ضواحي راوة . طلبت منه جلب طنين منها فقط للتأكد من نوايا قائد المنزل ، ثم أخبرني بأن القائد تسلم الحنطة لكنه طلب منه مراجعته في الغد لتسلم ثمنها . أسرعت إلى القائد وأبدى أعذارًا غير مقنعة لعدم التزامه بوعده بالدفع حال التسلم ، فدفعت يدي في جيبه وأخذت مفاتيح الخزانة وهو يضحك وفتحتها طالبا منه الدفع . اضطر القائد بعد ذلك إلى الالتزام بالدفع ، فتوالت الأطعمة تنهال على عانة وطفحت مخازنها بالحبوب ، وأبرقت القيادة تشكرني على جهودي .

صناعة النسيج

كان في عانة خمس وثمانون (جومة)[١] نسيج ، وفي راوة أربعون ، تصنع ما يعرف بـ(عبي)[٢] عانة . وتوقفت هذه (الجوم) عن العمل عند اندلاع الحرب . وقررت إحياء هذه الصناعة حلاً لمشكلة البطالة المتفشية وتنشيطًا للحالة الاقتصادية الراكدة . دعوت ذوي المهنة للرجوع إليها على أن يكون نسيج العبي متينًا يصلح للاستعمال كلباس للجنود ، والالتزام بقماش موحد ، وبقياس ثابت هو ثلاثة أمتار في الطول ومتر واحد في العرض ليسهل تسويقه ، وطلبت منهم أن يقدموا نموذجًا من إنتاجهم لخياطة بذلة لي .

بدأت (الجوم) تعمل بجد وتتنافس فيما بينها في الكمية والنوعية ، وحددنا للأقمشة المنتجة أسعارًا معقولة تغطي كلفتها وتضمن لمنتجيها ربحًا معقولاً .

وافقت القيادة العامة على استعمال منتجات عانة للألبسة العسكرية في وقت

(١) الجومة : آلة محلية للحياكة .

(٢) عبي : جمع عباءة ، وشاح أسود تلبسه السيدات المحجبات .

كانت فيه الأقمشة نادرة جدًا، وطلبت القيادة أولاً خمسمائة عباءة، عملت الجوم ليلاً نهارًا لتقديمها في الوقت المحدد. ثم توالت الطلبات بعد ذلك بكثرة، وعم السرور الأهالي برجوع صناعتهم التراثية وتحسن وضعهم الاقتصادي، وضمن ذلك تخلصهم من ملاحقات الإدارة في جمع النفقات العسكرية.

حدث هذا في زمن كان فيه مصطفى كمال (أتا تورك)(٣) قائدا عاما لمنازل الجيش في حلب، والذي قدم لي شكرًا وتقديرًا لأعمالي مع النيشان(٤) العثماني من الدرجة الرابعة، والنيشان المجيدي من الدرجة الثالثة، ونيشان الهلال الأحمر الفضي. وأتاحت لي هذه الظروف الاتصال المستمر بالقيادة والتعرف على مصطفى كمال ومستشاره الألماني (فون بابن)(٥) وقائد الجبهة (فالكن هاين)(٦) باشا، وسنأتي على ذكرهم فيما بعد.

مع قائد الجبهة الجديد

مرَّ في عانة أثناء وجودي فيها فوجان من الجنود الأتراك بقيادة القائم مقام

(٣) مصطفى كمال: ١٨٨١ - ١٩٣٨ قائد تركي اشتهر بعد انتصاراته بمعارك الدردنيل وحروبه مع اليونان. أصبح بعد الحرب أول رئيس لجمهورية تركيا ١٩٢٣ - ١٩٢٨ وقاد بلاده إلى حضارة أوربية حديثة، سُميَّ بـ (أتا تورك) أي: أبا الأتراك.

(٤) النيشان: الوسام.

(٥) فون بابن Franz Von Papen: ضابط ارتباط ألماني مع المارشال فالكن هاين مسؤول عن وسائل النقل عندما كانت قلتها سببًا مهمًا في فشل القوات التركية والألمانية أثناء هجومها على قناة السويس. التحق بالشرق الأوسط بعد مشاركته في القتال بجبهة (السوم) و(الفلاندرز) في فرنسا. أصبح مستشارًا للرايخ (رئيس وزراء ألمانيا) سنة ١٩٣٢ وانسحب عند تولي هتلر السلطة. عمل كسفير لبلاده في تركيا أثناء الحرب العالمية الثانية. حكم عليه بالسجن في نورمبرغ عند نهاية الحرب.

(٦) فالكن هاين Field Marshal Falken Hayn: كان قائدًا للقوات الألمانية في الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى وسُحب من هناك بعد فشله في معركة (فيردون) Verdun في فرنسا، وأُبدل بمارشال هايدنبرغ Hindenberg ولدوندورف Ludendorf نقل إلى قيادة الجيوش في العراق بعد وفاة (المارشال غولج) Field Marshal Colmar Von Der Golz الذي توفي في بغداد بعد انتصاره في حصار الكوت. حاول فالكن هاين أولاً تحرير بغداد بعد احتلالها لكنه اضطر لتسلم القيادة في فلسطين من جمال باشا لايقاف زحف (الجنرال اللنبي) General Allenby

العسكري ، شكري نائل بك الأرناووطي ، مع رئيس أركان حربه ، رسمي بك ، مستقلين الشخاتير في الفرات في طريقهم إلى هيت للدفاع عنها بعد سقوط الرمادي ، وأُخذ القائد ، أحمد أوراق ، أسيرًا . اجتمعت بالقائد وأركان حربه وزودتهم بمعلومات مفصلة عن العشائر ومواقع القتال في منطقة الفرات الأوسط وعن القائد أحمد أوراق .

التمييز العنصري

ساءت معاملة الأتراك للعرب على أثر قيام ثورة الحسين في الحجاز في ١٠ حزيران ١٩١٦ ، وسادت روح التذمر عند الموظفين وكثر الهاربون من الخدمة العسكرية[٧] . وأخذت الدولة قرارًا بإناطة رئاسة جميع الوحدات المدنية والعسكرية بالأتراك فقط ، لذا صدرت الإرادة بإزاحتي عن وكالة قائم مقامية عانة في ٨ تشرين الأول ١٩١٧ وتعيين شفيق أفندي البارودي محلي ، وهو من زحلة توهم العثمانيون بأنه تركي .

إلى دير الزور

انزويت مرةً أخرى في عانة حتى جاء أمر من متصرف دير الزور[٨] لتسلم مديرية الإعاشة فيها ، واعتذرت في البداية ثم امتثلت أخيرًا لإصراره . سافرت إلى الدير يصاحبني أحمد بك ، قائد منزل عانة الصعب الذي تحدثت عنه سابقًا . صاحبتنا كذلك والدة عبد الرزاق الحكيم الملقب بالجوعان ، وهو جارنا في بغداد ، وهي في طريقها إلى إسطنبول لرؤية ولدها ومعها ابنتها زوجة أحمد بك ، وقد انتحر في الرمادي مؤخرًا . والسيدتان كانتا في ضيافتي في عانة .

ركبنا جميعًا عربة (البايتون)[٩] ، وفي طريقنا مررنا بـ(القائم)[١٠] وبغابة كبيرة

(٧) الهروب من الخدمة العسكرية : قدر عدد الهاربين من الجيش التركي في بداية ١٩١٧ بـ ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل ، وفي صيف ١٩١٨ ارتفع هذا العدد إلى ٥٠٠,٠٠٠ .

(٨) دير الزور : أو دير الشعير أو الدير : تقع على الضفة الغربية من الفرات . وهي مركز لمحافظة في سوريا .

(٩) البايتون : عربة نقل تجرها الخيول .

(١٠) القائم : فيها مخفر درك قائم على مرتفع على الضفة اليمنى لنهر الفرات . كان فيها دير قديم مع برج مراقبة في عهد الإغريق وهي آخر مدينة عراقية قبل الحدود السورية .

اندثرت بعد الحرب العالمية الأولى . ثم بغابة أخرى بين قضاء البو كمال[11] والميادين[12] تسمى (الصالحية) أو (الصبخة) كثرت فيها الخنازير البرية والحيوانات المتوحشة . كانت القوافل تحتاج لاختراقها من شروق الشمس حتى غروبها ، ويضطر رجالها إلى حمل السلاح تحسبًا لهجوم حيواناتها المفترسة .

ووصلنا أخيرًا دير الزور في ١٤ تشرين الثاني .

أوامر مجحفة

عند وصولي دير الزور ، تسلمت برقية من القائد شكري نائل يطلبني فيها لوظيفة مستشار حقوقي لفرقته العسكرية في هيت ، وألح عليّ باللحاق به . طلبت منه الاتصال بمتصرف دير الزور الذي أرتبط به إداريًا ، ورفض المتصرف الموافقة على هذا الطلب .

وأبلغني المتصرف عبد القادر بالإرادة السنية المؤرخة في ٢٣ كانون الأول ١٩١٧ ، بتعييني قائم مقام للزيبار في الموصل . فوجئت بهذا التعيين فأنا لا أجيد اللغة الكردية ولم أعتد العمل في المناطق الجبلية . ذهبت لمقابلة المتصرف ، وقلت له متهكما مبتسمًا : «شكرًا لهذا التعيين» . وأخذه العجب ، وسألني : «لماذا؟» قلت له : «لأن أهل الزيبار هم أخوالي وتربطني بهم صلة النسابة» . شعر المتصرف بتهكمي وأخذ يحمرّ ويصفرّ وغير مجرى الحديث .

عرفت بعد ذلك بأن المتصرف عبد القادر كان من الاتحاديين ، أراد إبعادي لأني عربي من بغداد ، وعلمت أخيرًا أنه قد أعدم في عهد مصطفى كمال متهمًا بالخيانة العظمى .

وفي وقت لاحق ، أرسلت برقية شديدة اللهجة إلى الصدر الأعظم ووزير الداخلية ، طلعت بك[13] تتضمن احتجاجي على تصرف الدولة مع الموظفين المخلصين غير المنتسبين إلى حزب الاتحاد والترقي ، وعرضت عليه ما أصابني شخصيًا

(١١) البو كمال : أول مدينة سورية بعد الحدود مع العراق .

(١٢) الميادين : تقع على الفرات في سوريا بين البو كمال ودير الزور .

(١٣) طلعت بك : (باشا) أحد غلاة الاتحاديين الأتراك تولى وزارة الداخلية وبعدها رئاسة الوزراء . اغتاله شاب أرمني في برلين في ١٥ آذار ١٩٢١ .

من قرارات إدارية مجحفة وتأخر في الترفيع ، جزاءً لقيامي بخدمات متميزة تحت ظروف الحرب الصعبة .

من دير الزور إلى حلب

تركت دير الزور إلى (الرقة)(١٤) وكان فيها نسيبي القائم مقام العسكري ، إبراهيم فوزي ، قائدًا للمنزل فيها . وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٨ ، أي بعد وصولي الرقة بيوم واحد ، نقل إبراهيم فوزي ترفيعًا إلى قيادة المنزل في دير الزور ، فقررت السفر إلى حلب والبقاء فيها حتى نهاية الحرب . سافرت بعربة خاصة إلى (رأس العين) عن طريق (عين قيس) و(تل أبيض) ووصلتها قبل الغروب . وفي (رأس العين) أخذت القطار الصاعد إلى حلب والذي كان يعمل بوقود الخشب . حجزت فيه عربة خاصة لخادمي مبروك وتركت معه أمتعتي وأقفلت بابها عليه .

البحث عن مبروك

وصلنا حلب في العاشرة من صباح يوم ١٢ كانون الثاني . بحثت عن مبروك ولم أجده ، وكلفت مفتش المحطة بالبحث عنه وتركت إلى فندق بارون في المدينة . اعتكفت في غرفتي لا أتركها ، فألبستي التي عليّ لا تليق بخروجي إلى قاعة الطعام أو بهو الاستقبال ، وجيوبي خاوية وكل ما كان معي هو مع مبروك الذي ضاع .

رجعت إلى محطة القطار مساءً للسؤال عنه وعلمت أن القطار العسكري النازل من ماردين قد استقطع قسمًا من عربات قطارنا الصاعد ثم تركها في الصحراء ليربط عوضًا عنها عربة نقل عسكرية ، ووعد مدير المحطة بجلب العربات المعزولة في أقرب وقت .

مرت عليّ أيام صعبة استقرضت أثناءها نقودًا من صديقنا القديم شريف المقيد الحلبي ، اشتريت بها بذلةً ومعطفًا ، وأخيرًا وصل مبروك مع أمتعتي جميعها لا ينقصها إلا ذخيرتنا من خبز ورز والفواكه المجففة التي اختفت جميعها . قص مبروك عليّ حكايته ، قال : إن العربات التي اقتطعت من قطارنا كانت تحتوي على الكثير من الرجال والنساء والأطفال ، تركوا في الصحراء جياعًا ، وقال : إنه قام بتهيئة

---

(١٤) الرقة : مدينة سورية على الفرات وهي من المدن القديمة اشتهرت بالخزف الأزرق .

وجبات طعام لهم لإنقاذهم ، وشكرته على عمله الإنساني هذا .

الانتظار في حلب

كان في نيتي البقاء في حلب حتى نهاية الحرب راغبًا في التخلص من وظيفتي في الزيبار . طال انتظاري وبدأت نقودي تنفد ، فتركت الفندق وأجرت غرفتين في دار في محلة الجميلية ، وقررت أخيرًا الالتحاق بوظيفتي في الزيبار .

بحثت عن واسطة تنقلني إلى الموصل بلا جدوى فقد سيطر الجيش على جميع وسائل النقل المتوافرة . أشار علي صديقي حامد السامرائي بالاستعانة بالقائد مصطفى كمال باشا ولديه صلاحيات كبيرة ، وطلبت منه مصاحبتي لزيارة القائد .

لقاء مصطفى كمال و(فون بابن)

وصلنا مقر قائد المنازل العام ، مصطفى كمال ، ووجدت غرفة الانتظار والممرات مكتظة بكبار العسكريين المنتظرين مقابلته . أعطيت بطاقتي إلى الحاجب الواقف عند الباب ، وبعد مدة وجيزة خرج وسأل : «من منكم عبد العزيز؟» أجبته : «أنا» قال : «تفضل الباشا يطلبك» . تعجب رفيقي حامد ، وقال : «من أين يعرفك الباشا؟» قلت له : «لا أعلم» . دخلت غرفة القائد وعيون الحاضرين تتابعني باستغراب .

كان مصطفى كمال جالسًا خلف طاولة كبيرة تتصدر القاعة االواسعة . قام من خلف مكتبه وضمني إلى صدره مرحبًا وكأنه يعرفني من قبل . قال : «هل أنت عبد العزيز؟ أين كنت ونحن نبحث عنك؟» أجبته : «أنا في حلب منذ مدة طويلة أنتظر واسطة لنقلي إلى مقر وظيفتي الجديدة في الزيبار ، وجئتكم لمساعدتي على ذلك» . أجلسني الباشا قربه وأخذ يحدثني ، قائلاً : إنه دخل في مراسلات طويلة وخلافات شديدة مع الوزارة في إسطنبول حول أمر نقلي من عانة إلى الزيبار ، وعن رفض متصرف دير الزور ووزارة الداخلية لتعييني مستشارًا حقوقيًا للفرقة العسكرية في هيت بحجة أن نقلي للزيبار قد اكتسب صفته النهائية . وقال : «إن قائد الفرقة قد طلبك لما عرفه عنك من إلمام في شؤون العشائر ومناطق القتال في الفرات الأوسط ، منطقة حركات الجيش السادس ، وأيد المشير (فالكن هاين) باشا ذلك ، وأصر على نقلي إلى الفرقة» . وقال مصطفى كمال : «إن آخر ما كتبناه عنك هو إرجاعك إلى عانة حيث أننا نقدر ما قمت به هناك من أعمال لتموين الجيش ، واقترحنا كذلك تعيينك

متصرفًا للواء (عينتاب) ولم نتسلم من إسطنبول ردًا على مقترحاتنا لحد الآن» . وأعطاني الملف الخاص بي لأطلع على تفاصيل الكتب المتبادلة واللهجة الشديدة في مخاطبة الوزارة والصدارة العظمى . قلبت محتويات الملف حتى أتيت على الفقرة التالية : «إنكم تبخلون على الجيش في إعطائه موظفًا مدنيًا يتوقف نجاح الفرقة في هيت على خدماته» . وحمدت الله لما تركته من انطباع حسن عند القيادة العامة .

فكرت في وضعي الخاص مليًا بعد انقطاع رواتبي ، ونفاد نقودي واستحالة تمديد إقامتي في حلب ، فأجبت الباشا بأني أفضل الالتحاق بالزيبار و الامتثال للإرادة السنية ، كما بينت له استعدادي للحاق بالقوات العسكرية من هناك متى طلبوا مني ذلك .

شعر مصطفى كمال بحراجة موقفي ، فكتب ورقة صغيرة إلى مستشاره (فون بابن) في الغرفة المجاورة حضر على أثرها مع ضابط ألماني آخر ، وقال له : « هذا هو عبد العزيز قائم مقام عانة» . بدا (بابن) في حديث ودي معي مستفسرًا عن أحوالي الخاصة ، وقام بتحرير كتاب إلى القائد الألماني في محطة (تل حلف) لمساعدتي في الوصول إلى الموصل .

تركت غرفة القائد ووجدت رفيقي حامد السامرائي متلهفًا لسماع أخباري ، متعجبًا بالاهتمام الذي قوبلت به .

في تل حلف

غادرت حلب بالقطار ووصلت تل حلف(١٥) مساء ٢٩ كانون الثاني ١٩١٨ . سألت حال وصولي (البمباشي) ناجي ، آمر منزل الجيش ، عن مقر القائد الألماني لتسليمه كتاب (فون بابن) . قال : «انتظر ، سأذهب معك» وبدأ يحلق ذقنه بعناية ويلبس بذلته العسكرية بأناقة أمام المرآة . قال متذمرًا : «يا أخي ابتلينا بالألمان وأصبحنا بمعيتهم نخضع لأوامرهم لا يمكننا مقابلتهم ، ما لم نحلق ذقننا ونعتني بألبستنا إلا بموعد مسبق ، لقد أصبحت جميع أمورنا بأيديهم» . رافقني (البمباشي) إلى حيث يقيم القائد الألماني ، وبعد أن طرقنا الباب خرج علينا وهو بالقميص

(١٥) تل حلف : قرية واقعة على مقربة من منبع الخابور في سوريا في منتصف الطريق بين الموصل وحلب ، وهي موقع حضارة قديمة ترجع إلى الألف الخامس ق . م .

والسروال فقط . وبعد أن قرأ الكتاب ، أخذني بيده وأدخلني مقره وأوصد الباب بوجه رفيقي ، وامتعضت من هذا التصرف غير اللائق .

كان مع القائد ضابطان ألمانيان آخران . تناولنا القهوة معًا ، وسألني بتركية ركيكة عن محل إقامتي ، ووعدني بلقاء آخر في الثامنة من صباح اليوم التالي مع واسطة مناسبة لسفري . قضيت ليلتي في غرفة بمنزل تل حلف ، وجاءني القائد صباحًا مع سيارة (لوري)[١٦] كبيرة . قال : «هذه السيارة مخصصة لنقل المؤن العسكرية اخترتها لك لأنها مريحة» . وسألني : إن كنت أوافق على استصحاب الجندي محمد علي من جنود التموين معي ، فأجبته : بأن ليس لدي اعتراض على ذلك . ركب جنديان ألمانيان بجوار السائق ، وركب الجندي مع خادمي مبروك في الخلف وتحركنا إلى (دمير قبو) بعد أن شكرت القائد على مساعدته .

المآسي على الطريق

قمنا برحلتنا في شهر كانون الثاني والبرد القارس على أشده . سألت الجندي محمد عن حمولتنا ، وأجاب بأنها معاطف صوفية عسكرية محفوظة بأكياس من الصوف أيضًا . لاحظت أن الجندي كان يرتجف من البرد بثيابه الصيفية الخفيفة الممزقة ومعه كيس صغير لا يحتوي إلا على رغيف خبز فقط . سألته : إلى أين سيذهب بهذه المعاطف؟ قال : إنه مكلف بتسليمها إلى المنزل في دمير قبو . سألته : «لماذا لم يعطوك معطفًا منها؟» أجاب : أنه سيتسلم ما يستحقه عند عودته إلى ديار بكر . اقترحت عليه أخذ معطف مما نحمله بصورة مؤقتة وإرجاعه عند نهاية السفرة . رفض اقتراحي ، وقال : «إن عملاً كهذا يعتبر خيانةً يعاقب عليها بالإعدام» ، وأصر على رفضه حتى بعد أن وعدته بأني سأكون شفيعًا له أمام مسؤوليه ، ثم طلبت من خادمي مبروك أن يعطيه البساط الذي معنا ليلتف به ، وصرت أعامله كولدي وأشترك معه ومع خادمي مبروك في تناول الطعام معًا .

كانت سيارتنا تقف كل أربع ساعات عند النقاط العسكرية ، ويكلف السائق مبروك بمراجعة المنازل فيها لتسلم أرزاقنا ، فيرجع مثقلاً بكميات كبيرة من الخضار واللحوم والبطاطا والصمون . كنت أعاتبه على كثرة الكميات التي يأتي بها فيجيبني :

---

(١٦) اللوري : حافلة كبيرة لنقل البضائع .

أنه سيقوم بتوزيع قسم منها على الجياع المشردين على قارعة الطريق، حيث كنا نرى الآلاف من اللاجئين الأكراد والأرمن(١٧) وهم حفاة عراة، يتجمعون حول المنازل العسكرية ومنظرهم يفتت الأكباد.

الحياة الشاقة في (دمير قبو)

وصلنا في اليوم الثالث إلى (دمير قبو) أو (دم قبو) ومعناها: باب الحديد. راجعت حال وصولي آمر المنزل (اليوزباشي) علي رضا لتخصيص محل أنام فيه. عرض علي أن أختار بين غرفة أو خيمة، واخترت الغرفة لأنها جيدة ومبنية حديثا وواسعة قد تحميني من البرد. وما إن مالت الشمس إلى المغيب حتى هطلت الأمطار وكأنها انهالت من مئات القِرب. وحمدت الله على اختياري الغرفة.

وبعد ثلاث ساعات، جاءني آمر المنزل ورجاني قبول مشاركة ثلاثين ضابطًا بعد أن اكتسحت المياه خيامهم، ورحبت بهم فالغرفة كبيرة وتتسع لهم جميعًا. تمتعت تلك الليلة في الحديث مع هذه المجموعة من الضباط الشباب والتعرف إلى الأماكن التي جاءوا منها والى أين هم ذاهبون.

جيء لهم بعد مدة بقدر كبير من الشوربة كانت عبارة عن ماء أزرق تسبح فيه حبات قليلة من الرز مع صمونة(١٨) يابسة لا يمكن كسرها، وسمعتهم يتذمرون ويتظلمون. قالوا: إنهم أخذوا من المدارس العالية، فإن كان طعامهم كهذا فما هو الطعام الذي يقدم إلى الجنود المساكين؟. تألمت لحالة هؤلاء الشباب وكيف كانوا يساقون إلى هذه الديار وكيف يطعمون.

ثم جاء مبروك يهمس في أذني، قائلاً: إن طعامي جاهز. وأتاني بكمية من الرز والبامية كافية لكلينا. كان الضباط يتابعون وجبتنا بعيون جائعة فرفضت الانفراد بطعامي ودعوتهم جميعًا لمشاركتي، طلبت من كل منهم جلب ملعقته ليأخذ مرةً واحدةً من الطعام، وأخذت أنا أيضًا ملعقةً واحدة منه، وأتينا على الطعام بأكمله.

---

(١٧) المأساة الأرمنية: قرر مجلس الوزراء ترحيل الأرمن من موطنهم حول بحيرة (وان) غرب تركيا، عقابًا لهم لتعاونهم مع روسيا القيصرية. ونتج عن ذلك مأساة كبرى وتعرضت جموعهم للسلب والقتل على الطريق.

(١٨) صمونة: تسمية عراقية لنوع من الخبز.

كلفت مبروك بعد ذلك بتوزيع ما لدينا من تمر وخبز الموصل عليهم فأكلوا شاكرين .

استمرت الأمطار تهطل تلك الليلة كالسيول ونفذت مياهها بين طابوق الحيطان كالينابيع ، فأسرع الضباط يسدون الثغرات والشقوق بالتراب والطين . ولم يمض وقت طويل حتى انغمر قاع الغرفة بالمياه ، وصعدت فوق سريري تاركًا أمتعتي في الماء ، وجلس كل ضابط على جزيرة من التراب عملها لنفسه حتى الصباح .

وفي اليوم التالي ، انتقلت إلى الخيمة ، وسمعت منها صوت الجندي محمد الذي رافقني من تل حلف ، يناديني بالتركية : «بيك أفندي ، بيك أفندي ، بني حبس أتلر» أي : حبسوني . ووجدته محتجزًا في موقع محاط بسياج من الصخور لا يغطيه سقف . سألته عن السبب ، فأجاب : بأن هناك نقصًا في عدد المعاطف عندما سلمها بعد أن اختفى أربعة منها . قابلت آمر المنزل وشرحت له ما عرفته من نزاهة هذا الجندي وأمانته ، وطلبت منه إطلاق سراحه حالاً وإسعاف هذا المسكين الجائع النصف العاري وإرساله إلى ديار بكر مع توصية بحقه .

الجثث تغطي أديم الأرض

شاهدت في دمير قبو وضواحيها مناظر مؤلمة مريعة وجثثًا بشرية منتشرة على قارعة الطريق بكثرة ، وبشاعة لا يمكن وصفها ، وكانت هناك جثة كل عشرة أمتار . سألت آمر المنزل : «لماذا لا تدفن هذه الجثث؟» ، أجاب : إن عددها كثيرٌ جدًا ولن نتمكن من دفنها حتى وإن تركنا كل واجباتنا الأخرى ، وسترى بعينك ما أقصد .

توقف المطر وتمكنت من التجوال في القرية فإذا بها تعج بالفقراء الجياع العراة ، نساءً ورجالاً وأطفالاً ، هياكل عظمية ، أحياء بصورة أموات غير قادرين على الحركة . رأيت جثة حيوان ميت يتجمع حولها ما يقرب من الخمسين شخصًا ينهشون في لحمها ، ويقتطعون أجزاءً منها بواسطة القحوف(١٩) ، يقطع الواحد منهم جزءً ثم ينسحب ليعطي مجالاً لغيره ، وهكذا يستمرون طيلة النهار ، ومن لم يتمكن من المشاركة مات جوعًا وبردًا .

(١٩) القحوف : جمع كلمة قحف وهي قطعة من خزف مكسور تكون حادة الحافة عادة .

الجشع والاستغلال

طلب مني آمر المنزل في اليوم الثالث استضافة (اليوزباشي) الحاج محمود أفندي في خيمتي الواسعة . قال لي الحاج بأنه من الموصل وقد جلب معه خمسمائة رأس جاموس لإيصالها إلى المنزل في ديار بكر ، وقد نفق أكثرها ولم يبق منها إلا خمسةٌ وعشرون رأسًا . وصرح لي بأنه كان يبيع الحيوانات المريضة العاجزة إلى أهل القرى ويسجلها في دفتر حساباته بأنها نفقت ، مستغلاً بذلك عمله في نقل أرزاق الجيش أبشع استغلال . ولاحظت أن (اليوزباشي) الحاج قد اعتاد أن يأمر خادمه في المساء لعمل (نركيله) ، وبعد أن يدخن منها قليلاً يصاب برعشة فيغطيه خادمه قبل أن يخلد إلى النوم . عرفت من مبروك أن نركيلته كانت تعبأ بالترياك[٢٠] عوضًا عن التبغ ، فأمرت بإخراجه من خيمتي حالاً .

العملاق الألماني وكلبه الشرس

وفي اليوم الخامس استفسرت من آمر المنزل عن الموعد المقرر لسفري إلى الموصل ؛ فأجابني : بأن سفر السيارات هو من صلاحية القائد الألماني ، ودلني على مقره الواقع على تل مرتفع . طرقت الباب ، وفتحه لي القائد نفسه وإذا به ضخم الجثة ، طويل القامة ، كبير الهامة ، أشقر الشعر بشوارب مفتولة ، لا يضاهيه بشكله المرعب إلا كلبه الأسود المخيف الشبيه بالذئب .

عرفته بنفسي وأدخلني الغرفة وأعطيته وثيقة (فون بابن) . رحب بي وأجلسني بالقرب من طاولة مكتبه ، وقدم لي سيكارة وعاد يشتغل في أوراقه . سألته : «متى سيكون موعد سفري؟» فأجابني بإيجاز : «يومين إذا لم يهطل المطر» . وهممت بالقيام فأشار عليّ بالجلوس والانتظار . مرت نصف ساعة كررت أثناءها المحاولة للمغادرة مرة أخرى ، وأعاد طلبه مني بالانتظار ، ومضى الوقت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر . صرت أفكر في تصرف هذا الرجل الغامض العجيب وما عساه يضمره نحوي ، وقررت أن أترك إن وافق أو لم يوافق ، غير أني تخوفت من كلبه الضخم الرابض عند الباب ، متوقعًا هجومه عليّ إن تحركت من مكاني . وجازفت مع ذلك باجتياز الباب وإذا بالضابط يصر على بقائي مرة أخرى .

---

(٢٠) الترياك : مادة مخدرة .

وفيما أنا أنتظر مصيري الغامض دخل الخادم يحمل صينية تحتوي على وجبة الغداء ، فتوقعت أن إلحاحه المستمر لبقائي هو دعوتي تناول الطعام معه . رفع الغطاء من فوق الطبق الكبير وإذا به كتلة كبيرة من عجينة البيض (الأومليت) ربما كانت كافية لعشرة أشخاص ، وبدأ يلتهمها بشراهة من غير أن يلتفت إلي حتى أتى على آخر لقمة منها . عجبت كثيرًا لهذا التصرف وصممت على ترك هذا الوحش حتى وإن مزقني كلبه إربًا ، واندفعت نحو الباب متخلصًا من شره وشر كلبه .

مناظر مؤلمة في الموصل

تحركت قافلتنا بعد سبعة أيام من (دمير قبو) إلى الموصل على طريق انتشرت حوله جثث الأموات ، ووصلناها في ٢٠ شباط ١٩١٨ . بت ليلتي الأولى في فندق ، وفي صباح اليوم التالي ، قابلت الوالي ممدوح بك ، وكان كاتبًا لسر الوالي ناظم باشا في بغداد . سألني عن سبب تأخري هذه المدة ، فشرحت له قصتي . وأعلمني ببرقية وردت من الأستانة في ٢ كانون الأول تتضمن ترفيعي إلى الدرجة الأولى ، وطلب مني الالتحاق بوظيفتي في الزيبار ، فقررت السفر إليها بعد استراحة أربعة أيام .

تجولت في شوارع الموصل وأزقتها وشاهدت جماعات غفيرة من المشردين من منطقة (وان) رجالاً ونساءً وأطفالاً ، اختفى بعضهم تحت مداخل دكاكين البقالين والخبازين يتربصون بالمشتري ، حتى إذا ما ابتاع شيئًا ودفع ثمنه انقضوا عليه من مخبئهم ليسلبوه كل ما اشتراه ، ويلي ذلك عادة نزاع على ما سلبوه من طعام ، يغتصب كل منهم اللقمة من فم رفيقه ليلتهمها بشكل لم يسبق لي أن رأيته في حياتي . كنت أرى كل صباح ومساء مأموري البلدية ومعهم الحمالون يجمعون الجثث الهزيلة اليابسة التي استحالت إلى هياكل عظمية ، يجمع كل واحد منهم خمسًا منها ليرميها في سلته وكأنها قطع خشب صغيرة .

ألح عليّ في أحد الأيام ، الإمام العسكري عبد الحكيم أفندي ، لتناول العشاء في الجامع الكبير الذي أحيل مؤقتًا إلى مستشفى عسكري كان هو مديره . ذهبت إلى الجامع يتقدمني خادمي مبروك يحمل مصباحًا وأحمل أنا مظلةً أتقي بها المطر الشديد ، وفي طريقي شاهدت شخصين أو ثلاثة من الرجال والنساء والأطفال الجياع على عتبة كل دار مررنا بها ، وهم يرتجفون من البرد لا يجدون من يعطف عليهم ويدخلهم إلى داره .

كانت هذه المناظر الفظيعة أبشع ما رأيته في حياتي . لقد وصلت مآسي المجاعة والفاقة في الموصل حدًا صار معه الناس يأكلون لحوم الحيوانات كالكلاب والقطط وحتى لحوم البشر . وقد افتضح أمر رجل اسمه (عبود فتحي شاويش) كان يختطف الأطفال ويذبحهم ويبيع لحومهم ؛ فأعدم مع زوجته التي كانت شريكة له .

خليل باشا يفقد الأمل

قابلت في الموصل القائد العام خليل باشا ، وكانت لي به معرفة في بغداد . وأخذ يحدثني عن الأزمة التي يعاني منها الجيش من ندرة الذخيرة والطعام . قال : «كان بإمكان الجنود أن يقاتلوا وهم في بغداد ، وأن يقتاتوا على التمور المتوافرة بكثرة هناك . أما هنا فلا يجد الجنود ما يأكلونه ، وقد خارت قواهم وذبلت أجسامهم ولم يبق لنا أي أمل للاعتماد عليهم في الدفاع عن البلاد» .

الفصل الحادي عشر
قائم مقام في الزيبار

عبر الجبال الوعرة والثلوج

غادرت الموصل ، وبصحبتي ثلاثة جنود إلى عقرة ، وقضينا ليلتنا الأولى في أراضي العشائر السبعة ، وليلتنا الثانية عند أحد رجال عشائر (الكوجر) الرحل النازلين على الطريق ، كان بيته خيمة من شعر الماعز نمنا فيها بين الأغنام والكلاب ، ومن فوقنا الأمطار تنهال بغزارة .

وفي صباح اليوم التالي تابعنا المسير ، وعند وصولنا عقرة أشار عليّ جنود الدرك بالنزول في دار هبة الله المفتي[١] ، الذي رحب بنا وأحسن ضيافتنا لمدة يوم تفادينا فيه الأمطار والثلوج ، التي قطعت الطرق في جبل عقرة وجبل (بيرس) .

تركنا عقرة عند تحسن الجو برفقة قافلة متوجهة إلى الزيبار . استغرق صعودنا جبل عقرة ساعةً واحدةً ، ونزولنا منه خمسًا وأربعين دقيقة ، ثم اجتزنا وادي (النهلة) بساعة وخمس وأربعين دقيقة ، صعدنا بعدها جبل (بيرس) بساعتين واستغرق نزولنا منه ساعةً ونصفًا ، حتى وصلنا مركز قضاء الزيبار بعد غروب الشمس وأنا منهوك القوى وثيابي مبللة بمياه الأمطار . كانت هذه تجربتي الأولى في المسير عبر الجبال الوعرة المغطاة بالثلوج .

في الزيبار

وصلنا قرية (بيره كيره) مركز قضاء الزيبار[٢] بعد معاناة ومشاق ، ووجدنا في

---

(١) هبة الله المفتي : من أعيان مدينة عقرة ، انتخب نائبًا في مجلس الأمة عدة مرات ، وأصبح صديقًا حميمًا لكاتب المذكرات .

(٢) الزيبار : قضاء على نهر الزاب الكبير شمال غرب الموصل بالقرب من الحدود التركية .

الدار المخصصة لسكن القائم مقام ودائرته مفاجأة سارة ، فهي تقع على مرتفع من الأرض ومبنية بالحطب المبروم (المجذول) فوق أسس من حجر ، وحيطانها مكسوة بالطين الأحمر ، تحتوي على أربع غرف متداخلة بعضها على بعض . خصصتُ بهو الدار لمكتبي ولاستقبال المراجعين والغرف الباقية لإقامتي ولخزن المؤن ، وجعلت من القبو الأسفل مطبخًا بعد أن فصلت قسمًا منه ليكون زريبة للحيوانات .

تناولت عشائي في الليلة الأولى عند سامح بك ، وكيل القائم مقام ، وهو من أهالي (وان) ونمت بعده نومًا هادئًا ، وعند الصباح وجدت بعض ألبستي المبللة قد احترق بعد أن علقها مبروك بالقرب من المدفئة ليجففها .

لم يكن عند وصولي القضاء إلا بئران للمياه الصالحة للشرب ، كانت إحداهما داخل القرية والأخرى خارجها ، ومن الأخيرة تستقي النساء وتغتسل في العراء . والماء الأكثر نقاوة ، يجلب لنا من نهر الزاب الكبير على بعد مسيرة عشرين دقيقة .

الإداريون يستغلون القضاء

كان المركز عند تسلمي إدارة القضاء ، في ١٠ آذار ١٩١٨ ، في (بيره كيره) وهي قرية صغيرة تحتوي على أربعين بيتًا مبنيةً كالمعتاد بالحطب المبروم المغطى بالطين ، وعلى أسس من حجر . تتوسط القرية شجرة توت ضخمة وبناية كبيرة قيل لي إنها تعود إلى محمد آغا الزيباري ، آغا القرية ، وهي مشيدة بالحجر بصورة كاملة .

كان الموظفون يعملون في بيوتهم فلم تكن هناك دائرة رئيسة تجمعهم ، وكمثال لذلك كان مدير المال يقوم بعمله من دكان ، والى جانبه صندوق لحفظ السجلات والواردات . وأكثر الموظفين هم من المهاجرين من منطقة (وان) بعد أن احتلها الروس ويعملون بأجور يومية ، وهم مكلفون بجمع الضرائب والتكاليف الحربية من سكان القرى المحيطة بالمركز .

اعتاد الموظفون الذهاب إلى القرى برفقة قوة من الدرك للإحاطة بها ومداهمة بيوت فلاحيها لنهب ما فيها من حبوب وسمن وعسل وزبيب . ثم يكدسون ما يجمعونه خارج القرية ويعرضونه للبيع مرة أخرى على أهل القرية وبأسعار مجحفة ، وينقلون ما يزيد منها إلى مركز القضاء لتوزيعه على بقية الموظفين ، تاركين قسمًا ضئيلاً مما جمعوه في مذخر القضاء ومن غير تسجيل رسمي لما جمعوه . ويكرر الزبانية أعمالهم في القرى الباقية الواحدة تلو الأخرى .

كان مدير المال ، موسى كاظم ، يتلاعب بما هو مخزون في المذخر ، مستغلاً جهل مأمور المخزن ، عبد الله أفندي ، وهو رجل جاوز عمره الثمانين . عالجت هذا الوضع المشين بتجريد مدير المال من صلاحياته ، ومنعت لموظفين من الخروج إلى القرى لجمع الضرائب أو القيام بالمبايعات .

مجاعة وأوبئة

ترك الوكيل ، سامح بك ، القضاء إلى الموصل بعد يومين من وصولي إليه وتبعه أعوانه المهاجرون . وأخبرني المطلعون أنهم أثروا ثراءً فاحشًا من أعمالهم التي قاموا بها ، بحجة جمع تكاليف الحرب ، وتركوا أهالي القضاء يعانون من الفقر والجوع ، حتى اضطر بعضهم لسلق قشور جذوع أشجار البلوط وشرب مائها .

اجتاح الزيبار بعد مرور ثلاثة أشهر من تفشي المجاعة ، وباء (الانفلونزا) في شهر حزيران ، وانتشر إلى شيروان وقرى أخرى كثيرة . استمر لمدة أربعة أشهر فتك أثناءها بمعظم سكان المنطقة ، وتركت جثثهم مطروحة على الأرض لا تجد من يدفنها ، وانزوى أهالي (بيره كيره) خائفين في بيوتهم لا يخرجون منها إلا نادرًا . كنت أنادي سكان البيوت وأحثهم على الخروج لدفن موتاهم ، فقام البعض بالدفن بمقابر جماعية خارج القرية ، حيث لم يبق بينهم من له القدرة على الدفن بمقابر منفصلة .

اعتدت الجلوس فوق سطح دائرتي كل يوم أتابع ما يحدث بالقرية وهي خالية من البشر يخيم عليها شبح الموت ، واستعنت بحبوب (الكينا) للوقاية ، والتي كنت قد عالجت بها خادمي مبروك عندما أصيب بالمرض ، وسلمنا كلانا من الموت والحمد لله .

رفعت تقاريري عن حالة القضاء إلى الولاية كل يوم ومقترحاتي لمكافحة الوباء ، لكن ذلك لم يجد آذانًا صاغية وقوبلت بالإهمال .

فساد وظلم

علمت بعد أربعة أيام من مباشرتي لأعمالي أن معلم مدرسة قرية (هرن) قد ذهب إلى مناطق (الهركي) و(الكردي) و(نيروه) لجمع التكاليف الحربية ، ورجع ومعه قافلة من ستين كرديًا من أهالي القرى يحمل كل واحد منهم على متنه ما يزيد على الأربعين كيلوًا من الحبوب ، تسلقوا بها جبلين مرتفعين . ذهبت للقائهم وشاهدتهم

وهم يلقون أحمالهم وقد أنهكهم التعب ، وكان قد مات منهم أربعة على الطريق . أمرت مأمور المركز بتوزيع طعام الغداء والعشاء عليهم ، المتكون من شوربة العدس والرز والخضار ، التهمه المساكين وهم يشكرون ويحمدون الله .

وفي صباح اليوم التالي ، جاءني مدير المال ووضع أمامي اثنتين وثلاثين ليرة ذهبية مع قائمة موقعة من لجنة الصرف للمصادقة عليها كأجور لهم . سألته عن كيفية تصرفهم سابقًا في أحوال كهذه ، أجاب : «إن سلفكم كان يأخذ نصفها له شخصيًا ويوزع ما تبقى منها على أعضاء اللجنة ، المكونة من مدير المال ومأمور التحصيلات وآغا القرية (بابا بكر)» ، سألته : «وما هي حصة الحمالين الأكراد؟» أجاب : «لا نعطيهم شيئًا لأنهم من أهالي القرى التي أخذنا منها الحبوب ، وما أعطيتهم من وجبات طعام هو كاف وسوف لن يطالبونا بشيء آخر» .

أمرته أن يترك الليرات معي ووقعت قوائم الصرف ، وأمرت الحمالين بالوقوف أمامي بصف عسكري ، وناديت عليهم واحدًا واحدًا وسلمتهم حصتهم من الأجور ، وأعطيت حق المتوفين إلى إخوانهم وأقاربهم ، فسروا بذلك سرورًا عظيمًا وصاروا يلهجون بالشكر والدعاء .

راقب مدير المال وآغا القرية وآمر القافلة ما عملته بامتعاض ، وتبعني مدير المال وقال : «والله بيك صرفت هذه الليرات هباءً وذهبت حرامًا وبلا لزوم لكن ما العمل؟ على كل حال أمركم مطاع» . عجبت من كلام هذا الفاسد الذي يسرق أتعاب المساكين ويبتز أجورهم المشروعة التي استحقوها بجهدهم وعرق جبينهم . وحذرت هذا اللعين من أن يكرر تصرفه الخبيث وأخذت أترصد حركاته ، كما قطعت علاقته بمخزن الأرزاق بصورة كاملة وأنذرته بتحسين سيرته .

أكل طيور (القبج)

طير (القبج) أو (الككلك) طير جميل نادر صغير الحجم جميل الألوان من عائلة طيور (الفيزانت) يستوطن جبال شمال العراق . كان قائد الدرك في الزيبار ، الملازم عاطف بك ، مولعًا بأكلها ، ويوصي مختاري القرى التي يزورها بإحضار تسعةً منها كوجبة طعام له ، ولا يقبل بأقل من هذا العدد . وعرف القرويون مزاج عاطف بك فأخذوا يستعدون لزيارته بتسلق الجبال ليلاً ونهارًا لاصطياد العدد الكافي من هذه الطيور لتقديمها وجبة طعام له توقيًا لشروره وبطشه .

القساة لا عقاب لهم

طلبت في تقاريري المفصلة إلى ولاية الموصل إرسال هيئة للتحقيق في أعمال سامح بك، وكيل القائم مقام، ورفاقه من المهاجرين بما قاموا به من أعمال إجرامية قاسية بحق السكان. كان أهالي القرى يقابلونني بالبكاء على ما فقدوه من بيوتهم، وما أصابهم من أمراض نتيجة للمجاعة والحياة البائسة. ولم تستجب الولاية لطلبي إلا أنها استدعت مدير المال بعد شهر إلى الموصل، وبعد بقائه هناك أسبوعًا واحدًا رجع ليصارحني بلا خجل أو حياء أمام آغا القرية بمأمور النفوس والعريف الذي بمعيتي بأن الولاية لم تعمل شيئًا له، وكل ما خسره كان ثلاثمائة ليرة صرفها كنفقات لسفره، وضحك الحاضرون من وقاحته. وبعد مرور أسبوع تسلمت كتابًا بنقله إلى (العمادية) وكان ذلك كل ما ناله من عقاب.

سمعت أيضًا أن والي الموصل، ممدوح بك، قال في مجلسه الخاص إن قائم مقام الزيبار شديد على موظفيه من غير العرب.

أناس طيبون وأرض خيرة

هطلت الأمطار بكثرة ولمدة طويلة فمنعتني من الخروج إلى القرى. كنت إذا خرجت من دائرتي أقفز من حجر إلى حجر، وإن زلت قدمي انغرزت في الطين لعمق نصف متر أو أكثر. وما إن انقطعت الأمطار في ١٥ أيار حتى خرجت أتجول بين القرى التابعة للقضاء، راغبًا في التعرف على رجالها وأغواتها ومختاريها، محاولاً كسب ثقة الفلاحين وحبهم. وفي جولاتي اكتشفت ما في القضاء من قرى معمورة وبساتين نضرة ومروج خضراء ترعى فيها الأغنام والأبقار، وعيون مياه عذبة وغابات كثيفة متصلة بعضها ببعض، تدل جميعها على أرض خيرة كريمة.

ساعدني (الجاويش)(٣) عريف الدرك في الترجمة بيني وبين الأكراد، وتمكنت بواسطته من التعرف على طلبات القرويين ونفذتها الواحدة تلو الأخرى، فزادت ثقتهم بي وتشجعوا على مراجعة دائرتي بصورة مباشرة لحل مشاكلهم العامة والخاصة.

كان القضاء يشتمل على أربع مناطق: الأولى، هي منطقة (النهله) الواقعة بين

---

(٣) الجاويش: الجندي العريف.

جبل (عقره) وجبل (بيرس) ، وفيها خمس وعشرون قرية . والثانية ، منطقة (الدولكه) ، وفيها ثمان قرى . والثالثة ، منطقة الزيبار وتقع بين جبل (بيرس) ونهر الزاب الكبير وأراضي العمادية ، وفيها عشرون قرية . والرابعة ، هي منطقة (بازي بروش) المحصورة بين جبل (شيرين) والزاب الكبير ، وفيها ثلاث عشرة قرية ، منها قرى (بارزان) و(بازي بروش) و(بلى) المعروفة .

شعرت أثناء تجوالي أن المنطقة بحاجة إلى رجل دين يقضي بين الناس في الأمور الشرعية . ووقع اختياري على الملا عارف ، إمام وخطيب قرية (هرن) ، وهو من أهل العلم والفضل ، ليكون مفتيًا للقضاء ، ووافقت الولاية على اختياري . وبعد أن زاول هذا الرجل الطيب مهام وظيفته لثلاثة شهور بصورة مرضية ، اغتيل وهو نائم في فراشه من قبل رجل أخفق في الحصول على فتوى لإرجاع زوجته المطلقة . وأسرع الأهلون في ملاحقة المجرم وتمكنوا من قتله في اليوم التالي .

رجال الزيبار البارزون

من رجال الزيبار البارزين : فارس آغا ابن محمد آغا وإخوانه محمود وأحمد وقريبه بابا بكر آغا ، وأولاد سليم آغا : علي ومسيح وتتو آغا ، وعبد القادر شوش ومحمد آغا شيروان ونعمة آغا درويش .

علمت أن بعض هؤلاء الأغوات يقومون باعتداءات على القرى المسيحية ويطالبونها بـ(الخاوه) أي : الأتاوه ، فمنعت ذلك منعًا باتًا ، وأمرت كذلك بإبعاد مسيح آغا إلى الموصل لتصرفاته غير القانونية ليقيم فيها حتى نهاية الحرب .

زرت أثناء تجوالي في منطقة (بازي بروش) قرية (بارزان) واجتمعت بإخوان الشيخ عبد السلام ابن الشيخ محمد البرزاني وهم : أحمد وصديق ومصطفى ومحمد بابو ، وكانوا شبابًا تتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين ، وجميعهم منزوون في تكية أبيهم . كان عبد السلام قد أعدمه الأتراك في الموصل أثناء الحرب في زمن ولاية نظيف بك ، وكانت في جامع التكية الصخرة التي كان يتوضأ عليها ومرحاضه الخاص ، وكلتاهما كانت محرمة على مريديه ، اعتقادًا منهم أن صاحبهما عبد السلام لا يزال حيًا يرزق وسيرجع لاستعمالهما في يوم ما .

تزوج أحمد البرزاني من شقيقة أبو بكر آغا التيٍ تكبره سنًا . وكان الشائع أن الزواج هذا كان زواج مصلحة ونفوذ .

سرقة أم مؤامرة

شكا أهالي عقرة من لطفي بك ، قائد المنزل ، لتلاعبه بمخازن الأرزاق العسكرية ، وطلبت الولاية مني التحقيق في هذه الشكوى ومن اتهامه لطفي بك الحاج حسن ، رئيس البلدية ، وبعض رجال المدينة بتورطهم في مؤامرة ضد أمن الدولة . سافرت إلى عقرة في أيلول ، واجتمعت هناك مع زميلي في اللجنة التحقيقية (اليوزباشي) محمد رؤوف أحمد ، وهو أحد مستشاري الحقوق في الفرقة العسكرية ، معتمدًا من الولاية والقيادة العامة . استأجرنا بيتًا لسكنانا وعملنا على ضبط إفادات الطرفين ، كما جردنا موجودات المخازن وطابقناها مع ما هو موجود في السجلات ليكون تحقيقنا سليمًا . وبعد عمل عشرة أيام ، تبين لنا وجود نقص كبير في المخازن يتجاوز العشرين ألف كيلو من الحنطة ، وثلاثة آلاف كيلو من الشعير ، وألف كيلو من الرز ، وكميات كبيرة من الحبوب الأخرى كالعدس والهرطمان . وتأكدنا أن المسؤول عن ذلك هو قائد المنزل . أما ادعاؤه بتورط رئيس البلدية وجماعته بالانتماء إلى جمعية سرية تعمل ضد الحكومة ؛ فقد كانت تهمة ملفقة كاذبة أريد بها التستر على تلاعبه . ولن أنسى ما حدث لأحد أعيان عقره عند استجوابه عن احتمال اشتراكه بمؤامرة ، وكيف وقع من كرسيه في شبه غيبوبة وهو يرتجف خوفا وهو يقول : «والله هذا غير صحيح وليس لي علم بهذه الأمور وكلها تلفيقات باطلة» .

كتبت خلاصة التحقيق ونتائج الجرد وإفادات الشهود ، وبينت أن ما قام به قائد المنزل يعتبر خيانة أثناء الحرب ، كما أكدت على براءة المتهمين الآخرين . وعندما عرضت هذا القرار على زميلي في اللجنة ، رفض التوقيع ، طالبًا مني تخفيف لهجة القرار ، ومقترحًا إبدال تهمة الخيانة بتهمة الإهمال ليكون العقاب بسيطًا . ثم جاءني أبو بكر آغا وطلب مني كذلك تخفيف حدة القرار ، وقال بأنه مستعد لتقديم خمسمائة ليرة مقابل ذلك ، وسألته إن كان قد وعد زميلي بشيء ، قال : «نعم ، مقابل قبوله بثلاثمائة ليرة» . ورفضت إبدال القرار بصورة قاطعة ، وطلبت من زميلي (اليوزباشي) إما أن يوقع عليه أو أن يشرح سبب مخالفته له . تأمل (اليوزباشي) طويلاً قبل أن يوافق على التوقيع بلا تحفظ ، وأرسلنا القرار إلى الموصل في ٥ حزيران ، وعلى أثر ذلك أخذ قائد المنزل مخفورًا إلى الموصل وأودع السجن .

رأيته هناك بعد سقوط الموصل بثلاثة أشهر وفي يديه مسبحة من الكهرب يعبث

بها . سألته عما حدث ، فقال : «يا بيك الفلوس تخلص من الصلب[٤]» . وعلمت أنه قدم رشوة مناسبة إلى أصحاب الحل والعقد ، كما ساعد على نجاته كونه تركيًا .

معاناة مهاجري (وان)

ازدحمت نواحي الموصل بأعداد كبيرة من المهاجرين من منطقة (وان) قيل إن عددهم تجاوز الثمانين ألفًا . تركوا بيوتهم بعد المعارك الضارية بين الامبراطورية الروسية والدولة العثمانية والقتال بين المسلمين والأرمن ، ففقدوا أراضيهم وأغنامهم ودوابهم وكل ما لديهم ، وتعطلوا عن العمل وأصبحوا فقراء مشتتين مات الكثير منهم جوعًا . وفي السنة الأخيرة من الحرب أرادت الحكومة مساعدتهم للرجوع إلى موطنهم في ولاية (وان) فخصصت ست ليرات ورقية لكل شخص منهم كمخصصات سفر .

مر بالزيبار في ذلك الوقت رجلٌ من أعيان (وان) كان عضوًا في مجلس بلديتها ، اسمه الحاج رفعت أفندي ، قال لي : إن عدد جماعته عند قدومه إلى الموصل كان ستة آلاف شخص ، مات أكثرهم جوعًا ولم يبق منهم إلا هو وزوجته وخادمه فقط . أخذ يبكي بحرارة قائلا : «كيف يمكنني الرجوع الآن ومعي ثماني عشرة ليرة ورقًا فقط؟ لقد أضعت ثروتي الكبيرة وأملاكي الزراعية بأجمعها» . عطفت عليه وساعدته بما تيسر من جيبي الخاص .

أيام العثمانيين الأخيرة

توالت علينا الأخبار المقلقة من الموصل في أواخر تشرين الأول ١٩١٨ عن تراجع الجيش العثماني من (الشرقاط) وإسناد ولاية الموصل وكالة إلى نوري أفندي ، قائم مقام أربيل ، وعن أخبار المجاعة التي أدت إلى أكل لحوم البشر .

كان وضعي في الزيبار حرجًا للغاية وأنا بعيد عن موقع الأحداث ، محروم من الاتصال البرقي مع الموصل . وأخذت أفكر ليلاً ونهارًا عما عساي أن أعمله في محلي النائي المعزول ، بين أغوات وموظفين كنت قد منعتهم من استغلال القرى والفلاحين بشدة وحزم . كنت فريدًا وحيدًا بين جمع من الكواسر والأشرار ، مستسلما للقضاء

(٤) الصلب : الشنق .

والقدر ، منتظرًا ما ستتمخض عنه الأيام ، وكان مبروك حارسي الوحيد بعد الله جل جلاله .

وطلبت الولاية مني تجنب الخلاف مع الإنكليز عند قدومهم وتفادي الإخلال بالأمن وعدم التعرض لقواتهم (٥) .

لجمن في الزيبار

سمعت وأنا جالس على سطح دائرة القائم مقامية يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩١٨ والشمس مائلة للمغيب ، أحد القرويين ينادي ، قائلاً : «إنكليز هات» ، أي جاء الإنكليز . ونزلت للتحقق من الأمر ، وإذا بضابط إنكليزي يصحبه خمسة عشر خيالاً يدخل القرية من جهة العمادية . ترجل الضابط أمامي وطلب مني أن أمسك لجام حصانه ، فرفضت . ووكزني بعصاه ، وقال : «لماذا لا تمسك بحصاني أيها الخائن؟» صرخت بوجهه ، قائلاً : «إني لست خائنًا ، أنا القائم مقام هنا» . قال : «كلكم خونة» . تركني وصعد إلى سطح الدائرة وأنزل العلم التركي ، الذي كان مرفوعًا بمناسبة يوم الجمعة ، ونزل من السطح وأخذ يمسح العرق عن وجه حصانه بالعلم ، وقال : «لماذا ترفعون العلم التركي والبلاد أصبحت لنا؟» تركته غاضبًا ووجدت هذه الإهانات لا تحتمل ، وأسرعت إلى مقر الدرك ووجدته خاليًا بعد أن اختفى جميع أفراده . ثم ذهبت إلى دار آغا القرية ، ناديت عليه ولم يجب وكان مختفيًا بحرم النساء ، ثم ذهبت إلى دار كاتب التحريرات وطلبت منه إحضار ضابط الدرك . غاب لمدة طويلة ورجع من غير أن يعثر عليه أو على أي من جنوده ، ثم طلبت منه الذهاب إلى دار القائم مقامية لاستدعاء خادمي مبروك ، وعند رجوعه ، قال إن القائد الإنكليزي يريد حضوري .

وعند مقابلتي له كان معه ضابط آخر ، قدم القائد نفسه لي هذه المرة وقال أن اسمه (لجمن) (٦) واعتذر عما بدر منه ، وطلب مني الاستمرار في إدارة القضاء . رفضت

---

(٥) نص البرقيات المرسلة مدرجة في ص ٢٨٩ (الملحق رقم ١) وص ٢٩١ (الملحق رقم ٢) .

(٦) لجمن : Lt. Colonel Gerald A. Leachman : أعتى وأقوى الحكام السياسيين في بداية الاحتلال البريطاني للعراق . عمل كجاسوس وتغلغل متنكرًا إلى الزبير والديوانية خلف خطوط القتال في الشعيبة . يتكلم العربية بطلاقة وبلهجة بدوية . قاد احتلال الموصل بعد إعلان الهدنة . تولى ==

الاستجابة لطلبه، وقلت: «إن الأوامر التي وجهت لنا طلبت عدم القيام بأعمال ضد قواتكم المحتلة، وإذا بك تعاملنا بعنف وقسوة تخالف ما هو متعارف عليه دوليًا». أجابني: «نحن فاتحون نعمل ما هو لفائدتنا ومصلحتنا»، وقلت له: «إني أراعي مصلحة بلدي أيضا». تركته وانصرفت إلى دائرتي وبقيت فيها لا أتمكن من النوم.

وفي الصباح، ذهبت إلى داري وأخبرني مبروك أن (لجمن) ورفيقه قد تناولا العشاء عنده. حزمت أمتعتي وأثاثي، كان معي فرس وبغلتان، ركبت الفرس وركب مبروك بغلة وحملنا أمتعتنا على الأخرى. وتركنا الزيبار إلى عقرة وكان لجمن وجنوده قد توجهوا إليها قبلنا. وهطلت علينا أمطار كثيرة في الطريق اضطرتنا إلى المبيت في دار أحد مختاري قرية (برطلة) في غرفة قذرة يغطي أرضها بعرور الغنم. وعند وصولنا عقرة التجأنا إلى بيت هبة الله المفتي مرة أخرى، ثم تابعنا السفر إلى موصل بعد يومين يرافقنا جنديان من الدرك.

وصلت الموصل، ووجدت الإنكليز قد أحكموا احتلالهم لها منذ عشرة أيام(٧). ولم تكن الولاية والقوات التركية قد أعلنت عن انسحابها فلم يتمكن إلا قسم محدود من الموظفين من مصاحبة الجيش إلى (نصيبين). وتأخر قسم منهم فتعرض للسلب من قبل عشائر الجبور وشمر والكركية، واضطر قسم آخر من الموظفين إلى البقاء في الموصل تحت الاحتلال. وولد كل ذلك شعورًا بالامتعاض لعدم اهتمام العثمانيين بمصير موظفيهم العرب.

وبعد أسبوع، قررت أخيرًا قطع علاقتي بالدولة العثمانية وتهيأت للرجوع إلى بلدتي بغداد بعد غياب طويل.

= قيادة الفرات الأعلى ولعب دورًا مهمًا في الحركات في دير الزور أثناء حكم الملك فيصل بالشام في كانون الأول ١٩٢٠. كان مثلاً للغطرسة والغرور، اغتاله الشيخ ضاري شيخ زوبع وأولاده بعد أن أهانهم في ١٢ آب سنة ١٩٢٠.

[د. علي الوردي (تاريخ العراق الحديث) الجزء الرابع ١٩٧٤]

[Selected Letters of Miss Bell p: 252 (Pelican Ass5)]

(٧) كانت القوات الإنكليزية الزاحفة شمالاً عند انعقاد الهدنة وانتهاء الحرب العالمية الأولى على بعد ١٨ ميلاً جنوب الموصل. إلا أنها استمرت في هجومها واحتلت الموصل خلافًا لشروط الهدنة. وتذرعت تركيا بهذا في قضية مطالبتها بضم لواء الموصل إليها.

الفصل الثاني عشر
رأيي في انهيار الدولة العثمانية

لم أشعر وأنا طالب في عاصمة الخلافة الإسلامية لمدة أربع سنوات بوجود أي تفرقة عنصرية بين أبناء الدولة الواحدة . فالعرب والأتراك والأكراد وغيرهم ، مسلمين كانوا أم غير مسلمين ، يعاملون معاملةً واحدة بقوانين وأنظمة تطبق عليهم جميعًا بالتساوي . ولم أسمع ممن هم أكبر مني سنًا عن وجود تعصب عرقي أو ديني . أكملت دراستي في إسطنبول وعدت إلى وطني وتوظفت فيه بلا واسطة أو رجاء[1] .

ثم حدث الانقلاب وأعلن الدستور في ٨ شباط ١٩٠٩ ، وأعقب ذلك خلع السلطان عبد الحميد في ١٣نيسان ١٩٠٩ وجرى ما جرى بعد ذلك من تغييرات جذرية ، وتغلغلت الأيدي الأجنبية بصورة علنية بين صفوف الأمة الواحدة ففرقتها شيعًا وأحزابًا ؛ فصرنا نسمع بالتفرقة والتمييز والتعصب على الرغم من استياء وتذمر الأغلبية منها[2] .

---

(١) حرص السلطان عبد الحميد الثاني على أن يضم إلى بطانته وحاشيته عناصر من الشعوب المختلفة للدولة العثمانية بصرف النظر عن القومية والدين . ومثال ذلك : وزير النافعة (الأشغال) فريد باشا (الصدر الأعظم) - الباني ، وزير الغابات والمعادن نجيب ملحمة باشا - عربي مسيحي ، مدير الأمن العام سليم ملحمة باشا - عربي مسيحي ، السكرتير الثاني للسلطان شفيق باشا الكوراني - حلبي ، ناظر الخزينة الخاصة عزة باشا العابد - من الشام ، أوخانس باشا - أرمني .

[سليمان فيضي (في غمرة النضال) ص : ٤٦]

(٢) قامت وحدات الجيش في سالونيك بالثورة ضد السلطان عبد الحميد الثاني في ٤ تموز ١٩٠٨ . وحاول السلطان احتواءها فوعد باستئناف العمل بدستور ١٨٧٦ وإعادة البرلمان . لكنه فض البرلمان الجديد بحركة مضادة ، فزحف على أثر ذلك محمود شوكة باشا في ١٢ نيسان ١٩٠٩ على إسطنبول ، على رأس الجيش الثالث وخلع السلطان ونصب محله أخاه محمد رشاد .

تسلم الحكم حزب الاتحاد والترقي[٣] وهو حزب الشباب التركي المتطرف (جون ترك)، وأخذ باسم العنصرية التركية ينحاز إلى من يشاء ويبعد من يشاء، مما أدى إلى ظهور تكتلات وجمعيات سرية مناوئة، منها ما ضم رجالات العرب تحت أسماء مختلفة: كالمنتدى الأدبي العربي، وجريدة لسان العرب التي تنطق باسمه، وحزب آخر طالب باللامركزية في مصر، والمؤتمر العربي[٤] الذي عقد في باريس وطالب بحقوق العرب.

وتمخض الوضع العالمي الاستعماري عن تكتلات وتحالفات عدوانية ضد البلاد الإسلامية العثمانية. ولسوء تصرف رجال حزب الاتحاد والترقي، اندلعت الحرب في البلقان والروم أيلي وطرابلس الغرب، فأضاعت الدولة العثمانية الولايات السبع[٥] وملحقاتها، وخرجت منها منهارة يغلب عليها الضعف والانهيار، ولما اندلعت نيران الحرب انحازت إلى جانب الإمبراطورية الألمانية وهي غير مستعدة لذلك، وتقربت الدولة العثمانية لها بمنحها امتياز سكة حديد الخط العريض، الموصل- بغداد. وما إن شرع الألمان في مد هذا الخط حتى ظهرت بوادر الحرب العالمية الأولى، فانتشر جواسيس الاستعمار وأعوانه في مختلف أنحاء الدولة يحرضون على الخلاف والشقاق، فاندلع القتال بين عبد العزيز الرشيد في حائل وعبد العزيز عبد الرحمن السعود في الأحساء[٦] وغيرها من الخلافات في المناطق الأخرى. ولما أندلعت نيران

(٣) الاتحاد والترقي: حزب (تركيا الفتاة) أعضاؤه من المثقفين الأتراك المتأثرين بالأفكار الأوربية المتحررة. كان بينهم عدد من الماسونيين واليهود المرتدين (الدونمة). سموا بالفرنسية (جون ترك) وأصبح هذا التعبير يطلق على جميع الثائرين الشباب في أي محل في العالم. طالب الحزب بحكومة دستورية ديمقراطية، وعند تسلمه الحكم انتهى بحكم عنصري دكتاتوري.

(٤) المؤتمر العربي في باريس: عقد من ١٨ - ٢٣ حزيران ١٩١٣ برئاسة عبد الحميد الزهراوي، ومثل العراق فيه توفيق السويدي الذي كان يدرس في (الصوربون) آنذاك. شارك في المؤتمر الكثير من الطلبة العرب في باريس.

(٥) الولايات السبع: هي: اليونان، الجبل الأسود، بلغاريا، رومانيا، ألبانيا، صربيا، البوسنة والهرسك.

(٦) استطاع آل الرشيد في منطقة الجوف وحائل الاستيلاء على الرياض، مركز إمارة السعوديين، في سنة ١٨٨٤، وأجلوا عنها الإمام عبد الرحمن الفيصل والد الملك عبد العزيز السعود.

وعاد عبد العزيز مع قوة صغيرة واستولى على الرياض في كانون الثاني سنة ١٩٠٢. وتمكن بمساعدة الإخوان السيطرة على البلاد.

الحرب دخلتها الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا وهي غير مستعدة لذلك .

تقلد جمال باشا زمام القيادة العامة للجيش الرابع في الشام ، وزحف بجيشه على قناة السويس بهجوم فاشل . كان جمال يخشى حدوث انتفاضات سياسية في المدن العربية الرئيسة كبغداد ودمشق . وتربص لحركات المشاركين في المؤتمر العربي في باريس بدهاء واحتيال ، وأرسل إلى العاصمة الفرنسية من تمكن من خداع بعض المؤتمرين وإغرائهم بوعود خلابة للقدوم إلى بيروت ، واعداً إياهم بتنفيذ مطالبهم المعلنة . وما إن وصلوا حتى زجهم في السجون . كما دعا يوسف السويدي وعاصم الجلبي من بغداد . وبعد محاكمات كيفية ، حكم على عدد كبير من رجال ورؤساء الأحزاب في لبنان وسوريا بالإعدام ، ونفذه بهم شنقاً في ٦ أيار ١٩١٥ . كان لإعدام رجال العرب الأحرار رد فعل قوي واستياء عام في جميع أنحاء البلاد العربية ، حمل الشريف الحسين بن علي في مكة على إعلان الثورة والانفصال عن الدولة العثمانية .

درست في إسطنبول ، وتقلدت بعد ذلك وظائف إدارية متعددة إبان الحكم العثماني ، كنت فيها موضع تقدير واحترام . ومع ذلك ، شعرت بالألم يحز في نفسي عندما بدأ المسؤولون الأتراك ينحازون إلى أبناء جنسهم علناً ، ويحجبون عن العرب حقوقهم في التمتع بحرية التعبير عن آرائهم السياسية ، أو في تعلم لغتهم أو الدفاع عن أنفسهم أمام المحاكم . كان ضميري يحملني على الاعتراف بما كان ينادي به زعماء العرب في الحرية والمساواة واللامركزية ، ولم أكتم استيائي من تصرف الاتحاديين العنصري وعزمهم على تتريك غيرهم ممن خدموا الإمبراطورية العثمانية بإخلاص . ووصل استيائي أشده عندما نفذ جمال السفاح الإعدام في ساحات دمشق وبيروت .

وفي رأيي أنه لو كانت الدولة قد سلكت سبيل الحق والمساواة ومنحت الدول العربية حكماً ذاتياً غير مركزي ، ضمن دولة خلافة إسلامية ، لما حصل ما حصل من سفك الدماء وتمزيق الشمل وتقسيم الدول العربية على أيدي المستعمرين والصهاينة ، ولتغير مجرى التأريخ .

القسم الرابع

الاحتلال الإنكليزي للعراق

الفصل الثالث عشر
بغداد تحت الاحتلال

رجوعي إلى بغداد

انهار الحكم العثماني وقررت الرجوع إلى بلدي بعد غياب طويل . صادفت في الموصل التاجر الحاج مصطفى العاني وبحثت معه الأوضاع العامة واتفقنا على السفر معًا ، وأودعت لديه أوراقي المهمة والسرية أمانة ، وبعت فرسي والبغلتين التي أملكها بستين ليرة ، وحصلت على الإجازة الخاصة بالسفر من الدائرة الإنكليزية في الموصل .

ولكي نتفادى نقاط التفتيش الإنكليزية على الطريق ، فضلنا السفر نهرًا ، فكلفت أحد التكارته ليقوم بعمل (كلك)[١] خاص لنا ، وعندما أحضره وجدناه صغيرا فأضفنا فوقه (عرشة)[٢] تقينا من البرد والمطر .

وصلنا تكريت بعد يوم وليلة ، وفضلت البقاء في الكلك وسمحت لملاحيه بمغادرته لزيارة عوائلهم بعد أن طلبت منهم عدم إخبار أحد بوجودنا . وبعد شروق الشمس بنصف ساعة ، جاء إلى الساحل الحاج ياسين التكريتي وعلاء الدين الآلوسي والحاج حسن طه ، وجميعهم من أعيان تكريت ، وألحوا على تناول القهوة عندهم ، وقبلت دعوتهم مرغمًا . تناولنا الفطور في دار الشيخ علاء الدين ورجعنا بعد ذلك إلى الساحل لنجد أن (الكلك) قد اختفى ، فقد فك ملاحوه رباط أخشابه وأفرغوا جرب جلود الحيوانات وباعوها . تعجبت كثيرا لتصرفهم هذا وسألتهم عن السبب ، فأجابوا : بأن ليس لديك الآن حاجة للسفر نهرا ويمكنك أخذ القطار إلى بغداد وستصلها في اليوم التالي .

---

(١) الكلك : الطوف أو الرمث Coracle واسطة نقل نهرية تصنع من ربط أخشاب بالحبل توضع فوق قِرب منفوخة من جلود الخراف . استعملها السومريون والآشوريون وجيوش الاسكندر المقدوني .

(٢) العرشة : غرفة من الخشب أو القش تبنى فوق الكلك .

صورة مؤلمة لبغداد تحت الاحتلال

وصلت بغداد قبل الفجر، وكان في انتظارنا بالمحطة عريف إنكليزي أنزلنا من القطار وأدخلنا قاعة كبيرة بعد أن أمرنا بترك أمتعتنا في مخزن المحطة. وكان العريف هذا يحمل في يده عصا طويلة يضرب بها الطاولة أمامه كلما صرخ بأوامره. واضطر الجميع إلى الجلوس على أرض القاعة الباردة غير المبلطة، فأرسلت مبروك ليطلب من العريف الموافقة على جلب بساط لي، وأجاز العريف مبروك وأخذ يداعبه ويناديه (سامبو) . . . « سامبو روح . . . سامبو تعال . . .» .

وبعد انتظار ساعة، أمرنا العريف بالخروج بعد أن صفنا كرتل مزدوج، وسرت أنا خلف الجميع خوفًا من أن يراني أحد المستقبلين وأنا على هذه الحال. ونُقلنا إلى دار في علاوي الحلة، بقينا محتجزين فيه إلى أن جاءنا ضابط إنكليزي قيل لنا إنه معاون الحاكم العسكري العام. أخذ الضابط يقابلنا الواحد بعد الآخر سائلاً كلاً منا عن اسمه وعنوانه وعمله وسبب مجيئه إلى بغداد، وكان يضرب بعصاه أو يركل بقدمه من تلكأ أو غلط في الإجابة. وكنت أنا آخر من استجوبهم. قلت له: «أنا بغدادي، كنت موظفًا وأنا الآن راجع إلى بلدي»، فسمح لي بالمغادرة من غير أن يسأل عن طبيعة وظيفتي.

ذهبت إلى بيتنا بعد أن سبقني إليها مبروك مبشرًا بوصولي. استقبلني في الطريق أخي السيد أمين وابني عبد المجيد وابن أخي عبد الله. وعند وصولي، فوجئت بخبر وفاة أخي الكبير عباس (أبو عبد الله). وكان وقع ذلك كبيرًا عليَّ وتملكني الحزن وفوضت أمري إلى الله الحي الباقي. وهنا فقط أدركت سر تصرف أعيان تكريت وملاحي (الكلك)، الذين كانت غايتهم منعي من المرور بسامراء حيث كان أخي مقيمًا فيها لمدة طويلة لكي لا أعلم بوفاته.

قسوة المحتلين

قضيت الأيام الثلاثة الأولى في بغداد قابعًا في بيتي، مشغولاً باستقبال الزوار. ومنهم سمعت أخبارًا كثيرة عن تصرفات قوات الاحتلال المشينة، فحددت خروجي من البيت بزيارة الأصدقاء والأقارب فقط، متفاديًا التعرض للإهانات التي لا تحتمل.

أرهب الإنكليز الناس بقسوتهم، وانتهكوا حرمة البيوت بحجة التفتيش عن ضباط الحكومة العثمانية وموظفيها، والأسلحة التي تركها الجيش التركي. وأصاب

الناس الذعر فأخذوا يخرجون من بيوتهم ليلاً ليلقوا بأسلحتهم في الشوارع خوفًا من العقاب . وأخذت قوات الاحتلال تتمادى في تحقير المواطنين وإهانتهم بصورة لم يسبق لها مثيل .

وهناك قصص كثيرة تداولها الناس ، هذه بعضها : كان عبد الرحمن أفندي الجميل ، وهو من أعيان بغداد ، ماشيًا في الشارع ببطء ، فضربه ضابط إنكليزي بقسوة وأوقعه أرضا وركله بقدمه على ظهره . وفي حادثة أخرى تعرض عبد القادر باشا الخضيري ، وهو من الشخصيات المعروفة ، للضرب أيضًا ، وكذلك تعرض أخي السيد أمين إلى ركلة ضابط إعاشة إنكليزي على بطنه ، أدت إلى ملازمته الفراش لمدة شهرين .

كان الجنود يضربون بالعصا كل من يخالف أنظمة المرور من المشاة . اقتضت أوامرهم أن يسير الناس على يمين الجسر ، فإذا ما أخطأ أحدهم أشبعوه ضربًا وشتمًا وأرجعوه إلى اليمين . كنت عند سماعي هذه القصص أهتم بتجنب التقرب من قوات الاحتلال بقدر الإمكان ، وإن أردت عبور النهر ورأيت جنديًا إنكليزيًا على رأس الجسر عدلت عن العبور وأخذت واسطة نهرية .

رأيت في أحد الأيام قافلة من الزوار الإيرانيين تعبر الجسر من جانب الرصافة وهم مشاة يقودون خيولهم إلا واحدا كان يركب بغلته ، وكان العبور ممنوعًا على الراكبين . رآه (السوجري)[٣] المراقب على الجسر فانهال عليه ضربًا بعصاه وصرخ رفاقه بالفارسية (ناخوشا) أي أنه مريض ، إلا أن الجندي استمر بضربه وألقاه أرضًا ولم يتمكن المسكين من الوقوف لأنه كان مبتور الساقين . حمله رفاقه على أكتافهم وعبروا الجسر به والناس من حولهم يتملكهم الامتعاض والسخط الشديدان .

محاولات الإنكليز لاستقطاب الإداريين العراقيين

زارني ذات يوم السيد الفاضل حمدي أفندي الأعظمي ، وكان آنذاك موظفًا إداريا في الأوقاف . قال لي : إن (المستر كوك) مستشار دائرة الأوقاف ، يريد مقابلتي ، أجبته : «أني لم أقابل أحدا من الإنكليز لحد الآن فماذا يريد مني؟» قال : إن (المستر كوك) يتحلى بأخلاق حسنة ويحسن التكلم بالعربية ، وستجده طيبًا لا يشبه غيره

(٣) السوجري : محرفة من كلمة Soldier الإنكليزية ، أي : الجندي .

من الإنكليز . ذهبت بصحبته إليه واستقبلني بحرارة وأجلسني بالقرب منه وأخذ يجاملني ويسألني عن أحوالي ، ثم قال : «لقد سمعت عن حسن سلوكك واستقامتك وأنا ارغب كثيرًا بأن تعمل معي في الأوقاف كمستشار للحقوق ، وإني عازم على السفر إلى لندن قريبًا وستكون خلفًا لي عند انتهاء خدمتي ، وأنا مستعد لتخصيص الراتب الذي ترتضيه» . أجبته بالشكر على إطرائه ، واعتذرت لأني متعب وغير مستعد لقبول أي منصب إداري . وكرر (مستر كوك) طلبه ، قائلاً : «إن الأوقاف هي مؤسسة إسلامية دينية تحتاج إلى رجل مستقيم وعفيف مثلك ، يحافظ على وارداتها ويتحكم في نفقاتها» . كررت اعتذاري وانصرفت بعد مقابلة دامت ساعةً ونصفًا . كان (المستر كوك) هو أول بريطاني أتعرف عليه إبان الاحتلال ، وكنت أراه مرارًا بعد تلك المقابلة في دواوين الحكومة فأبادله التحية وأصافحه .

زارني مساء أحد الأيام وبعد شهرين تقريبا ، الشيخ عجيل السمرمرد ، رئيس عشائر (الزبيد) ومعه رجل إنكليزي عرفت بعدئذ أنه (المستر جفريز)[٤] حاكم قضاء الصويرة ، وكانوا قد حلوا ضيوفًا عند آل عياش في محلة جامع عطا . رحبت بهم وطال الحديث معهم ، وسررت كثيرًا بزيارة الشيخ عجيل ، على الرغم مما سبق لي معه من خلاف عندما كنت قائم مقام في الصويرة ، وأكبرت فيه تفقده لي بعد تلك الخلافات ، إلا أن سروري كان مشوبا بالحذر لوجود (مستر جفريز) معه ، ودار في خلدي أنه قد يريد الإيقاع بي .

وزارني الشيخ عجيل مرة ثانية بعد خمسة عشر يوما ومعه إنكليزي آخر أظن أن اسمه كان (مستر بري) ، وهو حاكم أيضا في الصويرة ، ورحبت بهما وأعدت الزيارة لهما في اليوم التالي . بدأ الحديث (المستر بري) قائلا : إنه سيترك الحاكمية بعد فترة قصيرة ويسافر إلى لندن ويرغب أن أحل محله ، لمعرفتي لأهل الصويرة وعشائرها بعد بقائي فيها مدة طويلة ، والكل يذكرني بخير . وأيده الشيخ عجيل في طلبه إلا أني اعتذرت مرة أخرى وشكرتهم على حسن ظنهم .

استمرت حكومة الاحتلال في محاولاتها لجذب الموظفين العراقيين إلى

(٤) ميجور (جفريز) Major Jeffreys : عاد إلى العراق عند انتهاء الحركات العسكرية في مايس سنة ١٩٤١ ، وذهب مع الجيش البريطاني إلى الناصرية وقتل هناك بعد مقابلته لمتصرف اللواء من قبل بعض الجنود العراقيين .

المناصب الإدارية والمالية[٥] . وكثرت هذه المحاولات إثر المظاهرات الصاخبة والاجتماعات السياسية في بيوت أعيان بغداد ، كيوسف السويدي في الكرخ ، وجعفر أبو التمن في الرصافة ، والسيد محمد الصدر في الكاظمية وغيرهم ، والتي سبقت اندلاع الثورة العراقية في الثلاثين من حزيران ١٩٢٠ .

(٥) قالت (المس بل) Miss Bell : السكرتيرة الشرقية في دار الاعتماد : «وجدنا صعوبة كبيرة في الحصول على كادر مدني عراقي من ذوي الخبرة في العهد العثماني» .

[Selected letters of Miss Bell (Pelican Books. A2250]

الفصل الرابع عشر
الثورة العراقية

اندلاع الثورة

تعاظم التذمر من تصرفات قوات الاحتلال وتفجرت روح المقاومة الوطنية بين أفراد الشعب . وأخذ الرجال الوطنيون يجتمعون سرًا في البيوت للمداولة في شؤون الاحتلال الذي نال من كرامتهم وسلب حرياتهم ، وعم الحديث عن وقاحة الحكام السياسيين البريطانيين وقسوتهم في الشمال والجنوب[1] ، وعقدت سلسلة من الاجتماعات في مدرسة التفيض الأهلية بحجة اجتماع هيئتها التدريسية اشترك فيها أعيان بغداد ومثقفوها ، كيوسف السويدي ، والسيد محمد الصدر ، وعبد الوهاب النائب ، وفؤاد الدفتري ، ورفعة الجادرجي ، ومحمد مصطفى الخليل ، وجعفر أبو التمن ، وحمدي الباجه جي ، والشيخ سعيد ، وعبد الرحمن الحيدري ، وعلي البزركان ، وجلال بابان ، وناجي شوكة وغيرهم . نتج عن هذه اللقاءات مظاهرات ضخمة واجتماعات في العلن في جوامع بغداد الكبيرة ، كالحيدر خانة ، والشيخ صندل ، والسيد سلطان علي ، والحضرة الكيلانية والكاظمية ، وأقيمت المناقب النبوية فيها بصورة لم يسبق لها مثيل ، ألقيت أثناءها الخطب السياسية والقصائد الحماسية والأهازيج الشعبية ، التي ألهبت الشعور الوطني عند الجماهير وأثارت السخط ضد الاحتلال ، فَعلتْ أصواتهم مطالبة بالاستقلال التام .

وفي اجتماع جامع الحيدرخانة الأول في أيار ١٩٢٠ ، الذي كان اليوم السادس

---

(١) قسوة الحكام البريطانيين : قال (الجنرال هالدين) General Halden القائد العام للقوات البريطانية : إن المعاملة الفظة التي كان الحكام البريطانيون يعاملون بها رجال العشائر ، وقلة خبرتهم أدت إلى اندلاع ثورة العشرين . ولم تؤيد (المس بل) هذا الرأي تمامًا وقالت : إن ذلك ينطبق على اثنين فقط هم : (ديلي) حاكم الديوانية و(لجمن) حاكم الموصل ثم الرمادي .

من رمضان، انتخب المجتمعون هيئة للتفاوض مع قوات الاحتلال تكونت من: السيد محمد الصدر، ويوسف السويدي، وفؤاد الدفتري، وجعفر أبو التمن، والشيخ أحمد الظاهر، والشيخ أحمد الداود، وعلي البزركان، والشيخ سعيد، والسيد أبو القاسم الكاشاني، وعبد الوهاب النائب، ومحمد مصطفى الخليل، وياسين الخضيري، ورفعة الجادرجي، وعبد الرحمن الحيدري. قاوم الجنود الإنكليز هذا الاجتماع بإطلاق النار، واستشهد في تلك الليلة عامل أخرس كان ضمن المتظاهرين خارج الجامع(٢).

روح الثورة تمتد إلى العشائر

عمت روح التذمر والثورة عشائر الفرات الأوسط، وأخذ رجالها يرفضون الامتثال لأوامر الحكام البريطانيين. اندلعت الثورة في ناحية الرميثة التي تقطنها عشائر (الظوالم)، و(البو حسان)، و(الأعاجيب)، و(بني زريج)، و(الزياد) بعد اعتقال شعلان أبو الجون أحد رؤساء (الظوالم) بأمر من الميجور (ديلي) حاكم الديوانية، والذي عرف بقسوته وبطشه وبما يفرضه من غرامات فادحة على المواطنين بحجج واهية ليس لها مبرر.

أرسل شعلان، وهو معتقل، رسالة إلى صديقه الحميم غثيث الحرجان، رئيس الفرقة الثانية من (الظوالم)، يرجوه فيها أن يرسل عشر سجائر إلى السجن قاصدًا بذلك عشر بنادق، فأرسل غثيث عشرة مسلحين من خيرة أتباعه الشجعان. هاجموا السراي وتصادموا مع الشرطة واحتدم القتال. وما إن سمع رجال عشيرة (البو حسان) صوت الرصاص حتى أسرعوا للاشتراك فيه، وأطلقوا سراح أبو الجون وانسحبوا من غير أن يصاب منهم أحد. وعلى أثر هذه الحادثة، أرسل الميجور ديلي قوة عسكرية كبيرة إلى الرميثة تقدمت نحوها من الناصرية جنوبًا والديوانية شمالاً. علمت العشائر بهذا التحرك فتحالفت فيما بينها للتصدي له. وأجمعت جميع عشائر (الظوالم) و(البو سالم) و(الزياد) و (البو جياش) و(بني زريج) و(الأعاجيب) و(العبيس) و(الجوابر) و(بني حجيم) و(الصفران) و(التوبة) و(المحسن)، من حدود

(٢) استشهد نجار أخرس بعد أن دهسته سيارة مصفحة إنكليزية خارج الجامع حيث تجمهر المتظاهرون. وجرى له تشييع عظيم.

الناصرية إلى الديوانية ، على المشاركة في القتال ككتلة واحدة والتصدي للقوات المهاجمة برًا ونهرًا وجوًا .

قاتل رجال العشائر بضراوة كقوة واحدة لمدة شهرين ، تمكنوا خلالها من تطهير قضاء السماوة وناحية الخضر والرميثة من موظفيها الإنكليز ، وقطعوا الاتصال البري والنهري بين الديوانية والناصرية ، واستولوا على باخرة كبيرة في منطقة (الجوابر)(٣) ، كانت قادمة من الناصرية ومتوجهة إلى الشمال ، وقتلوا كل من فيها من ضباط وجنود قبل إغراقها في مياه الفرات . وحاصرت العشائر الثائرة القطار العسكري المدرع المكلف بفتح طريق الديوانية - الناصرية وهو يقل قوات كبيرة ، وقتلت الكثير من ضباطه وجنوده(٤) ، وقدمت العشائر الباسلة أعدادا كبيرة من الشهداء .

ثم سرت نار الثورة لتشمل جميع عشائر الديوانية والحلة وكربلاء والناصرية ، اشترك فيها الكثير من الضباط المتقاعدين في هجمات متكررة على معسكرات القوات المحتلة ليلاً نهارًا وأينما حلت .

وفي ١٢ آب ١٩٢٠ ، قام الشيخ ضاري ، شيخ عشائر(زوبع) ، وأولاده بقتل (الميجور لجمن) ، حاكم لواء الدليم ، مع سائقه في خان النقطة بأبي منيصير ، فانضمت بذلك زوبع إلى الثورة . كما امتد القتال إلى الخالص في لواء ديالى ، وهكذا اشتركت معظم ألوية العراق في الثورة عدا كركوك وأربيل والكوت والعمارة .

ارتبكت قوات الاحتلال فطلبت الاستعانة بقوات كبيرة من الهند ومصر والمستعمرات الأخرى للسيطرة على الموقف .

---

(٣) خرجت الباخرة الحربية Green Fly عن مسارها وغرزت في الطين على بعد خمسة أميال من الخضر في ١٠ آب ١٩٢٠ فأصبحت هدفًا لنيران الثوار التي أغرقتها .

(٤) أبرق (الجنرال هالدين) إلى (الجنرال كننغهام) لسحب قواته من الديوانية إلى الحلة بالقطار . كان في الديوانية ستة قطارات ومائتان وواحد وخمسون عربة جُمعت كلها في قطار واحد بلغ طوله ميلاً . تحرك القطار في ٣٠ تموز واستغرق أحد عشر يومًا لقطع مسافة ٨٥ كيلومتراً ، وتعرض لقتال شديد مع العشائر الثائرة التي قلعت سكة الحديد ، على الرغم من قصف المدفعية والطائرات المتواصل .

الفصل الخامس عشر
الإنكليز يحاولون التخلص من الاحتلال المباشر

البحث عن حلول سياسية

نشط (بيرسي كوكس)[١] الحاكم العسكري العام ونائبه (ولسن)[٢] من بعده في مناوراتهم السياسية لإيجاد حل سلمي ، فأخذا يجتمعان برجال العراق للتداول في أمور الحالة المتوترة التي تلت الثورة وما يجب عمله لإعادة الأمن والاستقرار . وأصر العراقيون على المطالبة بانسحاب القوات المسلحة بصورة كاملة وبدون قيد أو شرط ، ومنح البلاد الاستقلال التام[٣] .

(١) بيرسي كوكس Major General Sir Percy Cox : أول مندوب سام بريطاني في العراق في تشرين الأول سنة ١٩٢٠ . جاء إلى البصرة كمستشار سياسي لجيوش الاحتلال ، نقل إلى طهران كوزير مفوض في نيسان سنة ١٩١٨ لمدة عشرين شهرًا ، ثم رجع إلى بغداد عند اندلاع الثورة في ٢٠ تموز ١٩٢٠ . انتهت خدماته وغادر العراق في أيار سنة ١٩٢٣ . عرف بسياسته الهادئة الحكيمة ، ولعب دورًا مهمًا وخطرًا في تأسيس الحكم الوطني الحليف في العراق ، والذي خفف من الأعباء العسكرية والمالية على بريطانيا بعد فشل سياسة البطش والتنكيل .

(٢) آرنولد ولسن Captain, later Lt. Colonel Sir Arnold Wilson : جاء إلى العراق مع القوات المحتلة وقاد المعارك في عربستان . شن هجومًا ثأريًا قاسيًا على المجاهدين في البسيتين والخفاجية كان عمره آنذاك ٤٣ سنة . تقلد منصب نائب الحاكم السياسي في العراق عند سفر (بيرسي كوكس) إلى طهران . كان عصبي المزاج ، قوي الشكيمة .

(٣) سببت الحركات الوطنية في العراق مصاعب كبيرة وميزانية احتلال عالية بحثت في البرلمان البريطاني . وأدى قبول القوات المحتلة بالحكم الوطني إلى تخلصها من هذه التبعات . كلف العراق بريطانيا ٣٢ مليون جنيه استرليني في سنة ١٩٢١ وانخفض الرقم إلى ما يقارب الأربعة ملايين جنيه استرليني بعد تأسيس الحكم الوطني سنة ١٩٢٦ .

[Ireland p: 312]

حاول البريطانيون إشراك العراقيين في الحكم، وكانت أولى هذه المحاولات تشكيل تنظيمات إدارية برئاسة شخصيات عراقية مرموقة تحل محل السلطات العسكرية المحتلة لإقناع الرأي العام بحسن نواياهم ، وكان لذلك أثر في أن تتراجع العشائر وتخمد الثورة . من هذه المحاولات ، تعيين ناجي السويدي معاونًا للحاكم العسكري في بغداد ، لكنه لم يتمكن من ممارسة عمله في ظروف الاحتلال ، وتركه بعد يومين فقط وغادر إلى الشام . وكذلك تعيين عراقيين لرئاسة الدوائر البلدية كعبد المجيد الشاوي لرئاسة بلدية الرصافة ، وأنا لرئاسة بلدية الكرخ ، واعتذرت على الرغم من وساطة الكثير من الشخصيات البارزة لإقناعي بالقبول .

حوار مع ضابط هندي

جاءني إلى بيتي يومًا بعد أن خمدت الثورة ، ضابط هندي بارز . رحبت به وأخذ يحدثني بعربية فصحى ، قائلاً : «إن الحكومة البريطانية تنوي توزيع المناصب الإدارية على أمثالك من العراقيين ، ومن المنتظر أن ترحبوا بذلك . وقد علمت بترشيحكم لرئاسة بلدية الكرخ لما يعهده فيكم الإنكليز من اللياقة والمقدرة ، وسمعت أنكم رفضتم ذلك فما هو السبب ؟» أجبته : «إني متعب ولا أرغب في أي وظيفة كانت» . أجاب : «إن هذا الاعتذار غير مقبول ، والمفروض أن تعمل لبلادك وإن كنت متعبًا ، لقد آن الوقت لخدمة بلادكم» . قلت له : «إن الظروف لا تساعد على الخدمة الحقيقية . فالبلاد تحكم عسكريًا وليس هناك قوانين وأنظمة تحدد واجبات الموظفين وصلاحياتهم ، ولا يزال في الإمكان لأي عريف إنكليزي التدخل في الأمور الإدارية وإجبار الموظف على القيام بعمل قد يكون ضد مصلحة الشعب والبلاد ، لذا يبتعد كل من يتمتع بسمعة طيبة وكرامة عن القبول بالوظيفة» . أجاب الضابط الهندي : «إن القضايا التي ذكرتموها هي وقتية لن تدوم طويلاً ، فإذا ما تقلدتم أنتم وأمثالكم السلطة ، استطعتم تغيير الحالة الراهنة وخدمة بلدكم ، وهذا أفضل من أن تقعوا بالذي وقعنا فيه في الهند ، على أثر الاحتلال البريطاني وندمنا حين لم ينفع الندم» . وقبل أن يسمع ردي عليه ودعني وانصرف .

شكل الحكومة الوطنية

أوعز الحاكم السياسي العام إلى قاضي بغداد الحاج ، علي أفندي الألوسي ،

بدعوة الشخصيات البارزة وتشكيل مجلس منهم لأخذ رأيهم في شكل الدولة التي يرغبون بها . واجتمعت هذه الشخصيات في المحكمة الشرعية في كانون الثاني ١٩٢٠ ، أذكر أنه كان من بينهم : الشيخ سعيد النقشبندي ، وأخوه عبد الوهاب النائب ، وعبد الله النقيب ، وأخوه السيد أحمد ، وعبد الرحمن الحيدري ، وعبد المجيد الشاوي ، وإسماعيل الواعظ ، وفؤاد الدفتري ، ورفعة الجادرجي ، وأحمد الشيخ داود ، وحمدي الباجه جي ، وداود محمد باشا الداغستاني ، وعبد الرحمن الجميل ، وجميل الزهاوي ، وفخري جميل ، وعبد الملك الشواف ، ومحمود السنوي وكنت أنا من ضمنهم .

تداول المجلس في الوضع القائم بالبلاد ، وبعد نقاش طويل قرر المجتمعون تشكيل حكومة وطنية ديمقراطية دستورية ملكية برئاسة أحد أنجال الشريف حسين ، وسمي الأمير عبد الله لهذا المنصب ، وأن تمتد حدود العراق من الخليج العربي جنوبًا وحتى الحدود الشمالية للموصل شمالاً . وعندما بوشر بكتابة قرار المجلس لتوقيعه من الحاضرين ، تركت الاجتماع مع صديقي داود محمد فاضل الداغستاني ؛ لأننا كنا نرجح ترشيح عراقي للعرش هو السيد عبد الرحمن النقيب لمعرفته بأحوال العراق وما يحتاجه من إصلاح .

وبعد هذا الاجتماع ، تشكلت وزارة مؤقتة برئاسة عبد الرحمن النقيب في ٢٥ تشرين الأول ١٩٢٠ ، بعضوية وزراء أصليين ووزراء بلا وزارة ، وبمشاركة مستشارين بريطانيين .

كان الوزراء الأصليون هم : طالب باشا النقيب للداخلية ، وجعفر باشا العسكري للدفاع ، وساسون حسقيل للمالية ، وعزة باشا الكركولي للأشغال والمواصلات ، ومحمد علي فاضل للأوقاف ، ومحمد مهدي الطباطبائي بحر العلوم للمعارف والصحة ، ومصطفى أفندي الالوسي للعدلية ، وعبد اللطيف المنديل للتجارة .

أما الوزراء بلا وزارة فكان عددهم اثني عشر وزيرًا وهم السادة : فخري الجميل ، وعبد المجيد الشاوي ، وعبد الجبار الخياط ، ومحمد الحبيب ، وسالم الخيون ، ونجم الدين البدراوي ، وأحمد الصانع ، وعبد الغني كبه ، وعجيل السمرمد ، وضاري السعدون ، وحمدي بابان ، وداود اليوسفاني . باشرت الوزارة أعمالها بحضور المستشارين الإنكليز الذين كانوا يتمتعون بسلطات كبيرة . وأعلن رئيس الوزراء بيانًا للشعب العراقي يتضمن وجوب الخلود إلى الهدوء ليتسنى للوزارة المجال للعمل في

خدمة البلاد . وأول ما قامت به الوزارة هو تعيين متصرفين للألوية هم : القائم مقام العسكري حامد السامرائي للواء الموصل ، وعبد المجيد اليعقوبي لكركوك ، وأحمد عثمان لأربيل ، وأحمد حالت لديالى ، ورشيد الخوجه لبغداد ، ورشيد العمري للدليم ، وصالح باش أعيان للعمارة ، وأحمد الصانع للبصرة ، وإبراهيم مزعل السعدون للمنتفك ، وعبد الحميد أسد الله خان لكربلاء . ولم تعين أحدًا لألوية السليمانية والحلة فبقيت تحت إدارة الحكام البريطانيين .

ترشيح طالب باشا النقيب

بعد أن انتهت الثورة العراقية في أيلول ١٩٢٠ وتأليف أول وزارة عراقية ، أخذت جماعة طالب النقيب(٤) تنظم المضابط وتطالب بتعيينه حاكمًا عامًا على العراق .

اعتدنا في ذلك الوقت الاجتماع في دار عبد العزيز الزيبق في جانب الكرخ لبحث القضايا العامة التي تهم البلاد ، وكان يحضر هذا المجلس الحاج عبد اللطيف المدلل ، والضابط المتقاعد عبد اللطيف العلوي ، والبصير الملا نجم العبد لله ، والحاج حسن الهذبان وغيرهم . وفي ذات يوم دخل علينا إبراهيم الشواف وأخوه علي ، قاضي البصرة ، يحملون مضبطة لتوقيع وجهاء الكرخ عليها . تناولت المضبطة وقرأتها وهي موقعة من عبد الملك الشواف وإخوانه ، وتتضمن طلبًا من (بيرسي كوكس) ، الحاكم الإداري العام ، لتعيين طالب النقيب حاكمًا عامًا على العراق . وقالوا لنا إن هناك مضبطة مماثلة سيوقع عليها وجهاء الرصافة .

أجبتهم بأن هذا الأسلوب غير صحيح ، فهناك أشخاص آخرون مؤهلون لهذا المنصب ، والأمر يتطلب إجراء انتخابات عامة تشمل جميع العراقيين لانتخاب من يرونه لرئاسة الدولة ، ونحن لسنا مخولين من قبل المواطنين لاتخاذ قرار مهم كهذا ،

(٤) طالب باشا النقيب : رجل قوي ومتنفذ من أبرز الشخصيات في البصرة ، عمل ضد العثمانيين للحصول على نوع من الحكم الذاتي . تبوأ وزارة الداخلية في وزارة النقيب الأولى . كان يطمع بالعرش ، أيده في ذلك (جون فيلبي) مستشار الداخلية و(رايلي) مستشار المعارف . بدأ بحملة انتخابية في ٨ آذار ١٩٢١ . وفي ١٤ نيسان أُختُطِف بإيعاز من (بيرسي كوكس) بسيارة مصفحة نقلته إلى زورق في دجلة ثم إلى باخرة في البصرة أبحرت به إلى الهند . رجع إلى العراق في سنة ١٩٢٥ وتصالح مع الملك فيصل . عرف باستخدامه عصبة من الرجال العنيفين لتحقيق أهدافه .

ومن الأفضل أن يكون هناك مجلس تشريعي أولاً يُنتخب بعد نيل الاستقلال التام ليُسنَّ دستورًا للبلاد يوضح كيفية انتخاب رئيس الدولة . وسلمت المضبطة إلى مضيفنا عبد العزيز الزيبق ليعرضها على المجتمعين .

وفي أثناء ذلك كان القهواتي (مخلف) يوزع فناجين القهوة علينا ، وعند سماعه ما كان يدور بيننا ، وضع دلة القهوة والفناجين على الأرض وقال : «ليش هذا تعيين مختار محله؟» ، وضحك الجميع وساد الصمت بعد ذلك ، وأخذ الأخوان الشواف مضبطتهما وخرجا .

وفي اليوم التالي سمعت أنهما أخبرا طالب باشا بما حدث والامتناع عن التوقيع ، وأن ذلك كان بتحريض مني .

الفصل السادس عشر
قائمَ مقامٍ ثم متصرفًا في الكوت

تدخل (فيلبي)

مضت ثلاثة أشهر على التحاق الإداريين العراقيين بوظائفهم ولم يبق منهم أحد غيري . طلبني رشيد الخوجه ، متصرف لواء بغداد ، وأبلغني طلب وزارة الداخلية مني الالتحاق كقائم مقام للكوت ، واعتذرت عن قبول الوظيفة . وأخذ المتصرف ينصحني بأن امتثل للأوامر ، وقال : «إن الوضع العام لا يساعد على الاعتذار وإن الوزارة جادة في هذا الموضوع» .

وبينما كنا نتحادث ، دخل علينا عارف حكمت وأخذ يتهامس مع المتصرف ، وأفراد من الشرطة تنتظره على الباب . وبعد خروجه التفت رشيد الخوجه إليّ ، وقال : «هل رأيت ما حدث لعارف؟ لقد قررت الحكومة نفيه إلى خارج العراق مع عدد من الشخصيات . ولحبي لك أنصحك بالقبول ، فإن رفضت كان مصيرك مثله وهذا لا أريده لك» . أجبته : «إني لا أريد الوظيفة ولتفعل الحكومة ما تشاء ، وأوكل أمري إلى الله» ، وتركته وانصرفت .

وعند زيارتي لعبد المجيد الشاوي وقد عُيِّنَ حديثًا لرئاسة بلدية الرصافة ، وكان صديقا لبعض الحكام الإنكليز ، كرر الحديث نفسه معي وسألني عما سأفعله . أجبته : «إني مصر على عدم قبولي الوظيفة» . قال لي : «إن الوضع يتأزم وقد يلحقك ضرر من هذا الامتناع وأرجو أن تفكر مليًا بالأمر» .

وجاءني في عصر ذلك اليوم شرطي إلى البيت ، وقال : «إن وزارة الداخلية تطلب حضورك» . ذهبت مع الشرطي ودخلت على سكرتيرها ، عبد العزيز المظفر ، الذي قال لي إن الوزير طالب باشا يريد مقابلتي . وبعد أن أذن الوزير لي بالدخول ، وجدت إلى

جانبه (المستر فيلبي)[١] ودعاني للجلوس . قال الوزير : «إنك تعينت لقائم مقامية الكوت[٢] بالأمر الوزاري المرقم ١٦٥٦ والمؤرخ في ١٩ كانون الثاني ١٩٢١ ، وقد مضى وقت طويل على صدور هذا الأمر ولم تلتحق فما هو السبب؟» أجبت : «إني متعب ولا أتمكن من القيام بمهام الوظيفة» . أجابني وهو منزعج : بأنه يعلم جيدًا بأني تركي وأعمل للأتراك ولا أريد التعاون مع الحكم الوطني . قلت له : «إني لست تركيًا بل عربي من أبناء هذا الوطن ، لكني لا أملك القدرة على العمل الوظيفي الآن ، ولم يسبق لي أن قدمت طلبًا للتوظيف ، وتعييني هذا جاء من غير علمي» . قال الوزير : «نحن قررنا نفيك من العراق لعدم تعاونك معنا» .

هنا تدخل (فيلبي) واستأذن الوزير لكي يكلمني على انفراد . نهض وأخذ بيدي إلى الغرفة المجاورة وأجلسني إلى جانبه . قال : «نحن حققنا عنك وعرفنا أنك رجل إدارة ناجح ، وقد اخترناك لقائم مقامية الكوت لأهميتها في الوقت الحاضر ، وذلك لوجود فرقتين من الجيش الإنكليزي فيها ، ونحن لا نرغب في احتكاك الجيش بالإدارة ، فما هي شروطك التي تضعها لقبول هذا العرض؟» . قلت له : «لا يمكنني قبول الوظيفة قبل أن يتعين وضع البلاد السياسي وتسن أنظمة وقوانين تحدد واجبات الموظف وتضمن له حقوقه . إن الموظفين الإداريين الآن هم آلة تنفيذ فقط بإمرة أصغر جندي بريطاني ، والموظف في وضع لا يتمكن معه من خدمة بلاده وإرضاء وجدانه ، وقد رفضت سابقًا تكليفًا بمديرية الأوقاف العامة ورئاسة بلدية الكرخ للأسباب نفسها» .

---

(١) المستر فيلبي Saint John Philby : ضابط استخبارات بريطاني جاء إلى العراق مع القوات المحتلة ، وكان مؤيدًا لطالب باشا النقيب في طموحه في عرش العراق . عمل كمستشار لوزارة الداخلية وناب عن طالب باشا عندما أُبعد عن الوزارة . تصفه (المس بل) بأنه كان جيدًا في البداية ، إلا أنه فصل من الخدمة بعد سنة واحدة لعمله من أجل تأسيس جمهورية في العراق . عمل بعدها لمدة طويلة في المملكة السعودية ، وأشهر إسلامه وسمي بالحاج عبد الله فليبي .

(٢) الكوت : مدينة تقع على الضفة الشرقية لدجلة على بعد ١١٨ ميلاً جنوب شرق بغداد . ومعنى الكوت هو الساحل النهري ، مثل كوت العمارة وكوت الزين ومنها التصغير (الكويت) ، وربما كانت الكلمة مشتقة من الفرنسية cot أو quay ، الكلمة تعني القلعة بالهندية . وهي اليوم مركز محافظة واسط .

سألني فيلبي : «كيف كنتم تشتغلون بالإدارة في لعهد العثماني؟» . أجبت : «كان هناك أنظمة وقوانين نعمل بموجبها من غير تدخل أي سلطة كانت» . قال المستشار : «ماذا سيكون موقفك إن أعطيناك صلاحيات إدارية بموجب الأنظمة التركية السابقة» ، قلت : «في هذه الحالة سأقبل على أن أتسلم تفويضًا رسميًا يضمن لي عدم تدخل الغير» . قال فيلبي : «نحن مستعدون لإعطائك تفويضًا رسميًا يساعدك على تنفيذ كل ما تطلبه ، مع مراعاة أوامر القيادة العامة في الأمور المتعلقة بالجيش ، وسيكون هناك ضابط ارتباط يراجعكم حولها ولن يتدخل بأموركم الأخرى» . وهكذا قبلت بالوظيفة بعد أن طمأنني (فيلبي) بأني سأكون راضيًا .

قائمَ مقامٍ للكوت بصلاحيات عثمانية

تبلغت بكتاب متصرفية بغداد المرقم ص٤ /٥٥ /٢ جلد (١) المؤرخ في ٩ شباط ١٩٢١ ، يتضمن حق تطبيق الأنظمة العثمانية الخاصة بإدارة القضاء . وسافرت إلى الكوت في ١٦ شباط . استقبلني الحاكم الإنكليزي (بري) القائم بإدارة القضاء ، وقدم لي الموظفين ، وقال : إن القضاء مربوط بحاكم الكوت ، وإن هذا الارتباط على وشك الإلغاء .

باشرت العمل في اليوم التالي ، وجاءني ضابط الارتباط الإنكليزي وعرفني بطبيعة وظيفته وهنأني بمنصبي الجديد ، ولم يراجعني بعد ذلك إلا في الأمور الخاصة باحتياجات معسكرات الجيش ، كتعيين المستخدمين والحراس وإلى غير ذلك . ولم أجد منه ما يعرقل سير أعمالي في الإدارة مطلقا . وأنيطت بي مراقبة إدارة أقضية بدرة والحي والصويرة لمدة شهرين ، مع صلاحيات حاكم من الدرجة الثانية لمدة شهر واحد .

خلاف مع حاكم الكوت

عرضت عليّ ذات يوم قضية قتل وقعت بين عشيرة (ربيعة) و(الزبيد) ، وبصفتي حاكمًا بالأمور الحقوقية والجزائية والعشائرية إضافة إلى وظيفتي كقائم مقام ، حكمت لعشيرة (الزبيد) مستندًا إلى الأصول العشائرية .

وفي اليوم التالي لصدور الحكم ، طلبني الحاكم الإنكليزي (جفريز) وكان معه (الميجور ولسن) حاكم البصرة ، وبادرني بالسؤال عن كيفية إعطائي الحق إلى عشائر

(الزبيد) في حين أن الحق هو مع عشيرة (ربيعة)؟ قلت له : «إني حكمت بالعدل استنادًا إلى القواعد العشائرية المرعية ، فالحق مع عشيرة (الزبيد) والمعتدون هم عشيرة (ربيعة)» . قال (جفريز) : «إني اعتقد أن الحق مع (ربيعة)» ، أجبته : «إني حكمت بموجب صلاحياتي وليس لك حق في الاعتراض على حكمي ، وإن كنت مصرًا على التدخل فأنا مستعد لترك القضاء والاستقالة ، وإني أرفض التدخل أيًا كان مصدره» . قام (جفريز) من محله وأخذ يطلب السماح مني والمعذرة ، ثم زارني في وقت لاحق واعتذر مرة أخرى وطلب مني الاستمرار في عملي وفقًا لمعلوماتي واجتهادي ، ولم يتدخل في أموري بعد تلك القضية طيلة مدة بقائي في الكوت . وقد ألغيت حاكمية الكوت والقائم بها (الميجور جفريز) في وقت لاحق .

متصرفًا للمرة الأولى في لواء الكوت

وفي هذا الوقت تقرر جعل قضاء الكوت مركزًا للواء جديد يضم أقضية بدرة والحي والصويرة ، وصدر الأمر المرقم ٤٦٢٢ في ٤ نيسان ١٩٢١ بتعييني أول متصرف لهذا اللواء . ولم يستغرق عملي في المتصرفية أكثر من بضعة شهور حتى نقلت بعدها إلى كربلاء .

مقتل متصرف الموصل

تم تتويج فيصل الأول ملكًا على العراق في ٢٣ آب ١٩٢١ ، وبعد مدة تبلغت بالإرادة الملكية المرقمة ١٧٢٧٧ في ١ تشرين الأول بتعييني متصرفًا للواء الموصل ، على أثر اغتيال متصرفها الأول ، حامد السامرائي ، في ظروف غامضة . وقيل إنه اغتيل من قبل شخص مجهول عند ما كان جالسًا في ديوان آل المفتي في محلة باب سنجار ، وإن الحكومة لم تكن جادة في التحقيق في هذه الجريمة ولم تعثر على الجاني .

قابلت الحاج رمزي ، وزير الداخلية[٣] ، ثم عبد الرحمن النقيب ، رئيس الوزراء ،

---

(٣) الحاج رمزي وزير الداخلية في وزارة النقيب الثانية ١٢ أيلول ١٩٢١ ، أُوكلت إليه بعد أن عارض برسي كوكس إسنادها إلى ناجي السويدي ، وعارض الملك فيصل إسنادها إلى توفيق الخالدي لميله للأتراك . استقال الحاج رمزي في ٣٠ آذار ١٩٢٢ مع ناجي السويدي وعبد اللطيف المنديل وعزة الكركولي وحنا خياط ، لشعورهم بعدم ثقة الملك فيهم في قضية تجاوز عشائر نجد وتخطيط الحدود الجنوبية .

واستفسرت منهم عن خفايا هذه الجريمة، فلم أحصل على جواب واضح مقنع. قال السيد النقيب: إن التحقيقات جارية ولم يظهر لها نتيجة لحد الآن. واعتذرت عن قبول هذا التعيين قبل أن أعرف أسباب الاغتيال، فهل قام بذلك أهل الموصل لعدم رغبتهم بتعيين متصرف لهم؟ أم كان ذلك لعدم رغبتهم بحامد السامرائي بالذات؟ أم كان للإنكليز يد في هذه الجريمة لعدم تقبلهم حاكمًا عربيًا للواء؟(٤).

أخذ المرحوم النقيب يشجعني على قبول المتصرفية، وأجبته: إني لا أقبل العمل في تلك الظروف الغامضة وأنا معذور لذلك. أنهيت الحديث معه وانصرفت، وقدمت استقالة مشفوعة بتقرير طبي من الدكتور حنا خياط(٥). طلبني بعد ذلك وزير الداخلية مرة أخرى ومعه مستشاره (كورنواليس)(٦) ورجوني سحب استقالتي، فرفضت. وعندما عجزوا عن إقناعي، عينوا القائم مقام العسكري المتقاعد، عبد الوهاب وهبي، عوضًا عني.

---

(٤) ما زال مقتل حامد السامرائي لغزًا. ويعتقد الكثيرون أن الذي دبر اغتياله هو (الكولونيل نودلر) الحاكم السياسي في الموصل، الذي وصف بأنه من رجال الاستعمار الأقحاح، الذي لم يستسغ تعييني متصرفًا عربيًا للموصل.

[الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ص ١٥٦ مجلد٢]

(٥) حنا خياط: ١٨٨٤-١٩٥٩: بكالوريوس علوم وآداب من الجامعة الفرنسية في بيروت ١٩٠٣، ودبلوم الطب من جامعتي باريس وإسطنبول. أول وزير صحة عراقي في الحكم الوطني ١٢ أيلول ١٩٢١. عميد الكلية الطبية ١٩٣٤ وأستاذ الطب العدلي فيها. أول من حاضر باللغة العربية وأجاد في الكلية.

(٦) كورنواليس Sir Kenhan Cornwallis: ١٨٨٣-١٩٥٩ من أهم الشخصيات التي لعبت دورًا مهمًا في العراق، تخرج في أكسفورد وعمل في السودان ثم مصر، وعند نشوب الحرب العظمى الأولى استعار خدماته (جلبرت كلايتون) إلى المكتب العربي وانتدبه مع (ستورز) و(هوكارث) للحوار مع الشريف حسين في الحجاز قبل الثورة العربية. التحق بالأمير فيصل بسوريا ورجع إلى المكتب العربي بعد احتلال الفرنسيين للشام، وكان أول من فاتح الملك فيصل بعرش العراق، ورافقه إلى البصرة ووقف إلى جانبه في حفل التتويج. عمل في العراق لمدة أربع عشرة سنة كمستشار لوزارة الداخلية ١٩٢١-١٩٣٥ وسكرتيرًا شخصيًا للملك فيصل. عين سفيرًا لدى العراق في مايس ١٩٤١ ورفض تقديم أوراقه إلى الشريف شرف الوصي على العرش آنذاك. انتهت خدماته كسفير سنة ١٩٤٥.

خلاف بين الملك والنقيب

تراكمت الشكاوى المرفوعة ضد قائم مقام دلتاوة (الخالص) ، العقيد المتقاعد شاكر فرج ، وأنا متصرف في الكوت ، وجاءني أمرٌ للتحقيق في صحتها . وعلمت أن القائم مقام هذا كان منسوبًا للسيد عبد الرحمن النقيب ، رئيس الوزراء ، وأن الملك فيصل لا يريده في هذا المنصب ، فتدخل المندوب السامي لحل هذا الخلاف واقترح على مستشار الداخلية التحقيق في الشكاوى قبل البت بالأمر .

كان المركز الإداري لقضاء دلتاوة في بناية مديرية الدرك ، وهي أشبه ما تكون بالمقهى وفوقها أربع غرف مخصصة لكبار الموظفين . اخترت غرفتين منها إحداهما لإجراء التحقيق والثانية لاستعمالي الخاص .

وبعد جهد متواصل لمدة أربعة أيام ، أوصيت بتنحية القائم مقام عن وظيفته ، على أن ينفذ بعد مرور ثلاثة أشهر حتى لا يكون قرارنا بادرة مشجعة للمشاغبين والمغرضين لإبعاد الإداريين لأتفه الأسباب . وأخذت الوزارة باقتراحي ، وارتاح الملك ورئيس وزرائه معًا لقراري من دون أن أكون متوخيًا ذلك بصورة مباشرة ، وساعد تأجيل تنفيذ القرار على نسيان المشكلة بين البلاط ورئيس الوزراء .

تعرضت أثناء عملي المرهق في الجو الملوث بدلتاوة ، والسهر حتى الصباح ، إلى آلام شديدة في عيني عانيت منها لمدة خمسة وعشرين يومًا ، وعالجني طبيب العيون (المستر سبنسر) حتى اختفت الآلام ، إلا أن الإصابة تركت في عيني بقعة بيضاء لازمتني طيلة حياتي .

مشكلة في بعقوبة

شكلت وزارة الداخلية بكتابها المؤرخ في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٢١ لجنة مكونة مني ومن الحاكم نشأة السنوي ورئيس محكمة الاستئناف (المستر وودمن) ، للتحقيق في الخلاف القائم بين أحمد حالت متصرف لواء ديالى ورئيس محكمة البلدية .

وعند وصولي بعقوبة مع نشأة السنوي ، أردنا النزول عند أحد معارفه فوجدنا باب داره موصدة ولم نجد من يرشدنا إليه . بقينا واقفين على قارعة الطريق في حيرة من أمرنا لمدة ساعة نفكر في إيجاد محل نقضي به ليلتنا . وفي هذا الموقف الحرج تذكر صاحبي صديقنا جواد أفندي المعمار ، مأمور الطابو ، وكلفنا أحد الحمالين بإيجاده لنا فذهب على الفور وأتانا به ، وعندما رآنا فرح فرحًا عظيمًا وأخذنا إلى بيته .

وفي صباح اليوم التالي ، وصل (المستر وودمن) عضو اللجنة الثالث ، فبدأنا التحقيق مع الحاكم والمتصرف ، ووجدنا أن الخلاف كان تافها وناتجًا عن سوء فهم لتدخل المتصرف بقرارات الحاكم ، وتأكدنا من استقامة وحسن نوايا كليهما ، فجمعناهما سوية وأزلنا الجفاء بينهما ، وقدمنا تقريرًا بذلك .

القسم الخامس

مناصب إدارية في عهد الحكم الوطني

الفصل السابع عشر
متصرفًا لكربلاء

دار الاعتماد تتحدى الملك

صدر أمر نقلي إلى كربلاء في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٢ والالتحاق بوظيفتي الجديدة بسرعة . وعلمت في بغداد أن سبب الاهتمام والاستعجال هو الخلاف بين الملك فيصل ودار الاعتماد ، فجلالته لم يكن راغبًا في استمرار المتصرف السابق ، عبد الحميد أسد خان[١] ، في وظيفته لعلاقته الوثيقة بدار الاعتماد ، وعُينَ حديثًا الحاج سليم ، قائم مقام الكاظمية ، متصرفًا عوضا عنه . وما إن وصل الحاج سليم إلى كربلاء حتى أوعزت دار الاعتماد إلى (المستر موكي) معاون مستشار الداخلية لإرجاعه حالاً وفي اليوم نفسه ، متحديةً بذلك الملك فيصل ووزير داخليته . وقد أدت هذه الحكاية إلى توتر شديد بين البلاط ودار الاعتماد ، واستشار الطرفان رئيس الوزراء للفصل بينهما . أشار النقيب بأن لا يبقى أسد خان في وظيفته ولا أن يرجع الحاج سليم إلى كربلاء ، ورشحني للمنصب تفاديًا للمشاكل . فوافق الطرفان وتقرر إرسالي بسرعة قبل أن ينتشر خبر الخلاف بين الناس .

قبلت بالأمر الواقع وسافرت إلى كربلاء ، وكان في استقبالي هناك سادة اللواء وأشرافه ورؤساء القبائل المعارضة لعبد الحميد خان ، وباشرت عملي في ١٦ شباط ١٩٢٢ .

(١) عبد الحميد أسد خان : من أسرة ذات جاه وثراء وهو ابن خال آغا خان الثالث . كان معاونًا للحاكم العسكري في النجف في آب ١٩١٧ حتى إعلان الثورة العراقية في تموز ١٩٢٠ . كانت له سمعة حسنة في النجف بالرغم من توتر الأوضاع السياسية آنذاك .

حكاية ابنة المومن

كانت قضية ابنة المومن أول قضية عرضت عليّ في كربلاء ، أدت إلى عداء واضح بين الموظفين السنة وبعض الكربلائيين (الموامنة) والسادة من رجال الشيعة ، ومنع الموظفين من دخول العتبات المقدسة لأداء الزيارة .

وبعد التحقيق عن أسباب ذلك ، علمت أن أحد الموامنة زعم وأذاع في صحن سيدنا الحسين ، عليه السلام ، بأن ابن مأمور البرق والبريد ، عطا أفندي ، ومعه أولاد موظفين آخرين من السنة قد تحايلوا على ابنته البريئة واغتصبوها ، وتجمع الناس نتيجة لذلك في الصحن وقرروا الهجوم على الموظفين ، وقد منعهم من ذلك المتصرف السابق ، عبد الحميد خان ، في أواخر أيامه . وعلى أثر ذلك انزوى الموظفون في دورهم تحسبًا لاعتداء الموامنة والأهالي عليهم . وقد أسرّ عبد الحميد إلي بهذه القصة متأثرًا وطلب مني معالجتها بسرعة قبل أن يتوسع الخلاف .

استشرت من يوثق بهم فقالوا إن الحكاية مختلقة وليس لها نصيب من الصحة ، فإن ابن عطا أفندي هو صبي صغير لا يتجاوز عمره العشر سنوات ، وقد أجريت له عملية الختان قبل شهرين من الحادث المزعوم ، وإن القصد من الحكاية هو إثارة البلبلة والفوضى لأمر مدبر له علاقة بقضية الحاج سليم .

دعوت محمد علي كمونه والحاج رشيد جلبي الصافي والسيد محمد مهدي الطباطبائي ، وزير المعارف السابق ، ليكونوا أعضاء في لجنة للتحقيق في هذه المشكلة ، على أن يقوموا بعملهم بسرية تامة . وشعرت أن الصافي والطباطبائي كانوا غير مصدقين الحكاية وسكتوا عنها تفاديًا لتهريج المغرضين القاصدين تعكير المياه . وأوعزت إلى الشرطة بجمع الوثائق عن المعتدى عليها : عمرها وجنسيتها ووالدها ، ومعلومات مماثلة عن الصبي المتهم وتقديمها إلى اللجنة . وأوصيت بالتأني في إعلان نتائج التحقيق حتى يتوافر لي وقت كاف للتعرف على علماء البلد وأعيانهم ، وكسب ثقتهم بحيادي ، وإعطائي فرصة للسيطرة على الأمن في المدينة .

عاد عبد الحميد خان المتصرف السابق إلى محل إقامته الدائم في النجف ، وأصبحت حكاية ابنة المومن حديث الناس ، واشتد الجفاء والتوتر بين أطراف النزاع . وبعد أن شعرت بثقة الأهالي بي دعوت اللجنة للانعقاد ، وأبرزت لها التقارير والوثائق التي حصلنا عليها ، واقترحت استدعاء الابنة للحضور أمام اللجنة ، واتفقنا على تكليف الحفار باشي الحاج عبد الله الكربلائي بإحضارها والقيام بذلك بسرية وأمانة .

حضرت البنت ووالدها بعد نصف ساعة ، وإذا بها صغيرة العمر لا يتجاوز طولها ارتفاع المنضدة التي أمامنا ، وهي متسترة بعباءة بخجل . أخذنا نلاطفها ونبتسم لها ونمسح على رأسها ، وأعطيناها قليلاً من الحلوى وأضحكنا والدها . وبعد مغادرتها طلبتُ من اللجنة عرض الطفلة على الفحص الطبي من قبل قابلة أمينة ، وكلفنا الحفار عبد الله باستصحابها مع والدها ، وقلنا له إننا سنبقى مجتمعين حتى تأتينا بالتقرير الطبي ، وجعلناه يقسم بالمحافظة على السر والصدق ، كما طلبنا منه أن يطلب من القابلة أن تقسم على صحة تقريرها . رجع إلينا الحفار باشي بعد ساعة ونصف ، وبعد أن أقسم قال : إن القابلة قد كشفت على الطفلة بحضور والدتها وجدتها ووجدت أنها لم تمس بسوء .

وهكذا مرت هذه المشكلة بسلام ولم يتم بحثها بعد ذلك .

تدخلات (مس بل)(٢)

أخبرني قائم مقام النجف ، ليلة ٢٦ حزيران ١٩٢٢ ، عن مقتل الشرطي عبد الحسين من مراتب مخفر الدرعية ومحلة العمارات أثناء قيامه بواجبه في حراسة باب الدرعية . وطلب القائم مقام من متعهد الحراسة (كردي بن عطيه ابو كلل) الالتزام بتعهده وتسليم المجرمين في ظرف عشرة أيام . وأوقف المتعهد وحارس المحلة كإجراء احتياطي إلى حين القبض على المجرمين ، وأمر بإلقاء القبض على بعض الصبية المشاغبين المعروفين بسوء أخلاقهم ، لمحاولتهم الهرب بعد وقوع الجريمة مما أثار الشكوك حولهم .

(٢) المس بل Miss Bell : سيدة إنكليزية لعبت دورًا مهمًا بعد احتلال الإنكليز للعراق . ولدت سنة ١٨٦٨ وكانت أول امرأة تتخرج في جامعة أكسفورد وبدرجة شرف سنة ١٨٨٨ ، قامت برحلات طويلة في الشرق ، إلى إسطنبول وطهران والقدس وجرش والبتراء ومنطقة حوران وجبل الدروز وتدمر وبعلبك ، درست القلاع الرومانية والبيزنطية على الفرات وقصر الأخيضر ، وكتبت كثيرًا عن رحلاتها . عينت في المكتب الشرقي بالقاهرة مع لورنس ، وانتمت إلى الاستخبارات العسكرية كخبيرة بشؤون القبائل البدوية . دخلت العراق مع برسي كوكس والقوات المحتلة وشاركت في احتفالات تتويج الملك فيصل في ٢٣ آب ١٩٢١ . عملت كسكرتيرة الشرقية للمندوب السامي . توفيت في بغداد في ١٢ تموز ١٩٢٦ .

وفي اليوم التالي ، جاء مفتش الشرطة (الكابتين روول) وأطلق سراح الموقوفين من غير إخبار القائم مقام ، وعندما علمت بهذا أمرت بإعادة المتهمين إلى الموقف حالاً ، وأرسلت حسام الدين جمعة ، مدير الشرطة ، إلى النجف للمساعدة في التحقيق وطلبت من توفيق الخالدي ، وزير الداخلية ، منع المفتش الإنكليزي من التدخل بالأمور الإدارية في اللواء لأن في ذلك إساءة إلى سمعة الحكومة وهيبتها . وقد أثار تدخل المفتش امتعاض أهل النجف وعلمائها واستهجنوه وطالبوا القائم مقام بالالتزام بالعدالة وبما تقرره المحاكم ، وطلبوا مني الذهاب إلى النجف لإصلاح التصرفات الإدارية الخاطئة فيها .

ومن النجف ، اتصلت بوزارة الداخلية وبمفتشية الشرطة العامة في بغداد ولم أتلق جوابًا . فاضطررت الى السفر واتصلت بوزارة الداخلية وبمفتشية الشرطة التي كانت بعهدة نوري السعيد[٣] . وطلبت إعفائي من متصرفية كربلاء إن لم يوافقوا على تبديل المفتش (الكابتين روول) .

كان رجال الداخلية يؤملونني من غير نتيجة . وفي الوقت ذاته ، أخبرني سكرتير الداخلية بأن (المس بل) تطلب حضوري إلى دار الاعتماد . استقبلتني هناك وفاتحتني بما يلي حرفيًا : «أراك تصر على تنحية الكابتن البريطاني في الحلة ، فمن أين لك هذا الحق؟ ولماذا تتدخل في القضايا المتعلقة بالبريطانيين؟» . ما إن سمعت ذلك حتى صرخت بوجهها : «إني متصرف اللواء المسئول عن شؤون إدارته العامة وأهمها القضايا التي تمس الأمن ، وإني لا أقبل منك هذا الكلام وأحتج على تدخلك» ، وخرجت من غرفتها غاضبًا . لحقت بي إلى الخارج وأمسكت بسترتي وهي تقول : «العفو لا

(٣) نوري السعيد : ١٨٨٨-١٩٥٨ أبرز شخصية سياسية في العهد الملكي ، تخرج في الكلية العسكرية في إسطنبول ومدرسة أركان الحرب . شارك في حروب البلقان ١٩١٤ وهو أحد مؤسسي (جمعية العهد) التي دعت إلى استقلال الدول العربية من الدولة العثمانية . أسرته القوات الإنكليزية في البصرة ونفته إلى الهند ، ثم التحق بالثورة العربية في الحجاز وعمل كرئيس أركان جيش الثورة . صاحب الملك فيصل إلى الشام ثم إلى العراق ، وشغل منصب رئيس الوزراء أربع عشرة مرة من مجموع تسع وخمسين وزارة في العهد الملكي ، كان آخرها ترؤسه لوزارة الاتحاد الهاشمي ١٩٥٧ . يتكلم التركية والفرنسية وقليلاً من الكردية . قتل أو انتحر بعد قيام الثورة في العراق عصر يوم ١٥ تموز ١٩٥٨ .

تزعل ، وأنا لا أقصد شيئًا من هذا ، ارجع لنتفاهم» . لم ألتفت لطلبها وتركت دار الاعتماد مسرعًا إلى وزارة الداخلية ، وقدمت احتجاجي على هذا التدخل وطلبت قبول استقالتي إن لم يُنقَل (الكابتن روول) عقابًا على عمله .

قام (كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية واتصل بالمندوب السامي (برسي كوكس) تلفونيًا وأخبره بما جرى . وأبدى المندوب السامي لي أسفه على ما حدث ، وقال إنه سيطلب (المس بل) لينبهها على خطئها . واتصل المندوب السامي مرة أخرى بوزير الداخلية وأخبره أن (المس بل) مستعدة لتقديم الترضية والاعتذار من عبد العزيز القصاب ، وما عليه إلا أن يعين المحل الذي يريده للقائها . أجبته : «إني لا أريد أن أراها ولا أريد اعتذارها» وأن نقل الكابتن فقط سيكون كافيًا لي .

رجعت إلى كربلاء وجاءني (الكابتن روول) ومعه (الكابتن لودز) الذي كنت أعرفه من الكوت ، واعترف الأول بخطئه وطلب المعذرة عما بدر منه . وهكذا انتهت القضية ، واستمرت الإدارة بتحقيق العدالة بموجب القانون ومن غير تدخل خارجي .

تجمهر خطير في النجف الأشرف

التأمت في النجف في زيارة يوم الغدير(٤) جموع غفيرة من عشائر السماوة والديوانية والحلة بشكل لم يسبق له مثيل . وغصت المدينة بعشرات آلاف من الناس ازدحمت بهم الطرق والميادين ، ونام الكثير منهم على أرصفة الطرق وعلى أرض الصحن الشريف .

استلمت برقيه من وزارة الداخلية تطلب مني السفر إلى النجف لحضور هذه الاجتماعات ومراقبة الأحداث عن كثب . وعززت قوات الشرطة المحلية بأخرى من الديوانية والمراكز الأخرى ، وأرسلت مدير شرطة اللواء ، صالح حمام ، مزودًا بالتعليمات اللازمة لنشر قواته في أحياء المدينة ، وعدم إفساح المجال للإخلال بالأمن والنظام وتأمين الراحة للزوار .

سافرت إلى النجف قبل موعد الزيارة بثلاثة أيام ، واتخذت من دار البلدية التي

---

(٤) يوم الغدير : يقع في الثامن عشر من شهر ذي الحجة من كل عام ، يحتفل به الشيعة الإمامية ، وهو اليوم الذي بويع فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بولاية العهد عن النبي صلى الله عليه وسلم .

تقع فوق مدخل المدينة مقرًا لإقامتي .

متصرف الحلة في النجف

وصل النجف بعد يوم واحد علي جودة الأيوبي(٥) ، متصرف الحلة ، يصاحبه خيري الهنداوي ، قائم مقام الشامية ، وشاكر محمود ، قائم مقام (أبو صخير) ، مع بعض الموظفين ، وقاموا بزيارتي في اليوم نفسه . رحبت بهم ، وبينت أن جماعة الغري طلبت مني إجازة إقامة حفل تكريم لهم . وبالنظر لتوتر الأوضاع ، كلفتني الوزارة بمنع الاجتماعات والاحتفالات العامة ، ولذا رجوتهم تأجيل الحفل حتى تنفض الجماهير وتنتهي الزيارة . لكن علي جودة رفض الاقتراح وقال : «لا يمكنني رفض جماعة الغري» . كررت طلبي بأن يعيد النظر في هذا الاجتماع حفظًا للأمن والسلامة العامة . ثم راجعني طالبو الإجازة مرة أخرى فأجزتهم لإقامة الحفل بعد أن أكدت عليهم ضرورة المحافظة على الأمن والنظام . وطلبوا مني ، قبل مغادرتهم ، حضوري احتفالهم في اليوم التالي فأنبْتُ عني مدير شرطة اللواء . ألقيت في الحفل قصائد وخطب تكريمية للمحتفى به وانتهى من غير وقوع ما كنت أحذره وأخشاه .

العشائر تطالب بإبعاد المستشارين الإنكليز

جاءني في الساعة الثامنة من ليلة زيارة الغدير ، رسول من المجتهد السيد أبو الحسن الأصفهاني ، يدعوني لحضور اجتماع لرؤساء العشائر في بيته والاستماع إلى مطالبهم ، على أن يكون حضوري منفردًا . ذهبت إلى الدار مصطحبًا صالح حمام ، مدير شرطه اللواء ، يتقدمنا خادم يحمل فانوسًا ، وكانت الطرق تعج بالناس وأفراد

(٥) علي جودة الأيوبي : ١٨٨٦-١٩٦٩ من رجال العهد الملكي البارزين ، ولد في الموصل وتخرج في المدرسة العسكرية في إسطنبول ، وخدم في مناصب عسكرية في لعراق . أسس مع جميل المدفعي فرعًا لجمعية العهد السرية في الموصل . اشترك في معركة الشعيبة وأسره الإنكليز ، ثم التحق بالثورة العربية في الحجاز والتحق بالأمير فيصل في العقبة . عين حاكمًا عسكريًا في حلب واشترك بمعارك دير الزور سنة ١٩٢٠ . عاد مع الملك فيصل إلى العراق ، وتقلد رئاسة الديوان الملكي ورئاسة الوزارة ثلاث مرات ، وتقلد عشرة مناصب وزارية مع مناصب دبلوماسية رفيعة ، له مذكرات نُشرت سنة ١٩٦٧ .

الشرطة . وعند وصولي منعطفًا في الطريق على مقربة من الدار ، طلبت من مدير الشرطة تركي لوحدي وانتظاري إلى حين رجوعي . طرقت الباب ، ففتحه لي شخص أشار علي بأن أترك الخادم وأصعد بمفردي إلى السطح ، حيث كان الاجتماع . كان سطح الدار مزدحمًا ، وبعد السلام دُعيت للجلوس إلى جانب السيد أبو الحسن ، وكان إلى جانبه صديقي العالم الورع والوطني الفاضل الشيخ عبد الكريم الجزائري . عرفت من الحاضرين السيد محسن أبو طبيخ ، وشقيقه جعفر ، وعبد الواحد الحاج سكر ، وعبادي الحسين ، وعلوان الياسري ، وناصر الحسين ، وشعلان أبو الجون (رئيس الظوالم) ، وكاظم العوادي وغيرهم .

كان السيد الأصفهاني أول من تكلم ، قال : إن لدى السيد محسن أبو طبيخ(٦) أمورًا يريد عرضها عليكم . قال السيد محسن : «كنت في بغداد وقابلت (كورنواليس) ، مستشار الداخلية ، وعرضت عليه شكاوانا من المستشارين الإنكليز في الألوية لتعسفهم وجبروتهم وسخطهم على الناس ، وطالبت بإقصائهم . وبعد كلام طويل وعد المستشار بالاستغناء عنهم وهو لم يف بوعده لحد الآن . نحن نريد منك أن تطلب من الداخلية تنفيذ ما وعدنا به حالاً وإلا فسنكون في حل مما سيحدث في البلاد» .

سألني أبو الحسن : «ماذا تقول في هذا الطلب؟» قلت : «إني لست على علم بهذا ولكم عليَّ شيء واحد وهو أن أسأل الوزارة عن موقفها وأبلغكم بجوابها» . طلب الحاضرون الإجابة بصورة مستعجلة وسينتظرون حتى اليوم التالي قبل أن يقوموا بما يلزم . قلت للسيد الأصفهاني : «إنكم على علم بهذا الحشد العظيم في البلد ، وقوات الشرطة الكبيرة الموجودة للسيطرة على هذا الوضع المتأزم ، وهي واقفة بالمرصاد لكل من يحاول الإخلال بالنظام ، أو الإساءة لقدسية الزيارة ، وإني لأخشى اصطدامها بالجماهير» . وقلت : «إني أعدكم باستيضاح الأمر من وزارة الداخلية بسرعة على شرط أن تُمنع الاجتماعات أثناء أيام الزيارة ، وأريد إصداركم فتوى بتحريم ذلك ، وأنا لا أتمكن من تحمل المسؤولية إذا ما أريقت الدماء وسادت الفوضى» . التفت السيد أبو

(٦) محسن أبو الطبيخ من رؤساء العشائر ، ولد في غماس سنة ١٨٧٦م . وتوفي في الخامس من أيار ١٩٦١ . شارك في ثورة العشرين واختير أثناءها متصرفًا للواء كربلاء بعد وفاة السيد الشيرازي . أصبح عضوًا في مجلس الأعيان في وقت لاحق .

الحسن إلى الشيخ الجزائري وكلمه بالفارسية ، ثم خاطب الجزائري الحاضرين وقال : إن حجة الإسلام يرى أن المتصرف مصيب في رأيه ، وسرني هذا الموقف . وأخذ الشيخ الجزائري بكتابة الفتوى وكانت مختصرة ومحتواها : «تحرم الاجتماعات والتجمعات خلال أيام الزيارة» . وبعد أن وقع المجتهد عليها حفظتها في جيبي وغادرت الاجتماع . وكان الخادم لا يزال في انتظاري خرج الدار حاملاً فانوسه ومعه صالح حمام . وحال وصولي إلى منزلي أعطيت الفتوى الى المنادي ليعلنها على الناس ، وكان تأثيرها جيدًا ومباشرًا .

رد الحكومة على طلب العشائر

أرسلت برقية رمزية مستعجلة إلى وزارة الداخلية ، وتلقيت في اليوم التالي برقية من (كورنواليس) تضمنت نفي ما ادعاه السيد محسن أبو طبيخ وعدم وجود وعد منه لإقصاء المستشارين ، وطلب مني تكذيب الخبر حالاً .

كان من رأيي أن من الحكمة التريث والكتمان في إعلان هذا الجواب ، فقد يدفع الجماهير للاجتماعات الصاخبة والخطب والقصائد المثيرة . وفي عصر ذلك اليوم ، اجتمع عندي في دار البلدية عدد كبير من السادة والشيوخ منهم : السيد علوان الياسري وكاظم العوادي ، ودام اجتماعي بهم حتى المغرب . سألوني إن كان جواب الداخلية قد وصل ، وحرت في الإجابة فإن قلت (كلا) خالفت الحقيقة ، وإن قلت (نعم) أوقدت النار في الأزمة . أجبتهم : بأني سأبلغهم بالجواب قريبًا . تركت مجلسهم وصعدت إلى سطح الدائرة لأفكر بما يجب علي عمله بهدوء ، وجال بخاطري زيارة بعض رؤساء العشائر ممن تربطني بهم صداقة متينة لأبلغهم بنص جواب الداخلية قبل أن أبلغ أتباعهم . سألت من حولي عن محل سكناهم ، فذكر لي أحدهم محل إقامة شعلان ابو الجون وناصر الحسين ، وطلبت منهم أن يفتشوا عن محلات إقامة الآخرين ، وعادوا وأخبروني أن الجميع يؤدون صلاة المغرب في الصحن . وبعد مرور ساعة ، سمعت أصوات سيارات ملفتة للنظر وجموع تغادر النجف من تحت دار البلدية . سألت معاون الشرطة ، فأجاب : «إن رؤساء العشائر يخرجون بسياراتهم وخيولهم» . وبقيت أراقب من موقعي هذه المواكب وهي تغادر لمدة ثلاث ساعات .

الملك فيصل وراء الأحداث

علمت بعد مدة أن متصرف الحلة ، علي جودة الأيوبي ، قد جاء للنجف بتكليف خاص من الملك فيصل الأول ، وقد أدى هذا إلى خلاف بين البلاط ودار الاعتماد ، فُصل بعده كل من علي جودة ومستشار الحلة ، (الميجور دكسن) ، من منصبيهما[٧] . كما علمت بأن رؤساء العشائر الذين غادروا النجف في تلك الليلة قد اجتمعوا ثانية في (أبي صخير)[٨] وحرروا مضبطة قدموها إلى وزارة الداخلية تتضمن شكوى مني ، لاعتقادهم بأني كنت أقصد اعتقالهم عندما فتشت عن محلات أقامتهم ، في الوقت الذي لم يقوموا فيه بأي عمل يخل بالأمن . وعندما سألتني وزارة الداخلية كَذبتُ هذا الادعاء .

الإنكليز يعرفون كل شيء

رجعت إلى كربلاء بعد ثلاثة أيام . وبعد شهر جاءني فراش الدائرة إلى بيتي ظهرًا ، وقال : إن رجلاً إنكليزيًا ينتظرني في الدائرة . ذهبت للمتصرفية ووجدته مع زوجته ولم أكن قد رأيتهما من قبل . عرفني بنفسه ، وقال : إنه (الميجور دكسن) ، مستشار الحلة السابق ، وقال : إنه بعد أن فصل من وظيفته رغب في زيارة كربلاء وأصدقائه فيها ، ثم أخذ يتكلم عن اجتماع الرؤساء في دار المجتهد السيد أبو الحسن الأصفهاني ، وأخذ يصف لي الاجتماع بدقة وتفصيل ، ذاكرًا أسماء الرؤساء ومحل جلوس كل منهم وما دار بينهم من حديث ، وحتى موضع الفانوس في سطح الدار وتفاصيل صغيرة أخرى . قال لي : إنه علم بكل ذلك بعد ساعتين فقط من مغادرتي الاجتماع وفي الليلة نفسها ، مع أنه لم يترك مقر وظيفته بالحلة أبدًا . وعجبت من كفاءة الاستخبارات الإنكليزية وسيطرتها التامة .

---

(٧) وصفت (مس بل) الملك فيصل بذي السياسة المزدوجة Double Dealer ، يشجع الوطنيين لرفض المستشارين الإنكليز في الخفاء بعكس سياسته الظاهرية ، وكما فعل في المظاهرات ضد زيارة الزعيم الصهيوني (الفريد موند) التي سنأتي على ذكرها لاحقًا .

(٨) أبو صخير : مدينة تقع على نهر البكرية المتشعب من شط الكوفة وهي تبعد عنها ١٢ ميلاً .

غارات الإخوان على جنوب العراق

عُقِد مؤتمر كبير في كربلاء في ٣ نيسان ١٩٢٢ حول تجاوزات الإخوان[٩] على الحدود الجنوبية في المنتفك والسماوة، والإخوان هم فرقة من العشائر السعودية. حضر الاجتماع توفيق الخالدي، وزير الداخلية، وجميع العلماء الأعلام في كربلاء والنجف والكاظمية. وحضره أيضًا، علماء من بغداد، كالشيخ عبد الوهاب النائب، والشيخ إبراهيم الراوي، والشيخ يوسف العطا، وعبد الجليل الجميل، والشيخ أحمد الراوي، وكذلك أعيان من الألوية الأخرى. استغرق الاجتماع خمسة أيام، وعند نهايته نُظِمت مضبطتان إحداهما معنونة إلى الملك فيصل والثانية إلى العلماء في النجف، تتضمن الاتفاق التام على إطاعة أوامر الملك والتصميم على إيقاف الإخوان عند حدهم، ومنع اعتداءاتهم المتكررة.

وخلاصة المقررات كانت :

أولاً : وجوب الدفاع عن البلاد ضد هجمات الإخوان :

ثانيًا : الثقة بسياسة الملك فيصل الأول.

ثالثًا : طلب التعويضات عن المنهوبات ودفع ديات القتلى الذين سفكت دماؤهم ظلمًا وعدوانًا.

شكر الملك السادة العلماء على اتفاق كلمتهم ببرقية في ١٥ نيسان ١٩٢٢، وعلى أثر اجتماع كربلاء انسحب الإخوان من منطقة القصور والسماوة، ولم يبق منهم أثر في الأراضي العراقية. وإني أعتقد أن حركة الإخوان قد نشأت بإيعاز من الاستعمار، شانها شأن جميع الحركات من هذا النوع.

---

(٩) الإخوان : هم العشائر المؤيدة لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد المذهب الحنبلي في نجد. سخرها محمد بن سعود أمير الدرعية لتكون سندًا لغاراته على أعدائه باعتبارهم مخالفين لهم في الدين. ثم نشب خلاف بين السعوديين والإخوان عند استيلائهم على مكة، وتمكن السعوديون من السيطرة عليهم. قام الإخوان بغارات متعددة على جنوب العراق في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين سببت أضرارًا كبيرة.

نزاع في زيارة الأربعين

تصادف زيارة الأربعين في كربلاء في ٢٠ صفر من كل عام ، وهي أعظم الزيارات وأكثرها ازدحامًا ، يحضرها الزوار من جميع أنحاء العراق ، وفي سنة ١٩٢٢ تجاوز عددهم المائة ألف نسمة . أصدرت التعليمات اللازمة في شهر أيلول إلى مديرية الشرطة في اللواء لتنظيم مواكب الزيارة ، وإرشاد رؤساء مواكب العزاء إلى الطرق التي عليهم سلوكها في البلدة وفي الصحن الشريف حفظًا لسلامتهم . ونشب في السنة تلك نزاع بين موكب الكاظمية وموكب النجف ، يريد كلٌ منهم التقدم بمسيرته على الآخر ، وكان بين الموكبين ضغائن وعداوات سابقة . أدى هذا النزاع إلى قتال ذهب ضحيته (دعبول) رئيس موكب النجفيين وآخر من رفاقه ، فأعطيت أوامر مشددة إلى الشرطة لإيقاف النزاع ، وتمكنا بعد جهد كبير من الفصل بين الطرفين فهدأت الحالة . ثم أمرت موكب الكاظمية بمغادرة كربلاء فورًا[١٠] .

(فيلبي) في كربلاء

وصل (المستر فيلبي) ، المستشار السابق لوزارة الداخلية ، كربلاء في ١١ حزيران ١٩٢٢ ، يرافقه (الميجور هولت) ومعهم ما يفوق خمسة وعشرين جنديًا من قوات البدو جميعهم بالزي العربي ، ونزلوا ضيوفًا عندنا . كان الهدف من الزيارة هو استطلاع الطريق بين الأردن والعراق لبحث إمكانية مد سكة حديد بين البلدين . وقد منعت دار الاعتماد البريطانية (المستر فيلبي) من دخول بغداد إرضاءً للملك فيصل ، وذلك لمحاولاته عندما كان مستشارًا ، لجعل العراق جمهوريًا . ترك (المستر فليبي) كربلاء في ١٢ حزيران ، أي بعد يوم واحد من وصوله على ظهور الإبل ، آخذًا الطريق الصحراوي المار بشثاثة (عين تمر) ثم الرمادي ومنها إلى عمان .

مقاطعة انتخابات المجلس التأسيسي

أصدر علماء النجف الأشرف : السيد أبو الحسن الموسوي الأصفهاني ، والمرزا حسين النائيني ، والشيخ عبد الحسين آل مرزا ، ومحمد تقي الشيرازي ، فتوى في ١٥

(١٠) تكرر هذا النزاع مرة أخرى وفي المناسبة نفسها سنة ١٩٢٩ .

[الحسني : (تاريخ الوزارات العراقية)]

ربيع الأول ، تحرم انتخابات المجلس التأسيسي تضامنًا مع علماء بغداد والكاظمية . وذلك لأن الإنكليز كانوا قد اشترطوا على المجلس التأسيسي بعد انتخابه التوقيع على المعاهدة العراقية البريطانية ، التي يرفضها العراقيون بأجمعهم . وأدت تلك المقاطعة إلى تأجيلها إلى أجل غير مسمى(١١) .

الأمير زيد يزور كربلاء

وصل الأمير زيد إلى كربلاء في ١٩ تشرين الأول ١٩٢٢ لزيارة العتبات المقدسة . تناول الغداء في بيتي ، وزار العلماء والرؤساء الأعيان في دار البلدية ثم غادر إلى النجف في ٢٠ تشرين الأول ، شاكرًا لما لقي من حفاوة وتكريم . وبات هناك ليلة واحدة في دار الكليدار ، وفي اليوم التالي زار مسجد الكوفة ثم رجع إلى بغداد عن طريق الحلة(١٢) .

طب عام ١٩٢٢

كان في كربلاء اثنان من الممارسين للطبابة ، هما مرزا قاسم وحافظ الصحة ، ومثلهما في النجف هما مرزا محمود ونسيبه مرزا جميل ، وجميعهم ممن لم يدرسوا في المعاهد الصحية وإنما كانوا متطببين امتهنوا العمل بالممارسة أو بالوراثة من آبائهم . وكان هذا النوع من التطبيب هو الشائع في البصرة والموصل وحتى في بغداد ، وأدى مستوى التطبيب الرديء إلى الكثير من الفواجع والمآسي ، أذكر منها :

جاءني ذات يوم كاتب البلدية ، الملا محمد ، وقال : إن ولده خليل عزمي ، مدير ناحية شثاثة ، مريض ، وطلب مني إجازة لجلبه إلى كربلاء للعلاج . وبعد أن عرضه على

---

(١١) واجهت انتخابات المجلس التأسيسي العراقي ، بالرغم من إصرار الإنكليز عليها ، معارضة واسعة ، وذلك لأن العراقيين تخوفوا من أن الغاية من المجلس هو إقرار المعاهدة العراقية البريطانية ، واستقالت وزارة النقيب الثالثة في ٢٦ تشرين الأول ١٩٢٢ لعدم تمكنها من الشروع في انتخابات المجلس التأسيسي . ثم عقد هذا المجلس أخيرًا جلسته الأولى في ٢٧ آذار ١٩٢٤ تحت الكثير من الضغط السياسي .

(١٢) وزار الأمير زيد أيضًا الموصل ليربح الرأي العام الكردي ولتنظيم العشائر للدفاع عن السهول في غرب الموصل ضد الأطماع الفرنسية .

[Selected letters of Miss Bell p:270 (Pelican Books. A225]

مرزا أبو القاسم ، وصف لولده أن يأكل كل يوم عشرين بيضة ، وأن يركب بعدها حصانًا شرسًا لمدة ساعة من الزمن للقضاء على مرضه . وقال الملا محمد : إن ولده مصاب بحمى عالية وهو الآن طريح الفراش لا يتمكن من الحركة . نصحته أن يأخذ ابنه إلى بغداد ، وإدخاله المستشفى حالاً هناك . رجع معافى بعد عشرة أيام ، بعد أن تبين أنه مصاب بالملاريا . وسمعت أيضًا عن ممارسات غريبة لمتطبب آخر من النجف ، وذهبت شخصيًا إلى محله ووقفت خلف الباب للتأكد مما سمعته عنه . رأيته جالسًا وفوق رأسه قفص معلق به ببغاء . تقدم المريض إليه وجس نبضه وحدق ، وإذا بالببغاء يصيح : «مرزا . . . مرزا . . . كباب . . . كباب» ثم قال المرزا لمريضه اذهب وكل كبابًا . وأتى مريض آخر وأمسك يجس نبضه ، وإذا بالببغاء يصيح : «مرزا . . . مرزا . . . ورد لسان الثور» ، ولمريض آخر «دبس . . . دبس» ، وهكذا اعتمد التشخيص والعلاج على ما يقوله الببغاء ، فمن غير العجيب أن يلاقي أكثر المرضى حتفهم من جراء جهلهم وجهل المتطببين .

ولذا ، بذلت جهدًا لترميم مستشفى كربلاء الذي شيدته الدولة العثمانية ، والذي كان قد انهار نتيجة الفيضان الكبير زمن الحرب . وبعد إكماله انتدبت الوزارة الدكتور فائق شاكر السامرائي(١٣) ليكون أول طبيب ومدير له .

أعمال أخرى في كربلاء

قمت بإصلاح طريق كربلاء - المسيب ، وأقمت القناطر فوق ترع البساتين فأصبح الطريق صالحًا لمرور السيارات . وعملت أيضًا على إيصال الماء إلى النجف الأشرف ، ولم أوفق في ذلك لارتفاع مستوى البلدة عن مستوى الفرات ، ولوجود رمال كثيرة قرب مجرى النهر . وتمكنت من تطهير نهر الحيدرية حتى جرت المياه فيه ، ووجهت وزارة الداخلية شكرًا لي تقديرًا لهذا العمل في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٣ . وفي مدينة كربلاء ، تمكنت من إزالة الخلاف والنزاع في انتخابات البلدية بعد أن أشرفت عليها بنفسي ، وظهرت النتائج وفقاً لما أرادته الجماعة الوطنية في اللواء كما حسمت الخلاف بين المسعود وفرقة غرير لتحديد دية القتيل بألف ومائتين روبية .

(١٣) الدكتور فائق شاكر : ١٨٩١ إلى ١٩٦٢ تخرج في كلية الطب في إسطنبول مع المجموعة الأولى من الأطباء العراقيين . تقلد وظائف إدارية مهمة متعددة ليس لها علاقة باختصاصه كأمين للعاصمة ومدير للبرق والبريد ، وكانت تلك موضع تعليقات طريفة منه .

مرزا أبو القاسم ، وصف لولده أن يأكل كل يوم عشرين بيضة ، وأن يركب بعدها حصانًا شرسًا لمدة ساعة من الزمن للقضاء على مرضه . وقال الملا محمد : إن ولده مصاب بحمى عالية وهو الآن طريح الفراش لا يتمكن من الحركة . نصحته أن يأخذ ابنه إلى بغداد ، وإدخاله المستشفى حالاً هناك . رجع معافى بعد عشرة أيام ، بعد أن تبين أنه مصاب بالملاريا . وسمعت أيضًا عن ممارسات غريبة لمتطبب آخر من النجف ، وذهبت شخصيًا إلى محله ووقفت خلف الباب للتأكد مما سمعته عنه . رأيته جالسًا وفوق رأسه قفص معلق به ببغاء . تقدم المريض إليه وجس نبضه وحدق ، وإذا بالببغاء يصيح : «مرزا . . . مرزا . . . كباب . . . كباب» ثم قال المرزا لمريضه اذهب وكل كبابًا . وأتى مريض آخر وأمسك يجس نبضه ، وإذا بالبغاء يصيح : «مرزا . . . مرزا . . . ورد لسان الثور» ، ولمريض آخر «دبس . . . دبس» ، وهكذا اعتمد التشخيص والعلاج على ما يقوله الببغاء ، فمن غير العجيب أن يلاقي أكثر المرضى حتفهم من جراء جهلهم وجهل المتطببين .

ولذا ، بذلت جهدًا لترميم مستشفى كربلاء الذي شيدته الدولة العثمانية ، والذي كان قد انهار نتيجة الفيضان الكبير زمن الحرب . وبعد إكماله انتدبت الوزارة الدكتور فائق شاكر السامرائي(١٣) ليكون أول طبيب ومدير له .

أعمال أخرى في كربلاء

قمت بإصلاح طريق كربلاء - المسيب ، وأقمت القناطر فوق ترع البساتين فأصبح الطريق صالحًا لمرور السيارات . وعملت أيضًا على إيصال الماء إلى النجف الأشرف ، ولم أوفق في ذلك لارتفاع مستوى البلدة عن مستوى الفرات ، ولوجود رمال كثيرة قرب مجرى النهر . وتمكنت من تطهير نهر الحيدرية حتى جرت المياه فيه ، ووجهت وزارة الداخلية شكرًا لي تقديرًا لهذا العمل في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٣ . وفي مدينة كربلاء ، تمكنت من إزالة الخلاف والنزاع في انتخابات البلدية بعد أن أشرفت عليها بنفسي ، وظهرت النتائج وفقاً لما أرادته الجماعة الوطنية في اللواء كما حسمت الخلاف بين المسعود وفرقة غرير لتحديد دية القتيل بألف ومائتين روبية .

(١٣) الدكتور فائق شاكر : ١٨٩١ إلى ١٩٦٢ تخرج في كلية الطب في إسطنبول مع المجموعة الأولى من الأطباء العراقيين . تقلد وظائف إدارية مهمة متعددة ليس لها علاقة باختصاصه كأمينٍ للعاصمة ومديرٍ للبرق والبريد ، وكانت تلك موضع تعليقات طريفة منه .

الفصل الثامن عشر
متصرفًا للمنتفك

التوتر وعدم الاستقرار في الناصرية

صدرت الإرادة الملكية في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٣ بتعييني متصرفًا للواء المنتفك . وكان مؤلفا من أقضية سوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر . تسلمت الإدارة من المتصرف ، عبد الرحمن كاظم ، قائم مقام السماوة وكان قد تسلمها من الوكيل ، رؤوف الكبيسي ، قائم مقام سوق الشيوخ ، والذي كان قد تسلمها بدوره من ياسين الهاشمي(١) ، المتصرف السابق . وصلت الناصرية(٢) وستقبلني (الميجور يتس)(٣) ، مستشار اللواء ، مع وكيل المتصرف والموظفين والرؤساء . وما إن جلست في غرفتي في المتصرفية بالسراي حتى سلمني الوكيل مفتاح الشفرة واستأذن بالسفر إلى السماوة . طلبت منه التريث حتى خروج المستقبلين لكي يشرح لي أمور اللواء المهمة ؛ فأبدى أعذارًا واهية دلت على عدم رغبته في التعاون معي .

---

(١) ياسين الهاشمي (١٨٨٤ - ١٩٣٧) ، قائد عسكري عراقي بارز في العهد العثماني . انتمى إلى حكومة فيصل في الشام وتولى رئاسة ديوان مجلس الشورى سنة ١٩١٨ ، أبعده القائد البريطاني من دمشق في ٢ تشرين الثاني ١٩١٩ واعتقله في اللد لمدة ستة أشهر ، ثم رجع إلى الشام بعد مطالبة الجماهير بإعادته . وسمح له بالقدوم إلى العراق بعد شهر من ارتقاء فيصل عرش العراق . تولى عدة مناصب وزارية ، وألف وزارتين الأخيرة سنة ١٩٣٥ التي أطاح بها انقلاب بكر صدقي . توفي بعد سنة وهو في الشام ودفن في مقبرة صلاح الدين الأيوبي .

(٢) الناصرية : مدينة تقع على الضفة الغربية للفرات مركز لواء المنتفك (ذي قار) حاليًا ، سميت على اسم ناصر بن راشد السعدون وبنيت بتشجيع من الوالي مدحة باشا ١٨٦٩ في محاولته لتوطين القبائل .

(٣) الميجور يتس (Major L. M. Yetts) : الحاكم السياسي البريطاني للناصرية في نيسان سنة ١٩٢١ ، يتكلم العربية بطلاقة .

توضحت لدي من اليوم الأول حالة عدم الاستقرار في اللواء بعد أن نكلت به غارات للطائرات الإنكليزية المتوالية لمدة ثلاثة أشهر، على أثر الخلاف بين المتصرف ياسين الهاشمي والمستشار (الميجور يتس). وكان القسم الأكبر من رؤساء العشائر موالين للإنكليز، والقلة منهم تميل إلى الهاشمي، ونتج عن ذلك بلبلة واضطراب وانشقاق بين السكان.

تعرض الهاشمي لاعتداءات شخصية واعتادت عشائر (الازيرج) و(الغزي) و(الحسينيات) التي تحيط بالناصرية أن تشتمه علنًا وتطلب منه ترك اللواء، فاضطر إلى ترك الناصرية ليلاً بعد أن وكل رؤوف الكبيسي. وبعد مغادرته قصفت الطائرات الإنكليزية قلاع ومواقع الرؤساء الموالين للهاشمي والمعادين للإنكليز كعشيرة (بني زيد) ورئيسها سليمان شريف، وعشيرة (المغشغش)، وقلعة السيد عبد المهدي. واستمرت حالة التوتر لمدة شهرين اعتقل أثناءها الكثير من رؤساء العشائر وأودعوا سجن الناصرية.

مشكلات مع المستشار الإنكليزي

بعد مغادرة المتصرف الهاشمي، استمر الخلاف بين وكيله رؤوف الكبيسي والمستشار (الميجور يتس)، سحبت وزارة الداخلية على أثره الكبيسي إلى بغداد وعينت محله عبد الرحمن كاظم، قائم مقام السماوة، لكن الوضع العام استمر في التأزم.

وقد سبق لي وأنا متصرف بكربلاء، أن كلفتني وزارة الداخلية بالذهاب إلى الناصرية للتحقيق في الخلاف بين الكبيسي و(يتس)، ورفضت هذا التكليف لعدم رغبتي في الدخول في تصفية نزاع طرفه الأول بريطاني والثاني عراقي تربطني به محبة وعلاقة منذ الصغر.

وعند بداية عملي، وجدت أن (الميجور يتس) ومعاونه (الكابتن كجن) قد سيطرا على الناصرية. كان الأول يزورني كل يوم ويطيل الجلوس معي لمدة ساعتين أو أكثر للحديث عن مشكلاته، وبعد الأخذ والرد لا نتوصل إلى نتيجة. ثم يعقبه (كجن) ليأخذ مني ساعة أخرى ليبحث موضوعًا آخر ثم يخرج من عندي من غير الوصول إلى نتيجة أيضًا. وانزعجت كثيرًا من هذه الزيارات التي كانت تؤخر أعمالي وتعرقل مصالح الناس، وينتهي الدوام وأنا متعب منهوك القوى، غير قادر على إيجاد وقت للاطلاع على القضايا المهمة.

وكنت متألمًا لبقاء رؤساء العشائر ، ضحايا قصف الطائرات ، في السجن . واقترحت على المستشار إخراجهم و إبقاءهم داخل المدينة إلى حين البت في إطلاق سراحهم ، ورفع هذا الكابوس عن كاهلي والذي كان يؤنب ضميري طوال الوقت . وماطل المستشار كثيرًا للأخذ باقتراحي ولم أتمكن من إقناعه .

زيارة (كورنواليس)

زار الناصرية مستشار وزارة الداخلية بعد شهرين من وجودي فيها . وعند لقائي به كان يصحبه (الميجور يتس) . سررت لهذه الفرصة ، وبينت له استيائي من العراقيل التي يضعها المستشار (يتس) في طريقي وإشغاله لي كل يوم . وبينت له أني تحملت كل ذلك من غير إظهار تذمري لأحد ، حذرًا من أن يؤثر هذا على سير الإدارة في اللواء وقد نفد صبري الآن . قلت لـ(كورنواليس) : «أطلب منكم أن توعزوا إلى وزارة الداخلية بقبول استقالتي وإعفائي من المسؤولية ، وأنا غير راغب في أي منصب آخر لأني أشعر بالخجل أمام نفسي عندما أكون في وضع غير قادر فيه على القيام بواجبي لخدمة الناس» .

رأيت وجه (يتس) يحمر ويصفر وهو يسمع رأيي بصراحة متناهية . أجابني (كورنواليس) : «ما هي القضايا المختلف عليها؟ وما هي الحلول التي تقترحها؟» . أخذت ورقة ودونت عليها عددًا من القضايا والحلول المقترحة لها ، وهي :

أ . قضية سلمان شريف ، رئيس (بني زيد) ، الذي هُدمت قلعته ونهبت أمواله وهو قابع في السجن منذ ثلاثة أشهر . يجب إعادة أمواله وإخلاء سبيله .

ب . قضية فرهود المغشغش وهي مشابهة لقضية سلمان شريف .

ج . قضية السيد نعمة السيد حسين آل مسافر ، الذي نهب خيون العبيد أمواله واغتصب قلعته وأراضيه . يجب إرجاع كل ما أخذ منه وتغريم خيون الخسائر وفقًا لقرار اللجنة المتفق عليها لحسم هذه القضية .

د . قضية (شِنتَ) الذي اغتصبت منه أراضيه وأمواله ، يجب إحالته مع أولاده وأقاربه إلى المحاكم لإعطائهم الفرصة لإثبات حقوقهم حسب الأصول العشائرية .

«هذه هي المشكلات المهمة فإن لم تنجز اعتبروني مستقيلاً منذ اليوم» ، أخذ (كورنواليس) القائمة والحلول المقترحة ووعدني بإعطاء جوابه في اليوم التالي . زارني

بعدها منفردا وقال : «أصدر الأوامر الإدارية حسبما ترتأيه من حلول ، عدا قضية خيون العبيد والتي سنحلها بعد سفرنا إلى الشطرة[٤]» . وأصدرت الأوامر جميعها بحضوره وبلغتها رسميًا لذوي الشأن .

وفي اليوم التالي سافرنا معًا إلى الشطرة ، وبعد حفل الاستقبال أخذني (كورنواليس) إلى غرفة مجاورة ، وقال : «إن خيون العبيد هو صاحبنا وصديقنا ، فهل يمكنك إبدال حلك المقترح بحل غيره؟ لأن ما اقترحته سيحط من كرامته أمام العشائر» . قلت له : «إن هذه القضية قد درست بإسهاب ، وتقرر الحق من قبل هيئة خاصة من الرؤساء الموالين لخيون ، بجانب السيد نعمة ، وإني لا أضمر عداءً شخصيًا ولا كرهًا لخيون» .

عند ذاك نادى على الشيخ خيون ، وقال له : «إن هذا المتصرف لا يضمر لك العداء أبدًا ، وهو يتوخى العدل والحق ويريد تنفيذه ، وما عليك إلا أن تمتثل لأوامره» . تقدم خيون وصافحني شاكرًا ووعد بتنفيذ ما صدر بشأن قضيته .

(شِنتَ) في سوق الشيوخ

زرت سوق الشيوخ[٥] أول مرة بعد مباشرتي باللواء بعشرة أيام وكان بصحبتي (يتس) ومدير الشرطة ، أحمد الراوي ، واستقبلنا الأهلون على مختلف طبقاتهم . وعند جلوسنا في بهو الإدارة ، دخل علينا رجل حاسر الرأس وعقاله في عنقه وانكفأ على قدمي وربط كوفيته بالمنضدة التي أمامي . قال : «أنا داخل عليك وعلى الملك ، أطلب حمايتي من هذا المستشار» . قلت له : «من أنت ؟» قال « أنا شِنتَ» والاسم هو تخفيف لـ (شنو أنت) . قلت له : «لا تخف» وطلبنا من مدير الشرطة حمايته والمحافظة عليه إلى حين انتهاء مراسيم الاستقبال . ولاحظت اصفرار وجه المستشار (يتس) وتركه مجلسنا بعد نصف ساعة بامتعاض ، ثم طلبت من أحمد الراوي أخذ (شِنتَ) إلى الناصرية على أن يبقى في المدينة بكفالة ، وعلى أن لا يمس بسوء إلى حين البت في قضيته . وظهر لنا أن (شِنتَ) هو من عشائر (الحجام) متهم بقتل ناصر الياسر الذي اغتصب أراضيه بإيعاز من الحاج فرهود فندي ، وكان هؤلاء تحت حماية

(٤) الشطرة : مدينة على نهر الغراف ، تبعد ٤٤ كيلومترًا شمال الناصرية .

(٥) سوق الشيوخ : مدينة تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على بعد ٢٥كم جنوب الناصرية .

المستشار الإنكليزي، فجاء (شِنتَ) مسترحمًا للمحافظة على حياته وإرجاع حقوقه المغتصبة.

نظرت المحكمة في دعواه مع أقاربه الكثيرين، وظهر أن العبدة المملوكة من القتيل ناصر الياسر قد قتلت رئيس عشائر (الحجام)، قاصد الناهي، انتقامًا منها لقتله ناصر الياسر. وكان قاصد الناهي معروفًا بكونه خصمًا لقوات الاحتلال. وبعد محاكمة دارت عشرة أيام حسمت هذه القضية بموجب القانون ووفقًا للقواعد العشائرية، وأطلق سراح (شِنتَ) وأعيدت له حقوقه.

مجلس العشائر الدائم

كان في لواء المنتفك مجلس عشائري دائم مؤلف من رؤساء العشائر بخلاف ما هو معروف في الألوية الأخرى، حيث تؤلف هذه المجالس بصورة دقيقة ولكل قضية على انفراد.

كان المجلس في الناصرية دائميًا لا يعزل، وهو مؤلف من خمسة رؤساء هم: منشد الحبيب رئيس عشائر(الغزي)، ونايف رئيس (المحسن)، وسيد عبد الحسين رئيس (الحصونة)، وكاطع البطي رئيس (الازيرج)، وفرحان الظاهر رئيس (الحسينيات). وقد خصص لكل من أعضاء المجلس راتب شهري قدره خمسمائة روبية.

ولاحظت عند انعقاد أول جلسة أن أعضاءه لا يتوصلون إلى حكم قبل أن يطلعوا على رأيي، وكانوا يريدون التأكد من معرفتي بقواعد العشائر. وفي مرة طلبت منهم رأيًا في قضية مطروحة للبحث فأبدى أحدهم مقترحًا وأيده الباقون. قلت لهم: «وما رأيكم لو يكون الحكم بهذه الصورة؟ وأن لا يطبق عليها الأصول العشائرية؟» أجابوا: بأن ذلك أفضل وأيدوا قرار حكمي. ومنذ ذلك الحين أخذ أعضاء المجلس يتبنون آرائي بسرعة كلما أردنا أن نقر شيئًا، وأصبح المتخاصمون يتطلعون إلى حكمي في كل قضية، ويلحون في بعض الأحيان أن أحكم بينهم بنفسي وعدم عرضها على المجلس. وعلمت بعد ذلك أن أعضاء المجلس قد اعتادوا قبول الهدايا والرشاوى من الخصوم قبل إصدار حكمهم.

كلمت المستشار (يتس) عن أعضاء المجلس ومخصصاتهم، وقال: «اقطع رواتبهم ولا حاجة لبقائهم». شعرت من قوله هذا أنه أراد توريطي معهم، وجعلهم يبتعدون عني ليميلوا إليه، ولكي يعملوا تحت سيطرته كما حدث ذلك في زمن سلفي ياسين الهاشمي.

أخرت أولاً رواتب الأعضاء لمدة ثمانية أيام فلم يعترضوا . لكن المستشار اعترض وتساءل : «لِمَ لم تقطع الرواتب مرة واحدة؟» وأجبته : بأني سأفكر في الأمر . وفي الشهر الثاني أخرت الرواتب مرة أخرى ثمانية أيام . ولم يعترضوا أيضًا ، واستفدت من هذا التأخير في التعرف على الأعضاء ومجاملتهم فأخذوا يميلون إلى جانبي شيئًا فشيئًا . . . وعند تسلمهم الراتب الثالث ، قالوا لي : إن المستشار قد أخبرهم بأني أنوي قطع راتبهم ، وأكدوا لي رفضهم لأن يكونوا لعبة بيد المستشار ، وأقسموا أمامي على الموافقة على أي راتب أخصصه لهم . فاقترحت أن ندفع لهم نصف المخصصات الشهرية المعتادة ، وأجابوني بلسان واحد بأنهم راضون وشاكرون ، وأقنعت الحكومة بالموافقة فأصبحت مخصصاتهم مائتين وخمسين روبية شهريا فقط .

التخلص من المستشار

بعد كلامي مع (كورنواليس) ورجوعه إلى بغداد ، أصدر أمرًا بفصل (الميجور يتس) من وظيفته وإجازة (الكابتن كجن) خارج العراق ، وعين (المستر نتلدل) مستشارًا للمنتفك ، وكان هذا صريحًا طيب القلب .

الشيخ حمودة المزيعل

كان رئيس (المجرة) ، حمودة المزيعل ، قد تأخر عن تأدية ديونه لخزينة اللواء وقدرها ستون ألف روبية ، فألقيَ في السجن . واستنجد ببدر راشد السعدون ، أحد شيوخ المنتفك ، لكي يكفله وليخرج من السجن لمدة شهر واحد ليسدد ديونه . وعند خروجه ، استمر في المماطلة لمدة طويلة ، فاضطرت الحكومة إلى مضايقة الكفيل ، فطلب الشيخ بدر إعفاءه من التزاماته والقبض على المدين . أعطيت الأوامر إلى الشرطة لتعقب الشيخ حمودة ، وعندما وصلوا محل إقامته ، أخذ يحرض رجال عشيرته على مقاومة الشرطة ، غير أنه لم يوفق وقبض عليه مرة أخرى وأُعيد إلى السجن ، واستوفت الحكومة ديونها منه .

أعمال متفرقة في المنتفك

كانت سدة أبو جوافة تنهار كل سنة وقت الفيضان فتغمر المياه مدينة الناصرية وما حولها حتى مدينة الشطرة ، وقد يبلغ ارتفاع مستواها إلى خمسة أمتار ، فقمت

بتحسين هذه السدة وتمكنا من الحفاظ على أراضي الـواء من الغرق ، واطمأن الناس لذلك . وكذلك عملت على تنظيم ميزانيات دوائر لبلديات في الناصرية وسوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر ، وفقاً لما تتطلبه الحاجة بعد أن كانت عشوائية ، وأصبحت البلديات تعمل حسب خطط مالية محددة وجدية .[٦]

مديراً عاماً للداخلية

تبلغت بأمر نقلي من متصرفية المنتفك إلى مديرية الإدارة العامة في وزارة الداخلية بالكتاب المرقم ٣١٢٩ ، وسلمت اللواء إلى خلفي علي جودة الأيوبي في ٣١ مايس ١٩٢٣ ، وزاولت العمل في منصبي الجديد في اليوم التالي . تضمن عملي إعطاء المشورة للوزير ، وكان آنذاك عبد المحسن السعدون ، في الأمور التي يطلبها ، وفي القضايا الأخرى التي قد تحال علي . استقالت وزارة السعدون الأولى وحلت محلها وزارة جعفر العسكري[٧] الأولى في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، والتي أصدرت الإرادة الملكية المرقمة ٥٣٤ بتعييني متصرفاً للموصل .

وفي هذه المدة الوجيزة تمكنت من فض النزاعات المتأصلة بين عشائر (الصياح) و(العبيد) و(العزة) في لواء كركوك . وكان قد طلب الوزير مني عدم الانفكاك من وظيفتي قبل الانتهاء منها .

كذلك عملت في لجنة خاصة مع معاون مستشار الوزارة (المستر لويد) وسكرتير الوزارة ، عبد العزيز مظفر ، لتنظيم انتخابات الموظفين الإداريين حسب كتاب الوزارة المرقم ١١٠٠٥ في ٥ حزيران ١٩٢٣ . ووصلني كتاب شكر من وزارة الداخلية في ٦ كانون الثاني ١٩٢٤ عما قمت به كمدير عام في الوزارة .

---

(٦) للاطلاع على عشائر المنتفك يرجى الرجوع الى ص ٢٩٧ (الملحق رقم ٤) .

(٧) جعفر العسكري ١٨٨٤ - ١٩٣٦ تولى رئاسة الوزارة مرتين ومناصب وزارية متعددة ، أبلى بلاءً حسناً في ثورة الشريف حسين وشارك قبلها في حرب طرابلس الغرب ووقع في الأسر . كان حسن السيرة ويعد من أهم قادة الجيش العراقي . شرع بتأسيس الجيش العراقي في كانون الثاني ١٩٢١ عندما كان وزيراً للدفاع في وزارة عبد الرحمن الكيلاني الأولى . استصدر إرادة ملكية بتثبيت رتب الضباط العراقيين وخفض رتبته العسكرية من فريق إلى عميد (زعيم) لتتماشى مع رتب الضباط المسرحين من الجيش العثماني . وكان يجيد ثمان لغات .

الفصل التاسع عشر
متصرفًا في الموصل ومشكلة ضم الموصل إلى العراق

التعرف على اللواء

توجهت إلى الموصل بقطار المساء في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٤ وبرفقتي ولدي عبد المجيد وطباخي مبروك . وعند وصولي (الصيرمون)[١] وجدت الكثير من وجهاء الموصل ومدراء دوائرها الرسمية وموظفيها في انتظاري والترحيب بي . شكرتهم جميعًا وصافحتهم واحدًا واحدًا ومررت بدائرة الحكومة لمدة قصيرة ، ثم ذهبت إلى الدار المخصصة لسكناي ، وهي دار الشربتي التي كان يسكنها سلفي جعفر باشا العسكري .

لم أجد في هذه الدار غير غرفة واحدة صالحة للسكن . أما الغرف العديدة الأخرى فلا تصلح للاستعمال وشبابيكها وأبوابها مهشمة لا تقينا من برد الشتاء . حُرمت تلك الليلة من النوم حتى الصباح وأصبت بعد ذلك بنزلة صدرية شديدة ، فطلبت من رئيس البلدية التفتيش عن دار غيرها فوجد دارًا صغيرة مناسبة انتقلنا إليها حالاً .

التقسيم الإداري للواء الموصل

كان اللواء يشتمل عل تسعة أقضية هي : زاخو ، دهوك ، العمادية ، عقرة ، الزيبار ، تل عفر ، سنجار ، الشيخان والموصل مركز اللواء . وكانت هناك عشر نواح ملحقة بالمركز مباشرة هي : حمام العليل ، الشورة ، الشرقاط ، تلكيف ، القوش ، برطلة ، بعشيقة ، قره قوش والحميدات . ولم يكن هناك قائم مقام خاص لهذه

---

(١) قرية بين الموصل وحمام العليل على مسافة ١٠كيلومترات من الموصل ، تقع على مرتفع يطل على نهر دجلة .

النواحي في المركز أو معاون للمتصرف يكون مسؤولاً عن الأمور الإدارية فيها .
وبدأت بواجباتي متوكلاً على الله تعالى .

مسؤوليات كبيرة

استغرقت خدمتي في لواء الموصل سنتين ونصفً من ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٤ وحتى حزيران ١٩٢٦ ، عندما أصبحت وزيرًا للداخلية للمرة الأولى . كانت مهامي في هذا اللواء الكبير في حقبة حرجة من تأريخ العراق الحديث ، تطلبت مني عملاً يوميًا دؤوبًا ، يبدأ من الصباح الباكر وينتهي بعد منتصف الليل . وانحصرت معظم أعمالي في مشكلة ضم الموصل إلى العراق التي تولتها عصبة الأمم ، فأرسلت من أجلها لجنة أممية للاستفتاء ولإجراء مسح عام للتوزيع السكاني والعرقي والديني برئاسة (أي . أف . فرسن)(٢) في ٢٦ كانون الثاني ١٩٢٥ ، وأوفدت كذلك مندوب بريطانيا لعصبة الأمم (ليوبولد ستنت أيمري)(٣) ، وزير المستعمرات ، ومعه (صموئيل هور)(٤) ، وزير الطيران ، في ١٦ آذار ١٩٢٥ ثم لجنة أخرى لتعين الحدود بين تركيا والعراق برئاسة (جوهان ليدونر)(٥) في ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٥ .

وإضافة الى هذا العمل المرهق مع الشخصيات العالمية البارزة ، أعضاء هذه اللجان

---

(٢) أي . أف . فرسن A.F. Wirsen : دبلوماسي من السويد ، انتخب رئيسًا للجنة الأممية لأن بلده لم يدخل الحرب . ولم يكن شخصية فعالة في اللجنة كزميليه الآخرين ، يتكلم الفرنسية والقليل من الإنكليزية .

(٣) ليوبولد أيمري Leopold Stent Amery : وزير المستعمرات ومندوب بريطانيا في عصبة الأمم ، اقترح على الملك فيصل في وقت لاحق إرسال ابنه غازي للدراسة في لندن سنة ١٩٢٦ والدخول إلى مدرسة أيتون وهارو وأشرف عليه هناك .

(٤) صموئيل هور Samuel Hoar : وزير الطيران . أراد بزيارته مع أيمري ، السيطرة على الجيش العراقي وتعيين ضباط بريطانيين له ليمارسوا السلطة التنفيذية حتى مستوى آمر سرية ، وإلغاء منصب رئيس أركان الجيش العراقي وإبداله بمنصب وكيل للقائد العام البريطاني .

[مذكرات طه الهشمي . دار الطليعة بيروت ص٨٧]

(٥) جوهان ليدونر General Johan Laidoner: من أستونيا ، رئيس لجنة عصبة الأمم الخاصة بترسيم الحدود بين العراق وتركيا .

والتعاون معها ، تمكنت من القيام بأعمال كثيرة أخرى .

زيارة الملك فيصل

تشرفت الموصل بزيارة جلالة الملك في ١٣ كانون الأول ١٩٢٤ يرافقه الشيخ إبراهيم الحيدري ، وزير الأوقاف ، وصبيح نشأة(٦) ، وزير المواصلات والأشغال ، و(كورنواليس) ، مستشار الداخلية ، ورستم حيدر(٧) ، سكرتيره الخاص . واستقبلته وفود عديدة من الوجوه والأعيان ومختاري المحلات ، من الموصل وما جاورها .

وبهذه المناسبة ، أقمتُ مأدبة كبرى في دائرة الحكومة دعوت لها أشراف الموصل ورؤساءها الروحانيين ، ومدراء الدوائر الرسمية والجالية الإنكليزية . وعند الانتهاء من تناول العشاء ، ألقيت خطابًا رحبت به بزيارة الملك شرحت فيه حالة الموصل الإدارية والسياسية ، وهذا نص الخطاب :

«لقد ساعدني الحظ أن أحرز الشرف بمساعدة جلالة سيدنا المعظم ؛ فأعرض على مسامعكم أيها السادة الكرام بأني لست بالخطيب البارع لأظهر ما يخالج ضميري من السرور العظيم لتلبيتكم دعوتي هذه ، والتي أعددتها على شرف جلالة سيدنا الملك المعظم . وأشكر لكم عواطفكم الكريمة وأتمنى لصاحب الجلالة طول العمر والسعادة والتوفيق إلى كل ما فيه خير .

ويا صاحب الجلالة ، يسرني اجتماعكم هذه الليلة بوجوه ورؤساء روحانيين وأعيان ورؤساء موظفي مدينتنا الموصل العزيزة ، وهاهي الوجوه مستبشرة بمشاهدة ملك

---

(٦) صبيح نشأة : ١٨٨٣-١٩٢٩ خريج كلية الأركان في إسطنبول ، شارك في حروب البلقان وأصبح من كبار ضباط الجيش الرابع في سوريا . أصبح وزيرًا للمواصلات والأشغال ١٩٢٢ ثم وزيرًا للدفاع والمالية . ملم بعدة لغات . ترأس الوفد العراقي إلى مؤتمر العقير لرسم الحدود مع نجد ، وهو الذي اقترح منطقة الحياد (البقلاوة) بين البلدين . توفي وهو سفير لبلاده في أنقرة في ١٩ تموز ١٩٢٩ وهو في سن السادسة والأربعين من عمره .

(٧) رستم حيدر : ١٨٨٩-١٩٤٠ من مواليد بعلبك بلبنان ، شخصية سورية معروفة بالذكاء والكفاية والاستقامة ، خريج السوربون . صاحب الملك فيصل إلى العراق وعمل سكرتيرًا له ، ثم أصبح أول رئيس للديوان الملكي وبقي في منصبه تسع سنوات . قام باغتياله في مكتبه الرسمي صباح ١٨ كانون الثاني ١٩٤٠ مفوض شرطة مفصول يدعى حسين فوزي توفيق .

بلادها وحامي عزها . ثم إني طمعًا بلطف جلالتكم أود أن أعرض على سيدي المعظم نبذة عن أحوال اللواء بعد أن مضت سنة كاملة على تشريفكم له بزيارتكم ، وإن كانت أحوال الإدارة العمومية غير خافية على جلالة الملك . إن الأمن في البلاد مستتب . وإني غير منقطع عن تفقد شؤون الأهلين كلما سنحت لي الفرصة ، فأجدهم آمنين مطمئنين . وإن الإحصاء الرسمي يثبت قلة الجرائم الشهرية بالرغم من جسامة اللواء . أما ما كان من الاضطرابات الأخيرة التي حدثت في الحدود الشمالية فقد زالت ولله الحمد بهمة القوات الوطنية والمساعدة البريطانية ، وإن كان قد لحق بسكان القرى في الحدود من جراء ذلك بعض الأضرار من قبل الأتراك ، لاسيما الملة النسطورية التي اضطرت إلى الالتجاء إلى داخل البلاد ، فذلك سيمحى أثره في القريب . وإن ما بذلته شرطة هذا اللواء من الشجاعة والثبات لجدير بالتقدير . وقد أسسنا المخافر اللازمة لصيانة الحدود في النقاط الأمامية من منطقتي زاخو والعمادية .

أما الحالة المالية فإنها جيدة جدًا ، والتحصيلات سائرة سيرًا حسنًا لم يطرأ عليها أي خلل حتى أثناء الاضطرابات الأخيرة ، ومما يذكر بكل فخر وسرور أني وجدت في زيارتي الأخيرة اثني عشر ألف روبية في صندوق زاخو ، واثنين وعشرين ألف روبية في صندوق دهوك ، وعلاوة على ذلك كله كانت التحصيلات مستمرة رغم الاضطرابات بصورة تستوجب الارتياح . ولا أجد أسطع دليل على ذلك من إطاعة الأهالي ودعائهم لحكومة جلالة الملك المعظم . تبلغ الواردات العمومية لهذا اللواء اثنين وثلاثين لكًا وخمسة وسبعين ألف روبية . أما المصاريف العمومية فتبلغ واحدًا وثلاثين لكًا واثنين وعشرين ألف روبية ، هذا عدا المخصصات الشهرية للجيش العراقي الموجود في الموصل ، فيظهر من هذه الإحصاءات أن الواردات قليلة بالنسبة للنفقات .

أما الزراعة فقد كانت في السنة المالية السابقة غير جيدة حيث اعترتها الآفات المتنوعة كالجراد وحشرة السونة والأركيجة . ونظرًا للعلائم الظاهرية نؤمل تحسن حالتها في السنة الحالية ، لاسيما وقد تأسست دائرة للزراعة وباشرت في اتخاذ التدابير اللازمة . وقد توزع القسم الأعظم من السلفة الزراعية التي أمرتم بتوزيعها على الزراع المحتاجين ، وكلهم ألسنة شكر وامتنان لحكومة جلالتكم . وقد شاطرهم هذا الشكر الملتزمون المدينون من الأموال السابقة لما أوليتموهم من العفو عما في ذمتهم ، البالغ قدره ثلاثة ألكاك روبية .

أما حالة المعارف في اللواء فإنها جيدة جدًا وآخذة في التقدم والرقي . وإن عدد

المدارس بلغ خمسًا وسبعين مدرسة ، منها ثلاثون مدرسة في مركز اللواء . وأما عدد التلاميذ فهو حوالي سبعة آلاف تلميذ ، ألفان وثلاثمائة من هذا العدد إناث . وقد أثر سير التدريس في المدارس تأثيرًا محسوسًا ، حيث أن العشائر القاطنة خارج حدودنا شرعت بمراجعتنا مطالبةً بفتح مدارس لأبنائها .

إن دائرة الصحة باذله جهودها في خدمتها الإنسانية ، وإن حسن سيرها وعنايتها بالمرضى أوجبت توافد المرضى من أنحاء ولاية ديار بكر وسائر الأقطار الخارجية .

أما دائرة البلدية فإنها لا تقل سهرًا على مصالحها عن الدوائر الأخرى . وقد بدأت في الصيف الماضي بإسالة مشاريع الماء ومدت الأنابيب اللازمة إلى ألف وثمانمائة بيت ، ولم تزل باذلة جهودها في تكميله . وكذلك في تسوية الطرق وتنظيمها .

هذا والأمل وطيد بنهضة لوائنا وتقدمه . أسأله تعالى أن يجعله سعيدًا ومطمئنًا في ظل جلالة سيدنا المحبوب» .

مكث الملك فيصل الأول ثمانية أيام غادر بعدها إلى أربيل ، وكان لزيارته أثر حسن في نفوس أهالي اللواء ورجاله .

الرأي العام في الموصل

كان لزيارة الملك أثر إيجابي في الرأي العام ، وشجعت المترددين والمتخوفين لإبداء رأيهم بشجاعة ، والاستعداد لزيارة اللجنة الأممية والاستفتاء العام المنتظر . وتعهد الكثير بالجهاد في سبيل عروبة اللواء ، فقاموا بتنظيم مضابط ومذكرات لتقديمها إلى اللجنة تنادي بإبقاء الموصل ضمن عراق موحد ، وتشجب المحاولات لتتريك اللواء . وكان في مقدمة هؤلاء السادة : مصطفى الصابونجي ، وحبيب أفندي العبيدي ، وعبد الغني أفندي النقيب ، وأمين بك الجليلي .

وما إن غادر جلالة الملك ، وقرب موعد وصول اللجنة ، حتى بدت جذوة الحماسة عند البعض منهم تخمد تدريجيًا أو تختفي ، الأمر الذي اضطرني إلى استدعاء الوجهاء ورؤساء الكتل السياسية ورجال الدين والتجار ، كل مجموعة على حدة لأذكرهم بوعودهم ، ولأشجعهم على إبداء رأيهم بصراحة . ومن الذين دعوتهم السادة : أمين أفندي المفتي ، ومحمد علي فاضل أفندي ، وضياء آل شريف بك ، وسعد الله توحلة وغيرهم . ولمست أن التردد باد عند البعض منهم ، وربما كان ذلك

راجعًا إلى عدم اطمئنانهم لنتيجة الاستفتاء وشكوكهم فيه ، أو تخوفهم من العناصر التركية في المدينة أو لأسباب أخرى . ولاحظت أن كل واحد منهم كان لا يرغب في أن يكون هو البادئ في إبداء رأيه ، مفضلاً أن يدع غيره يتقدم عليه . وعانينا الكثير من تردد الوجوه والرؤساء ، مما حدا بنا إلى التوجه إلى المهنيين وأفراد الشعب حيث حققنا نجاحًا كبيرًا .

وأغرب ما أذكره في هذا الباب ، ما صرح لي به أحدهم من أنه هو وكثيرون غيره لا يريدون حل مشكلة الموصل حلاً جذريًا ، لأن ذلك سيؤدي إلى الاستقرار وهذا يضر بمصالحهم الخاصة . والشخص الذي قال هذا الكلام ، هو نفسه الذي هرب من بغداد في وقت لاحق ، وهو عضو بمجلس الأعيان عندما عرضت المعاهدة العراقية - البريطانية على المجلس ، فلم يشأ أن يصوت بالرفض أو الموافقة .

لاحظنا أن المذكرات التي قدمها الوجوه والتجار والعلماء قد تضمنت التأكيد على عروبة اللواء ، إلا أنها أهملت نصًا مهمًا هو شجب مطالب الحكومة التركية في الموصل ، ما عدا مذكرة حزب الاستقلال التي تضمنت النصين معًا : شجب مزاعم الأتراك ، والتمسك بعروبة اللواء والوحدة العراقية .

ومما يجب الإشارة إليه أن أمين بك الجليلي ، وأحمد الفخري ، وناظم العمري ، وعلي الإمام ، وأرشد العمري ، وهبة الله المفتي ، والبطريك يوسف عمانوئيل توما(٨) ، والمطران كريكور ، وضياء آل شريف بك ، من المستقلين . وآصف قاسم آغا ، وسعيد ثابت ، وإبراهيم عطار باشي ، ومحمد صدقي المحامي ، وشريف قاسم الصابونجي ، والدكتور جميل دلالي ، وعبد الله رفعت العمري ، وصلاح الدين الخطيب ، من حزب الاستقلال . وفتح الله سرسم ، ورؤوف اللوس ، والدكتور عبد الأحد عبد النور ، الذين كانوا جميعهم من المتحمسين لعروبة الموصل ممن سيسجل لهم تاريخ العراق صفحة ناصعة البياض .

جمعية لتعبئة الرأي العام

اجتمع في ٢٥ كانون الثاني ١٩٢٥ الرؤساء الأعيان ، وقرروا تشكيل لجنة للدفاع

(٨) كتب اسمه يوسف غنيمة في (من ذكرياتي) وصححه كاتب المذكرات بخطه وأبدله بيوسف عمانوئيل توما .

عن عروبة الموصل ، انتخبت من بينها خمسة عشر شخصًا ليكونوا أعضاء في هيئتها التنظيمية ، وهم السادة : أحمد الفخري ، وحبيب العبيدي ، ومصطفى الصابونجي ، وأمين الجليلي ، وفتح الله سرسم ، وآصف قاسم آغا ، وعبد الغني النقيب ، وناظم العمري ، والدكتور عبد الأحد عبد النور ، وأرشد العمري ، وإبراهيم كمال ، ورشيد العمري ، والمحامي محمد صدقي ، وعلي الإمام وضياء شريف . وشكلت اللجنة فروعًا لها في الأقضية والنواحي المهمة واستفدنا كثيرًا من جهودها .

تهيئة المعلومات إلى لجنة عصبة الأمم

قمنا بتهيئة الجداول الإحصائية التي طلبتها اللجنة لتقديمها عند وصولها ، وهي :

١ . إحصائيات نفوس اللواء لسنة ١٩٢٤ ، وتفاصيل عن العناصر والأديان من عرب وأكراد ونساطرة وتركمان ويزيدية ويهود وكوجر[٩] .

٢ . تفاصيل عن العشائر الكردية القاطنة على حدود اللواء .

٣ . أعداد وأسماء اللاجئين إلى العراق وجنسياتهم ومراكز إقامتهم .

٤ . مقدار الحاصلات الزراعية والمصدر منها إلى بغداد لسنة ١٩٢٣ و١٩٢٤ .

٥ . جدول بأسماء النواحي والقرى .

٦ . عدد المعابد والمسقفات ، وقوائم بأسماء وأرباب الحرف والصنائع في كل قضاء وناحية في الموصل .

٧ . قوائم بأسماء الأشراف والأعيان المعروفين في الأقضية من المسلمين وغيرهم .

٨ . قوائم بأسماء الموظفين المدنيين مع بيان جنسياتهم وأديانهم .

٩ . قوائم بأسماء التجار مع نوع تجارتهم ومقدار ثروتهم بصورة تقريبية .

١٠ . جدول بأسماء المستشفيات والمستوصفات .

أعضاء لجنة عصبة الأمم

قرر مجلس عصبة الأمم في ٣٠ أيلول ١٩٢٤ تأليف لجنة للتحقيق في مشكلة الموصل ، والخلاف القائم بين الحكومة العراقية والتركية حول ضمها ، والتي أصبحت موضع اهتمام عالمي بعد أن عجزت الحكومتان عن حلها .

---

(٩) الكوجر : الأكراد الرحل الذين يعيشون في خيم من شعر الماعز .

أنتخب (أي . أف . فرسن) سفير أسوج (السويد) في بوخارست رئيسًا لها ، و(الكونت بول تلكي)[١٠] الهنغاري ، رئيس وزراء مجرستان (المجر) ، و(الكولونيل أي بولص)[١١] البلجيكي ، أعضاء فيها ، مع أربعة سكرتاريين هم (كونت دي بورتاليس)[١٢] السويسري ، و(السنيور رودولو)[١٣] الإيطالي ، و(المسيو كادير) الفرنسي ، و(المسيو ريد) السويسري .

وصلت اللجنة إلى بغداد في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٥ وكانت موضع حفاوة العراقيين حكومة وشعبًا .

التحق باللجنة المستشرق الهولندي (كريمر) كمترجم . وكان يرافق اللجنة الخبراء الأتراك ، وهم : جواد باشا ، المفتش العام للجيش التركي في منطقة الجزيرة[١٤] ، ومعه ناظم النفطجي من كركوك ، وفتاح بك من السليمانية[١٥] ، وهو نسيب الشيخ محمود ، والرائد كامل بك من الموصل[١٦] ، والملازم بدري بك كمرافق . وعُين للجنة

(١٠) الكونت بول تلكي Count Paul Teleki : رئيس وزراء هنغاريا ١٩٢١ و١٩٣٩ عُرف باهتماماته بالجغرافيا البشرية والعنصرية . عمل ضد الثورة الشيوعية في بلاده في زمن (بلا كون) Bela Kun ١٩١٩ . انتحر سنة ١٩٤١ عندما اجتاحت القوات الهتلرية بلاده ، يحسن التكلم بالإنكليزية . لعب دورًا فعالاً في أعمال اللجنة الأممية وكان موضع شكوك . اسمه يشبه اسم ثعلب بالتركية .

(١١) الكونونيل أي بولص Colonel A.Paulos : خبير اقتصادي من بلجيكا وله خبرة طويلة في الإدارة والتجارة في الكونغو . لا يتكلم الإنكليزية .

(١٢) الكونت هـ . دي بورتاليس Count Horace De Portalis : من سويسرا ، درس في إنكلترا وخدم في القوات الخيالة في بروسيا . ويتكلم الإنكليزية بطلاقة .

(١٣) السنيور رودولو Signor Roddolo : وزير مفوض من إيطاليا ، يمثل بلاده في عصبة الأمم . لا يتكلم الإنكليزية .

(١٤) الجنرال جواد باشا : كان من ضمن القواد الأتراك الذين اعتقلهم الحلفاء ونفوا إلى مالطة . رشح لأن يكون قائدًا عامًا للقوات التركية إذا ما نشب قتال مع العراق .

(١٥) ناظم النفطجي وكاظم بك : اعترض العراق على وجودهم ضمن الوفد التركي لأنهم عراقيون اتهموا سابقًا بتنظيم مؤامرات ، وصدر أمر باعتقال ناظم فهرب الاثنان وهم يرجعون إلى العراق الآن بحصانة دبلوماسية . احتج الأتراك بأنهم من لواء الموصل الذي لا يزال موضوع بحث .

(١٦) كامل بك : رائد عسكري من الموصل كفء وله خبرة واسعة بالمنطقة الكردية .

خبير بريطاني هو (المستر جاردين)[١٧] باعتباره مطلعًا على ما جرى في المفاوضات السابقة مع (سير برسي كوكس) في مايس السابق في الأستانة ، وعين صبيح نشأة ممثلاً وخبيرًا عن الحكومة العراقية ، كما التحق باللجنة (الميجور أدموندس)[١٨] مستشار وزارة الداخلية كضابط ارتباط .

وبعد استراحة ستة أيام في بغداد وصلت اللجنة إلى الموصل في ٢٧ كانون الثاني ١٩٢٥ .

العثور على مكاتيب سرية من تركيا

أرسلت مكاتيب سرية متعددة تحرض سكان اللواء ضد العراق ، تجد نصها في الصفحة ٢٩٣ (الملحق رقم ٣) .

يوميات اللجنة الأممية

سافرت إلى محطة الشرقاط للقاء اللجنة الأممية مع (المستر لويد) ، المستشار الإداري ، وآصف قاسم آغا نيابة عن حزب الاستقلال في الموصل ، وجميل فخري عن المجلس البلدي ، وقاسم الصابونجي عن الأشراف والتجار . ووصلت اللجنة في الوقت المعين واستقبلناها كما ينبغي ، وعندما سلمت على الخبير التركي جواد باشا سألني قائلاً «أنت فلان؟» أجبته «نعم» ، وشعرت من سؤاله أنه استفسر عني قبل وصوله .

ركب أعضاء اللجنة والمستقبلون سياراتهم وكنت في المقدمة مع (المستر لويد) . وفي الموصل حل الزوار في دار الضيافة التي كانت مخصصة للملك ، وأخذ كل منهم يرتب حوائجه وذهبت أنا إلى دائرتي للقيام بأعمالي اليومية .

وبعد الانتهاء ، رجعت إلى دار الضيافة ماشيًا ، وصادف أن رافقني يونان

---

(١٧) جاردين R. F. Jardine : مساعد المستشار الإداري في الموصل منذ عام ١٩١٩ ، له دراسات خاصة عن مشاكل الحدود في الموصل . انتُدب مع بيرسي كوكس للتفاوض في إسطنبول في ١٩ مايس ١٩٢٤ مع خبير الحكومة العراقية صبيح نشأة .

(١٨) ادموندس C. J. Edmonds : مستشار وزارة الداخلية ١٩٣٥-١٩٤٥ مؤلف كتاب Kurds, Turks and Arabs (Oxford) University Press 1957 .

أفندي ، محرر جريدة الموصل . وعند وصولنا الثكنة العسكرية ، شاهدت عن كثب جماعة من الأهلين يربو عددهم على الخمسين يحيطون بجواد باشا وهو ببزته العسكرية ومعه (الكونت تلكي) ويهتفون بالتركية : «تحيا تركيا ، يحيا القائد الكبير» . استغربت من ذلك ، وأخذت أسرع الخطى حتى وصلت القصر ، ورأيت في البهو ، تحسين علي ، مدير شرطة اللواء وخبراء الوفد العراقي ، (ادموندس) وصبيح نشأة ، وأخبرتهم بما رأيت ، وعجبوا من ذلك ، حيث أنهم لم يشاهدوا الخبيرين يتركان القصر ، كذلك لم يعلم بذلك رجال الأمن . ذهب مدير الشرطة مع أحد الخبراء لمرافقة جواد باشا و(الكونت تلكي) لتفادي حدوث اعتداء عليهم ، وبقوا معهم عند مرورهم بشارع السراي وباب الطوب والسوق حتى رأس الجسر الجديد ، ثم رجوعهم عن طريق نينوى ودائرة الشرطة والمعارف والسراي ووصولهم القصر عند مغيب الشمس .

رأيت (الكونت تلكي) بعد عودته يكلم صبيح نشأة محتجًا على مضايقة الشرطة لهم ، قلت له : «إننا نتخوف من وقوع حوادث لا تحمد عقباها» . وقام الخبير (جاردين) بنقل ما دار بيننا إلى رئيس اللجنة وأعضائها الآخرين .

وفي ٢٨ كانون الثاني ، تجمهر أمام القصر أعداد كثيرة من طلاب المدارس وهم يهتفون بأعلى صوتهم بحياة العراق وعروبة الموصل . وعند محاولة أعضاء اللجنة الخروج أحاطت بهم الجماهير فلم يجدوا مجالاً للسير ورجعوا إلى القصر .

وفي يوم ٢٩ كانون الثاني ، تجمهر الكثير من الطلبة والأهالي مرة أخرى أمام القصر وهي تهتف للعراق ، فلم يتمكن أعضاء اللجنة من الخروج أيضًا أو شق طريقهم بين الناس .

زرت القصر بعد الظهر بصحبة المستشار الإداري ،شرحت لأعضاء اللجنة عن خطورة خروجهم من دون علم رجال الشرطة وما يمكن أن يؤدي ذلك إلى المخاطر ، وبصورة خاصة خروج جواد باشا بملابسه العسكرية . فالمدينة هائجة والحماسة على أشدها . وبعد أخذ ورد ومداولة طويلة ، رفضت اللجنة الأممية مقترحاتنا ، وأرسل رئيسها كتابًا شديد اللهجة ، يتضمن ما يلي :

١ . أن يكون للخبير التركي ورفاقه الحرية التامة للتجوال في أي وقت يشاءون وإلى أي محل يريدون .

٢ . أن يتم ذلك بلا حرس ظاهري وعلى الحكومة المحافظة على الأمن من غير أن

يشعر الأهالي بذلك .

٣ . أن تمنع الاجتماعات والدعايات ، وبالخاصة ضد الوفد التركي .

٤ . تطلب اللجنة من جواد باشا عدم الظهور ببزته العسكرية إلا في الحفلات الرسمية .

وختم الكتاب بأن اللجنة الأممية سوف لن تتمكن من الاستمرار في الاستفتاء إذا لم تنفذ الإدارة المحلية طلباتها .

أخبرت وزارة الداخلية بهذا الكتاب وطلبت منها الإجابة عليه بسرعة .

وفي ٣١ كانون الثاني ، وبناءً على طلب اللجنة ، عين هذا اليوم لمقابلة الوجوه والعلماء في المجموعات التالية ، وهيأت لكل منها وقتًا خاصًا ومترجمًا :

١- أعضاء المجلس الإداري والبلدي

٢- أعضاء جمعية الدفاع عن الموصل

٣- أعضاء الحزب الوطني وحزب الاستقلال

٤- العلماء والرؤساء والروحانيون

٥- الأشراف والتجار

٦- الأطباء والمحامون

خطب رئيس اللجنة فيهم جميعًا ، طالبًا منهم عدم القيام بالمظاهرات لتفادي عرقلة مسيرة الاستفتاء . كما ألقى (المونسينور) البطريرك يوسف عمانوئيل توما ، خطبة بليغة بالفرنسية أشاد فيها بعروبة الموصل ، وتعرض بها إلى مشكلة الحدود الشمالية . ثم أخذت الهيئات تقابل اللجنة الواحدة تلو الأخرى .

وفي اليوم الأول من شباط ، تجول أعضاء اللجنة مع فريق من السكرتارية في أنحاء الموصل ، ولم يصحبهم الخبير التركي وزملاؤه ، ولم يزعجهم أحد . وانطلقت المظاهرات الوطنية الحماسية بعد الظهر ترفرف فوقها الأعلام العربية ، حملها المتظاهرون بسواعدهم وحملوها على صدورهم .

زارت اللجنة ذلك اليوم بطريرك الكلدان ، يوسف عمانوئيل توما ، والقاصد الرسولي والآباء الدومنيكان وبعض المحامين والأطباء . استمرت هذه الزيارات ثلاث ساعات وكانت نتيجتها جيدة جدًا .

وفي ٢ شباط ، زارت اللجنة دار المتصرفية وسألتنا عن قضايا مختلفة ، منها : التجارة في البلاد ، وطريقة إدارة الملح ، وسير الاكلاك في دجلة ، وأحوال عشائر شمر

وتجوالها في العراق .

وقلت لأعضاء اللجنة : إننا سمعنا من الذوات الذين قابلوهم بأنهم سألوا فيما إذا كانوا يفضلون الحكم التركي أو الإنكليزي . والواقع أن السؤال يجب أن يكون الخيار بين الحكم التركي والعراقي ، حيث إن الإنكليز هم حلفاؤنا لا غير . وأجابوا بأنهم لم يوجهوا أسئلة كهذه ، ولربما كان سبب هذا الانطباع هو غلط في تعبير المترجم . وأكدت مرة أخرى أن لا تتكرر هذه الأسئلة من غير توضيح حقوق العرب في البلاد ، كما رجوت منهم بأن لا يوحوا إلى من يستجوبونهم بأن اللجنة غير مرتاحة من الإدارة المحلية ، وأن يتفادوا هذه الملاحظات في تقاريرهم أيضًا . واعتذروا منا وأكدوا أنه لم يصدر منهم شيئ من ذلك .

تركت اللجنة دار المتصرفية وزارت دار البلدية وتجولت في الأسواق والمحلات التجارية والجامع الكبير وأخذوا صورًا له . ثم زارت دار فيضي النقيب وأنطوان زبوني والنقيب السيد عبد الغني ودار الكمارك . وتجولت بعد الظهر في أزقة الموصل ودخلت بعض البيوت ، كما أعطى أفرادها بطاقات زيارة لبعض الناس وطلبوا مقابلتهم .

وفي ٥ شباط ، أرسلت اللجنة بطاقات دعوة لبعض وجهاء البلد ، ومنهم : سعد الله توحلة ، وأمين المفتي ، ومصطفى جلبي الصابونجي ، وحسن كشمولة ، وأحمد الصافي .

وخرجت مظاهرة شعبية كبيرة بعد ظهر هذا اليوم في شوارع المدينة مرة أخرى .

وفي ٦ شباط ، زار (الكونت بورتالس) دائرة الطيران ، وزار (الكونت تلكي) نجيب الجادر ، ومصطفى الصابونجي ، ومحمد النجفي ، وقابلوا عند رجوعهم إلى القصر بعض الشخصيات منهم : داود الدباغ ، ومحمد داود القطان ، ومحمد أحمد القطان ، وناظم العمري ، وضياء آل عبد الرحمن ، وحبيب العبيدي ، وأحمد الفخري ، وأرشد العمري ، وعلي الإمام ، وآصف قاسم آغا ، وفتح الله سرسم ، وستة عشر شخصًا آخرين .

وفي ٧ شباط ، زار (أي . أف . فرسن) رئيس اللجنة ، و(الكونت تكلي) ، محمد النجفي وسرما خانم ، عمة مار شمعون ، ومصطفى علي ، وأحمد الصافي كلاك ، وداود الدباغ ، وتوفيق الأحمد ، وصالح السلطان ، وأحمد الخضر ، وعزيز جندرمة ، ومحي عبد الرزاق ، ومحمود العلي ، وحسون العلي ، وعلي عبد الرحمن ، وفي المساء زار (الكونت تلكي) الوكالة الأمريكية .

وفي ٨ شباط ، غادر فتاح بك وبذري بك ، رفاق جواد باشا ، القصر بسيارة مغلقة إلى محل حسو إخوان ومن هناك زاروا دار محمد النجفي . وعند خروجهم منها

أهانهم أشخاص وطنيون كانوا واقفين خارج الدار ، وتجمهر الناس حولهم فاضطر الأتراك إلى الرجوع إلى القصر .

وفي مساء ذلك اليوم ، نشب نزاع أمام دار النجفي بينه وبين إبراهيم كمال[19] بحضور جمع غفير من الناس ، وأصيب إبراهيم بجرح بسيط بكتفه ، وألقت الشرطة القبض على كليهما ، ثم أطلق سراحهما بتوسط أعيان من البلد . شاهد (أي . أف . فرسن) و(الكونت تلكي) هذا النزاع والسب والشتم ، والذي كان سببه دفاع إبراهيم كمال عن عروبة الموصل وتحمس محمد النجفي لتتريكها . كما شاهدا تصرفات الشرطة في هذا النزاع باهتمام كبير .

وفي ٩ شباط ، تجمهر متظاهرون حول فتاح بك فاضطر إلى اللجوء إلى حمام الصالحية ، ولم يتمكن من الخروج منه حتى وصلت ثلة من رجال الشرطة .

وصول المندوب السامي

علمنا في ٨ شباط ١٩٢٥ أن (السير هنري دوبس)[20] المندوب السامي ، قد توجه بالطائرة إلى الموصل . وكانت الأحوال الجوية رديئة جدًا والبرد قارسًا ، وطلبنا من بغداد إرجاعها ، فأجابت أن الطائرة قد اجتازت تكريت وأصبح إرجاعها غير ممكن الآن .

انتظرنا في المطار ، ولاقت الطائرة صعوبة في الهبوط لكثافة الغيوم وتساقط الثلوج ، وأطلقت قنابل كشافة صفراء وهبطت الطائرة هبوطًا اضطراريًا فغرزت بثلوج سمكها أربعة أقدام . أخذت الطائرة تتأرجح ، فأسرع الجنود نحوها وصعد إليها

(١٩) إبراهيم كمال : ١٨٩٥-١٩٤٧ ضابط احتياط في الجيش التركي وهو من الموصل ، التحق بالثورة في الحجاز وعمل مع الملك فيصل في الشام ، تقلد عدة مناصب منها رئاسة الديوان الملكي وعدة وزارات . كان من أنصار نوري السعيد وجعفر العسكري ، ثم انضم إلى ياسين الهاشمي .

(٢٠) هنري دوبس Sir Henry Dobbs : المندوب السامي البريطاني في العراق ١٩٢٣-١٩٢٩حل محل (بيرسي كوكس) وهو أصلب منه عودًا . متخصص في الشؤون المالية والقانونية . أتعب الملك فيصل لتصلبه بآرائه الاستعمارية . في عهده خفضت مدة المعاهدة العراقية البريطانية من عشرين سنة إلى أربع سنوات . أُنهيت خدماته لعدم رضى الملك عن تقاريره التي كان يرسلها إلى لندن ، متهمًا الملك بالتدخل في السياسة الداخلية .

[عبد الرزاق الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ج/٢ ص : ٢٢٢ الطبعة السابعة]

بعضهم فوق البعض حتى وصلوا إلى بابها ، وأنزلوا المدوب السامي وكان الدم ينزف من وجهه ومن يديه ، وأخذناه إلى دار قريبة لإسعافه . وزودناه هناك بأخبار اللجنة الأممية بصورة مفصلة ، ثم ذهب بعد ذلك إلى مقر اللجنة ولم يرجع إلينا إلا بعد الساعة الحادية عشرة مساء .

عاد (هنري دوبس) بعد ثلاثة أيام إلى بغداد بعد أن أخبرنا بقرار اللجنة بتقسيم المناطق بين أعضائها .

أسلوب الاستفتاء

اختلفت أراء أعضاء اللجنة في البداية عن كيفية الاستفتاء في الألوية الشمالية ، وأخيرًا أعلن رئيسها فجأة في ٨ شباط عن تقسيم اللجنة إلى ثلاثة أقسام ، يتوجه كلٌ منهما إلى أحد الألوية : أربيل وكركوك والسليمانية ، ويبقى قسم آخر في الموصل لتتبع النتائج .

ذهب (الكونت تلكي) إلى منطقة أربيل ، و(الكولونيل باولس) إلى كركوك والسليمانية ، وبقي الرئيس(دي فرسن) في الموصل مع القائد التركي جواد باشا والمستشار(جاردين) .

واقترح(الكونت تلكي) أن تسحب الحاميات العسكرية من مناطق الاستفتاء قبل القيام به . وظهر أن الاقتراح هذا ليس عمليا ، فلا يمكن تجريد المناطق الشمالية من الحاميات العسكرية في أي حال من الأحوال .

كلفتني وزارة الداخلية بكتابها السري في ٤ شباط رقم س ٣٣١ أن أتصل بصورة مستمرة بمتصرفي كركوك وأربيل ، لإرشادهما إلى كيفية التصرف مع أعضاء اللجنة ، ولأزودهما بالمعلومات التي أحصل عليها .

ثم علمت أن اللجنة تجولت في مدينة أربيل وبين عشائر(الخشناو) ، وذهبت على الرغم من شدة البرد إلى راوندوز[٢١] ، وتجول أعضاؤها في مدينة كركوك ، واجتمعوا في سراي (التون كبري)[٢٢] . كانوا يسألون كل فرد عن عرقه ودينه وعمله ، وعن

---

(٢١) راوندوز : ومعناها بالكردية (القبائل العشرة) قضاء يقع شمال مضيق (كلي علي بك) بين جبال سلسلة كيورك . على بعد ١٧٠كم شمال غرب أربيل .

(٢٢) التون كبري : ومعناه (الجسر الذهبي) . مدينة على الزاب الصغير جنوب أربيل .

أحوال البيع والشراء وطرق المواصلات ، ويسألونه أخيرًا أن يعبر عن رأيه بحرية إن كان يعطي صوته إلى تركيا أو العراق . وبالرغم من أن أكثر سكان (التون كبري) هم من التركمان ، صوت اثنان فقط من كل خمسة إلى الأتراك . وزارت اللجنة (كفري) وجبل (حمرين) و(قره تبة)[٢٣] وعشائر(زنكنة) و(الداووده) و(طوزخرماتو) وعشائر (البيات) و(العبيد) .

وفي ١٧ شباط ، سافرت اللجنة إلى السليمانية وكان (المستر جابمن) وكيلاً للمتصرف هناك . تقدم إلى اللجنة ثلاثة من أعيان اللواء ، هم : أحمد بك ، وشيخ قادر(شقيق الشيخ محمود الحفيد) ، وحمه آغا العبد الرحمن ، وطالب جميعهم بالحكم العراقي . وكذلك أبدى المواطنون الآخرون في السليمانية بكل حرية انتماءهم للعراق .

وقامت اللجنة بالاستيضاح من خمسة وعشرين شخصًا من أهالي نواحي الشرقاط[٢٤] والشورة وحمام العليل والحميدات ، وطالب غالبيتهم بالانتماء للعراق ، وفضل ثمانية فقط تركيا . كما قابلت اللجنة رؤساء (اليزيدية) في قرية باعذرة ، ثم قضوا ليلتهم في دير السيدة في القوش ومن هناك سافروا إلى زاخو[٢٥] .

وفي ٢ آذار ، اندلعت ثورة في الولايات الشرقية من تركيا[٢٦] ، واعتدت القوات التركية على قرى الآثوريين شمال زاخو والعمادية فردتهم القوة الجوية على أعقابها ، ثم أُعلنتْ الإدارة العرفية في قضاءي زاخو والعمادية[٢٧] لمدة مؤقتة .

---

(٢٣) كفري ، وقره تبة وسلسلة جبال حمرين : تقع جميعها جنوب مدينة كركوك .

(٢٤) مدينة الشرقاط : هي مدينة آشور عاصمة مملكة الآشوريين . وتقع مع الشورة على دجلة جنوب الموصل .

(٢٥) باعذرة ، والقوش ، وزاخو : تقع جميعها شمال الموصل . ويقع قضاء زاخو على نهر الفيشخابور على الحدود العراقية التركية .

(٢٦) اندلعت ثورة كردية بين (تبليس) و(دياربكر) شمال خط بروكسل ، قادها الشيخ سعيد شيخ الطريقة النقشبندية ، غايتها تأسيس دولة كردية عاصمتها ديار بكر . وقمع الجيش التركي هذه الثورة وحوكم الشيخ سعيد مع زعماء آخرين وحكم عليهم بالإعدام .

(٢٧) العمادية : مدينة بناها عماد الدين الزنكي . تقع على قمة جبل قرب الحدود التركية في أقصى الشمال الشرقي للعراق .

وفي ٨ آذار ، التقى أعضاء اللجة مرة أخرى في الموصل وعاودوا الاستفتاء فيها .

وفي ١١ آذار ، قابلت اللجنة إدريس كشمولة ، ويونس سيالة ، وعبد الباقي حمو ، وخمسة وعشرين شخصًا آخرين صوتوا جميعهم للعراق . وبصورة عامة كانت الأصوات المضادة لا تتجاوز الثمانية بالمائة فقط .

زارت اللجنة بعد ذلك بعشيقة وقضاء الشيخان ونواحي برطلة وكرمليس وقره قوش وتل أسقف[(٢٨)] وصوت الجميع للعراق .

وفي مساء اليوم نفسه ، زار جواد باشا ومرافقه الضابط بدري بك بيت قاسم آغا آل داوود آغا في باب البيض ، وبقوا هناك نصف ساعة ، وتظاهر أمامهم مئتا شخص ضد العراق . وفي صباح اليوم التالي ، رفع بعضهم علمين تركيين على مئذنتي النبي شيت وجامع شهر سوق . والكل كان يعلم أن آل كشمولة وآل النجفي واكاه افندي وأمين أغا وقاسم أغا وباقي الأغوات لم يكونوا إلى جانب الوحدة العراقية والحكم العربي .

وفي ١٢ آذار ، استمعت اللجنة إلى أربعة وثمانين شخصًا في الموصل ، ثمانون منهم صوتوا للعراق .

وفي ١٣ آذار ، طلبت اللجنة مقابلة المنتخبين الثانويين للمجلس التأسيسي العراقي . حضر أمامها ثلاثة وثلاثون صوتوا جميعهم للعراق إلا سبعة .

وفي ١٤ آذار ، استدعت اللجنة الأحياء ممن شغلوا منصب عضوية المجلس البلدي بين سنتي ١٩٠٥ و١٩٢٤ ، وصوت ثلاثة منهم فقط إلى تركيا . وقابلت في اليوم نفسه السادة : سليم النقشبندي وإبراهيم الرومي وسلمان الجليلي وصلاح الدين الخطيب .

وفي ١٥ آذار ١٩٢٥ ، جرى استعراض للجيش العراقي بمناسبة إهداء العلم في الساحة أمام مقر الحكومة والثكنة العسكرية ، حضره رئيس اللجنة ومرت أمامه مسيرة سلمية ضخمة .

وفي ١٦ آذار ، غادرت اللجنة إلى قضاء سنجار[(٢٩)] واجتمعت هناك بالرؤساء

---

(٢٨) تل اسقف ، وتل كيف ، وقرة قوش ، وبعشيقة والشيخان : قرى زراعية شمال شرق الموصل .

(٢٩) سنجار : قضاء على سفح جبل سنجار مركز الطائفة اليزيدية ، على بعد ١٢٦ كيلومترًا غرب الموصل .

اليزيديين ، وصوتوا كلهم للعراق ماعدا خمسة منهم ، قالوا : «نحن مع من يحكم الموصل لأن أشغالنا معها» . رجعت اللجنة من سنجار إلى تلعفر[٣٠] وتجمع الأهالي حولها وهم يهتفون للأتراك ، ويتهافتون على يديّ الخبير التركي جواد باشا ، يقبلونها . واجتمع الأغوات والمتنفذون في الجامع قرب القلعة تحت إشراف مندوبي جمعية الدفاع ، السادة : آصف قاسم آغا ، وجميل الفخري ، وعبد الله آل رئيس العلماء . وفيما كان العالم محمد سعيد يلقي خطابا أمام اللجنة ، قام السيد مطلب آغا ابن السيد وهيب آغا التلعفري بغتة وهتف بحياة تركيا بأعلى صوته ، فانحل الاجتماع . ثم عقد الاجتماع ثانيةً في دار البلدية حيث صوت أهالي تلعفر للاتراك . ورجعت اللجنة بعد ذلك إلى الموصل .

وفي ١٨ آذار ، زارت اللجنة قضاء زاخو وقابلت الشيوخ والوجهاء ورؤساء الطائفة المسيحية ، وذهبت إلى الكويات والقرى المجاورة . وتجول جواد باشا مع سكرتيره يوسف كمال ووزع مبالغ من المال ، لكن أكثر الأصوات كانت للعراق . ومن زاخو ، ذهبت اللجنة إلى دهوك فوصلوها الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتجمع الناس هناك أمام قصر الضيافة ، وأخذت اللجنة تستوضح الآراء منهم فردًا فردًا ، وطلب قسم من عشيرة (الدوسكي) و(البريفكان) الحكم التركي . وتقدمت إلى اللجنة وفود من قضاء العمادية صوتت جميعها إلى العراق باستثناء ثمانية أشخاص ، ثم غادرت اللجنة إلى قضاء عقرة حيث صوت أكثر من قابلتهم إلى جانب العراق ، مؤكدين ارتباطهم به ماعدا أربعة أشخاص ، هم : الشيخ عبد الله السورجي وولده مظهر وأخوه شفيق وخادمه . ثم سافرت اللجنة إلى (العشائر السبعة) وقرية (بردة رش) وكانت الآراء إلى جانب العراق .

وفي ٢٠ آذار ، استجوبت اللجنة بعض العلماء وأئمة المساجد في الموصل وأصحاب الأراضي في القرى المجاورة ، كما قابلت رئيس عشائر شمر الشيخ عجيل الياور .

وفي٢٢ آذار ، غادرت اللجنة الأممية الموصل إلى بغداد عن طريق تلعفر وسنجار ، وخرجت مع المستشار(المستر لوبد) لتوديعها عند أراضي البديع ، وأقام الشيخ عجيل الياور حفلة شاي لها .

---

(٣٠) تلعفر أو (تل عفر) : قضاء يبعد ٧٠ كيلومترًا غرب الموصل .

رأي (ادموندس) في الاستفتاء

ذكر(مستر ادموندس) في كتابه (كرد وترك وعرب) أن أكثرية سكان الألوية الشمالية الشرقية ، وهي اربيل وكركوك والسليمانية ، هم من الأكراد ، وأن رؤساء الدوائر الحكومية فيها هم في الغالب من الأكراد أيضًا . ويقول إن رأي سكان هذه المناطق أثناء الاستفتاء كان منحازًا إلى العراق لأسباب كثيرة ، أهمها أن علاقات هذه الألوية الاقتصادية هي أكثر ارتباطًا بالألوية العراقية الأخرى منها بتركيا . وفي هذا شيء كبير من الحقيقة ، لأن معاش السكان وموارد أرزاقهم وحياتهم مرتبطة بالمدن العراقية الأخرى ، التي يتبادلون معها منتجاتهم التجارية والزراعية والحيوانية . وهذا هو السبب الظاهري ، وربما كانت هناك أسباب أخرى خفية ، قد تتمثل في رغبة الأكراد وتطلعاتهم للانضمام إلى دولة العراق الفتية التي قد تساعدهم على رفع مستواهم الاقتصادي والثقافي والاجتماعي ، وقد تنقذهم مما عانوه من تأخر في العهد العثماني القديم ، حيث لم يصبهم تحت ظله سوى التأخر والحرمان . وربما كانت هناك أسباب خفية في ذهن المتطرفين من الأكراد المتحمسين لتحقيق أهداف قومية أبعد من ذلك .

اللجنة الأممية تقدم تقريرها

قدمت اللجنة عند انتهائها من مهمتها تقريرًا مفصلاً إلى مجلس عصبة الأمم . وفي نهاية هذا التقرير ، لفتت أنظار المجلس إلى ثلاث نقاط مهمة اقترحتها على العراق لاتباعها والاهتمام بها لضمان الحرية والسعادة للمواطنين ، وهي :

١ . تأمين الأمن داخل البلاد .

٢ . حماية حقوق الأقليات غير المسلمة .

٣ . تنظيم سياسته الاقتصادية والتجارية . وقامت الحكومة بتأمين هذه النقاط بعد صدور قرار مجلس عصبة الأمم مباشرةً ، كما منحت عفوًا عامًا عن جميع من قام بأعمال مخالفة للقوانين أثناء الاستفتاء .

عصبة الأمم تبحث الحدود بين العراق وتركيا

بحث مجلس عصبة الأمم إيفاد رجل محايد إلى الموصل للتحقيق في خط الحدود بين تركيا والعراق ، والتأكد من وضع اللاجئين المسيحيين في منطقة

(الكريان) ، وأخذ انطباعات أهل المنطقة عن قرار عصبة الأمم عن الحدود . ووقع اختيار المجلس في ٩ تشرين الأول ١٩٢٥ على الجنرال الاستواني (ليدونر) للتحقيق موقعيًا من خط (بروكسل) ، الذي يعين الحدود الفاصلة بين البلدين ، وأعطت له حرية العمل جنوب هذا الخط[٣١] ، إضافة إلى التحقيق في المناوشات التي وقعت قرب الحدود . وانتخب المجلس لمعاونته العقيد (رودولف باك) الجيكوسلوفاكي ، و(أيد اورتيكا) الدبوماسي الأسباني ، و(هـ . ماركوس) كسكرتير لـ(ليدونر) ، و(أي . شارير) كسكرتير خاص للجنة .

وصل الجميع إلى الموصل في ٣٠ تشرين الأول واحتفينا بهم ، وباشروا بأعمالهم على الحدود قرب زاخو .

خط (بروكسل)

أقر مجلس عصبة الأمم خط (بروكسل) كخط فاصل بين العراق وتركيا ، ويبتدئ هذا الخط من نقطة اتصال نهر (الخابور) بنهر دجلة شمال (فيشخابور) ، ويمتد من هناك إلى نهر (الهيزل) فالحدود الشمالية من عشائر (السندي) و(الكلي) إلى جبل (بلاكيش) حتى جبل (اشونا) ، ثم يأخذ بالانحدار إلى جنوب (جل) حيث يمر على الحدود الشمالية لنواحي (نيوره) و(ريكان) فحدود (مزوري بالا) فنهر (روباري حاجي بك) عند الحدود الإيرانية حيث هذا الخط .

إن القرى الواقعة جنوب خط (بروكسل) ضمن العراق تبدأ من قرية (فيشخابور) إلى الشمال الشرقي من (زاخو) ، ثم تليها القرى الداخلة ضمن ناحية (السليفاني) وكلها واقعة على نهر (الخابور) وهي : (فيشخابور) و(ديره بون) و(قره وول ه) و(قوجان) و(هيت باد) و(باجوكه) و(إبراهيم الخليل) و(دورناق) على ملتقى نهر (الخابور) بنهر (الهيزل) ، ثم تليها القرى الداخلة ضمن ناحية (السندي) وجميعها على نهر (الهيزل) وهي : (هشتانة) ، و(ربكنه كوزان) ، و(هوريس) ، و(بهنونة عتيق) ، و(سينومر) ، و(دشت تخت) ، و(صناط) ، و(دير شيش) . ثم القرى التابعة لناحية (الكلي) وهي : (روس) و(سول) و(نزدور) والمجموع الكلي هو تسع قرى في ناحية (السليفاني) ، وست عشرة قرية في (السندي) وثلاث قرى في (الكلي) .

---

(٣١) رفضت تركيا السماح للتحقيق شمال خط (بروكسل) .

أما من جهة (سنجار) فإن آخر قرية عائدة للعراق هي (بارة) وتقع على الجبل، وآخر قرية على الحدود السورية، هي (الخاتونية)، وآخر مخفر للحكومة التركية على حدود تلعفر، هو مخفر (المصطفاوية).

تجول (الجنرال يوهان ليدونر) في المنطقة وطار فوقها مرتين فاطلع على تفاصيلها. وأكد على أن قتال العشائر بعضها مع البعض الآخر هو شيء اعتيادي شأنه شأن ما يحدث بين القبائل الأخرى(٣٢). واستطاعت اللجنة تثبيت خط الحدود فلم يبق أي مركز تركي جنوب خط (بروكسل). وقد وجدت اللجنة أن هناك ثلاثة آلاف مسيحي أجبرهم الأتراك على ترك أراضيهم فأصبحوا لاجئين في زاخو جنوب الحدود.

غادر الجنرال (ليدونر) وجماعته الموصل بعد شهر واحد بعد أن اكمل مهمته. ثم قدم تقريره إلى مجلس عصبة الأمم فانتهت مشكلة الحدود بصورة كاملة.

حكاية مع الجنرال الأستوني

كان الجنرال (ليدونر) كريم الأخلاق حلو المعشر، ومما أذكر من دماثة خلقه هذه القصة الطريفة التي وقعت أثناء الحفلة التكريمية التي أقمتها على شرفه:

عرف أصدقائي جميعهم بأني لا أقدم المشروبات الكحولية في دعواتي التي أقيمها؛ لأني لا أشرب هذه المحرمات. وقد أقمت ولائم كثيرة لشخصيات أجنبية بارزة كتلك التي أقمتها لـ(مستر ليوبولد ايمري) وزير المستعمرات، ولـ(مستر صاموئيل هور) وزير الطيران، أو التي أقمتها لـ(كورنواليس) مستشار وزارة الداخلية وآخرين غيرهم. كان زواري يتوقعون بأني لا أقدم المشروبات الكحولية فيشربون في بيوتهم قبل حضورهم الوليمة، وكذلك كانت دعوتي للجنرال (ليدونر) خالية من المشروبات. وأراد الصديق تحسين العسكري(٣٣)، مدير شرطة اللواء، أن يزيد في تكريم الرجل فأحضر مشروبًا أخفاه في غرفة (المستر لويد) المفتش الإداري، وأخذ يدعو الضيوف لتبادل الأنخاب هناك. أبدى الجنرال الضيف استغرابه وسأل (المستر لويد) عن سبب الشرب في معزل عن الضيوف الآخرين، فأجابه: بأن صاحب

(٣٢) كان الأتراك يريدون الأخذ بحوادث القتال هذه لمصلحتهم في ترسيم الحدود.

(٣٣) تحسين العسكري: الأخ الأصغر لجعفر العسكري. قاتل قوات الاحتلال الإنكليزية في عربستان. وشغل منصب مدير شرطة في عدة ألوية، ثم تبوأ منصبًا وزاريًا وعدة مناصب دبلوماسية.

الدعوة لا يشرب الكحول ولا يقدمه لمدعويه ، فأراد مدير الشرطة تقديمه لك بهذه الصورة . ورفض الجنرال أن يحتسي الخمرة في وليمة لا يشرب بها صاحبها ، وقال : إنه يحترم العادات والتقاليد ويرفض الشرب تحديًا لها .

أعمال أخرى قمت بها في الموصل

على الرغم من انشغالي المستمر مع لجان عصبة الأمم ومسؤولياتي الكثيرة معها ، تمكنت من القيام بما يلي :

فتحت مدارس جديدة في تلكيف والعمادية وعقرة ودهوك ومدرسة كبيرة في القوش ، بالاستعانة بإعانات الأهلين وواردات دوائر البلدية ، وفتحت مدارس في قرى الشيخ إبراهيم والموالي والشرقاط والشورة وحمام العليل وزمار والعاصي وسميل .

وعملت مع أمين زكي[٣٤] ، مدير معارف الموصل ، على إقناع الطائفة اليزيدية على الموافقة على فتح مدارس لأول مرة في مناطقها لتعليم القراءة والكتابة ، ففتحنا مدارس في عين سفني والشيخان وسنجار ، وأخيرًا في باعذرة نفسها التي هي مركز الطائفة .

وبلطنا طرق مدينة الموصل بسرعة قبل وصول اللجنة الأممية ، وقمنا بتعديل الطريق الجبلي إلى عقرة وجعلناه صالحًا لمرور السيارات . وفتحنا طريقًا جديدًا بين باعذرة وعين سفني التي أصبحت مركزًا لقضاء الشيخان ، وأتممنا ذلك بمساعدة الأهالي . وفتحنا طريقًا من قرية فيشخابور إلى رأس مضيق زاخو ، وجعلناه صالحًا لمرور السيارات ومن غير الاستعانة بوزارة المالية . وقمنا بتصليح طرق وقناطر وتشييد جسور جديدة على طريق الموصل- تلعفر-سنجار ، والموصل-دهوك-زاخو ، والموصل-شرقاط . وتصليح الطريق في موقع (الكولات) إلى مضيق (كرسي) مركز ناحية (الشمال) ، وذلك بمساعدة رئيس الطائفة (خلف الهسكاني) .

وأنشأنا دوائر حكومية في مراكز أقضية سنجار والزيبار وزاخو ونواحي المزوري وشرانش وأصلحنا دائرة الحكومة في العمادية .

---

(٣٤) أمين زكي : مدير معارف الموصل ١٩٢٤ . من رجال التربية البارزين ، كان أول مدير لدار المعلمين ، ومديرًا للثانوية المركزية . عرف باهتماماته الجغرافية وطبعت له بلندن خريطة مهمة للعراق . (كان أمين زكي يتقن الإنكليزية والألمانية والروسية والتركية) .

وقمنا بإنشاء مخافر متعددة على النقاط الحدودية المهمة التي ثبتت حديثًا شمال الموصل ، وبصورة خاصة في قرية بارزان ، ودكاكين عديدة على رأس جسر زاخو ، وخان لإيواء المسافرين والسيارات في عقرة ، وسوق مركزي وخان في تلعفر من واردات البلدية .

قضية محمد النجفي

كان لمحمد النجفي قرى كثيرة في ناحية (قره قوش) ، ومنها قرية كان يملك ثلاث أرباعها وربعها الباقي للفلاحين . وقدم النجفي شكوى على مدير الناحية يتهمه بعدم الاهتمام بإخراج الفلاحين المفسدين (كما يزعم) من قريته . سألت مردان أفندي ، مدير الناحية ، فأجابني : بأن المستمسكات تثبت حق الفلاحين في أرضهم ، وأن ادعاء النجفي هو باطل ، وأن النجفي كان يهدده ويتوعده عن طريق وكلائه ويطالب بنقله والتخلص منه . وأجبته مشجعا بلزوم حفظ حقوق الفلاحين والتمسك بالحق والعدل ، وأن لا يهتم بالتهديد والوعيد . وزاد كلامي هذا من معنويات مدير الناحية فشكرني واستمر بموقفه السليم . ثم جاءني النجفي ، وهو يحمل أوراقًا للطابو ، وقال : إنها تثبت أن له في ناحية (قره قوش) تسعًا وعشرين قرية ملك (طابو) . وقال : «إني سأسجل ربع هذه القرى باسمك باختياري ورغبتي . ولا أطلب مقابل ذلك سوى العدل والحق» . استغربت من كلامه هذا وسألته إن كان هناك تجاوز عليه أو ضرر أصابه من الإداريين في الناحية أو في مركز اللواء ، فأجاب بالنفي ، وقال : «إني أطالب نقل مدير الناحية وترحيل قسم من الفلاحين من قريتي» . أجبته : «إن الفلاحين يملكون الأرض مثلك ويشاركونك فيها ولا مجال للاستجابة لمطالبك . وعليك مراجعة المحاكم لإثبات حقك» . ثم طلبت منه جمع أوراقه والمغادرة لأني لست بحاجة إلى تسجيل قرى باسمي .

وبعد يومين سمعت من المفتش (لويد) أن محمد النجفي قد غادر إلى بغداد آخذًا معه ثلاثة رؤوس خيل ممتازة . ثم ورد لي كتاب من وزارة الداخلية بعد مدة قصيرة يتضمن سؤالاً عن قصة النجفي وأسبابها ، فجمعت الأوراق الخاصة بها وقدمتها بكتاب خاص إلى وزارة الداخلية ، طالبًا أن تنورني عن الطريق القانوني الذي يجب اتباعه لحلها ، ولم يردني جواب .

وعندما تسلمت وزارة الداخلية من وكيلها رئيس الوزراء ، عبد المحسن السعدون ،

بعد أربعة أشهر ، جاءني السعدون بملف وضعه على مكتبي وقال ضاحكًا ما معناه : «ستلاقي الكثير من المشاق مع هذه الأوراق» وانصرف . قلبت الملف وإذا به كل ما يخص قضية النجفي ، وهو خال من أي شرح عليه مدة بقائه في الوزارة وفي عهد وزيرين سابقين .

زرت الملك فيصل زيارة اعتيادية بعد تسلمي منصبي الوزاري بعشرة أيام ، وقال لي ضاحكًا : «يا عبد العزيز ، أرجو أن تخلصني من محمد النجفي وتنهي قضيته المعلقة» . قلت له : «إني سأكلف متصرف الموصل الجديد ، ناجي شوكت[٣٥] ، بحسمها بالطريقة التي يقترحها» ووافق الملك على هذا الحل . ومرت أربعة أشهر حتى وردني كتاب من ناجي شوكت يقول فيه إنه درس الأوراق وحقق فيها ، وكشف موقعيًا على الأملاك بشكل جيد ولا يجد مجالاً لنقض القرار المتخذ من قبلي وهو المطابق للحق والقانون . عرضت هذا الكتاب على جلالته وانتهت القضية .

(٣٥) ناجي شوكت : ١٨٩٤ - ١٩٧٤ سياسي عراقي معروف ، تبوأ عدة مناصب وزارية وألف وزارة واحدة في ٣ تشرين الثاني ١٩٣٢ . كان وزيرًا للدفاع في وزارة الكيلاني الرابعة في ١٢ نيسان ١٩٤١ وحوكم بعدها .

الفصل العشرون
طوائف الموصل

طوائف متعددة

إن الطوائف الموجودة في لواء الموصل كثيرة، فهناك المسلمون والمسيحيون واليهود، وطوائف لها جذور تأريخية عريقة كالتركمان واليزيديين والآثوريين.

التركمان في الموصل

وهم الأتراك من آل سلجوق من بقايا دولة (قره قويـنلي) أي: الخروف الأسود، دخلوا العراق بموجات متتالية، وهم من المسلمين. وانحرف قسم منهم فغالوا في عقائدهم، تكثر فيهم مذاهب متعددة: كالـ (البكتاشية) و(القزلباشية)، ويسكنون تسع قرى في الموصل، ويحترفون الزراعة وتربية الأغنام، ويبلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف نسمة. والبعض الآخر يعرف (بالشبك)[1]، ويسكنون نواحي بعشيقة وقره قوش وأربع عشرة قرية أخرى، ويبلغ عددهم نحو ألفين وستمائة نسمة. والبعض الآخر يسمى (البادوان) أو(البيجوان) ومنهم من يدّعي أنهم من (باجلان)، ومنهم من يقول إنهم من (طي)، غير أن المعروف أنهم أتراك، ويسكنون قرى (بايبوخت)، و(اورتة خراب)، و(تل بارة)، و(إمام فاضل)، و(خرساباد)، و(عمر كان)، و(بعويزة)، ويبلغ عددهم نحو ألف وثلاثمائة وخمسين نسمة. والقسم الآخر من التركمان يدعى (الصارلية) ويسكنون ثماني قرى في ناحية (قره قوش)، ولهم لغة خاصة ويبلغ عددهم نحو مائتين وخمسين نسمة[2].

(١) الشبك: طائفة من التركمان يتكلمون لغة كردية محلية وهم من غلاة الشيعة.

(٢) جاء ذكر هذه الطوائف بصورة مفصلة في كتاب التركمان في العراق لمؤلفه (شاكر صابر الضابط) وفي كتاب تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه الأستاذ (عباس العزاوي) - المجلد الثالث. والتركمان موجودون في ألوية كركوك وأربيل أيضًا.

اليزيديون في الموصل

وهم طائفة كبيرة تبلغ نفوسها ستة وعشرين ألف نسمة ، يقيم معظمهم في جبل سنجار وقضاء الشيخان ، ويسكن قسم آخر في دهوك وزاخو والموصل ، والبعض منهم في حلب وقفقاسيا . ديانتهم الأصلية هي الإسلام ، إلا أنهم أصبحوا أخيرًا لا يمتون إليه بصلة لما دخل على عقيدتهم من غلو .

جاء عنهم في كتاب اليزيدية للأستاذ عبد الرزاق الحسني ، وفي كتاب العراق بين احتلالين ، للأستاذ عباس العزاوي : أنهم طائفة إسلامية ضلت طريقها وخرجت عنه . وقد سميت بـ(العدوية) نسبة إلى الشيخ (عدي بن مسافر) الأموي الهكاري . وسميت أيضًا باليزيدية لغلوهم في حب يزيد بن معاوية . قدم الشيخ عدي إلى العراق من بر الشام وتبعه مريدوه وتوفي سنة ٥٥٧ للهجرة ، ودفن في قرية (ليلش) في عين سفني بقضاء الشيخان ، ومرقده اليوم هو محج لأتباعه .

ولليزيديين عقائد غريبة وعادات شاذة ، فهم يرتضون الشيطان خوفًا منه ، ويلتزمون طقوسًا دينية خاصة . ولهم هيكل يقدسونه ويعظمونه هو (طاووس ملك) ، وهو تمثال لطاووس من البرونز يقدمون له ضريبة سنوية يجبيها رؤساؤهم الروحانيون الدراويش القائمون على أموره . ويضع رئيس الطائفة الأعلى هذا الطاووس في المزاد كل سنة ، ويمنحه إلى من يدفع مالاً أكثر ، فيأخذه هذا متجولاً به مع الدراويش بين المجتمعات اليزيدية في المدن والقرى والأرياف داخل العراق وخارجه ، في سوريا وروسيا وغيرها من الأقطار(٣) .

يشدد الدراويش على أتباعهم أن لا يتعلموا القراءة والكتابة ، وأن لا يدخلوا المدارس إبقاءً لسيطرتهم عليهم . وعملت أثناء إدارتي للواء الموصل على تشجيعهم على دخول المدارس ؛ ففتحت مدرسة خاصة لهم في قرية باعذرة التي هي مقر رئيس

(٣) يقول الدكتور خليل الياس العبدي ، العدد ١٦٤٢ من مجلة ألف باء ، إن الطائفة تعتبر إبليس مخلوقًا دنيويًا مطرودًا معاديًا للجنس البشري والطائفة لا تعبده . و(طاووس ملك) يمثل الملاك جبريل الأمين يحفظ العالم من الشرور ، ويسمى باللغة اليونانية القديمة (أثيوس) ويعني اسم الله . وإن عدي بن مسافر الأموي الهكاري قد أرشدهم إلى تجنب لعنة الشيطان تفاديًا لشروره . وذكر هذا المقال أن نفوس الطائفة اليزيدية تقدر بمليون ونصف منتشرين في العراق وسوريا وتركيا وروسيا وأرمينيا وألمانيا .

الطائفة سعيد بك في موقع مجاور لقلعته . وساعدني في عملي هذا أمين زكي مدير معارف اللواء .

الآثوريون في الموصل

ويدعون أيضًا بـ(التيارية)(٤) وهم من سكان العراق لقدماء ، كان موطنهم (جوله مرك)(٥) شمال قضاء زاخو ، وقد استعان بهم الإنكليز والروس ، على حد سواء ، في حروبهم ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى ، واضطروا إلى مغادرة مناطقهم واللجوء إلى داخل العراق بعد الحرب .

ولم ينس الإنكليز خدمات الآثوريين لهم ، فجمعوا اللاجئين مع أطفالهم ونسائهم وأسكنوهم منطقة ديالى في أواسط العراق ، وضمنوا لهم الأمان ورغد العيش . كما نظموا منهم قوات عسكرية خاصة سميت بـ(الليفي) عُرفت أفواجها وكتائبها بتدريبها الجيد وانتظامها واستبسالها في القتال . وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها ، نقلت القوات المحتلة الآثوريين إلى المناطق الباردة التي اعتادوا عليها في جبال شمال العراق ، وهيأت لهم مراكز في أربيل والموصل ، وفي أقضيه العمادية والزيبار وزاخو وعقرة . وفي ٤ من أيار ١٩٢٤ ، نزل لفيف من الآثوريين من قوات الليفي المعسكرة خارج كركوك إلى سوق المدينة ، ونشب خلاف بينهم وبين الباعة فاستنجدوا بزملائهم في المعسكر ، ونشب قتال عنيف استعملوا فيه الرشاشات ، فسقط الكثير من الضحايا ، وكاد القتال أن يؤدي إلى مأسة كبيرة لولا تدخل العقلاء من الضباط الإنكليز وأمراء الفصائل من قوات الليفي في فض النزاع(٦) .

---

(٤) يدعي التياريون (الآثوريون) النساطرة أنهم من بقايا الآشوريين سكان شمال العراق قبل التاريخ . وينفي الكثير من الآثاريين العراقيين هذه العلاقة ، ويتساءلون لماذا لم يبق اسم البابليين والسومريين عند فئات أخرى من المجتمع العراقي؟ .

[جيمس فرانسيس (الملوك الهاشميون) ص :١٠٥]

(٥) جوله لامرك : تقع في ولاية (وان) في الأناضول الشرقي من تركيا .

(٦) سبقت هذه الحادثة قتال في سوق (العتمة) بالموصل في ١٥ آب ١٩٢٣ ، ولم يعاقب عليها الآثوريون واكتفي بنقل معسكراتهم إلى كركوك . وفي ٤ أيار ١٩٢٤ ، نشب نزاع في سوق كركوك ، استل الجنود الآثوريون أسلحتهم من الثكنة العسكرية وأخذوا يقتلون كل من يصادفونه في الطريق ، ==

أصبحت الموصل بعد ذلك في حالة توتر وأهلوها في غضب شديد عند سماعهم بأخبار الاعتداء المسلح على السكان الآمنين والباعة المساكين في سوق كركوك . وتخوفت شخصيًا من سريان القتال إلى الموصل ، فأوعزت إلى قيادة الليفي بسحب جنودها ووضعتهم تحت الإنذار في معسكراتهم خارج حدود المدينة . وهكذا سلمت الموصل من معارك وخيمة لا يدرك ضخامتها إلا الله عز وجل .

دعوتي إلى بغداد

تسلمت كتابًا من وزارة الداخلية في ١٨حزيران ١٩٢٦ يدعوني إلى الحضور إلى بغداد للمذاكرة في قضايا مهمة ، فتوجهت بالسيارة إلى الشرقاط لآخذ القطار من هناك . رافقني بطريق الصدفة صبيح نجيب(٧) ، وهو من كبار ضباط الجيش . وفي صحراء الشورة ، رأينا حشرة تشبه الجرادة إلا أنها أكبر منها حجمًا وسيقانها طويلة وعنقها مستدق طويل ورأسها مستطيل . نزلنا من السيارة لاصطيادها ، وبعد جهد توفقنا في التغلب عليها باستعمال الشراشف المتوافرة لدينا . أهدينا هذه الحشرة إلى مختبر الحيوان في الثانوية المركزية ، وظهر أنها نوع كبير نادر من الجراد ، وعلمنا أنها بقيت حية حتى نقلت إلى مدرسة المعلمين في وقت لاحق .

== طفلاً كان أم رجلاً ، وأحرقوا ونهبوا الحوانيت وقتلوا شرطيًا عراقيًا حاول منعهم من قتل الأبرياء . أسفرت المجزرة عن مائة إصابة بين قتيل وجريح ، لكن البيانات الحكومية صرحت بستة وخمسين قتيلاً وأربعة وأربعين جريحًا . ذكر لـ(ادموندس) أن الجماهير الساخطة قد هاجمت في اليوم الثاني بيوت بعض المسيحيين الكلدان لأنهم كانوا واثقين أن الإنكليز كانوا يحمون الآثوريين ، وأنهم لم يبحثوا بصورة جدية عن الذين قاموا بهذه الجرائم .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ، الطبعة السابعة ص : ٢٥٨ حـ/٣]

تأزم الوضع فاضطر الإنكليز للاستعانة بقوات عسكرية نقلت جوًا من القاهرة ويقال ربما كان ذلك أول نقل جوي لقوات عسكرية في التاريخ .

[أدموندس (ترك وكرد وعرب) ص : ٣٥٩]

(٧) صبيح نجيب العزي : تخرج في المدرسة العسكرية في إسطنبول وخدم في الجيش العربي في الحجاز . انتخب أول آمر لمدرسة كلية الأركان في بغداد ١٩٢٨ . عمل مدير شرطة عامًا ومديرًا عامًا في الخارجية ووزيرًا للدفاع سنة ١٩٣٨ .

القسم السادس

مناصب وزارية ومجالس نيابية

الفصل الواحد والعشرون
وزيراً للداخلية في وزارة عبد المحسن السعدون الثانية

كيف أصبحت وزيراً

وصلت بغداد في ٢٠ حزيران ١٩٢٦ ، وذهبت توًا صباح اليوم التالي لمقابلة عبد المحسن السعدون ، رئيس الوزراء ووكيل وزير الداخلية ، ووجدته عازمًا على استصحابي إلى البلاط لمقابلة جلالة الملك فيصل . وفي الطريق ، سألته عن سبب استدعائي إلى بغداد ، فلم يجبني ، وشعرت أنه لا يريد مصارحتي بوجود سائق السيارة . دخلنا على الملك فيصل معًا ، وأخذ جلالته يشكرني على جهودي في إنهاء قضية الموصل ، ويبارك أعمالي وخدماتي أثناء وجود لجنة عصبة الأمم . وعند خروجنا ، أشار علي عبد المحسن بالانتظار عند سكرتير البلاط ورجع هو إلى غرفة الملك ثانية ، وبعد برهة جاء إلي وذهبنا إلى وزارة الداخلية . دخلنا معًا غرفة الوزير ، ثم دخل علينا سليم حسون ، صاحب جريدة العالم العربي ، وبادر بسؤال عبد المحسن عن صحة الإشاعة بتعييني وزيرًا للداخلية . عجبت أشد العجب ، وسألته أنا أيضًا عن صحة هذا الخبر ، فنفاه . كان رحمه الله واقفًا بالقرب من مكتبه منشغلاً بتنظيم أوراقه وأضابيره ، وردَّ وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى بكلمات خافتة : «ستتلقى أعمالك مع هذه الأضابير» . تجاهلت سماعي لأقواله ، وكررت سؤالي عن سبب استدعائي ، فلم يجب وقال متحاشيًا : «سأكلمك في هذا الموضوع بالتفصيل بعد أن تسمح لي بمقابلة المستشار(كورنواليس)» وناولني جريدة وخرج . ولما تأخر رجوعه لأكثر من نصف ساعة ، ناديت على الفراش (علي) وسألته عن السعدون ، فأجاب بأنه خرج من غرفة المستشار من مدة ، وطلب أن يخبرني بأنه سيكون في انتظاري بمكتبه برئاسة مجلس الوزراء . وتفاجأت بالتصرف هذا وسألته عن المستشار فأجاب بأنه في غرفته لوحده . دخلت عليه ، فإذا به يهنئني بوزارة الداخلية ، واستغربت من ذلك واستنكرته . سألني عما إذا كنت غير راغب بالوزارة وأجبته بأني لا أريدها ،

فأشار علي بالإسراع لمقابلة رئيس الوزراء قبل صدور الإرادة الملكية .

ذهبت مسرعًا إلى رئاسة مجلس الوزراء ، ووجدت هناك ناجي السويدي وصبيح نشأة ، وأخذت أعاتب عبد المحسن عتابًا ثقيلاً لأنه كان يعلم عن عزوفي عن الوزارة وترجيحي الخدمة الإدارية عليها . ضحك واستدعى عبد القادر رشيد ، سكرتير مجلس الوزراء ، وسأله عن موضوع استيزاري فأجاب بأن الأوراق قد أرسلت إلى البلاط . قال لي السعدون : «الجميع اتفقوا على إناطة وزارة الداخلية بك ، فإن كنت لا ترغب بها فاذهب إلى الملك واعتذر منه وهذه سيارتي في خدمتك» .

خرجت مذهولاً إلى البلاط ، وطلبت من رستم حيدر ، سكرتير الملك ، مقابلة صاحب الجلالة ، فسمح لي بذلك مستغربًا . دخلت على الملك وقدمت له اعتذاري عن قبول الوزارة وشرحت له أسباب ذلك ، ومن أهمها قناعتي بأني أقدم خدمات أفضل لبلادي عن طريق مركزي الإداري ، ورجوته نقلي إلى أي مركز إداري آخر إن كانت خدمتي في الموصل ليست مجدية . وأخذ جلالته يثني على خدماتي في الموصل وفي غيرها من الألوية ثناءً عاطرًا ، ورجاني قبول الوزارة لكي نتعاون على الخدمة معًا (على حد تعبيره) . تأثرت من هذه الكلمة ، لكني رجوته مرة أخرى أن يتفضل بإعفائي من الوزارة . ولما وجدني مصرًا على الرفض استدعى رستم حيدر وسأله عن الإرادة الملكية فأجابه بأنها أرسلت إلى مجلس الوزراء . قال لي الملك : «هل تقبل يا عبد العزيز بأن يمسح فيصل توقيعه بيده؟» تأثرت بهذا الكلام ورضخت للأمر الواقع .

رجعت إلى مجلس الوزراء ، ووجدت الرئيس والسادة الوزراء في انتظاري . كنت بادي العصبية شديد التأثر ، ووجهت لهم عتابًا شديدًا لإغفالهم استشارتي ومعرفة رأيي قبل إصدار الإرادة الملكية . أخذوا يتضاحكون ويهنئونني واحدًا واحدًا داعين لي بالتوفيق . ثم نادى السعدون على سكرتيره ، عبد القادر رشيد ، وقال له أعطه كتاب الإرادة فجاءني به مطبوعًا وكاملاً . وأخذ الرئيس يهنئني ثم صاحبني إلى وزارة الداخلية وأقعدني على الكرسي الذي شغلهُ هو وكالةً قبلي . وكرر تبريكاته وهو يبتسم ، وباشرت بعملي الجديد في ٢١حزيران ١٩٢٦[1] .

(١) تألفت وزارة السعدون الثانية في ٢٦ حزيران ١٩٢٥ . وحل عبد العزيز لقصاب محل حكمة سليمان وزيرًا الداخلية بعد انتخابه رئيسًا لمجلس النواب عوضًا عن رشيد عالي الكيلاني .

قضية العفو عن الآثوريين

اطلعت أثناء عملي وزيرًا للداخلية للمرة الأولى على كتاب من المندوب السامي (همفري دوبس) يطلب فيه من رئيس الوزراء اتخاذ قرار بالعفو عن الجنود الآثوريين، الذين قاموا بالقتال في سوق كركوك، والذي راح ضحيته تسعة وثلاثون مسلمًا وثمانية مسيحيين وآثوري واحد.

وفي اليوم التالي، دعاني جلالة الملك لمقابلته مع ناجي السويدي وزير العدلية لبحث هذه القضية، واتهمنا بإثارة الشغب ضده في مجلس الوزراء، وبأننا نعمل على تركه معلقًا بين الأرض والسماء. فأوضح ناجي السويدي له جسامة القضية وأهميتها، وأوضحت بدوري تأزم الحالة في الموصل عند وقوع الحادث في كركوك والإجراءات التي اتخذتها لمنع تسرب الاضطرابات إلى الموصل. وبعد المداولة، اقترح ناجي السويدي أن تطلب الوزارة من دار الاعتماد المقابلة بالمثل والعفو عن الأشخاص المحكوم عليهم بتهمة المساهمة في الثورة العراقية. واقتنع الملك وأقر مجلس الوزراء هذا المقترح، ووافق المندوب السامي عليه وأُغلقت القضية.

أعمالي في وزارتي الأولى للداخلية

استغرقت خدمتي في الوزارة السعدونية الثانية أربعه أشهر فقط، قمت أثناءها بزيارات تفقدية إلى ألوية العمارة والبصرة والديوانية. ودرست قضية النزاع بين عبد الواحد الحاج سكر وزراع عشيرة الفتلة حول أراضي (راك الحصوة)، وأصدرت قرارًا بحسم النزاع.

استقالة وزارة السعدون الثانية

تخلى السعدون عن رئاسة وزارته الثانية في ١ تشرين الثاني ١٩٢٦ عندما أخفقت وزارته في فوز مرشحها حكمة سليمان برئاسة مجلس النواب وفوز منافسه رشيد عالي الكيلاني(٢). شكل جعفر باشا العسكري وزارة جديدة بعد عشرين يومًا من استقالة السعدون.

---

(٢) كان المجلس النيابي هذا هو أول مجلس ينتخب (١٨ تموز ١٩٢٥) بعد المجلس التأسيسي (١٦ تموز ١٩٢٤). انتخب أعضاء هذا المجلس مرشح المعارضة رشيد عالي الكيلاني، والذي استقال في ٨ أيار ١٩٢٦ بعد خلاف مع صبيح نشأة وزير الدفاع، وانتخب بعده حكمت سليمان. وأعيد انتخاب رشيد عالي الكيلاني في ١ تشرين الثاني ١٩٢٦ فخذل السعدون ودفعه للاستقالة.

الفصل الثاني والعشرون
وزيرًا للداخلية في وزارة عبد المحسن السعدون الثالثة

تشكيل الوزارة

استقال جعفر العسكري في ١ تشرين الثاني ١٩٢٧ وشكل السعدون وزارته الثالثة في ١٤كانون الثاني ١٩٢٨ ، بعد أن اشترط حل المجلس النيابي الذي خذله ، وقبل الملك بهذا الشرط ، وتألفت الوزارة من : عبد العزيز القصاب للداخلية ، وحكمة سليمان للعدلية ، ويوسف غنيمة للمالية ، وتوفيق السويدي للمعارف ، وعبد المحسن شلاش للمواصلات والأشغال ، وسلمان البراك للري والزراعة ، والشيخ أحمد الداود للأوقاف ، واحتفظ السعدون بوكالة الخارجية والدفاع .

وفي الشهر الثالث من تسلم الوزارة مقاليد الحكم واجهتها القضايا الثلاث التالية :

القضية الأولى: الشيخ ضاري قاتل (لجمن)

قُتلَ (الكولونيل لجمن) مع سائق سيارته في خان النقطة في منتصف طريق الفلوجة- بغداد في ١٢ آب ١٩٢٠ ، أثناء الثورة العراقية الكبرى من قبل الشيخ ضاري رئيس عشيرة زوبع وولده سليمان وآخرين من أقربه . وعلى أثر ذلك ، هاجر ضاري وأولاده من العراق وأقاموا في نواحي ديار بكر في تركيا .

وفي تشرين الثاني ١٩٢٧ ، أي بعد مرور سبعة أعوام ، احتاج الشيخ ضاري إلى مراجعة طبيب ، فاستأجر سيارة أرمني يدعى (ميكائيل) ، وبعد أن دفع له أجرته ، ركب معه قاصدًا حلب ، وكانت الحكومة البريطانية قد وعدت بمكافأة مالية لكل من يأتي بضاري حيًا أو ميتًا . طمع ميكائيل بالمكافأة وتوجه بضاري مقيدًا إلى مخفر

الشرطة في سنجار ونقل من هناك إلى بغداد ، وحُكم عليه بالإعدام شنقًا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٨ . وبالنظر لمرض الشيخ الشديد ، أُبدل الحكم إلى السجن المؤبد . ولم يمهله المرض طويلاً حتى توفي في المستشفى في الأول من شباط ١٩٢٨ . وعند وفاته قامت جماهير غفيرة في بغداد تطالب بجثمانه ، ثم أخذته عنوةً من المستشفى وطافت بنعشه في أنحاء المدينة وهي تردد الأهازيج الوطنية وتشتم الإنكليز[١] .

ذهبت لمقابلة الملك في اليوم التالي وأطلعني على صحيفة الاستقلال وقرأ لي ما كتبته الصحف عن الشيخ ضاري ، ثم سألني : «ماذا سيقول أهل العراق عني بعد موتي؟» أجبته : إن الوطنيين يتخذون من حادثة وفاة ضاري وأمثالها وسيلة لإظهار شعورهم ضد الإنكليز وإحراج الحكومة القائمة .

القضية الثانية: زيارة (الفريد موند)

تظاهر عدد كبير من الطلاب والمواطنين في ٨ شباط ١٩٢٨ تعبيرًا عن سخطهم وعدم رضاهم عن زيارة الزعيم الصهيوني (الفريد موند)[٢] ، واستنكارهم لسياسة بريطانيا في فلسطين . وهيأنا قوات الشرطة للمحافظة على الأمن عند قدومه ، وزودناها بتعليمات خاصة بعدم اللجوء إلى العنف أو الضرب ، وصاحب حسام الدين جمعة ، مدير الشرطة العام ، ومفتشها (برسكوت) المظاهرة للسيطرة عليها ، وأصيب بعض أفراد الشرطة بجروح ، وتعرضت سياراتهم للأضرار . وكان المرحوم الملك فيصل على اتصال تلفوني دائم ، يتابع أخبار المظاهرة باهتمام بالغ .

انتظرت الجماهير[٣] وصول (موند) على جسر (الخر) ، في المدخل الغربي

---

(١) هجم المجتمعون وخطفوا جثمان الشيخ ضاري وطافوا به شارع الرشيد ، فكان ذلك أقرب إلى مظاهرة سياسية كبيرة منه إلى تشييع جنازة . وتعالت الأهازيج ، ومنها : «هز لندن ضاري وبجاها» ، أي : أبكاها و«هلهولة لكاتل لجمن» ، أي : زغرودة لقاتل (لجمن) .

(٢) الفريد موند Alfred Mond : من كبار زعماء الصهيونية في بريطانيا . حل عند وصوله بغداد مع زوجته في دار المندوب السامي ، وحلت حاشيته ضيوفًا عند أحد أثرياء اليهود .

[تقرير الحكومة البريطانية لعصبة الأمم سنة ١٩٢٨ ص : ٢١-٢٢]

(٣) بلغ عدد المتظاهرين عشرين ألفًا .

[الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ص : ١٥٣ ج/٢ الطبعة السابعة] ==

لبغداد ، إلا أنه لم يصل إلى الجسر فانفضت المظاهرة عند غروب الشمس ، بعد أن أصبح واضحًا أنه دخل بغداد من مدخلها الشمالي من جهة الكاظمية والأعظمية ، وتمكن من الوصول الى البلاط الملكي .

أصدرت الوزارة مراسيم خاصة لضمان الاستقرار و لأمن كما تقتضيه المصلحة العامة والقانون ، عوقب بموجبها الطلبة الذين اعتدوا على أفراد الشرطة أو أضروا بسياراتهم ، وكانت العقوبات بسيطة ولمدة وجيزة(٤) . وتبين لنا أن الكثير من الطلبة كانوا من العائلات المعروفة ونشاطهم كان بإيعاز وتشجيع من الملك(٥) .

حرضت المعارضة على عقد اجتماع موسع في جامع الحيدرخانة في ١١ شباط ، حول حوادث الثامن منه ، وكانت غايتها الرئيسة إحباط مساعي الوزارة ، ووضع العراقيل أمام مناهجها الإصلاحية ، وإعاقة انتخابات المجلس النيابي ، أو اتهام الوزارة بتدخلات غير مشروعة في هذه الانتخابات .

القضية الثالثة: الانتخابات النيابية

أصدرت وزارة السعدون الثالثة إرادة ملكية بحل المجلس النيابي في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٨ ، وشرعت بانتخابات مجلس جديد يضم ثمانية وثمانين مقعداً ، وتحملت الوزارة الكثير من المتاعب التي نتجت عن تدخل المعارضة التي أربكت الأعمال التنظيمية ، وعكرت الجو الهادئ الضروري للقيام بالانتخابات بشكل صحيح .

وقبلت الوزارة ترشيح خمسةٍ وأربعين نائبًا من الذين أكملوا تحصيلهم العالي في

== أدت هذه المظاهرات ثم الاجتماعات الكبيرة في جامع الحيدر خانة في ١١ شباط إلى إلغاء جميع الاحتفالات بقدوم (موند) ، فلم يتمكن من الاتصال برؤساء الطائفة اليهودية وترك بغداد في ١٥ شباط ١٩٢٨ .

[حسين جميل (شهادة سياسية) ص : ٢١٥]

(٤) اضطرت الوزارة إلى إصدار هذه المراسيم ، متوخيةً استتباب الأمن ثم ألحقتها بتعديلات خففت منها ، ولم يكن الملك فيصل محبذا لهذه المراسيم .

[الحسني (تاريخ الوزارات العراقية) ص : ١٥٢ ، ١٥٦ ج/٢ الطبعة السابعة]

(٥) هذا مثال آخر لسياسة الملك فيصل الأول المزدوجة التي ذكرت سابقًا .

المدارس المدنية والعسكرية وزاولوا أعمالاً في خدمة البلاد . وبترشيح تسعة عشر نائبًا من العلماء الأفاضل كالشيخ رضا الشبيبي ، ومحمد جعفر أبو التمن ، والشيخ أحمد الداود ، والسيد أحمد عبد الوهاب ، وعبد المحسن شلاش ، والسيد عبد المهدي ، ومحمد جعفر القاضي ، وسيد هاشم النقيب ، والسيد مصطفى الطه ، وعز الدين النقيب ، وأحمد عزت الأعظمي ، وسيف الله خاندان ، ومحمد علي قيردار ، وجميل الفخري ، وعبد الله آل سليمان بك ، وضياء الدين يونس ، وهبة الله المفتي ، والخوري يوسف الخياط ، ورؤوف اللوس . وخصصت المقاعد الباقية لرؤساء العشائر ليمثلوا مناطقهم في المجلس الجديد .

بدأت المعركة الانتخابية في ١٩ نيسان ، وراح ضحيتها الأخوان عمر وبكر اللذان قتلا في محلة الفضل ، وهم من ذوي الصلة بالمعارضة وبعبد الرزاق منير ممثلها في المنطقة . وكذلك ظهرت شكوك في صحة انتخابات منطقة باب الشيخ نتيجة لأخطاء ارتكبتها اللجنة التفتيشية فيها .

على اثر ذلك ، طلبني المرحوم الملك فيصل في الساعة التاسعة مساء ، ووجدت عنده (كورنواليس) ، مستشار الداخلية . سألني عن الانتخابات في منطقة باب الشيخ ، وأجبته بتفاصيل المخالفات التي وقعت وعزمي على الاجتماع بالهيئة التفتيشية فيها صباح الغد ، للحصول على قرار منها بفسخ الانتخابات وإعادتها . أجابني الملك : بأنه سمع بالمخالفات وطلب مني إعادة الانتخابات في تمام الساعة السابعة صباحًا . قلت له : «لا يمكنني جمع الهيئة التفتيشية في هذا الوقت المبكر ومن الممكن جمعهم في التاسعة أو العاشرة» . لم يقبل جلالته بهذه الإجابة وأصر أن يكون ذلك في السابعة ، وكرر ذلك بشدة ، وأكدت له أن ذلك غير ممكن ورجوت منه إعفائي من منصبي الوزاري ، وإفساح المجال لغيري لتنفيذ رغبة جلالته وقبول استقالتي ، وخرجت من حضرته حالاً . وعندما هممت بركوب سيارتي لحق بي (كورنواليس) وأمسك بي ، قائلاً : «ماذا حدث حتى تستقيل؟» قلت له : «لابد من استقالتي لأني لا أتمكن من تنفيذ أمر الملك» . ورجاني أن أنتظر قليلاً حتى يجلب قبعته ليذهب معي ، وعند مغادرتنا ، قال لي : إن الملك قد وافق على الوقت الذي حددته ولم يبق حاجة لاستقالتك ، ورجاني أن لا أحرج الوزارة بالاستقالة في ظروف الانتخابات الصعبة . وكانت نتيجة الانتخابات أن فاز جميع مرشحي المعارضة إلا واحدًا فقط .

استقالة وزارة السعدون الثالثة وأزمة وزارية

قدمت الوزارة استقالتها في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٩ لفشلها في إقناع دار الاعتماد بتعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية لمعاهدة ١٩٢٧ . وصرح السعدون بأن الوزارة ستقوم بأعمالها بصورة مؤقتة إلى حين تشكيل الوزارة الجديدة ، وأن حزب التقدم الذي يترأسه سوف لن يؤيد أي وزارة لا تنفذ التعديلات المقترحة لهذه الاتفاقيات . بقيت الوزارة في الحكم ثلاثة شهور ونصفًا بعد استقالتها(٦) .

وفي هذه المدة أنهيت خدمات المعتمد السامي (هنري دوبس) ، وأعقبه المعتمد الجديد (جلبرت كلايتون)(٧) الذي وصل بغداد في ٢ آذار ١٩٢٧ ، والذي اجتمع حال وصوله بالسعدون ورجال وزارته وبعض رجال المعارضة ، وصرح بأنه يرغب كثيرًا بمساعدة العراق وإنهاء الأزمة المستحكمة ، وأخذ يكاتب الوزارة البريطانية ، موضحًا طلب الوزارة بإلغاء معاهدة ١٩٢٧ وتنظيم العلاقات وفقًا لمعاهدة ١٩٢٢ ، على أن تعد الحكومة البريطانية بالمساعدة في إدخال العراق في عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ .

كتب (كلايتون) إلى الملك فيصل يخبره بنوايا الحكومة البريطانية ، قائلاً : إنها مستعدة لترك معاهدة ١٩٢٧ والاتفاقيتين الجديدتين الملحقتين بها ، بشرط أن تمدد المدة التي نصت عليها المادتان الأولى والثانية من الاتفاقية العسكرية والمالية إلى نهاية حزيران ١٩٣٢ .

---

(٦) اتخذ السعدون موقفًا حازمًا في مفاوضته مع بريطانيا لتعديل الاتفاقيتين المالية والعسكرية ، ورفض اقتراح دار الاعتماد بالقيادة المشتركة أثناء الحرب ، وأصر على تولي العراق الدفاع عن حدوده . ورفض العدد المقترح للضباط البريطانيين في الجيش العراقي ، وطالب بضم دائرة السكك الحديدية إلى العراق .

(٧) سير جلبرت فالكنهايم كلايتون : ١٨٧٥ - ١٩٢٩ من الخبراء البريطانيين في الشؤون العربية . خدم مع اللورد كتشنر في حملة النيل ، ثم أصبح مستشارًا لوزارة الداخلية المصرية ، وعُين أثناء الحرب العالمية الأولى رئيسًا للاستخبارات في مصر ورُفع إلى رتبة جنرال . أسس المكتب العربي في القاهرة ثم تولى إدارة فلسطين بعد الاحتلال . عهدت إليه المهمة الدقيقة للتوفيق بين مصالح الحلفاء في سوريا . توفي في بغداد بالسكتة القلبية بعد قدومه لها بستة أشهر .

الفصل الثالث والعشرون
مع وزارة توفيق السويدي الأولى

تشكيل الوزارة

كلف الملك فيصل توفيق السويدي(١) لتشكيل وزارته الأولى في ٢٨ نيسان ١٩٢٩ كحل للأزمة الوزارية . وتألفت من : عبد العزيز القصاب للداخلية ، ويوسف غنيمة للمالية ، وداود الحيدري للعدلية ، ومحمد أمين زكي للدفاع ، وسلمان البراك للزراعة ، وخالد سليمان للمعارف ، وعبد المحسن شلاش للمواصلات والأشغال ، واحتفظ رئيسها السويدي بوزارتي الخارجية والأوقاف . وكان قد سبق ذلك تعرف للمعتمد السامي (كلايتون) على توفيق السويدي وهو وزيرا للمعارف في الوزارة السابقة أثناء المفاوضات مع السعوديين في جدة .

وترددت بادئ الأمر في قبول الاشتراك في الوزارة ، حيث كنت مشغول البال بأولادي الذين فقدوا والدتهم في الوقت ذاته(٢) ، غير أن إلحاح جلالة الملك وعبد المحسن السعدون جعلاني أقدم استقالتي من رئاسة المجلس النيابي وأقبل بالوزارة ،

---

(١) توفيق السويدي : ١٨٩٢ - ١٩٦٨ ، سياسي عراقي بارز تبوأ مراكز وزارية متعددة ، وترأس الوزارة ثلاث مرات في ١٩٢٩ و١٩٤٦ و١٩٥٠ . مثل العراق في المؤتمر العربي في باريس . كان مديرًا لمدرسة الحقوق سنة ١٩٢١ ،له مذكرات (١٩٦٨) وكتاب عن وجوه عراقية (١٩٨٧) ، وحقوق الرومان (١٩٢٢) ، وترجم الاقتصاد والسياسة لشارل جيد (١٩٢٤) .

(٢) توفت زوجته الثالثة (شريفة ثابت) أخت الصحفي الهزلي نوري ثابت (حبزبوز) عند ولادة طفلها سعدون بعد خمس سنوات من زواجها . ذكر علي محمود الشيخ علي ، الوزير السابق ، أن عبد المحسن السعدون قد همس أثناء تشييع جنازتها في أذن صديق له متسائلاً ومستغربًا من عبد العزيز كيف يبكي لوفاة زوجته . ذكرت هذه الحكاية كدلالة على معاناة السعدون في حياته العائلية .

[خيري العمري (حكايات سياسية) ص : ٥٠٨]

مشترطًا الانسحاب منها بعد شهر واحد من تأليفها . وعند انتهاء الشهر الأول كلفت بتنظيم ميزانية وزارة الداخلية ، ثم ظهرت بعد ذلك قضية التعرفة الجمركية فلم أتمكن من الانسحاب ، وبقيت مع الوزارة حتى استقالتها برمتها في ٢٥ آب ١٩٢٩ .

أمور مهمة

من الأمور المهمة التي حدثت أيام وزارة السويدي . هي :

١ . عقد اتفاقية لاسترداد المجرمين بين العراق وسوريا في ٢٣ أيار ١٩٢٩ .

٢ . عقد اتفاقية مؤقتة في أمور الإقامة والتجارة والملاحة والتمثيل الدبلوماسي بين العراق وإيران في ١١ آب ١٩٢٩ .

٣ . قيام مظاهرات صاخبة احتجاجًا على الاشتباكات الدامية في فلسطين بين العرب واليهود . واجتماع خطير في جامع الحيدرخانة في ٣٠ آب ١٩٢٩ ، اشتركت فيه جموع غفيرة ووقعت نتيجته حوادث مؤسفة بين الأهلين والشرطة . وقدمت الأحزاب والنوادي بعد الاجتماع احتجاجات شديدة إلى الحكومة البريطانية .

قضية التعرفة الجمركية

قدمت وزارة المالية لائحة تتعلق بالرسوم الجمركية على بعض المواد ، ووافق مجلس الوزراء عليها . وعرضت اللائحة بعد انتهاء الجلسة على حزب التقدم لمناقشتها ؛ فاحتج عليها أعضاء الحزب لأنها كانت سببًا في مضاربات تجارية في الأسواق ، وسحبت الوزارة اللائحة حالاً ولم تقدمها إلى المجلس النيابي . وشكلت لجنة خاصة في وزارة الداخلية للتحقيق في تسرب أخبار التعرفة إلى الأسواق قبل إقرارها والمسؤولين عن ذلك . وظهر للجنة أن ليس لأحد من أعضاء الوزارة دور في تسرب الأخبار ، وعرضت قرارها على الملك والرأي العام في وقته[٣] .

(٣) حدثت مضاربات بين التجار لاسيما في أسعار الشاي والسكر . أشارت أصابع المعارضة إلى أن ذلك كان لمصلحة رئيس الوزراء . ونفى الرئيس هذا الاتهام .

[الحسني (تاريخ الوزارات العراقية ص : ٢٤٣ المجلد الثاني]

قدمت وزارة توفيق السويدي استقالتها في ٢٥ آب ١٩٢٩ ، واستمرت بعدها بالعمل لمدة ثلاثة شهور واثني عشر يومًا . وصادف أن توفي (جلبرت كلايتون) بعد استقالة السويدي في ١١ ايلول ، وتلاه (فرنسيس همفريز) كمندوب سامي جديد ، في ٧ تشرين الأول ١٩٢٩ .

الفصل الرابع والعشرون
وزيراً للري والزراعة في وزارة السعدون الرابعة

دعوة السعدون لتأليف الوزارة

كلفت بالانضمام إلى وزارة توفيق السويدي الأولى وأنا رئيس لمجلس النواب ؛ فتركت الرئاسة لعبد المحسن السعدون[1] . وعند استقالة السويدي ، كان السعدون قد سافر إلى مصيف برمانا في لبنان للاستجمام بعد انتهاء دورة المجلس .

طلب مني الملك فيصل أن أكتب للسعدون وأطلب منه الرجوع إلى بغداد ، وبلغته برغبة الملك فرجع في ١٧ آب . وكان قد أشيع في بغداد آنذاك تصريح بريطانيا بالعمل على قبول العراق في عصبة الأمم في سنة ١٩٣٢ ، واحتمال تأليف وزارة جديدة استعدادًا لذلك .

شكل السعدون وزارته الرابعة في ١٩ايلول ١٩٢٩ ، من : ناجي السويدي للداخلية ، وياسين الهاشمي للمالية ، ومحمد أمين زكي للأشغال والمواصلات ، ونوري السعيد للدفاع ، وعبد العزيز القصاب للري والزراعة ، وناجي شوكة للعدلية ، وعبد الحسين الجلبي للمعارف .

منهج الوزارة

اجتمع الوزراء في دار الرئيس ، وقررنا منهجًا للوزارة وحددنا أهدافه ومبادئه ، ولم ينشر هذا المنهج ولم يُعرف على حقيقته . كان المعتاد أن تعرض الوزارات مناهجها على دار الاعتماد البريطاني والبلاط قبل إقرارها ونشرها ، أما وزارة السعدون الرابعة فلم تعلن عن منهاجها بل اكتفى رئيسها بالإشارة إلى بعض نقاطه في المجلس النيابي فقط . ولضرورة

---

(١) انتخب عبد العزيز القصاب خمس مرات لعضوية مجلس النواب . أربع منها عن لواء بغداد وواحدة عن الديوانية ، وانتخب رئيسًا للمجلس في أربع دورات نيابية .

اطلاع الشعب والمهتمين ، أدرج نص المنهاج في ملحق خاص من هذه المذكرات(٢) .

وعندما علم الإنكليز بتفاصيل المنهاج ، أخذوا يعارضون الوزارة في كل شيء ويطلبون منها المستحيل ، كتمديد عقود الموظفين الإنكليز . والوزارة قابلت ذلك بالصبر والحكمة ، وأصبحت أمور الدولة بين مد وجزر . وعانى الملك الكثير من جراء الخلاف بين دار الاعتماد والوزارة ، في وقت لم يتوقف فيه الشعب عن مطالبته بالمزيد من الحرية والاستقلال .

وبالرغم من كل هذه المصاعب ، قامت الوزارة بتنفيذ منهاجها من غير تردد ، وأصرت على تقليص عدد الموظفين البريطانيين وتخفيض رواتبهم . كان راتب مستشار مديرية الزراعة مثلاً أكثر من ألف وخمسمائة روبية ، وهو لا يحمل شهادة دراسية تؤهله لهذا الراتب ، وكذلك كان (المستر كرايز) يتقاضى الراتب نفسه ولم يكن إلا كاتب طابعة من قبل . وقررت الوزارة الاستغناء عن خدمات (المستر الارد) مستشار وزارة الزراعة لمعارضته قرار الوزير بإلغاء المشتريات من وكلاء التاج(٣) . وألغت الوزارة بعض الدوائر غير الضرورية ، كدائرة الأملاك ، ودائرة الرستمية ، ووكالة القيادة العامة للقوات المسلحة ، وغيرها من المؤسسات المرتبطة بالاداريين البريطانيين ، والتي لم يسبق أن كانت موضع اهتمام في مناهج الوزارات السابقة .

وفي جلسة المجلس الثالثة التي عقدت في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، عند مناقشة خطاب العرش ، أخذ النواب : محمد زكي المحامي ، وجعفر أبو التمن ، ورشيد عالي الكيلاني ، يستفسرون عن المنهاج من رئيس الوزراء وأجابهم باللين والهدوء(٤)

---

(٢) منهج وزارة السعدون ، أنظر ص ٣٠٨ (الملحق رقم ٨) .

(٣) وكلاء التاج Crown Agents : الوكلاء التجاريون الرسميون لبريطانيا ، وفرض على العراق تحديد مشترياته منهم .

(٤) كانت المعارضة تتساءل عما تم من وعود السعدون في وزارته الثالثة حول تعديل المعاهدة وفيما إذا تراجع عنها ، وأعربت عن شكوكها فيما إذا كان دخول العراق إلى عصبة الأمم سيكون بمثابة الاستقلال الوطني . أجاب السعدون بخطابه عن عدم ارتياحه لتجاوب الإنكليز لمطالبه المستمرة ، وأن المطالبة بالاستقلال يجب أن تكون بالقوة والتضحية وليس بالكلام الفارغ ، وأن الانتماء إلى عصبة الأمم سيلغي المعاهدات والاتفاقيات القديمة وستعقد اتفاقية جديدة على أساس الاستقلال التام .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٢٧٥-٢٧٨ الطبعة السابعة]

حتى قام النائب معروف جياووك ، وقال : «بالنظر لهذا المنهاج يظهر أنكم تقصدون إحداث ثورة في البلاد» . تأثر الرئيس والسعدون من هذا الاتهام وأراد أن يجيب عليه بشدة ، وقال لمن كان بجانبه : «لازم أصرح الآن وأجيب هذا الجاسوس الإنكليزي» ، فأمسك به ياسين الهاشمي وكنت أنا بجانبه ، وعملنا كلانا على تهدئته ، ثم استمر يجيب عن أسئلة المعارضة بالحكمة والحسنى . ويجد القارئ تفاصيل الانتقادات وأجوبة الرئيس عليها في محضر جلسة النواب تلك في سجلات المجلس .

أيام السعدون الأخيرة

كان الملك فيصل قد أقام وليمة على شرف (كنهان كورنواليس) ، مستشار وزارة الداخلية في ١٢ تشرين الثاني ١٩٢٩ . وكنت مدعوًا لتلك الحفلة إلا أني لم أتمكن من تلبيتها لإصابتي بزكام شديد ، منعني أيضا من الدوام في ذلك اليوم . وفي اليوم التالي ، أي في ١٣ تشرين الثاني ، جاءني المرحوم عبد المحسن إلى داري قبل غروب الشمس[٥] ، وسألني عن أسباب غيابي عن وليمة الملك ، ولما رأى وضعي الصحي أعذرني وأخذ يقص عليّ ما جرى : انتحى (كورنواليس) به في ركن من أركان الصالون وكلمه عن العلاقات البريطانية العراقية ، وقال : إنه عندما عاد إلى العراق لاحظ تبديلاً كبيرًا في سلوك الحكومة وسياستها وهو مستغرب من ذلك . أجابه عبد المحسن : بأنه قد تعب كثيرًا من الركض وراء وعود الإنكليز التي لم تلمس البلاد منها أي فائدة مرضية . والإنكليز حريصون على تنفيذ مطالبهم وتحقيق مصالحهم فقط ، أما مصالح الآخرين فلا يعيرونها أي اهتمام[٦] . طال الحوار لمدة ساعة تقريبًا ، صرح

---

(٥) كانت دار عبد العزيز القصاب مجاورة لدار عبد المحسن في (البتاوين) على النهر ، لا تفصله عنها إلا أرض فارغة صغيرة ، وهي تبعد حوالي ٣٠٠ متر عن بداية شارع أبي نواس في الباب الشرقي حاليًا .

(٦) كان السعدون في وزارته الأولى يعتقد بأضرار التطرف السياسي ومؤمنًا ببناء جسور التفاهم مع الإنكليز . ثم أصابه اليأس في وزارته الثانية لما لمسه منهم من مماطلة في تعديل ملاحق معاهدة ١٩٢٧ . وعند عرض منهج وزارته الرابعة على دار الاعتماد ، أبدى (يونغ) وكيل المندوب السامي و(كورنواليس) وبطريقة خشنة عدم موافقتهم عليه ، وكان لجلسة النواب الصاخبة تأثير سيئ على نفسية السعدون .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٢٨٠ جـ/٢ الطبعة السابعة]

(كورنواليس) بعدها بأن سياستهم لن تتبدل ولا يوجد لدى الوزارة البريطانية أية نية لتغييرها في الوقت الحاضر . قال لي السعدون : «وبعد هذه التصريحات التي سمعتها تركته ولم أرد عليه ، وعند خروجي من الصالون ، مررت بالملك للسلام عليه وأخبرته بما دار بيني وبين (كورنواليس) ، وأظهرت له انزعاجي مما سمعته . وقلت له : إن كل ما نرجوه من الإنكليز هو محض خيال ليس له ظل من الحقيقة ، ولم يبق لي أمل في تغيير سياستهم . وخرجت من البلاط وأنا متأكد من أن الإنكليز يخادعوننا وسوف لن يعطونا مجالاً للخدمة بإخلاص . لاحظت عبد المحسن وهو يتكلم أنه متأثر جداً وعلى وجهه علائم الكآبة والانفعال والاضطراب . وأخذت أواسيه ، فقلت له : «إننا نقوم بواجبنا في خدمة البلاد على قدر طاقتنا ، فإذا واجهتنا الأكاذيب والعراقيل من الإنكليز ، نترك الحكم لهم وللملك فيصل ليتصرفوا كما يشاءون ، وليتلقوا عواقب أعمالهم الوخيمة» .

نهض عبد المحسن ليتركني وآثار الألم والانزعاج بادية عليه . رجوته أن لا يستعجل في الخروج لنستمر في حديثنا ، لكنه رفض طلبي وقال إنه يريد الذهاب إلى النادي ، ورفض ارتشاف القهوة التي وصلته عند باب الغرفة ، وخرج مطأطئ الرأس لا يلتفت يميناً أو يساراً . لحقت به إلى باب الدار فرفع يديه كلتيهما للسلام بدون أن يتكلم . قال لي حامل القهوة الذي قابله وجهاً لوجه : إنه رأى عيني عبد المحسن مغرورقتين بالدموع .

كانت هذه هي المرة الأخيرة التي أرى بها عبد المحسن السعدون حياً .

انتحار عبد المحسن السعدون

ذهب عبد المحسن بعد خروجه من داري إلى النادي العراقي في محلة (السنك) ، وبقي هناك ساعة أو أكثر ورجع إلى بيته في الساعة التاسعة مساء .

جاءني خادمي مبروك وهو يرتعد قائلاً : إن الحارس قد أخبره بأن السعدون قد قُتل . خرجت مسرعاً إلى داره المجاورة ورأيت الشرطي العريف على الباب يبكي ، وأشار إلى أن الحادثة وقعت في الطابق الثاني فصعدت مهرولاً ، ووجدت هناك زوجته وابنته (عائدة) ينوحان ، وأشارا إليه وهو ملقى جثة هامدة على فراشه . اقتربت منه ورأيت صدره مثقوباً في منطقة القلب بطلقة مسدس . سألت عما حدث فأجابتني (عائدة) : بأنه هو الذي أطلق النار على نفسه وهذا هو مسدسه .

وأيقنت أنه قد فارق الحياة فتألمت ألمًا شديدًا ، ونزلت إلى مكتبه في الطابق الأسفل . جلست على الكرسي أمام طاولة الكتابة وتلفنت إلى رئيس الصحة والأطباء وأخبرت الوزراء . ولفت نظري بين الأوراق على الطاولة كتاب مفتوح فوقها ، أخذته وإذا به وصيته الخالدة : « . . . الأمة تطلب الخدمة والإنكليز لا يوافقون . . .» . أجهشت بالبكاء ، وطويت الوصية ووضعتها في جيبي . ثم توافد الوزراء والنواب ورجال البلد وكلهم يتساءلون عن سبب الانتحار . كان ياسين الهاشمي والسويديان وأنا مجتمعين في غرفة واحدة ، واستعرضوا فيما بينهم سبب الانتحار وانتحلوا بعض الأسباب التي كانت خارجة عن الموضوع تمامًا . عند ذلك قلت لهم صبرًا فعندي أسباب الانتحار الحقيقية ، وأخرجت لهم ورقة الوصية من جيبي ، فأخذ كل منهم يقرأها ويبكي . قلت لهم إن سبب تأخري في عرضها عليكم هو رغبتي في حضور أكبر عدد من الزملاء والأصدقاء خشية ضياعها . شكروني وقرروا نشر الوصية حالاً ، وامتنعت عن إعطائها إلى أحد حتى تقدم سليم حسون ، صاحب جريدة العالم العربي ، الذي تعهد بنشرها وإعادتها في الليلة ذاتها مقابل تعهد خطي بذلك . وقبل أن أسلم الوصية للنشر طلبت من الحاضرين جميعًا التوقيع عليها(٧) .

أعاد سليم حسون الوصية وسلمتها بدوري إلى أرملة الرئيس الراحل لتحتفظ بها للتاريخ . وإتمامًا للفائدة ، أنشر في ختام هذا الكتاب نص الوصية(٨) .

ردود فعل نشر وصية السعدون

طلبني الملك فيصل بعد الفاجعة بيومين ، وأطلعني على كتاب دار الاعتماد

---

(٧) قصد الوزراء بعد وفاة السعدون ، البلاط الملكي لمقابلة الملك . وكانت ساعة مهيبة تبودلت خلالها أسمى العواطف بين عاهل البلاد الباكي على الفقيد وزملائه الحزينين . وتوجه الوزراء بعدها إلى الحضرة الكيلانية وألقى ناجي السويدي كلمة مؤثرة على قبر السعدون ، وهو يبكي بكاءً أليمًا . وخصصت جلسة المجلس النيابي في ٢١ تشرين الثاني لتأبين لسعدون وجلس الوزراء بصورة متفرقة بين النواب ، وألقيت كلمات فيها عواطف الولاء للسعدون وإمارات الاستياء الشديد بادية عليهم ، من سياسة المخاتلة والتمويه التي درج عليها البريطانيون في العراق .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٢٨٧-٢٨٩ جـ/٢ الطبعة السابعة]

(٨) راجع نص الوصية في الصفحة ٣٠٦ (الملحق رقم ٧) .

البريطاني ، وكان احتجاجًا شديد اللهجة على نشر وصية السعدون ، ويتطرق إلى الهياج الشعبي العام بعد نشرها والذي أخل بالهدوء والطمأنينة . وفي ختام الكتاب يطلب من الملك معاقبة المسؤولين عن نشرها .

أتممت قراءة كتاب دار الاعتماد ، وقلت للملك : «إني أنا الذي عثرت على الوصية وأنا الذي أعطيتها للنشر وليس هناك مسؤول عن ذلك ونتائجه سواي» . قال الملك : «لو تريثت قليلاً إلى أن نطلع على الوصية لكان ذلك أحسن للمصلحة والأمن والاستقرار[٩]» .

كلمتي عن المرحوم عبد المحسن السعدون

تعرفت على إخوان عبد المحسن الإجلاء : عبد الرزاق ، ومحمد ، وعبد الهادي ، وعبد العزيز ، وحمد ، وحامد ، وعبد الكريم ، وعبد الحميد أولاد فهد العلي الثامر السعدون ، أولاً ، ثم تعرفت على أخيهم عبد المحسن عندما انتخب نائبًا عن المنتفك في مجلس المبعوثان العثماني . وأحببته آنذاك لأخلاقه الفاضلة وحسن معاشرته وسلوكه مع الناس ، ولم أشاهده بعد ذلك حتى أصبح وزيرًا للعدلية في وزارة النقيب الثانية ، ثم رئيسًا للوزارة عندما تم نقلي من متصرفية كربلاء إلى متصرفية المنتفك . وعلى الرغم من مسؤولياتي الكثيرة عن القضايا المتعلقة بعشيرة السعدون في لواء المنتفك ، لم يكلفني عبد المحسن وهو بمركزه المرموق في بغداد بأي أمر شخصي له أو لعائلته . ثم اشتغلت بمعيته عندما انتقلت إلى مديرية الداخلية العامة ، فأتاحت لي هذه الفرصة معرفته عن قرب ، والاطلاع على مزاياه الكثيرة ومكارم أخلاقه وكرمه الذي لم أر لها مثيلاً من قبل .

كان عبد المحسن يوزع رواتب على الموظفين الذين استغنت عنهم حكومة الاحتلال من ماله الخاص ، واحتفظ كاتبه عبد الغني أفندي بسجل يحتوي على أسمائهم وتجاوز عددهم الخمسين ، ومن ضمنهم الرجل الديري الذي اعتدى عليه

---

(٩) كان للملك فيصل موقف خاص تجاه السعدون ، وكان يسعى لإضعافه وإضعاف حزب التقدم ، ويميل إلى إسناد الوزارة إلى غيره كنوري السعيد . وعند انتحار السعدون ، قوي مركز البلاط تجاه دار الاعتماد بقوله إن عبد المحسن الذي حاول التفاهم معكم أصيب بالإحباط وعجز عن تسيير دفة الحكم ، والآن لابد من تحسين سياستكم تجاه العراق .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٢٨٠ جـ/٢ الطبعة السابعة]

بالسكين في رأسه عندما كان يصعد سلم رئاسة مجلس الوزراء سنة ١٩٢٦ ، بعد أن صفح عنه ونزل في المحكمة عن حقه .

ذكر لي المرحوم يومًا حكاية حدثت له وهي من الغرابة بمكان : أخذ عبد المحسن القطار يومًا من أحد المراكز الإدارية أثناء الليل ، ولعدم وجود مقصورات شاغرة في الدرجة الأولى ، ركب في مقصورة من الدرجة الثانية ، وكان فيها رجل وزوجته نائمين . ولتحاشي إزعاجهما أخذ السعدون الفراش العلوي ونام فيه . وعلى أثر تململ السعدون في فراشه ، استيقظ الزوج وأخذ يحدث زوجته عن أعماله في القضاء ويتفاخر بها ، ويذكر لها كيف سرق أموالا من القاصة وقام بأعمال إجرامية أخرى . كان السعدون يسمع كل ذلك ، وعند وصول القطار إلى بغداد ، ترك السعدون المقصورة بعد أن عرف هوية الرجل . وفي اليوم التالي ، جاء الشخص نفسه إلى وزارة الداخلية وبيده عريضة يحتج بها على تنحيته عن القضاء ، فتفاجأ عند رؤية السعدون أمامه ، وأدرك أنه هو الذي كان رفيقه في القطار ، فخجل وترك عريضته على طاولة الوزير طالبًا الرحمة والصفح والغفران . وأعفاه السعدون بشرط إرجاع كل ما سرقه حالاً إلى الدولة .

وعرفت السعدون عفيفًا ، نظيفًا رحيمًا بالفقراء ، دمث الأخلاق ، متواضعًا طيب القلب صافي السريرة ، وطنيًا مخلصًا لبلاده ، لا يحب الدعاية عن نفسه ويتحاشى التهريج . خدم بصمت وعالج الأمور السياسية بنظرة بعيدة وبخطوات وئيدة صائبة . كان لا يحب الظهور ، ويمقت الخطب الرنانة والكلام الكثير . خدم بلاده في عهد حكم مختلط كان بداية عهد الاستقلال في ظروف صعبة تطلبت منه التضحية ، وتقبل انتقادات معارضيه وسباب المتطرفين بلا غضب . كان يقدر ظروف خصومه في الوقت الذي لم يقدروا هم ظروفه ومشاكله . كان يصفح عنهم دائمًا وينعم عليهم أيضا ، ويأخذ بالنقاط الصائبة من أقوالهم ، جاعلاً منها حجة له يتفاوض بها مع سلطات الاحتلال . كان بإمكانه أن يضرب ويسجن ويعتقل لكنه لم يفعل . احتمل وصبر وصابر إلى أن ضاقت به الحيل فأنهى حياته بيده الكريمة . رحمه الله وأكرم مثواه(١٠) .

---

(١٠) كان عمر عبد المحسن السعدون عند وفاته خمسين عامًا . وأقيم تمثال له في منطقة السعدون جمعت تكاليفه من التبرعات الكثيرة من جميع أنحاء العراق .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٢٩١ جـ/٢ الطبعة السابعة]

تولى عبد العزيز القصاب رئاسة حزب التقدم بعد وفاة السعدون .

الفصل الخامس والعشرون
وزيراً للعدلية في وزارة ناجي السويدي

تشكيل الوزارة

صدرت الإرادة الملكية بعد أربعة أيام من انتحار السعدون ، في ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٩ ، بتكليف ناجي السويدي بتكليف وزارته الأولى من أعضاء وزارة السعدون الأخيرة نفسهم مع إضافة خالد سليمان لها .

تألفت الوزارة من : ياسين الهاشمي للمالية ، وناجي شوكة للداخلية ، وعبد العزيز القصاب للعدلية ، ومحمد أمين زكي للأشغال والمواصلات ، ونوري السعيد للدفاع ، وعبد الحسين الجلبي للمعارف ، وخالد سليمان للزراعة والري ، واحتفظ رئيسها بوزارة الخارجية .

منهاج الوزارة

أخذت وزارة ناجي السويدي تسير على نهج وزارة السعدون الأخيرة ، باعتبار أن وزراءها قد شاركوا الفقيد المسؤولية . كما لم يكن بوسعهم إهمال مطالب الشعب التي اهتم بها المرحوم السعدون وعمل لها وضحى بحياته في سبيلها .

التزمت الوزارة بتطبيق المنهاج الوزاري المتفق عليه مع المغفور له عبد المحسن السعدون ، وبدأت بتأليف لجنة من وزارة المالية والداخلية والدفاع للتفاوض مع المندوب السامي الجديد (السر فرنسيس همفريز)(١) حول الأسس التي تبنى عليها

---

(١) فرنسيس همفريز Francis Hemphrys Sir : وصل كمندوب سامي جديد في ١٠ كانون الأول ١٩٢٩ ، وكان موقفه صلبًا ، رافضًا لمطالب وزارة ناجي السويدي . وكذلك كان موقف (روبرت بروك) وكيل المندوب السامي (هيوبرت يونغ) سكرتيره .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٣٠٧-٣٢٤ جـ/٢ الطبعة السابعة]

تعديلات المعاهدة العراقية - البريطانية لسنة ١٩٣٠ ، والاتفاقيات المالية والعسكرية الملحقة بها ، والبحث معه في موضوع قواعد القوة الجوية البريطانية ، وملكية ميناء البصرة والسكك الحديدية ، وموضوع تنفيذ التجنيد الإجباري الوطني .

واصطدمت اللجنة الوزارية بوجهات النظر البريطانية . وعلى سبيل المثال : أراد البريطانيون أن تشكل هيئة خاصة لإدارة الميناء والسكك الحديدية أغلب أعضائها من الإنكليز ، كذلك لم توافق دار الاعتماد على التجنيد الإجباري بحجة أن الرأي العام في العراق لم ينضج بعد إلى درجة يستسيغ معها قبوله . وأصر البريطانيون على رأيهم بأن وجود قواتهم الجوية في العراق لا ضرر منه ولا يمس استقلاله وسلامته ، وهي موجودة لتأمين طرق المواصلات مع الهند عبر العراق فقط . وأدى اختلاف وجهات النظر هذه بين الجانب العراقي والبريطاني إلى فشل المفاوضات .

العلاقات العراقية السعودية

اضطرب الأمن في صحراء نجد مرة أخرى عام ١٩٢٩ ، وبذلت الوزارة جهوداً كبيرة كي يجتمع الملك فيصل بالملك عبد العزيز السعود لتناسي الأحقاد ، وإزالة كل ما من شأنه تعكير العلاقات بين المملكتين . وتقرر أخيراً أن يجتمع الملكان في مؤتمر يعقد في خليج البصرة على ظهر الدارعة (لوبن) البريطانية في ٢٢ شباط ١٩٣٠[٢] .

بحث هذا المؤتمر:

١ . قضايا الحدود .

٢ . تسليم المجرمين .

٣ . القضايا العشائرية .

---

(٢) على أثر القضاء على حركة الأخوان ، اجتمع الملك فيصل بالملك سعود على ظهر الدراعة Lupin . صاحب الملك فيصل : ناجي السويدي ورستم حيدر وعبد الله المضايفي و(كورنواليس) وخليل إسماعيل و(الكابتن كلوب) والدكتور (سندرسن) ، وأربعة صحفيين هم : روفائيل بطي (البلاد) ، وسليم حسون (العالم العربي) ، وعبد الرزاق الحسني (الأهرام المصرية) ، ومستر كوري (الأوقات العراقية) ، وحضر الاجتماع (السر فرنسيس همفريز) المندوب السامي . صاحب ابن السعود مائة وخمسون رجلاً مسلحًا وعدد من المسؤولين .

٤ . إرجاع المنهوبات والالتزام بأسس حسن الجوار .

تقليص النفوذ البريطاني

عملت الوزارة على تقليص النفوذ البريطاني ، وذلك بالاستغناء عن بعض الموظفين الإنكليز ، والامتناع عن تمديد خدمات من انتهت مدة خدمتهم عند وجود عراقيين كفاة يحلون محلهم . ووضعت الوزارة بعض الأنظمة التي تحد من نفوذ المستشارين والمفتشين الإداريين الإنكليز ، بحيث تكون آراؤهم استشارية صرفًا لا تلزم الوزير بالأخذ بها ، حتى إن بعض هذه الأنظمة حصرت السلطة بيد الوزير بصورة كاملة .

ورفض المعتمد السامي تقليص عدد الموظفين الإنكليز أو تحديد نفوذ المستشارين والمفتشين الإداريين ، محتجًا بأن العراق لا يزال غير منضم لعصبة الأمم وبريطانيا لا تزال مسؤولة عن إدارته إلى أن يتم قبوله فيها . وطلبت الجهة البريطانية من الملك تأخير الموافقة على قرارات مجلس الوزراء ، ومنها حذف رواتب بعض المفتشين الإداريين في الألوية من فصول الميزانية .

شعرت الوزارة عندئذ بعدم إمكانها الاستمرار في العمل في جو هذه المداخلات البريطانية ، ورفع رئيسها ناجي السويدي استقالته إلى الملك بكتاب مفصل يتضمن العراقيل التي واجهتها الوزارة ، والتي كانت السبب أيضًا في انتحار رئيسها السابق عبد المحسن السعدون . وقبلت الاستقالة في ١١ آذار ١٩٣٠ .(٣)

توقعات الوزراء قبل الاستقالة

كنت قد توجست خيفة من أن يضغط الإنكليز على الملك لكي لا يصادق على قرارات مجلس الوزراء ، وصرحت بمخاوفي هذه ، لكني وجدت البعض من زملائي متفائلاً . وعلى كل حال ، أجمع المتفائلون والمتشائمون على رفض الاشتراك في أي وزارة جديدة لا تؤيد المطالب الرئيسة للوزارة في حالة استقالتها ، وكان نوري السعيد

(٣) أرسل ناجي السويدي صورة من استقالته إلى جعفر العسكري الوزير المفوض في لندن لعرض شكواه على وزارة المستعمرات في لندن . وشارك الشعب الوزارة المستقيلة سخطها بمظاهرات صاخبة يوم الجمعة ٣١ آذار ١٩٣٠ .

أكثرنا حماسة .

دعاني الملك فيصل بعد استقالة الوزارة إلى مكتبه ، وكان بادي التعب وقد أخذ منه الإرهاق مأخذًا ، وكان ناجي شوكة في مجلسه . سألني الملك عن رأيي في الدخول بالوزارة المقبلة فرفضت منتحلاً عذرًا صحيًا . ثم استمزج رأيي في أن أكلف بتأليف الوزارة الجديدة ، فاعتذرت مرة أخرى للسبب نفسه ولحاجتي للراحة(٤) . قال جلالته : «أهكذا تتركون فيصلاً لوحده في هذه الظروف؟» وكان ناجي شوكة يستمع إلى هذا الحوار باهتمام وتلهف ، واستأذن كلانا من صاحب الجلالة وانصرفنا معًا . وبعد يومين من هذا الاجتماع ألف نوري السعيد وزارته الأولى ، واشترك معه : جميل المدفعي للداخلية ، وعلي جودة للمالية ، وغيرهم .

(٤) اعتذر عبد العزيز القصاب وناجي شوكة وياسين الهاشمي وناجي السويدي عن تشكيل وزارة جديدة .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٣٢٥ جـ/٢ الطبعة السابعة]

الفصل السادس والعشرون
رئاسة التفتيش الإداري

التخلص من المفتشين الإنكليز

كان للإنكليز في العراق ، سنة ١٩٣٣ ، مفتشون إداريون لكل لواء أو أكثر ، فكان (المستر ولسن) مفتشًا إداريا للواءي الموصل وأربيل ، و(المستر كاون) للسليمانية ، و(المستر يتس) للدليم ، و(المستر كجن) للديوانية ، و(المستر جاردين) للبصرة ، و(المستر نتندل) للمنتفك ، و(المستر جفريز) للكوت . ولهولاء المفتشين رئيس يرجعون إليه هو (كنهان كورنواليس) ، مستشار وزارة الداخلية ، وذلك وفقًا لبنود المعاهدة العراقية البريطانية .

أدى هذا النظام إلى حكم إداري مزدوج ، وحدد صلاحيات المتصرفين في الألوية . وكان يدور في خلد الملك فيصل أن يقضي بدهائه وحكمته على هذه الازدواجية ، بإقناع (كورنواليس) بأن يكتفي بوظيفته كمستشار للداخلية ، وأن يترك رئاسة التفتيش الإداري إلى أحد العراقيين ممن يجد فيه الكفاية والنزاهة والحياد ، وقابلية للعمل مع المفتشين البريطانيين ، بحجة تدريبه على هذا المنصب تمهيدًا لتطبيق بنود المعاهدة في تقليص عدد المنتسبين الإداريين البريطانيين في العراق .

وجابه الملك (كورنواليس) بما يدور في خلده ، وأحرجه فوافق على ترك رئاسة التفتيش إذا ما أنيطت هذه الوظيفة بإداري قديم معروف . وعرض البلاط عليه اسمي فلم يتمكن من رفضه . ووضعت الوزارة قانونًا جديدًا للتفتيش الإداري صادق عليه الملك قبل أن ينتقل إلى رحمة الله في ٨ أيلول ١٩٣٣ .

تأخر تنفيذ القانون بضعة أشهر ، وصدرت الإرادة الملكية بتعييني رئيسًا للتفتيش الإداري في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٣ خلفًا لـ(كورنواليس) . وبقيت في هذا المنصب لمدة سنة وثلاثة أشهر ، قمت أثناءها بتنظيم أصول التفتيش الإداري . وبدأت أولا بزيارة إلى لواء أربيل عوضًا عن مفتشها الإداري الإنكليزي (ولسن) . ثم وزعت على

رفاقي المفتشين الإداريين تعليمات خاصة عن التفتيش لتكون نموذجًا يحتذى به دائمًا ، وصادقت الوزارة على هذه التعليمات وأصبح معمولاً بها إلى يومنا هذا .

كان المفتشون العراقيون الذين عملوا معي هم السادة : عبد المجيد اليعقوبي ، ونشأة السنوي ، وعمر نظمي ، وعلي البرزكان ، ومن البريطانيين (الميجور ولسن) ، و(المستر جاردين) ، و(المستر جابمن) ، و(المستر لويد) ، و(المستر نتندل) .

الفصل السابع والعشرون
وزيرًا للداخلية في وزارة جميل المدفعي الثالثة

محاولات لتأليف الوزارة

دعاني ناجي السويدي ، وأنا رئيسٌ للتفتيش الإداري ، في ٤ آذار ١٩٣٥ ، لشرب الشاي في مزرعته في الزعفرانية . وعند عودتنا أخبرني أن من المؤمل أن يؤلف جميل المدفعي[1] وزارته الثالثة هذا اليوم أو في الغد ، وسألني إن كنت راغبًا في الاشتراك بها ، وأجبته أني منشغل بوظيفتي المهمة وأعتذر عن المشاركة .

وقبل وصولي إلى داري صادفني خميس الضاري ، رئيس عشيرة (زوبع) ، وهو راجع منها ، وعجبت كثيرًا عندما هنأني بوزارة الداخلية . قلت له : «من أين لك هذا الخبر؟» أجاب : «علمت به من خطاب جميل المدفعي في اجتماع الحزب هذا اليوم ، والذي صرح فيه عن تأليفه الوزارة الجديدة وإسناد الداخلية إليك» . واستغربت ، كيف يعلن عن اسمي من غير أخذ رأيي في القبول؟ . ودخلت مع خميس إلى البيت وأخذت الهاتف أفتش به عن جميل المدفعي ، ووجدته أخيرًا في دار محمود صبحي الدفتري . كلمته بغضب سائلاً : كيف تسوغ له نفسه أن يضمني لوزارته من غير علمي؟ ، وأخذ يعتذر ويعدني بأنه قادم إليّ ليطلعني على جلية الأمر .

وهكذا كان ، فبعد مرور عشر دقائق جاء وبرفقته توفيق السويدي ، وبعد دخوله غرفة الاستقبال ، طلب من خميس الضاري الخروج وأغلق الباب خلفه, وأقبل عليّ يقبل رأسي ووجهي ، قائلاً : إنه فهم من توفيق السويدي عن أخيه ناجي بأني أقبل بوزارة الداخلية ، وكان هذا ما يتوقعه مني من استعدادي للعمل في الظروف الحرجة

(١) جميل المدفعي : رجل سياسة مستقل بارز ، ألف سبع وزارات من أصل تسع وخمسين وزارة في العهد الملكي ، وهو بذلك يأتي بالمرتبة الثانية بعد نوري السعيد . اشترك في الثورة العربية الكبرى وقاد معركة تحرير تلعفر قبل بداية الحكم الوطني ، وحكم عليه بالإعدام آنذاك .

للمصلحة العامة ، فقدم اسمي ضمن الوزراء المرشحين إلى جلالة الملك غازي ، وإن جلالته قد وافق عليها . وبعد أخذ ورد طويلين رضخت للأمر الواقع(٢) .

الحالة المتوترة في الفرات الأوسط

سألت في اليوم التالي لمباشرتي بوزارة الداخلية مديرها العام ، مصطفى العمري ، عن الوضع المتوتر في البلاد وأسبابه ، فأجابني : بأن هناك اضطرابات منحصرة في منطقة الفرات الأوسط . ثم سألت المستشار (كورنواليس) السؤال نفسه ، فأجاب : بأنه يسمع بالاضطرابات ولا يعرف أسبابها ، وقد أرسل معاونه (ديجبرن) للمنطقة لمعرفة الحقيقة .

وعاد (ديجبرن) في اليوم التالي ، وأعطانا معلومات خلاصتها أن رؤساء العشائر : كعبد الواحد سكر وآخرين من الديوانية والسماوة ، وأعضاء من مجلس الأعيان : كمحسن أبو طبيخ وعلوان الياسري والشيخ سماوي الجلوب ، وكلهم من المعارضين لوزارة علي جودة الأيوبي السابقة ، قد أعلنوا العصيان . وموقفهم ناشئ عن تصرف الوزارة في انتخابات المجلس النيابي الأخيرة ، الذي لم يُمثل فيه البعض منهم ، وزاد على ذلك أن الوزارة لم تنظر في اعتراضاتهم عليها ولم تستجب لها . وهم غير مؤيدين أيضًا لوزارة المدفعي الحالية ولا يقبلون بأي وزارة تتألف من غير موافقتهم(٣) .

وفي اليوم الثالث من مباشرتي ، علمت أن العين السيد محسن أبو طبيخ قد غادر بغداد بسيارة مشحونة بالأسلحة والأعلام العراقية الكبيرة قاصدًا النجف والديوانية . وطلبت من الشرطة أن تعيده إلى بغداد ، فأعادته بعد ساعتين . تحادثت معه لمدة طويلة ، وأخفقتُ في إقناعه بالعدول عن العصيان . ادعى أبو طبيخ ،

---

(٢) تألفت الوزارة من جميل المدفعي رئيسًا ، وعبد العزيز القصاب للداخلية ، ويوسف غنيمة للمالية ، وتوفيق السويدي للعدلية ، ونوري السعيد للخارجية ، ورشيد الخوجة للدفاع ، ومحمد أمين زكي للأشغال والمواصلات ، وعبد الحسين الجلبي للمعارف . عملت هذه الوزارة من ٤- ١٧- آذار ١٩٣٥ وهي أقصر وزارة في العهد الملكي .

(٣) عزت وثيقة وزارة الخارجية البريطانية F.O.371/18945 June 1935 سقوط وزارة الأيوبي إلى غياب البلاط في تأييده للوزارة ، وأثار ذلك القبائل فأصبحت مؤثرة لأول مرة بعد ثورة العشرين .

معتذرًا : أنه ينتمي إلى حزب سياسي[٤] ملتزم بخدمة البلاد ومصلحتها العامة وهو لن يتخلى عن سياسة حزبه ، أما إذا كانت الحكومة تريد أن تمنعه من السفر فلتفعل . أجبته : إن القصد من إرجاعه هو لكي نطّلع على مطالب جماعته وحزبه ولسنا نريد منعه من السفر أو الحد من حريته ، وإن الحكومة على استعداد للاستجابة لمطالب المتمردين إن وجدتها محقة وعادلة . أما أعمال الشغب والعصيان ورفع السلاح بوجه الحكومة فهي مخالفة للدستور ومخلة بالأمن والاستقرار ، ومعرقلة لتقدم البلاد ، وقد تؤدي الى إزهاق الكثير من الأرواح البريئة ولا تعود بالفائدة على أحد .

اجتمع مجلس الوزراء في ٩ آذار ١٩٣٥ ، وبين لنا الرئيس أنه طلب من وزارة الدفاع تهيئة قوة عسكرية تتجه إلى النجف و(أبو صخير) لتنفيذ أوامر الحكومة وللسيطرة على التمرد[٥] .

وأدرج هنا نص جواب رئيس أركان الجيش حول الحركات العسكرية في منطقة الفرات الأوسط :

من رئاسة أركان الجيش إلى معالي الوزير **الرقم ٧١٣٥**

١٠ اذار ١٩٣٥

أعرض ملحوظاتي فيما يتعلق بالقرار الذي اتخذته الحكومة الموقرة عصر يوم ١٩٣٥/٣/٩ بشأن الحركات ضد الشيخ عبد الواحد الحاج سكر :

١ . ليس من صلاحياتي المداخلة في مقررات الحكومة الإدارية ، ولكن أرى من

---

(٤) الحزب هو حزب الإخاء الوطني ، ومن أعضائه رشيد عالي الكيلاني ، وحكمة سليمان ، وياسين الهاشمي . وفي اجتماعهم الذي سمي بمؤتمر الصليخ قرروا إسقاط وزارة الأيوبي ، إما سلميًا أو بثورة مسلحة . ولم يوافق رئيسه الهاشمي في بادئ الأمر على استعمال القوة ، إلا أنه انضم أخيرًا إلى رأي زملائه الآخرين .

(٥) كان المدفعي والسويدي وبقية الوزراء مع (كورنواليس) مستشار الداخلية يحبذون ضرب العشائر المتمردة وقصفهم بالطائرات . ولم يكن نوري السعيد وعبد الحسين الجلبي محبذين للحل العسكري ، وكان موقف عبد العزيز القصاب ضد التدخل العسكري منذ البداية .

[الحسني (تاريخ وزارات عراقية) ص : ٦٤-٧١ جـ/٢ الطبعة السابعة]

واجبي أن ألفت نظر معاليكم إلى خطورة القرار الآنف الذكر .

٢ . أصدرت أوامر الإنذار إلى الوحدات التي سوف تشترك بهذه الحركات ، وسوف يبدأ التحشد في مساء هذا اليوم ١٩٣٥/٣/١٠ ، وستجتمع الوحدات بموجب الخطة الموضوعة في المحلات اللازمة وتكون مستعدة للحركة ضد القبائل عندما تقرر الحكومة ضربهم .

٣ . تختلف هذه الحركة عن الحركات التي جرت سابقًا ضد الشيخ محمود والشيخ أحمد البرزاني والآثوريين ، من حيث تأثيرها على الرأي العام وعطفه على بعض الجماعات منها . ففي الحركات ضد الآثوريين كان الرأي العام بأجمعه يؤيد الحركة ، أما في هذه الحركة فالقتال سينشب ضد قبائل كثيرة النفوس تقطن مناطق وعرة من حيث الحركات الأرضية ، إذ إن المساحة ذات أهوار ومستنقعات وجداول . والمعلومات السابقة تدل على أن حركة الشغب واسعة النطاق لها اتصال بقبائل عفك والرميثة ، وأن البعض من علماء الجعفرية من النجف يشجعها .

والمهم أن ثلاثة من مجلس الأعيان من مديري هذه الحركة هم السيد محسن أبو طبيخ ، والسيد علوان الياسري ، والشيخ سماوي الجلوب ، فضلاً عن الباعث الأصلي لها هو موقف مجلس الأعيان تجاه الوزارة السابقة . وليس من البعيد أن يستغل المعارضون والمشاغبون هذه الحركة ويبثوا روح التمرد في بعض الجماعات ، كما أن الذين يشتغلون بالطائفية من الموظفين وأعضاء مجلس الأمة وغير الموظفين قد يميلون للاستفادة منها .

٤ . والأمر الأهم أن أكثر جنود الوحدات من أهل القبائل في العمارة والمنتفك والحلة ، وأن البعض من الضباط من أولاد المشايخ ، وقد تسري روح البغضاء إلى بعض من الجنود والضباط المذكورين ، الأمر الذي يؤثر على نجاح الحركات .

٥ . ومن ناحية أخرى إن موقف الدولة الخارجي حرج بسبب الاختلاف بين العراق وإيران على الحدود . فالقتال قد يؤثر على هذا الموقف .

٦ . لا أقصد من ملحوظاتي هذه أن تظهر الحكومة ضعفًا تجاه القبائل المتمردة ، إنما أرغب في أن نستعمل الحكمة والبصيرة قبل الشروع بالقتال .

طه الهاشمي
الفريق
رئيس أركان الجيش

إيفاد وزير الداخلية إلى منطقة التمرد

كان توتر الحالة في منطقة الفرات الأوسط موضوع مداولة طويلة في مجلس الوزراء ، قرر بعدها إيفاد لجنة وزارية مكونة مني ومن نوري السعيد وزير الدفاع ، وأمين زكي وزير المواصلات والأشغال ، إلى الديوانية للاطلاع على الأوضاع هناك وإقناع المتمردين وإرشادهم ، وتقديم تقرير إلى مجلس الوزراء ، واقتراح ما يمكن عمله للسيطرة على هذا التمرد . واقترح نوري السعيد الاكتفاء بوزير الداخلية فقط في الذهاب وانتظار نتائج جهوده في حل الأزمة .

وأبديت استعدادي للقيام بهذه المهمة شرط أن تعطيني الوزارة وعدًا بأن لا تقوم بأي عمل عسكري قبل رجوعي من مهمتي ، ولمدة أقصاها عشرون يومًا . أيد الوزراء رأيي فطلبت من الرئيس أن يبدي كل وزير رأيه على انفراد فأكد كل منهم على موافقته .

كلفت سكرتير مجلس الوزراء بأن يأمر مديرية السكك الحديدية بتأجيل مغادرة القطار النازل إلى الديوانية . تركت ديوان الرئاسة إلى وزارة الداخلية واتصلت هاتفيًا بالبيت لإحضار حقائبي ، وخرجت من هناك إلى المحطة يصاحبني الحاج محسن شلاش ، الذي طلب مني أن لا أستعجل الأمور وأن لا أترك مجالاً لاستعمال القوة ضد العشائر المتمردة .

لحقت بالقطار الذي كان في انتظاري في الواحدة والنصف بعد الظهر يوم ١٠ آذار ، ووصلت الديوانية الساعة الواحدة بعد نصف الليل ، واتصلت هاتفيًا عند وصولي بقائم مقام السماوة ، طالبًا منه إرسال رؤساء عشائر السماوة جميعهم في أقرب وقت ممكن ، على أن يكونوا في الديوانية في المساء . وطلبت من جميل سعيد في الرميثة الاهتمام ومرافقة الرؤساء في طريقهم إلينا .

ووصل رؤساء (بني حجيم) بعد الغروب ، وشرحت لهم موقف الوزارة ورغبتها بحل الأزمة سلميًا ، فوعدوني بأن يكونوا رهن إشارة الحكومة والعمل بما يأمر به صاحب الجلالة . وكذلك قابلت محمد العبطان من رؤساء (الخزاعل) ، وعمران الجياد وبريد الجاهل وحسين الجفات من (الزياد) ، ورئيس (الجوابر) مع ستة من رفاقه . وتعهد جميعهم بالطاعة والانصياع لأوامر الحكومة . وطلب مني الحاج صلال ومهدي الفاضل التوسط لدى الملك غازي لحل مجلس الأعيان ؛ لأنه كان السبب في هذه الحركة .

وبعدها جاءني مزهر الفرعون ، عم عبد الواحد الحاج سكر ، وقال إن المكاتبات كانت جارية منذ ثلاثة شهور بين الرؤساء : موحان الخير الله ، وسيد عبد المهدي ، وعبد الله الياسين ورؤساء (الدليم) ، كان الهدف منها الاتفاق ضد وزارة الأيوبي ، وقال : «إني أطلب منك أن تواجه عبد الواحد الحاج سكر في الفيصلية» ، قلت له : «إن هذا غير ممكن قبل أن يسحب عبد الواحد مقاتليه المسلحين من الجسور الواقعة بين الفيصلية وأبو صخير ، وقبل أن يقوم بتصليح ما خرب منها» .

وكلمني مزهر الفرعون مرة أخرى من (الفيصلية) وقال : إن عبد الواحد قد أخلى الجسور وطرد هاتف الغضبان من هناك . وسألت مدير ناحية الفيصلية عن صحة ذلك فأجاب : بأن عبد الواحد قد سلم الجسور الصغار فقط ولم ينسحب من الجسر الكبير في المشخاب . وأجابني قائم مقام أبو صخير : بأن الجسر هذا لا يزال محتلاً من قبل هاتف وجماعته ، كما أن هناك مائتي مسلح على طريق أبو صخير .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً ، كلمني مزهر الفرعون في التلفون للمرة الثالثة واستفسر عما أطلبه من عبد الواحد ، وأجبته : بأني قد تأكدت من أن المسلحين لا يزالون مقيمين على الجسر الكبير ، ولذا لا أريد أن أكلف عبد الواحد بأي شيء آخر الآن . ووعد مزهر مرة أخرى بطرد المسلحين من جماعة هاتف من الجسر .

وجاءني سلمان الجبار من (الأكرع) وبين لي شكواه من ثلاث قضايا تعود لشعلان العطية ، ومحمد العبطان ، ومن قضية الغرامة المطلوبة من الحاج جلاب من عشيرة (العفالجة) . وجاءني أيضًا سلمان العبطان ، أحد رؤساء العشائر ، ومعه سبعة من الرؤساء والسراكيل المتنفذين من (الخزاعل) و(الشبل) ، وكلمتهم طويلاً عن الوضع المتأزم . قالوا : إنهم قدموا طلبات كثيرة للحكومة السابقة ولم تنفذ منها شيئًا ، وهم لا يضمرون للحكومة الحالية سوءاً ويتركون لجلالة الملك النظر في مطالبهم ، وسيمتثلون لأوامره من غير قيد أو شرط . ووعدوا بأنهم سيطلبون من عبد الواحد سكر ، إنهاء التمرد والذهاب إلى بغداد فإن لم يمتثل لرغبتهم تركوه وشأنه .

وفي يوم ١٣ آذار ، قابلت سلمان الجبار وسيد كاظم ، بعد رجوعهما من مقابلة شعلان العطية ، وأفادوا بان شعلان لا يأمن المجيء ، وطلبت منهم أن يبلغوه بضرورة انسحاب رجاله المسلحين من صدر الدغارة حالاً وإن لم يفعل فسنعتبره متمردًا .

واجتمعت أيضًا بسراكيل عشيرة (الأكرع) القريبين من مركز الديوانية ووجدتهم موالين للحكومة . وقابلت الحاج مخيف وحاج صلال ، وأفادوا بأن عمران الحاج

سعدون ، رئيس (بني حسن) ، وشلال العبد كريم ، رئيس (الفتلة) ، طلبوا منهما التوسط لحسم القضية سلميًا ، وأنهما وإن كانا على اتفاق مع عبد الواحد ، يريدان الآن أن لا يزداد الموقف حراجةً . وطلبت منهما أن يبلغوهم بالكف عن هذه الطلبات ، وأني سأعمل جهدي لإنهاء التمرد سلميًا ، وعدم إعطاء المجال لتدهور الأوضاع .

وقابلت السيد مجيد فؤاد ومحمد العبد الله والحاج محمد علي الجاسم وسيد عصفور . وقد تأكد لي في هذين اليومين من المتصرفين والمصادر الموثوقة الأخرى أن المجتهد السيد محمد حسين كاشف الغطاء كان يحرض على العصيان ، وأن وكيله في الرميثة ، الشيخ أحمد أسد الله ، كان يحرض رؤساءها على التمرد قائلاً إن ذلك بتوجيه من الشيخ كاشف الغطاء .

وأنقل هنا نص صورة كتاب آمر قوة الفرات المرقم ٦/٥/١ ، والمؤرخ في ١٩٣٥/٣/١٣ المعنون إلى رئيس أركان الجيش ، وصورة منه إلى وزير الدفاع :

١ . وصلت مركز لواء الديوانية ظهر يوم ١٣ الجاري لاستطلاع الحالة ، وقد اتصلت توًا بكل من متصرف اللواء ومدير الشرطة . وقد فهمت الحركات التي قامت فيها عشيرة آل الفتلة في منطقة المشخاب وتلك موضحة في كتاب مدير الشرطة المربوطة صورته بهذا ، وفي الوقت نفسه فهمت أيضًا أن شعلان العطية من عشيرة الأكرع قد شغل ناظم الديوانية برجاله المسلحين وعددهم ما يقرب من الخمسين رجلاً .

٢ . وقد استوضحت من متصرف اللواء عن العشائر الموافقين والمعارضين ، وفي طيه أقدم الجواب ، ويتضح لسعادتكم منه أن أكثرية العشائر المهمة هم معارضون .

كذلك أقدم بطيه صورة من تقرير مدير شرطة لواء الحلة للاطلاع على حالة عشائر الفتلة القاطنين في منطقة الهندية والجسور وغير ذلك .

٣ . وقد فهمت من تحسين بك العسكري المفتش الإداري ، الذي رافقني بالقطار من الهاشمية إلى الحلة ، أن رئيس عشائر الفتلة سماوي الجلوب قد وزع على أفراد عشيرته ما يقرب من مائتي بندقية ، وقد رفض الحضور لدى متصرف اللواء عند دعوته إياه للمقابلة في الهندية .

وبدون شك أن سعادتكم اطلعتم على نتائج زيارة معالي وزير الداخلية إلى الديوانية ، فلا أميل إلى التطرق لوضع عشائر الفرات الأوسط (من جهة الموالاة والمعارضة) حيث ذلك ليس من اختصاصي ، وأبدي ملحوظاتي التالية من وجهة

الحركات العسكرية فقط ، وذلك إذا كنا نتذكر جيدًا ما أصاب الجيش العثماني من الويلات من الحرب العامة عند تقهقره ، والحروب العشائرية التي قام بها أيضًا الجيش العثماني قبل الحرب وما أصابه من عطب . وأخيرًا ، الثورة العراقية ضد الإنكليز بعد الحرب في الفرات الأوسط ، يظهر لنا جيدًا أن هنالك قوة واتحادًا بين تلك العشائر لا يستهان بها ، ويجب أن يحسب لها حسابها الصحيح ولا يعتمد عسكريًا على درجة الولاء الظاهرية من قبل بعض العشائر ، لأنها دائمًا تتبع المواقف الحزبية ليس إلا .

فنظرًا إلى :

ا . تعاهد واتفاق ما يقارب معظم عشائر الفرات الأوسط .

أ . ولعدم إجراء حركات حربية في منطقة المشخاب المغمورة في الوقت الحاضر في المياه الكثيرة .

ب . ولكوننا غير مطمئنين من ولاء عشائر الفتلة ، القاطنين في منطقتي الهندية والكوفة ، والشاغلين معظم خط المواصلات ما بين الحلة -طويريج -كوفة -أبو صخير . وما بين الحلة- طويريج- النجف- أبو صخير على جانبيه تقريبًا .

فأرى أن رتل الشالجي المرسل إلى أبو صخير يهدد بخطر الانقطاع عن قاعدته ، وبتعبير أصح ، معرض لخطر المحاصرة من بعد أول إطلاقة ، (كما أن الجيش الإنكليزي - حسب ما يقال - وقع في الفخ نفسه في أثناء الثورة العراقية) . وأما رتل الديوانية فموقفه مناط بالسكة الحديدية .

١ . وأخيرًا ، وكتدبير تمهيدي لتسكين الحالة في المشخاب والدغارة والرميثة ، اسمحوا لي أن أقترح على سعادتكم التوسط :

أ . يسحب المتصرف الحالي من الديوانية في هذه الظروف لتوتر العلاقات بينه وبين رؤساء العشائر ، وإرسال متصرف حازم ليطمئن في أعماله النفوس المضطربة .

ب . إرسال هيئة ناصحة من رجال الجعفرية المتنورين ، وممن تربطهم صلة الصداقة مع الشيخ عبد الواحد الحاج سكر لنصحه والاستماع إلى ظلامته وتطمينه بمعالجتها من قبل الحكومة .

ج . توسط علماء الجعفرية البارزين ، كأمثال العلامة كاشف الغطاء وغيره .

٢ . يعتبر عدم نجاح القضية بأمثال هذه الوسائل المقنعة وإصرار الجماعة على مناوأة

الحكومة ؛ فحينئذ يجب التفكير من الآن لتدارك القوة الكافية لقمع الثورة . وإن هذه الحركة لا تخفي على سعادتكم لا تشابه الحركات الثورية الأخرى التي حدثت في العراق منذ تأسيس الحكم الوطني ؛ فيجب اعتبارها بما تستحقه من الاعتبار .

(كان آمر قوات الفرات آنذاك ، بكر صدقي ، ومتصرف الديوانية ، عبد الحميد عبد المجيد ، ومدير شرطة لواء الديوانية عبد الجبار الراوي) .

تأزم الأوضاع في بغداد

زودت رئيس الوزراء أثناء وجودي في منطقة التمرد بأخبار ما قمت به من أعمال سرية وعلنية . وكلمني المدفعي تلفونيًا في ١٤ آذار وطلب مني العودة حالاً إلى بغداد . أجبته : بأن العصيان على وشك الانتهاء كما نرغب ، وأن جميع العشائر قد انفصلت عن عبد الواحد سكر ، والتحالف بينهم أصبح منحلاً تقريبًا ولم يبق سوى إخلاء دائرة ري (الدغارة) من أتباع شعلان العطية ، وإجلاء جماعة عبد الواحد سكر من جسور (الفيصلية) ، وأملي أن ذلك سيتم قريبًا . قال رئيس الوزراء : إن الوضع متأزم في بغداد ، وإن جمعًا من المحامين قد قابلوا الملك وقدموا مطالب خاصة ، ورأيت مع الإخوان رجوعكم إلى بغداد للنظر في الأمر .

انتظرت القطار الراجع من البصرة وتركت الديوانية بعد منتصف الليل ، ورأيت عند وصولي بغداد مصطفى العمري ، مدير الداخلية العام ، ينتظرني في المحطة ، وطلب مني الذهاب إلى دار محمود صبحي الدفتري حيث ينتظرني الوزراء جميعهم ، أجبته : إني متعب جدًا وبحاجة ماسة إلى بعض الراحة في داري .

وفي صباح اليوم التالي ، عرضت على رئيس الوزراء ما عندي من معلومات ، وقلت له : إن الحركة نشأت من مجلس الأعيان ، وإن المشجعين لها ، هم : ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني ، والأعيان : محسن أبو طبيخ وعلوان الياسري وسماوي الجلوب ، رئيس عشائر الفتلة . وإني وجدت عشائر الديوانية والسماوة غير راضية عما حدث ، ويطلبون من الحكومة عدم تشجيع هذه الأساليب . وإذا ما تألفت وزارة جديدة وحلت المجلس النيابي فسيطلبون من الملك حل مجلس الأعيان أيضًا . وبما أن هذه البادرة غير محمودة وخطرة ، اقترحت على رئيس الوزراء الاتصال بياسين الهاشمي الذي كان سببًا لهذا العصيان ، فوافق على ذلك وكلفني أن أقوم بهذه المهمة لوحدي .

الاتصال بالمعارضة

طلبت من ياسين الهاشمي القدوم إلى مجلس الوزراء ، وعرضت عليه ، بحضور المدفعي ، تفاصيل الموقف في الفرات الأوسط فأبدى أسفه . وطلبت منه أن يستنكر الحالة في الصحف المحلية ، لأن العشائر المتمردة تسند أسباب التمرد إليه وإلى رفاقه في حزب الإخاء الوطني ، وطلب الهاشمي إمهاله حتى المساء ، وجاءني وأخبرني أنه لا يتمكن من إعلان استيائه في الجرائد ، وطلب مني أن آذن له بالانصراف لأن رشيد عالي وحكمة سليمان هم في طريقهم إليّ وهو لا يريد أن يشاهداه معي هنا ، وعجبت لقوله هذا . وبعد مغادرته بخمس دقائق دخل حكمة ورشيد وأخذا ينتقدان الانتخابات التي قامت بها وزارة الأيوبي وأعمال الوزارة الأخرى ، ويهددون ويتوعدون . أجبتهم موضحًا الحالة التي وصلت لها هيبة الحكومة في لواء الديوانية وأثر تمرد العشائر على الأمن والاستقرار ، وطلبت منهم التبصر والحكمة وعدم استعجال الأمور . وقد شعرت من مجيئهم أنهم كانوا يتوخون الاطلاع على رأي الوزارة في معالجة الموقف .

وعلمت أن جميل المدفعي كان ينوي ضرب المتمردين برًا وجوًا . قابلت الملك غازي وبسطت له الحالة ، مبينًا ما اطلعت عليه من موقف العشائر ونية رئيس الوزراء بقصفهم بالطائرات . ولفت نظره إلى قرب حلول عيد الأضحى وما سيسببه القصف من المشاكل في مثل هذه الأيام ، وردود فعل الشعب المتوقعة ، ورجوته عدم الموافقة على استعمال القوة .

وفي اليوم الأول من العيد ، أرسل جلالة الملك سكرتيره لتبليغ المدفعي بضرورة الاستقالة ، وعلى أثر ذلك اجتمع مجلس الوزراء واتفق على صيغة الاستقالة ورفعها للملك ، فقبلها .

بداية التدخل العسكري في السياسة في العراق

شكل ياسين الهاشمي وزارته الثانية على أثر استقالة وزارة المدفعي الثالثة في ١٧ آذار ١٩٣٥ ، وكان في عضويتها رشيد عالي الكيلاني ورفاقه في المعارضة(٦) .

---

(٦) ألفت الوزارة الجديدة من ياسين الهاشمي رئيسًا ووزيرًا للمالية ، ورشيد عالي الكيلاني وزيرًا للداخلية ، وجعفر العسكري وزيرًا للدفاع ، ونوري السعيد وزيرًا للخارجية ، ومحمد أمين زكي وزيرًا للاقتصاد والمواصلات ، ومحمد رضا الشبيبي وزيرًا للمعارف ، ومحمد زكي البصري وزيرًا للعدلية .

زرت الهاشمي بعد يومين للتهنئة ، واقترحت عليه عدم الإسراع في حل المجلس النيابي والانصياع الى مطالب المتمردين ، وأن يتريث ولو بضعة أشهر تفاديًا لتشجيع فئات أخرى من العشائر للقيام بأعمال مماثلة في المستقبل لحل المجالس النيابية بالطريقة نفسها . كما اقترحت عليه تحديد إقامة عبد الواحد سكر وشعلان العطية في ألوية بعيدة عن مناطقهم عقابًا لما قاما به من تمرد وعصيان ، وبينت له أن إفلاتهم من أي عقاب سيشجع غيرهم من الفئات المناوئة لهم على القيام بالأعمال نفسها .

لم تعر وزارة الهاشمي هذه المقترحات اهتمامًا وحلت المجلس النيابي بعد أسبوعين من تأليفها ، ودخلت بغداد خمسون سيارة محملة برؤساء التمرد ، وهم مدججون بسلاحهم الكامل ، دخول الفاتحين ، وطافوا على دواوين الوزراء مهنئين .

توالي العنف في السياسة العراقية

كان لنجاح التمرد العشائري في الفرات الأوسط في إسقاط وزارة المدفعي أثر سيئ في مستقبل العراق ، وكان بادرة خطرة من رجال السياسة أن يشجعوا أتباعهم للاستهتار بالقوانين والدستور والإخلال بالأمن . أفلت القائمون بحمل السلاح ضد الحكومة من العقاب ، وكوفئوا بكراسي في مجلس الأمة وبسطوة ونفوذ ومناصب مرموقة . كان هذا الحدث مشجعًا لغيرهم لاتباع الأسلوب نفسه ؛ فاستعلمت القوة المسلحة للتحكم في السياسة في فترات متعددة من تاريخ العراق الحديث ، أودى بأرواح غالية وقضى على الاستقرار ورجع بالبلاد القهقرى .

تعرضت وزارة الهاشمي من يوم تأليفها إلى سلسلة من حوادث العنف ، منها ما حدث في الكاظمية(٧) ، تلاها عصيان عشائر (بني زريج) الذي امتد إلى عشائر الرميثة(٨) ، وأدى إلى إعلان الأحكام العرفية ، ثم اختل الأمن في سوق الشيوخ(٩)

---

(٧) كان سبب حوادث الكاظمية تشييد دائرة للبرق والبريد في مقبرة مهجورة أدت إلى معركة بين الأهالي والشرطة ، فذهب ضحيتها ثلاثة عشر قتيلاً وثمانون جريحًا .

(٨) ثورة الرميثة الأولى أو حركة خوام العبد العباس رئيس قبائل الأزيرج ، أخمدتها مدافع الجيش والغارات الجوية .

(٩) ثورة سوق الشيوخ ٦ تموز ١٩٣٥ نتيجة لإسقاط حق (السراكيل) الذي كان قائمًا منذ الاحتلال الإنكليزي . امتدت الثورة إلى الناصرية وأخمدت بعد قتال عنيف اشتركت به وحدات الجيش .

وبعده في الناصرية ، وأعلنت الأحكام العرفية هناك أيضًا . ثم انتقلت الحركات من الجنوب إلى الشمال فثار البرزانيون في قضاء الزيبار[١٠] ، ثم اليزيديون في قضاء سنجار[١١] ، وأعلنت الأحكام العرفية . واندلع التمرد في عشائر (بني ركاب) و(الأكرع) في السماوة وأعلنت الأحكام العرفية فيهما أيضًا .

بقيت وزارة الهاشمي في الحكم حتى ٢٩ تشرين الأول ١٩٣٦ عندما بلغت حوادث العنف ذروتها بانقلاب الجيش عليها بقيادة بكر صدقي ومساعده شاكر الوادي . قصفت الطائرات العراقية ، ولأول مرة ، مقر رئاسة الوزراء ، هذه الطائرات التي طالما قامت بواجبها ضد المتمردين على الحكومة . وزحف الجيش على العاصمة بغداد ، هذا الجيش المكلف بالدفاع عن حدود الوطن . وكُتبَ لوزير الدفاع ، جعفر العسكري ، أول من أسس الجيش العراقي ، أن يُقتل بمسدسات صغار ضباطه عند ذهابه للقاء الجيش الزاحف خارج بغداد ، لا يصاحبه إلا مرافقه الخاص ، محاولاً إقناع قادة الانقلاب بالعدول عن نواياهم وإيقاف زحفهم والغارات الجوية على بغداد الآمنة .

فر ياسين الهاشمي ووزراؤه ، ومنهم رشيد عالي ونوري السعيد إلى الشام ، وكان مَثلهم مَثل من استعمل سيفًا ذا حدين ، قاوموا خصومهم بحد ورجع عليهم بالحد الآخر . ودخل بكر صدقي بغداد دخول الفاتحين ، وتألفت وزارة حكمة سليمان ، وكان هذا بداية مؤلمة للتدخلات العسكرية في السياسة في العراق .

إن طريق الوصول إلى الحكم واضح وجلي نصت عليه دساتير الدول المتقدمة وقوانينها ، وهو الطريق الديمقراطي السوي بتأليف الأحزاب والحصول على الأكثرية في الانتخابات البرلمانية . وإن قيل إن الانتخابات لم تكن حرة في بلادنا فليس من المعقول أنها ستبقى كذلك إلى الأبد . ومن رأيي أن السير على طريق تأليف الأحزاب والجمعيات والنقابات يُعوِد الشعب على استعمال حقوقه في الانتخابات الحرة السليمة الشريفة . والطريق هذا هو الأفضل ، وإن كان طريقًا طويلاً شاقًا ومتعبًا ، وهو

---

(١٠) ثورة مصطفى البرزاني نتيجة لرفضه إنشاء مخافر الشرطة في منطقة البرزانيين ، ومقتل قائم مقام الزيبار ومهندس الأشغال .

(١١) ثورة اليزيديين بسبب رفض زعيمهم داود الداود قانون الدفاع الوطني والتجنيد الإجباري لسنة ١٩٣٥ باعتبار أن ذلك مخالفًا لتعاليم الديانة اليزيدية .

أضمن من العنف واستعمال القوة ، اللذين يأتيان بنتائج سريعة لكنها غير سليمة . إن الأسلوب الديمقراطي المتبع في دول أوربا الشمالية والغربية لهو أفضل بكثير من الأساليب التي استغلت في الكثير من الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية .

مراقبًا للحسابات العامة

عينت مراقبًا عامًا لحسابات الدولة بدرجة وزير خلفًا لتوفيق السويدي في ١٨ كانون الأول ١٩٣٧ ، واستغرقت خدمتي في هذا المنصب أكثر من ثماني سنوات حتى أحلت على التقاعد لبلوغي السن القانونية في ١٤ أيلول ١٩٤٦ . بذلت جهودي في هذه المدة لتنظيم هيئات تدقيق حسابات متعددة لدوائر الدولة المختلفة ، حددنا واجباتها بتفاصيل دقيقة واضحة .

وقد اطلعنا على الكثير من المخالفات في حسابات بعض الدوائر ولفتنا أنظار الوزراء المعنيين لها . وكنا نرجع إلى رئاسة مجلس الوزراء عندما لا نتوصل إلى نتيجة مع الوزارة المعنية ، ثم نقدم تقاريرنا النهائية إلى المجلس النيابي للاطلاع على اعتراضاتنا على المخالفات المالية لإجراء ما يقتضي بشأنها .

وأجد من الضروري هنا أن أسجل أن مجلس الأمة لم يتخذ أي إجراء رادع بحق دوائر الحكومة المعنية أو الأشخاص المسيئين في جميع القضايا التي عرضت عليه .

الفصل الثامن والعشرون
صالح جبر ومعاهدة بورتسموث

تعديل معاهدة ١٩٣٠

جاء في منهاج وزارة توفيق السويدي الثانية ، في ٢٣ شباط ١٩٤٦ ، ضرورة تعديل معاهدة ١٩٣٠ وتحسين العلاقات العراقية - البريطانية . وشكلت لجنة وزارية فاتحت الجانب البريطاني إلا أنها لم تُوفق في عملها .

تلا السويدي ، أرشد العمري في وزارته الأولى ، ثم نوري السعيد في وزارته التاسعة ، ثم شكل صالح جبر وزارته الأولى في ٢٩ آذار ١٩٤٧[(١)] ، جاء في منهاجها أنها ستعمل على تعديل المعاهدة لتكون معاهدة الند للند ، وألفت لجنة للتفاوض من : صالح جبر ، رئيس الوزراء ، وشاكر الوادي ، وزير الدفاع ، وصالح صائب الجبوري ، رئيس أركان الجيش . استمرت اللجنة بالتفاوض لمدة طويلة ، في بغداد ثم في لندن ، مستفيدة من وجود عبد الإله ، الوصي على العرش فيها[(٢)] ، وتقررت المواد الواجب إدخالها في المعاهدة .

اقترح نوري السعيد دعوة بعض النواب والأعيان إلى قصر الرحاب في ٢٨ كانون الأول ١٩٤٧ للاطلاع على آرائهم في المواد المطلوب تعديلها . واجتمع في القصر ما

---

(١) تشكلت وزارة صالح جبر منه رئيسًا ووزيرًا للداخلية ، ويوسف غنيمة ، للمالية ، وفاضل الجمالي ، للخارجية ، وجمال بابان ، للعدلية ووكيلاً للاقتصاد ، وعبد الإله حافظ ، للتموين ، وضياء جعفر ، للمواصلات والأشغال ، وجميل عبد الوهاب ، للشؤون الاجتماعية ، وشاكر الوادي ، للدفاع ، وتوفيق وهبي ، للمعارف ، وفي ٩ أيلول انضم إليها توفيق النائب كوزير للداخلية .

(٢) غادر عبد الإله ، الوصي على العرش بغداد في ٤ تموز ١٩٤٧ وتألفت هيئة الوصاية على العرش من عبد العزيز القصاب رئيس مجلس النواب ، رئيسًا ، والسيد محمد الصدر ، رئيس مجلس الأعيان ، والسيد عبد المهدي ، أعضاء .

يقرب من عشرين شخصية ، منهم : نوري السعيد ، وتوفيق السويدي ، وجميل المدفعي ، وحكمة سليمان ، وحمدي الباجه جي ، وأرشد العمري ، والسيد محمد الصدر وأنا ، إضافة إلى عدد من النواب والأعيان . وعرض على المجتمعين الأسئلة الثلاثة التالية :

١ . هل العراق بحاجة إلى معاهدة تحالف مع دول أجنبية أم لا؟

٢ . وإذا كان في حاجة إلى ذلك فمن هي الدولة الأجنبية؟

٣ . ما هي الأسس التي تعتبرونها صالحة لهذه المعاهدة؟

أجمع الحاضرون على الإجابة بنعم عن السؤال الأول ، وعلى أن هذه الدولة هي بريطانيا ، كجواب على السؤال الثاني . أما السؤال الثالث ، فكانت الإجابة عنه تختلف باختلاف الأشخاص .

أسس تعديل المعاهدة

اجتمع في قصر الرحاب ، في اليوم الثالث من كانون الثاني ١٩٤٨ ، كل من : نوري السعيد ، وصالح جبر ، وأحمد مختار بابان ، واتفقوا على تثبيت أسس تعديل المعاهدة ، كما يلي :

١ . رفع بحث خطوط المواصلات من مقدمة المعاهدة .

٢ . رفع قيد المشاورات في الأمور السياسية والخارجية ، والاكتفاء بـ (أن لا ينتهج أحد الفريقين المتعاقدين سياسة معادية للفريق الآخر) .

٣ . تسليم القاعدتين الجويتين البريطانيتين ، في الحبانية والشعيبة ، إلى العراق .

٤ . عدم السماح لبقاء قوات مسلحة بريطانية في العراق في زمن السلم .

٥ . إلغاء حصر استخدام الاختصاصيين بالبريطانيين في العراق .

٦ . إنهاء الاتفاقيات الخاصة بالسكك الحديدية والميناء ، وتسليم هذين المرفقين الهامين إلى العراق .

٧ . ضرورة تسليح الجيش العراقي والقوة الجوية الملكية العراقية بالأسلحة عينها التي تتسلح بها القوات البريطانية وفي الوقت نفسه الذي يتم فيه تسليحها .

٨ . رفع القيود الموجودة فيما يتعلق بالتمثيل السياسي في المعاهدة .

وقد احتجت الأحزاب السياسية لعدم دعوتها لاجتماعات قصر الرحاب ومناقشة بنود المعاهدة الجديدة .

التوقيع على معاهدة (بورتسموث)

أوفد مجلس الوزراء ، في ٤ كانون الثاني ، وفداً يمثل العراق إلى لندن برئاسة رئيس الوزراء ، صالح جبر ، وعضوية كل من وزير الخارجية ، فاضل الجمالي ، ووزير الدفاع ، شاكر الوادي ، ورئيس مجلس الأعيان ، نوري السعيد ، والعين توفيق السويدي ، وخول الوفد صلاحية التفاوض لتعديل المعاهدة حسب الأسس التي أقرها مجلس الوزراء .

توصل الوفد إلى عقد معاهدة (بورتسموث) ووقع عليها ، وأبرق صالح جبر من لندن إلى وكيله ووزير العدلية ، جمال بابان ، لإعلان المعاهدة في بغداد[٣] . وكنت في ذلك الوقت رئيساً للمجلس النيابي .

استنكار شعبي

ما إن أعلنت المعاهدة حتى أصدرت الأحزاب السياسية بيانات تنتقدها . واستنكر الشعب المعاهدة فقام الطلاب بمظاهرات صاخبة انطلقت من كلية الطب ، وحاصرتهم قوات من الشرطة وهم داخل الكلية ورمتهم بالرصاص ، فاستشهد أحد الطلاب وجرح خمسة آخرون . وأخذ عميد الكلية يستنجد لفك الحصار عنها ، فاتصل برئاسة المجلس النيابي ورئاسة مجلس الأعيان[٤] .

اتفقت مع صادق البصام ، وكيل رئيس مجلس الأعيان ، على الذهاب سويةً إلى مجلس الوزراء وكانت هيئته مجتمعة . طلبنا منهم حسم التصادم وفك الحصار عن الكلية ، لكن الوزراء رفضوا طلبنا ، وقال وكيل الرئيس : إنهم مسيطرون على الأوضاع ، ثم وجه إلينا سؤالاً عما إذا كنا سنوافق على إعلان الإدارة العرفية إذا

(٣) وقعت المعاهدة في بورتسموث Portsmouth بجنوب إنكلترا في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٨ ، ونشرت ترجمتها العربية وأعلنت في بغداد في ١٦ كانون الثاني . وكان يترتب على الوفد المفاوض ، دستوريًا عرض المعاهدة على الوزارة ومجلس الأمة قبل إقرارها .

(٤) تأزمت الحركة الطلابية في كلية الطب نتيجة وصول ضحايا المظاهرات إلى المستشفى ، فأضرب الطلاب عن الدراسة ، وحاولوا تشييع الضحايا فحاصرتهم الشرطة في الكلية ، وأطلقت النار عليهم من رشاشاتها ، فقتل اثنان أحدهما طالب من كلية الصيدلة . واستقال عميد الكلية المرحوم الدكتور هاشم الوتري وكثير من الأطباء من مناصبهم .

أقرتها الوزارة . أجبناه : أن ذلك من صلاحية الوزارة وليس من شأننا ، وعليهم تقدير الموقف والسيطرة عليه ، وسيكونون مسؤولين عن ذلك أمام المجلس . رجعت مع صادق البصام إلى المجلس وغادر الوزراء إلى البلاط .

ومما يجدر ذكره ، أني لاحظت غمزًا وهمسًا تبودل بين جمال بابان ووزير الداخلية ، توفيق النائب ، علمت بعدها أنه كان حول ولدي الدكتور عبد المجيد ، نائب بغداد ، والذي صادف أنه كان موجودًا في كلية الطب أثناء تأزم الموقف وشاهد بعينيه إطلاق النار على الطلبة ، فاتصل بوزير الداخلية من أحد مختبرات الكلية ، راجيًا منه أن يأمر الشرطة بالانسحاب كشرط لرجوع الطلاب إلى صفوفهم ، لكن الوزير رفض الطلب ، متهمًا ولدي بالتحريض على الحركة وتزعمها .

الوصي يتخلى عن المعاهدة

دعا الوصي على العرش بعد مدة وجيزة أعضاء الوزارة ورئيسي مجلس الأعيان والنواب وسألنا عن رأينا في التطورات الأخيرة ، وأجبناه : بأننا نطلب منه معالجة الوضع بالحكمة . أمر الوصي بعد ذلك رئيس التشريفات بأن يدعو شخصيات كثيرة من الأعيان والنواب وغيرهم وأمر أن نبقى معه إلى حين وصولهم(٥) .

وعندما اكتمل الحضور بعد ساعتين ، استعرض الوصي موضوع المعاهدة والاضطرابات التي اندلعت بعد إعلانها . وطلب من كل واحد من الحاضرين أن يبدي رأيه عنها ، وانتقد الجميع المعاهدة وطلبوا رفضها ، عدا السيد عبد المهدي الذي تكلم عنها بإسهاب ، واتهم الحزب الشيوعي بدعم الاضطرابات ، واستنكر كامل الجادرجي مع قسم من الحاضرين هذا الاتهام وأكدوا أن المظاهرات كانت وطنية قومية وعربية صرف .

وعند ختام المناقشة ، أمر الوصي رئيس ديوانه أحمد مختار بابان أن يعلن للجمهور بأن المعاهدة لا تضمن حقوق الشعب وأمانيه ، والعدول عن تقديمها إلى المجلس . انتشر هذا الخبر في جميع أنحاء البلاد واستبشر الناس جميعًا عدا من كان في حزب صالح جبر من الأعيان والنواب .

---

(٥) عقد هذا الاجتماع في ٢١ كانون الثاني ١٩٤٨ ، وحضره خمس وعشرون شخصية سياسية . قرر المشاركون في الاجتماع دعوة صالح جبر إلى الرجوع إلى بغداد حالاً .

عودة رئيس الوزراء وتوتر الأوضاع مرة أخرى

عاد صالح جبر من لندن في ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٨ ، وأصدر منشورًا أنذر فيه الشعب بلزوم الخلود والسكينة ووعد بشرح بنود المعاهدة وتفاصيلها ، بينما أعطى وزير الداخلية أوامره إلى قوات الشرطة لأخذ مواقع للسيطرة على المظاهرات من كل محل مرتفع ، كمنائر الجوامع .

رأيت ، وأنا واقف في شرفة المجلس النيابي المطلة على دجلة ، المتظاهرين من الطلبة والأهالي ، يعبرون جسر المأمون (والذي سمي بعدئذ بجسر الوثبة أو جسر الشهداء) . وما إن وصلوا منتصف الجسر حتى أخذت الشرطة تصليهم بنيران رشاشاتها من أعلى منارة جامع حنّان في جانب الكرخ ومنارة جامع الآصفية في جانب الرصافة ، وانحصر المتظاهرون بين النارين ، وشاهدت قسمًا غير قليل منهم يرمون أنفسهم في النهر للتخلص من نيران الرصاص .

وبدأ التلفون بدائرتي يتوالى رنينه ، فتارة جميل المدفعي ، وتارة يوسف غنيمة ، وزير المالية ، ومكالمات أخرى من مختاري المحلات ، يطلبون مني التدخل لحفظ أرواح الناس . حاولت الاتصال برئيس الوزراء والبلاط من غير جدوى ، ولم أفلح بالاتصال بأي مسؤول آخر . وأخذ الكثير من النواب يجتمعون في غرفتي وفي الشرفة أمامها وهم يبدون قلقهم وامتعاضهم وطلبوا مني التوسط أيضًا ، وجاءني الصحفيون بالطلب نفسه . أجبت الجميع : بأني عاجز عن القيام بأي عمل ، ولم أتمكن من السيطرة على ألمي الشديد وحزني العميق لهذه المأساة التي وصلت إليها البلاد ، فقدمت استقالتي من رئاسة المجلس والنيابة بعد أن أصبحت غير قادر على تلبية مطالب الشعب أو حتى عرضها على المسؤولين(٦) . جمعت أوراقي وذهبت إلى بيتي في كرادة مريم ، عن طريق شارع الملك غازي وجسر الملك فيصل الأول ، متفاديًا مواقع الاشتباكات .

وعند وصولي البيت ، سمعت صوت صالح جبر من الإذاعة يقرأ منشوره الثاني

---

(٦) استقال عبد العزيز القصاب من رئاسة المجلس مع عشرين نائبًا ، هم : نصرة الفارسي ، ورضا الشبيبي ، وذيبان الغبان ، وجعفر حمندي ، وعبد الهادي صالح ، وعبد الرزاق الشيخلي ، وريسان الكاصد ، ومصلح النقشبندي ، ونجيب الصائغ ، وأحمد الجليلي ، ومشحن الحردان ، وعامر الكامل ، وأنور جميل ، وبابا علي الشيخ محمود ، وعلي الدليمي ، ومحمد مهدي الجواهري ، ومحمد النقيب ، وجاسم مخلص ، وأركان عبادي ، وعبد العزيز جميل .

وينذر الأهالي بلزوم منع أولادهم من التظاهر ويهددهم بالعقاب الصارم . وفي عصر ذلك اليوم أذيع خبر استقالة صالح جبر وقبول الوصي لها ، واستولى الوجوم والقلق على الناس منتظرين ما سيحدث بعد ذلك .

وفي اليوم التالي زارني أحد رؤساء العشائر قادمًا من الكاظمية ، وأخبرني بأن الوضع فيها ليس طبيعيًا ، وأن الناس هناك هم ضد استقالة صالح جبر ، ويدّعون أنه قد أجبر على الاستقالة لأنه شيعي ، وأخذوا يتصدون لكل من لا يؤيدهم .

محاولات تأليف وزارة جديدة

كلمني أرشد العمري تلفونيًا في الساعة العاشرة صباحًا وأخبرني بأن سمو الوصي قد كلفه بتشكيل الوزارة فهل يقبل عبد الله القصاب الاشتراك فيها؟ واقترحت عليه أن يكلمه بصورة مباشرة ونصحته أن يتريث لأن الموقف حرج والمسؤولية كبيرة ، ومن الصعب تحقيق مصلحة البلاد تحت هذه الظروف ، فعجب لكلامي هذا وقطع المكالمة .

وفي الساعة الثانية عشرة ظهرًا ، ذهبت إلى البلاط وقابلت الوصي وبينت له ما حصل من استقرار وطمأنينة بعد استقالة الوزارة ، وأخبرته عما شاع في البلد عن تكليف أرشد العمري ، فقال : إنه كلف الصدر أولاً فلم يقبل فكلف أرشد ، وقال أيضًا : إنه كلما كلف السيد الصدر بوزارة تجنب المسؤولية ورفض . وكلفني بالتوسط بينه وبين الصدر والتحري عن أسباب رفضه(٧) .

ذهبت عصر ذلك اليوم إلى بيت الصدر وجلست معه لوحدنا ، وكلمته بصراحة تامة ، شارحًا له تأزم الحالة في البلاد ولزوم إناطة المسؤولية بأمثاله من الرجال المخلصين . وأخبرني أنه رفض تكليف الوصي معتذرًا بأسباب صحية ، ولمته على ذلك وألححت عليه بالقبول خدمةً للوطن .

وبينما نحن في أخذ ورد ، دخل علينا كل من : الحاج رايح العطية وخيون العبيد ، فطلبت منهما أن يتركانا لوحدنا . ألححت عليه كثيرًا بقبول المسؤولية ، فقال لي : «إذا

---

(٧) السيد محمد الصدر : ولد سنة ١٨٨٥ ، رجل دين ذو نفوذ كبير في الكاظمية ، كان وطنيًا نشطا في شبابه إبان الأيام الأولى للاحتلال البريطاني ، وقام بدور بارز في ثورة العشرين ، ثم حدد اشتراكه في الحكم الوطني برئاسة مجلس الأعيان فقط ورئاسة وزارة واحدة بعد صالح جبر .

كان البلد يطلبه فهو بدوره يطلب مشاركة أشخاص يعتمد عليهم في المسؤولية ، مثل : حكمة سليمان ، وأنا ، وجميل المدفعي ، ورضا الشبيبي ، ومحمد مهدي كبة ، ونصرة الفارسي ، وحمدي الباجه جي ، وجلال بابان ، وصادق البصام . ودعته بعد ذلك وانصرفت ذاهبًا إلى البلاط حيث نقلت الى الوصي ما جرى من حديث بيني وبين السيد الصدر ، وموافقته بعد التمنع ، وشروطه في إشراك رجال معينين ذكرت له أسماءهم . حضر هذا اللقاء رئيس الديوان الملكي أحمد مختار بابان .

شكرني الوصي وطلب مني أيضًا أن أستوضح مطالب رجال الأحزاب وإعطاءه جوابًا سريعا في تلك الليلة .

وعند خروجي من البلاط ، وجدت أرشد العمري المكلف بالوزارة الجديدة ومعه أعضاء وزارته ينتظرون قرار الوصي النهائي . لحق بي أرشد ومعه مصطفى العمري وسألاني عما جد من الأخبار وعن سبب ترددي على البلاط ، أجبتهم : بأني أقوم ببعض الاتصالات السياسية بتكليف من الوصي .

وعند وصولي البيت بدأت أبحث تليفونيا عن الشبيبي والفارسي وغيرهما ، ودق جرس التلفون وإذا بجعفر حمندي يطلب موعدا مني لمقابلة ممثلي الأحزاب فرحبت بقدومهم . ولم تمضِ مدة قصيرة حتى حضر إلى داري السادة : محمد مهدي كبة ، عن حزب الاستقلال ، وكامل الجادرجي ، عن الحزب الوطني الديمقراطي ، وعلي ممتاز ، عن حزب الأحرار ، وجعفر حمندي ، عن الجبهة النيابية ، وطلبوا مني ما يلي :

١ . أن أبلغ الوصي بأنهم لا يوافقون على وزارة يؤلفها أرشد العمري لأنها سوف لن تتمكن من حل المشاكل وإيقاف المذابح ، ويؤيدون وزارة يؤلفها السيد الصدر ، وإن رفض فجميل المدفعي ، وإن رفض فعبد العزيز القصاب ، أو نصرة الفارسي .
٢ . أن ترفض معاهدة (بورتسموث) .
٣ . حل المجلس النيابي لأنه لا يمثل الشعب .

أظهرت للمجتمعين استعدادي لنقل مطاليبهم إلى الوصي ، واقترحت عليهم تركيزها بموضوع تأليف الوزارة فقط ، وتقديم المطاليب الأخرى بعد تأليف الوزارة الجديدة . ووافق الجميع على رأيي هذا إلا كامل الجادرجي ، الذي بقى مصرًا على تقديم المطاليب بأجمعها مرة واحدة إلى الوصي ، وأخذ عهد منه بتنفيذها وإلا فإن الاضطرابات ستستمر . وانصرف الجميع من عندي في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل .

اتصلت بالبلاط ، وكلمني أحمد مختار بابان وأخبرني أن الوصي لا يزال في

انتظاري . ذهبت لمقابلته وأبلغته نتيجة اجتماعي بممثلي الأحزاب ومطاليبهم ، وشكرني ورجعت إلى البيت . وبعد ساعة طلب حضوري للبلاط مرة أخرى ، ورأيت هذه المرة السيد الصدر وجميع الرجال الذين اقترحهم للمشاركة في وزارته ، بالإضافة إلى عمر نظمي وداود الحيدري .

وخرج علينا بعد برهة الوصي من غرفته وأخذ يعاتب جميل المدفعي عما نقل عن لسانه ، بأن صباح نوري السعيد كان يرمي المتظاهرين على الجسر من طائرته العسكرية ، والتفت الوصي إلى صالح صائب الجبوري رئيس أركان الجيش وسأله عن صحة هذا الخبر ، فأجاب بالنفي . وتدخلت في المناقشة لتخفيف حدة التوتر ، وقلت إني شاهدت طائرة تحوم فوق الجسر لكني لم أشاهدها تضرب المتظاهرين .

وانتقل الوصي إلى موضوع الوزارة وقال إنه كلف السيد الصدر بتأليفها ، وطلب التعاون معه . تكلم حكمة سليمان وجلس (ركبة ونص)[٨] مخاطبًا الوصي : بأنه لا يريد أن يدخل الوزارة ، لكنه يطلب منه أن يحقن الدماء وإلا فانه سيشترك مع المتظاهرين . وترك الوصي الاجتماع بعد أن سمع كلام حكمة سليمان .

وأخذ المجتمعون يتداولون في توزيع المناصب الوزارية . كلف الصدر جميل المدفعي بوزارة الداخلية ، وألححنا عليه بالقبول لكنه رفض ، واقترح أن تناط هذه الوزارة بي ، واعتذرت ، وكررنا الرجاء منه فسكت . ثم كلف الصدر رضا الشبيبي ونصرة الفارسي أن يشتركا معه ، وأخذنا جميعنا نلح عليهما بضرورة القبول . واختلف حمدي الباجه جي وأرشد العمري على منصب وزير الخارجية ، وكل منهما يطلبها لنفسه ، وأقنع الوصي أرشد أن يقبل بوزارة الدفاع وترك الخارجية لحمدي الباجه جي . ثم وزعت الوزارات الأخرى على عمر نظمي ، وداود الحيدري ، وجلال بابان ونجيب الراوي ، ومصطفى العمري ، وأخذ آخرون مراكز وزارية بلا وزارة[٩] .

---

(٨) جلس (ركبة ونص) : بمعنى أخذ موقفًا معارضًا بإصرار .

(٩) تشكلت وزارة الصدر في ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ من جميل المدفعي للداخلية ، وحمدي الباجه جي للخارجية ، وأرشد العمري للدفاع ، وعمر نظمي للعدلية ، ومصطفى العمري للاقتصاد ، ورضا الشبيبي للمعارف ، ونجيب الراوي للشؤون الاجتماعية ، وصادق البصام للمالية ، ومحمد مهدي كبة للتموين ، وجمال بابان للمواصلات والأشغال ، ونصرة الفارسي وداود الحيدري ومحمد الحبيب وزراء بلا وزارة .

تنازل الوصي عن الوصاية

دعانا الوصي لشرب الشاي بعد أن تم تسجيل أسماء الوزراء ، وعند دخولنا غرفة الطعام سألته إن كان مرتاحًا من النتيجة فأجاب بالإيجاب .

وبعد أن تمت مراسيم تأليف الوزارة الجديدة في مجلس الوزراء في اليوم التالي ، ذهب أعضاؤها كافة لمقابلة الوصي في البلاط لتقديم الشكر على ثقته حسب الأصول المرعية ، وهنا أبرز الوصي للوزراء كتابًا يتنازل به عن الوصاية ، قرأه الصدر على الوزراء مبديًا عجبه وأسفه . والتمس الصدر ووزراؤه من الوصي العدول عن قراره وألحوا بالرجاء حتى استرجع الوصي كتاب الاستقالة وانتهى الأمر[(١٠)] .

(١٠) يتوقف هنا كاتب المذكرات ، حيث لم يتبوأ منصبًا سياسيًا بعد هذا التاريخ حتى وفاته في ١٠ حزيران ١٩٦٥ .

الملاحق

الملحق رقم (١)

ترجمة البرقية الرمزية التركية الأولى من والي الموصل إلى قائمقام الزيبار

سوف يجري إخلاء ولاية الموصل بكاملها من طرف جنودنا . وسيكون للانكليز إذا شاؤوا إشغال بعض أقسامها التي يريدونها ، وإذا شاءوا الولاية كلها . وقد تعينت هذه الجهات بالتبليغات والمقررات الرسمية . وكما لا توجد إشارة أو صراحة بشأن الحكومة الملكية (المدنية) في بنود المتاركة ، كذلك لم يرد ولا جواب واحد إلى الآن على استفساراتنا المتعددة من استانبول . وإن عدم ورود الجواب من استانبول منبعث بالطبع من التأخيرات المنحوسة في المخابرات البرقية . كما لا يوجد شك أن عدم وجود إشارة أو صراحة في بنود المشاركة منبعث عن عدم وجود لزوم لإدراج ذلك فيها . لأن من مقتضيات القواعد المعلومة والمعروفة ، التي لا تحتاج إلى البيان والتصريح ، أنه عندما تدخل أية جهة تحت الأشغال (الاحتلال) العسكري ، بالاستناد إلى عقد المشاركة ، فإن جميع الموظفين الملكيين (المدنيين) العثمانيين في تلك الجهة يقومون بالدوام على أداء وظائفهم ، وفق القوانين والأصول العثمانية الموضوعة كما في السابق . وبناء عليه ، فإن الموظفين الملكيين (المدنيين) وبضمنهم موظفي العدلية والمالية وسائر الموظفين ، سيداومون على إيفاء وظائفهم كالسابق باسم الدولة العلية . إلا إذا قام الانكليز بأفعال وحركات يتخذونها حجة للإخلال بهذه القواعد . فحينئذ لا يكون من الجائز قطعياً ولا من القابل كلياً التشبث بمنعهم وإجبارهم . ولذلك يجب الاعتناء بغاية الحذر لعدم إعطائهم مثل هذه الحجة . إن الانكليز أمة مغرورة متغطرسة . وأعتقد أن الشرط الأساسي للنجاح هو في مسايرة كبريائهم وغطرستهم (نحوستهم) . فإذا جاؤوا إلى تلك الجهات يجب الإسراع في إكمال الأسباب المتعلقة بتأمين إسكانهم وإعاشتهم واستراحتهم . كما تجب اليقظة والإسراع في تنفيذ رغباتهم بصورة مطلقة فيما يتعلق بتأمين الضبط والأمن وما يماثل ذلك من الأحوال . وكما يقتضي بقدر الإمكان زيادة إظهار الاحترام والتعظيم نحوهم . وبناء على أن جنودنا ستنسحب بكاملها فإن الحاجة ستكون ضرورية ولازمة إلى معاونتهم على الأكثر في تأمين الضبط والأمن . ويقتضي أن يقوم الدرك

(الجاندرمة) بالتعاون في العمل معهم ، وإذا أرادوا فرض رقابتهم على الدرك فلا تمانعوهم ، ويجب الاجتناب إلى آخر درجة من أي عمل يجر إلى حادثة .

لقد تلقوا رفع العلم (العثماني) هنا على الدوائر والمؤسسات الرسمية تحدياً لهم فرفعوا علمهم على سراي الحكومة . وقد سببت هذه المسألة أهم النتائج . فلا يجب إفساح المجال لوقوع أسباب تدعو إلى تشبثهم برفع علمهم على دائرة الحكومة . أما إذا رفعوا علمهم على دائرة الحكومة ، بالرغم عن اتخاذ لتدابير المانعة غير المحتمة ، فكيف يكون العمل؟ في هذا الحال لا يجوز ترك الوظيفة بسبب ذلك بصورة قطعية . وحيث إنني أرى مما لا يقبله عقلي أن يقوم رؤساء الموظفين الملكيين (المدنيين) ، الذين لوظائفهم صفة سياسية ، والذين هم ممثلون للحكومة في الأماكن التي يكونون فيها ، أن يقوموا بأداء وظائفهم تحت علم أجنبي . فعند وقوع مثل هذا الحال على رؤساء الموظفين الملكيين أن يجتنبوا الانفكاك عن دائرة الحكومة بحجة داع أو سبب . أما الخروج إلى الدور والتفتيش في الملحقات فيكون على شكل واضح ، يرتكز على مادة الحكومة الملكية (المدنية) ، ولما كان من المنتظر أن ينعقد الصلح قريباً فإلى ذلك الحين يجب الاحتراز إلى أقصى درجة من إحداث مسائل تجعل الدوام في إيفاء الوظائف باسم الدولة العلية عديم الإمكان .

إن بقاء الحكومة الملكية (المدنية) على هذا الشكل في الأماكن التي سيشغلها (يحتلها) الإنكليز ، ودوام الهيئات والموظفين الذين يمثلون الدولة العثمانية على أداء وظائفهم باسم الدولة العلية ، إنما هو على التحقيق من موجبات المنافع العالية الوطنية ؛ فإنني أرجو من جميع رفقائي والموظفين أن يتحلوا بالصبر والتحمل ويظهروا الاعتدال لأجل سلامة ومنفعة المملكة ، وأن يبذلوا الهمة والكياسة بكل ما لديهم من قوة لتأمين هذا الخصوص .

وكيل والي الموصل
نوري

الملحق رقم (٢)

ترجمة البرقية الرمزية التركية الثانية
إلى قائمقامية الزيبار

١- إنني أعتبر المادة الخامسة من البيان الذي أصدره حضرة الجنرال مارشال ، القائد العام للجيش البريطاني ، المبين فيه بقاء الحكومة العثمانية المعتبرة على وضعها الحاضر في ولاية الموصل ، والمبلغ من وكالة قيادة الجيش بصورة كيفية مع الأسف بتذكرتها المؤرخة ١١ تشرين الثاني سنة ١٣٣٤ رومية كما يلي :
إن الإدارة الملكية التركية في مدينة الموصل وفي ولاية الموصل سوف تبقى بمجموعها على حالتها الحاضرة ، وستبقى شُعب الشرطة في وظائفها . وإلى حين صدور الأمر الأخير سيبقى موظفو الإدارة الملكية التركية في وظائفهم ، لغرض إدامة الضبط والقانون ، وسيكونون مسؤولين أمام الحاكم السياسي الذي سيعينه القائد العام لهذا الغرض . أما المدنيون من الأهالي الذين يرغبون في العودة إلى بلادهم ، فإنهم سيرسلون من قبل الموظفين الإنكليز .

٢- إن دوام قيام الحكومة الملكية بوظائفها باسم الدولة العلية - العثمانية - من مقتضيات المنافع العالية للوطن ، لذلك ليس لأي موظف غيور من موظفينا أن يترك وظيفته وموقعه ما لم يجبر على ذلك ، أو يتعرض بصورة قطعية إلى عدم الإمكان للبقاء . لهذا يجب أن يداوم على وظيفته . ولما كان ترك الوظيفة يستوجب الضرر لنا فإن تركها يستلزم المسؤولية بشدة ، وهذا أمر طبيعي .

٣- عند حضوري إلى الموصل أمس كنت قد تباحثت عن ما إذا أرادوا رفع علمهم على سراي الحكومة . فعلى الموظفين الملكيين (المدنيين) من غير الرؤساء أن يداوموا على وظائفهم كالسابق . أما رؤساء الموظفين الملكيين فحيث أنهم ممثلون للحكومة ، فليس من الموافق أن يقوموا بوظائفهم الرسمية تحت علم أجنبي ، وبملاحظة ذلك يجب اللجوء إلى سبب وحجة لخروجهم إلى الملحقات لغرض الدور والتفتيش ، وسيكون ذلك مناسباً كما بحثت . ويحتمل أن لا تكون الأحوال والأوضاع ملائمة للدور والتفتيش . ويلاحظ قوياً أن الانكليز من الجهة الأخرى يتحرون حجة لانفكاك هؤلاء من المركز فيعتبرونهم أنهم تركوا

الملحق رقم (٢)

ترجمة البرقية الرمزية التركية الثانية
إلى قائمقامية الزيبار

١- إنني أعتبر المادة الخامسة من البيان الذي أصدره حضرة الجنرال مارشال ، القائد العام للجيش البريطاني ، المبين فيه بقاء الحكومة العثمانية المعتبرة على وضعها الحاضر في ولاية الموصل ، والمبلغ من وكالة قيادة الجيش بصورة كيفية مع الأسف بتذكرتها المؤرخة ١١ تشرين الثاني سنة ١٣٣٤ رومية كما يلي :
إن الإدارة الملكية التركية في مدينة الموصل وفي ولاية الموصل سوف تبقى بمجموعها على حالتها الحاضرة ، وستبقى شُعب الشرطة في وظائفها . وإلى حين صدور الأمر الأخير سيبقى موظفو الإدارة الملكية التركية في وظائفهم ، لغرض إدامة الضبط والقانون ، وسيكونون مسؤولين أمام الحاكم السياسي الذي سيعينه القائد العام لهذا الغرض . أما المدنيون من الأهالي الذين يرغبون في العودة إلى بلادهم ، فإنهم سيرسلون من قبل الموظفين الإنكليز .

٢- إن دوام قيام الحكومة الملكية بوظائفها باسم الدولة العلية - العثمانية - من مقتضيات المنافع العالية للوطن ، لذلك ليس لأي موظف غيور من موظفينا أن يترك وظيفته وموقعه ما لم يجبر على ذلك ، أو يتعرض بصورة قطعية إلى عدم الإمكان للبقاء . لهذا يجب أن يداوم على وظيفته . ولما كان ترك الوظيفة يستوجب الضرر لنا فإن تركها يستلزم المسؤولية بشدة ، وهذا أمر طبيعي .

٣- عند حضوري إلى الموصل أمس كنت قد تباحثت عن ما إذا أرادوا رفع علمهم على سراي الحكومة . فعلى الموظفين الملكيين (المدنيين) من غير الرؤساء أن يداوموا على وظائفهم كالسابق . أما رؤساء الموظفين الملكيين فحيث أنهم يمثلون للحكومة ، فليس من الموافق أن يقوموا بوظائفهم الرسمية تحت علم أجنبي ، وبملاحظة ذلك يجب اللجوء إلى سبب وحجة لخروجهم إلى الملحقات لغرض الدور والتفتيش ، وسيكون ذلك مناسباً كما بحثت . ويحتمل أن لا تكون الأحوال والأوضاع ملائمة للدور والتفتيش . ويلاحظ قوياً أن الانكليز من الجهة الأخرى يتحرون حجة لانفكاك هؤلاء من المركز فيعتبرونهم أنهم تركوا

وظائفهم .

إن أصل المسألة هو دوام الحكومة العثمانية على إيفاء وظائفها . ويجب أن لا يترك المجال للأحوال المانعة لذلك بصورة قطعية . وإذا اقتضى الحال حتى في الأماكن التي يرفع عليها العلم البريطاني أن يكتفى بمجرد الدوام إلى الدائرة الرسمية .

لقد تم عقد المتاركة بين الألمان والحلفاء وإن الصلح أصبح قريباً . وإن من الألزم على كل حال أن يداوم موظفونا على تمثيل حكومتنا .

وكيل والي الموصل

نوري

الملحق رقم (٣)

مكاتيب سرية
تركية من جهة الجزيرة

لقد توفقنا إلى مسك مكاتيب تركية بدفعات مختلفة بتاريخ كانون الثاني ١٩٢٥ ، قبل وصول بعثة عصبة الأمم وبعد وصولها . وهذه المجموعات معنونة للحزب التركي في الموصل ، ومعها كتب رمزية أيضاً فيها بعض التعليمات إلى الأحزاب الأخرى الموجودة في أربيل وكركوك والسليمانية . وإن اطلاعنا على هذه الرسائل قبل وصولها لأصحابها كان خدمة عظيمة للعراق ؛ وقد توفقنا إلى الاطلاع على التعليمات الواردة في هذه المكاتيب ، ومن جملتها ما ورد في البريد الأول وهو ما يأتي :

١- إخبار الأحزاب بقدوم الترك إلى الموصل .
٢- إيفاد ناظم بك نائب كركوك وفتاح بك نائب السليمانية وبعض الموظفين من الدائرة الخارجية برفقة وفد عصبة الأمم .
٣- وجوب اتخاذ الوسائط اللازمة لتفهيم اللجنة رغبتكم بالاتحاد مع الوطن .
٤- يجب أن تكون جمعيتكم ناجحة بإخبار اللجنة بما تطلبون .
٥- على الجمعية أن تنشر نفوذها في البلد وجميع النواحي والقرى .
٦- يجب إخبار المركز بالأشخاص والهيئات والشيوخ الذين يميلون إلينا لإعطائهم المكافآت اللازمة .
٧- لزوم رفع أعلام كبيرة وصغيرة لتفهيم لجنة عصبة الأمم رغباتكم بلزوم إجراء المظاهرات ضد العراق والانكليز .
٨- لزوم تنظيم مضابط عديدة تطلبون فيها التحاقكم مع تركيا .
٩- بما أن الإنكليز تعهدوا بتأمين الحرية للسكان فلا تخافوا من السلطة ابداً .
١٠- سنرسل لكم نشرات باللغة التركية والكردية لتوزعوها على أهل الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية ، وكذلك نسخة من المذكرات التي قدمتها الحكومة إلى عصبة الأمم لتطلعوا عليها .
١١- بما أن الانكليز يعلمون أن عصبة الأمم ستوافق على مصالحها فيجب أن تجاهروا

الملحق رقم (٣)

مكاتيب سرية
تركية من جهة الجزيرة

لقد توفقنا إلى مسك مكاتيب تركية بدفعات مختلفة بتاريخ كانون الثاني ١٩٢٥ ، قبل وصول بعثة عصبة الأمم وبعد وصولها . وهذه المجموعات معنونة للحزب التركي في الموصل ، ومعها كتب رمزية أيضاً فيها بعض التعليمات إلى الأحزاب الأخرى الموجودة في أربيل وكركوك والسليمانية . وإن اطلاعنا على هذه الرسائل قبل وصولها لأصحابها كان خدمة عظيمة للعراق ؛ وقد توفقنا إلى الاطلاع على التعليمات الواردة في هذه المكاتيب ، ومن جملتها ما ورد في البريد الأول وهو ما يأتي :

١- إخبار الأحزاب بقدوم الترك إلى الموصل .
٢- إيفاد ناظم بك نائب كركوك وفتاح بك نائب السليمانية وبعض الموظفين من الدائرة الخارجية برفقة وفد عصبة الأمم .
٣- وجوب اتخاذ الوسائط اللازمة لتفهيم اللجنة رغبتكم بالاتحاد مع الوطن .
٤- يجب أن تكون جمعيتكم ناجحة بإخبار اللجنة بما تطلبون .
٥- على الجمعية أن تنشر نفوذها في البلد وجميع النواحي والقرى .
٦- يجب إخبار المركز بالأشخاص والهيئات والشيوخ الذين يميلون إلينا لإعطائهم المكافآت اللازمة .
٧- لزوم رفع أعلام كبيرة وصغيرة لتفهيم لجنة عصبة الأمم رغباتكم بلزوم إجراء المظاهرات ضد العراق والانكليز .
٨- لزوم تنظيم مضابط عديدة تطلبون فيها التحاقكم مع تركيا .
٩- بما أن الإنكليز تعهدوا بتأمين الحرية للسكان فلا تخافوا من السلطة ابداً .
١٠- سنرسل لكم نشرات باللغة التركية والكردية لتوزعوها على أهل الموصل وكركوك وأربيل والسليمانية ، وكذلك نسخة من المذكرات التي قدمتها الحكومة إلى عصبة الأمم لتطلعوا عليها .
١١- بما أن الانكليز يعلمون أن عصبة الأمم ستوافق على مصالحها فيجب أن تجاهروا

بطلب ذلك .

١٢- إن الشجاعة التي ستبدونها ستكون المفتاح إلى النصر .

١٣- لقد أمنا تبليغ هذه المواد إلى سعادة الشيخ محمود ، ويجب عليكم إعلام كركوك وأربيل بها ، وتوزيع المواد على الأقضية والنواحي .

١٤- أعلنوا بأننا سنعفو عن جميع من خدموا الانكليز في هذه المدة للحصول على معيشتهم .

١٥- يلزم أن تحذروا من أن يقع الكتاب المربوط المعنون إلى إحسان أفندي بيد دائرة الاستخبارات الانكليزية .

١٦- يرجى إرسال جوابكم بسرعة وتعلموننا بما يقتضي حكم بواسطة أحد الجواسيس المعتمد عليهم . التوقيع د ٩٢ تاريخ ٢/١/٢٥ .

وفي البريد الثاني يقول:

١- أرسلنا أربعمائة وأربعين نسخة من النشرة يجب توزيع قسم منها على جميع من في طرفكم ، والقسم الثاني يرسل إلى كركوك وأربيل بواسطة مضمونة .

٢- سوف تصل الموصل قريباً لجنة عصبة الأمم ، فأنصحكم أن تحثوا الأهالي على إجراء المظاهرات إلى جانب الاتراك ، وإذا أجريتم ذلك إني أمين بأن اللّه سوف يعاونكم .

٣- قد حررنا لكم قبله بهذا الخصوص فلا تخافوا . يلزم علينا أن نسعى بكل عزم لتحرير الموصل . فالعلاقات الحاضرة بين حكومة روسيا وحكومتنا هي صميمية وستأخذ بمساعدتنا .

٤- إني منتظر الأخبار بسرعة .

٥- إن جواد باشا هو واحد منا وقد التحق باللجنة .

التاريخ ٢ كانون الثاني ١٢٤١ د ٩٢

وفي البريد الثالث يقول:

إلى ق ٤٠

١- لقد تعينت مستشاراً للجنة ، وسوف ألتحق بها قريباً ؛ فإن مهمتي خطرة جداً وسوف تأتي بنتائج عظيمة ، وإن الموصل هي مطمح أنظاري وأنا ذاهب إليها إذ

إني اتشوق لخدمة إخواني الوطنيين المساكين .

٢- إننا أخذنا على عاتقنا الجهاد أمام العالم .

٣- إن شاكر ومجيد أفندي من رفقائنا هما الآن معنا ، فأرجو أن ترسلوا الجاسوس الذي تعتمدون عليه حالاً ، وعليكم أن تستلموا ما يسلمكم ، فالمرجو أن لا تقطعوا المخابرة وإني أريد نجاحكم يا رفاقي .

٣ كانون الثاني ١٣٤١ الإمضاء د ٩٢ .

وفي البريد الرابع يقول:

من ق ٢٢١ إلى صديقنا جاسم آغا :

١- وصلني تقريركم المؤرخ ١٩٢٤/١٢/٢٣ وقد أبلغ فحواه إلى الدوائر المختصة .

٢- يجب أن يقوم جميع أهالي الموصل بالمظاهرات أمام اللجنة لتخليص موصلنا .

٣- يجب رفع أعلام تركية كثيرة .

٤- تشكل الوفد من جواد باشا قائد حدود الجزيرة وناظم وفتاح .

٥- لقد أرسلنا هذه المرة دراهم كافية إلى إبراهيم ورفيقه ، ولكن ليس لدينا سلاح لإعطائهم هذه الدفعة ، وفي الآتي سنعطيهم . سلامنا إلى الأصدقاء .

تاريخ ١٧ كانون الثاني ١٣٤١ الإمضاء ١١١

وفي البريد الخامس يقول:

من ف ٢٢١ إلى م ١١١

١- وصلتني تقاريركم المؤرخة في ٢٣ و٣٠ كانون الأول ، وبلغث محتوياتها إلى الدوائر العائدة .

٢- سؤالكم عما يجب أن يفعله الأهالي قبل وصول لجنة العصبة . لقد أرسلنا لكم تعليمات ونشرات بهذا الخصوص وغيرها . اعملوا بموجبها .

٣- بعون اللّه سننجح . بارحت اللجنة دمشق في ١٠ كانون الثاني متوجهة إلى بغداد . وهذه اللجنة ستحافظ على حقوقنا تجاه بريطانيا والعراق . فعليكم أن تفهموا الأهالي .

٤- ستبذل الحكومة الروسية المساعدة المعنوية لتأمين تحويل ارتباط الموصل .

٥- إخبارنا بأن تعليماتنا نشرت في جميع الأهالي .

٦- اهتموا بالمظاهرات بصورة شديدة .

٧- ستصلكم الهدايا إلى الأفراد والشيوخ .

٨- ستمنح الإكراميات لكل من يخدم قضيتنا .

٩- يجب أن تؤمنوا إرسال ساع إلى الجزيرة كل عشرة أيام على الأقل أثناء اشتغال اللجنة في الموصل .

التاريخ ١٧ كانون الثاني ١٣٤١ ق ٢٢١

وفي أحد المكاتيب السرية ، وجدنا فقرة تتضمن تكليف أحزابهم باغتيال رؤساء الدوائر الإدارية والموظفين الانكليز ، ليبرهنوا بذلك على عدم رضاهم عن الحكم العراقي الانكليزي ، وغير ذلك من التعليمات والتوجيهات المخالفة لأصول الاستفتاء الحر النزيه .

الملحق رقم (٤)

عشائر المنتفك

السعدون	الإبراهيم	بني سعيد	حجام
الغزي	الشدّود	عبودة	المشلب
المحسن	الحسن	البوسعد	بني ركاب
البدور	بني خيكان	بني شديد	الصريفيين
الازيرج	حجام	بني سعيد	
الخفاجة	بني أسد	قراغول	

الملحق رقم (٥)

ولكي يعرف القارئ شيئاً عن شخصية المرحوم أخي عبدالرحمن ، أثبت نموذجاً واحداً وهو أول رسالة كان قد بعث بها إلي على أثر وصولي إلى استانبول ، ومن هذا النموذج البديع سيطلع القارىء على حسن الخط وطراز التعبير وأصالة التفكير . ولي من نشرها في هذه المذكرات هدفان .

الأول : لفت نظر أبنائي وأحفادي وقراء مذكراتي إلى ما ورد في هذه الرسالة من الوصايا السامية والتوجيهات القيمة .

الثاني : رسم صورة قلمية لتلك الشخصية الفريدة . وما كانت عليه من علو الهمة ، ونبل القصد ، ونباهة الإرشاد .

فيما يلي نص الرسالة «الزنكوغرافية»


درسعادتده
درسعادتده آقسرای قرنده خاصکی محله سنده الای مفتیسی بغدادلی فضیلتلو افندم
السید سلیمان افندی حضرتلری واسطه سیله مکتب ملکیه شاهانه
مداومتلرنده بغدادلی السید عبدالعزیز افندیه
مخصوصدر

٥٠

توصية الاخوان فيما يليق في هذا الزمان

بسم الله وبالله المستعان — اعلم ايها الاخ العزيز حفظك الله ووفقك لما يحبه ويرضاه آمين

٢٩ ربيع الأول سنة ١٣[illegible] الموافق [illegible] تموز [illegible]

الأول: اوصيك بتقوى الله في السر والعلن واجتناب المعاصي والفواحش ما ظهر منها وما بطن

الثاني: لا تجعل اتكالك الا عليه وان عسر عليك امر فحوله باخلاص النية اليه فانه لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع ولا راد لما قضى ولا مبدل لما حكم واتق الله تجده امامك

الثالث: احفظ الله يحفظك احفظه في الرخاء يحفظك في الشده

الرابع: اذا استيقظت من منامك فاستغفر الله واذا نمت فاجعل خاتمة كلامك الاستغفار فان صحيفتك اليوميه اذا يكون اولها الاستغفار وختامها الاستغفار يرجى ان يكون ما بين الاستغفارين من الذنوب الصغائر مغفورا لك ان شاء الله

الخامس: اذا اصبحت واذا امسيت فقل اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات بالكلمات التامات كلها من شر ما خلق ثم قل بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثا وبسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثلاثا والصلاة الابراهيمية الخ واللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة تحل بها العقد وتفك بها الكرب عشرة مرات وسبحان الله وبحمده ٧ بخلوص النية في القلب وملاحظة المعنى

السادس: اذا ركبت دابة فقل سبحان من سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون واذا عسرت عليك فقل في اذنها افغير دين الله يبغون وله اسلم من في السموات ومن في الارض وكل اتوه داخرين واذا ركبت سفينة فقل بسم الله مجريها ومرسيها ان ربي على كل شيء قدير وان كنت في البحر فاقرأ حزب البحر المشهور والموجود في دلائل الخيرات

السابع: اذا اشرفت على بلد فقل عند رؤيتك اياها اللهم ارنا خير البلد واكفنا شر العباد اللهم ارزقنا جناها واعذنا من وباها ثلاث مرات وان كنت في مركب واتيت الى بلد لا تاخذ معها او بعضها فلا تخرج منه لاجل النزهة والسيران بذلك البلده الا لامر ضروري معهم من تعتمد عليه من رفقائك واسرع في طلب ما اردته وارجع الى مكانك لانك اذا تعطلت في البلده ربما يتحرك المركب ولا ينتظرك وتبقى في البلدة حيران والعياذ بالله فاحذر من ذلك حفظك الله

الثامن: اذا وصلت المحل الذي اردته قبل وصولك بساعتين اجمع اسبابك وكن على حذر للخروج من الوابور ولا تنسى شيئا من اسبابك واركب العربه واطلب محلك الذي قصدته وان كان معك الا لا فارق

التاسع — اذا جالست مجلسا اعرف مكانك منه واذا كلموك تكلم باختصار ولا تكن مهذارا
فان من كثر لفظه كثر غلطه واذا سألوك فجاوب على قدر السؤال واحفظ لسانك
فان من الكلام ما فيه وبال والسكوت اولى واجمل وما لم تعرف العلم فتأمل

العاشر — اذا دخلت على الناس اورأيت اناسا جالسين فابدأ بالسلام فقل عند الدخول او عند الرؤيا
اللهم انا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم (ورد في حديث صحيح)

الحادي عشر — اذا دخلت على وزير اوكبير فليكن دخولك عليه بكمال السكينة والوقار والادب وعرفه بأسمك
ونسبك ونسبتك بلا تعجب ولا يكون حضورك معه في خلوة فالانسان شيطان ان
والثلاثة جماعة فقبل يده ان كان عالما وقبل ابطه ان كان وزيرا او اميرا والا
فالتحية المشروعة والمتداولة بين الناس التي هي معدودة من الآداب المشروطة

الثاني عشر — اذا دخلت على الملك ايده الله فقبل الارض بين يديه واربع انملة فيما يكون المعول عليه
ولا ترفع رأسك ناظرا اليه ولا تدع صدرك بعيده واذا كلمك وتلطف عليك فاصغ بكمال
الادب والرغبة اليه واذا حضرته بين ملوكه فلا تتقي نظرك عليه ولكن مشيك بكمال السكينة
الى خلفك وانت مستقبلا اليه غير ناظر تحته ولا عليه فان ادخلك في لطفه فذلك من سعادتك
وان فقدوا ولا تزد سوى الله

الثالث عشر — استعينوا على امور دنياكم بالكتمان فكن موضع السر كاتما واذا وردتك سر من غيرنا
او من غيرنا فلا يطلع عليها احد غيرك فان كنت مع جماعة فلا تفتحها واحفظها الوقت آخر
لخلوة افتحها واطلع عليها فربما فيها امر يتعلق بك فيفسدونه عليك فاحذر واكتمها

الرابع عشر — اياك وحضور مجالس الفسق والفجور واستماع المغنيات وآلات الطرب فانها تغضب الرب
وتميت القلب واياك وكثرة الضحك فانه يذهب بنور الوجه ولا تمازح فتنزل قيمتك واياك
والجلوس في الطرق فانها مجالس الشياطين واياك والخلوة مع امرأة اجنبية او مع امرد
فان ثالثهما الشيطان او كادهما يوجب الاثم واياك ان تتزوج بغير اذن من والديك
جدوك ولوالدتك فان ما خاب من استخار ولا ندم من استشار

الخامس عشر — فانه تعرضت لك امرأة فلا تجبها ولا تلتفت اليها وان نصحتك ولا ترد عليك
تخشى تقصيرا فقل اني اخاف الله وكن على حذر فلا تقربها فان كيدهن لعظيم وكتابك وانظر اليها
فهذه من الخيانات وحيل الشيطان فاحذر كل الحذر حفظك الله من سوء القدر

السادس عشر — كلم الناس على قدر عقولهم وكن مع هيبة حليما حسن خلق ولا يكون ظنك في الناس السيئ ان بعض
الظن اثم بعض الظن وان امرت شيئا فانه ... فانه من السخي كلمة تسيء كلمات.

السابع عشر | اياك وشرب الدخان فانه يوجب الحرقة ويسود الاسنان والاكل مهما كان متوسطا فلا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط

الثامن عشر | اذا كتبت لنا مكتوب فلا تذكر فيه ما لا يعني لان حسن المرء تركه ما لا يعنيه فقط اذكر لنا ما هو خاص بنفسك وصحتك وشغلك واشتغالك وما انت فيه ولتكن مراسلاتك حسبما يمكن

التاسع عشر | يوم دخولك الى دار السعادة اولاً باشر في اخذ اللبسة كلها حسبما لا وقته كما تلبس امثالك الذين في المكتب الذي تريد دخوله ثم بعدما تلبسها وتتجمل بها تذهب الى المكتب وتتوجه بنفسك فيه بعدما تسلم مكاتيب توصيتك ابتداء واحفظ ما يقولوه لك باي يوم يكون حضورك عندهم للامتحان حتى تحفظ الدروس سابقا

ثم اخي بنية الدنيا قد قدمت لك ضبطة حسن حالك حال صحتها صدقة من مولانا الاداره ممهورة ضابطة لازم من عرضها على مدير المكتب وبعده احفظها عندك اذا ما احتجتها فهنالك يكن لك فيها لزوم مع عفا نيتك واكولك ورقة صغيرة فيها خطاب لك اطلع عليها واعمل بما فيها ولا تضيع اوقاتك فهذا وقت تحصيلك واوان ترقياتك لا زلت موفقاً لكل خير ولا تكن بلا افكار منتظرينا فانتم الجميع بغاية الصحة نرجو من الله دوامها لنا ولك ولجميع المحبين والسلام عليك وعلى اصحابك ورحمة الله وبركاته وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله واصحابه وسلم تسليما ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فالله خير حافظاً وهو ارحم الراحمين

اهلك
السيد عبد الرحمن
السعدي

وإنا إلى ربنا لمنقلبون . وإذا عسرت عليك فقل في أذنها أفغير دين اللّه يبغون . وله أسلم من في السموات ومن في الأرض وكل أتوه داخرين . وإذا ركبت سفينة فقل بسم اللّه مجريها ومرسيها إن ربي على كل شيء قدير ، وإن كنت في البحر فاقرأ حزب البحر المشهور والموجود في دلائل الخيرات .

السابع — إذا أشرفت على بلد فقل عند رؤيتك إليها اللهم أرنا خير البلاد واكفنا شر العباد ، اللهم ارزقنا جناها وأعذنا من وبائها ثلاث مرات . وإن كنت في مركب وأتى إلى بلد ليأخذ منها أو يعطيها فلا تخرج منه لأجل الفرجة والسيران بذلك البلد إلا لأمر ضروري ، مع من تعتمد عليه من رفقائك ، وأسرع في طلب ما أردته وارجع إلى مكانك ، لأنك إذا تعطلت في البلدة ربما يتحرك المركب ولا ينتظرك ، وتبقى في البلدة حيران والعياذ باللّه ، فاحذر من ذلك حفظك اللّه .

الثامن — إذا وصلت المحل الذي أردته قبل وصولك بساعتين اجمع أسبابك وكن على حذر للخروج من الوابور ، ولا تنس شيئاً من أسبابك ، واركب العربة واطلب محلك الذي قصدته ، وإن كان معك حمال لا تفارقه .

التاسع — إذا جلست بمجلس اعرف مكانك منه ، وإذا كلموك تكلم باختصار ولا تكن مهذاراً ، فإن من كثر لغطه كُثر غلطه ، وإذا سألوك فجاوب على قدر السؤال واحفظ لسانك ، فإن خير الكلام ما قل ودل والسكوت أولى وأجمل ، وما أعلم نصف العلم فتأمل .

العاشر — إذا دخلت على أناس أو رأيت أناساً خاف قلبك منهم ، فقل عند الرؤيا اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم (فهو حديث صحيح) .

الحادي عشر — إذا دخلت على وزير أو كبير فليكن دخولك عليه بكمال السكينة والوقار والأدب ، وعرفه باسمك ونسبتك ونسبك بلا عجب ، ولا يكون حضورك معه في خلوة ، فالاثنان شيطانان والثلاثة جماعة ، فقبل يده إن كان عالماً إلا فالتمني المشهور والمتداول بين العثمانيين

الذي هو معدود من الآداب المشروطة .

الثاني عشر إذا دخلت على الملك أيده اللّه فقبل الأرض بين يديه ، وادع اللّه له فيما يكون المعول عليه ، ولا ترفع رأسك ناظراً إليه ، ولا ترفع صوتك عنده ، وإذا كلمك وتلطف عليك فاصح بكمال الأدب والدقة إليه ، وإذا خرجت من حضرته فلا تلق ظهرك إليه ، وليكن مشيك بكمال السكينة إلى خلفك ، ووجهك إليه غير ناظر نحوه ولا عليه ، فإن أدخلك في لطفه فذاك من سعادتك وإلا فالأمر والإرادة محولة إليه .

الثالث عشر استعينوا على أمور دنياكم بالكتمان ، وكن موضع السر واكتم ، وإذا وردتك رسالة منا أو من غيرنا فلا يطلع عليها أحد غيرك ، فإن كنت مع جماعة فلا تفتحها واحفظها لوقت آخر .

الرابع عشر إياك وحضور مجالس الفسق والفجور ، واستماع المغنيات وآلات الطرب ، فإنها تغضب الرب وتميت القلب ، وإياك وكثرة الضحك فإنه يذهب بنور الوجه ، ولا تتمازح فتدنو قيمتك ، وإياك والجلوس في الطرق فإنها مجالس الشياطين ، وإياك والخلوة مع امرأة أجنبية أو مع امرىء ، فإن الخلوة بأحدهما أو كليهما توجب الندم ، وإياك أن تتزوج بغير إذن منا ، وإن جبروك ولو بعد حين فإنه ما خاب من استخار ولا ندم من استشار .

الخامس عشر فإن تعرضت بك امرأة فلا تضع ولا تلتفت إلى كلامها ، وإن نصحتك وإن دعتك إلى نفسها فقل إني أخاف اللّه ، فاحذر كل الحذر حفظك اللّه من سوء القدر .

السادس عشر كلم الناس على قدر عقولهم وكن صبوراً حليماً حسن الخلق ، ولا يكون ظنك في الناس إلا سيئاً إن سوء الظن من بعض الفطن ، وإن أحدٌ شتمك فاسمحها له ، فإن من لم يسمح كلمة يسمع كلمات .

السابع عشر إياك وشرب الدخان فإنه يزيد المصرف ويسوّد الأسنان ، وليكن مصروفك متوسطاً فلا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط .

الثامن عشر إذا كتبت لنا مكتوباً فلا تذكر فيه من لا يعنيك ، لأن من محاسن المرء تركه من لا يعنيه . فقط اذكر لنا ما هو خاص بنفسك

وصحتك وشغلك واشتغالك وما أنت فيه ، ولتكن مراسلتك حسبما يمكن .

التاسع عشر يوم دخولك إلى دار السعادة أولاً باشر في أخذ ألبسة مكملة مناسبة للوقت ، كما يلبسه أمثالك الذين هم في المكتب الذي تريد دخوله ، ثم بعد ما تلبسها وتتجمل بها تذهب إلى المكتب وتقيد نفسك فيه بعدما تسلم مكاتيب محمد علي أفندي ، واحفظ ما يقوله لك بأي يوم يكون حضورك عندهم للامتحان حتى تحفظ الدروس أيضاً .

ثم أخي بهذه الدفعة قدمت لك مضبطة حسن حالك ، وحال صديق مصدقة من مجلس الإدارة ، وتجدها بطيّه لازم عرضها على مدير المكتب ، وبعده احفظها عندك ، وطيه ورقة صغيرة فيها خطاب لك اطلع عليها واعمل بما فيها . ولا تضيع أوقاتك فهذا وقت تحصيلك وأوان ترقيك ، لا زلت موفقاً لكل خير ، ولا تكن مشغول الأفكار من طرفنا فنحن الجميع بغاية الصحة ، نرجو من اللّه دوامها لنا ولك ولجميع المحبين ، والسلام عليك وعلى أصحابك ورحمة اللّه وبركاته ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً ما شاء اللّه كان وما لم يشأه لم يكن ، فاللّه خير حافظ وهو أرحم الراحمين .

أخوك

٢٩ ربيع الأول سنة ٣١٩ السيد عبد الرحمن السيد محمد

الملحق رقم (٧)

وصية رئيس وزراء الحكومة العراقية
المرحوم عبدالمحسن السعدون

النص التركي الأصلي

ايكي كرزم يا وروم مدار استنادم علي .

ارتكاب ايتديكم جنايتدن طولابي بني عفو ايت . زيرا بو حياتدن بقدم اوصاندم حياتمدن له لذت . نه ده ذوق شرف كوردم . امت خدمت بكليور . انكليزلر موافقت ايتميور . ظهيرم يوقدر . استقلال ايستيان عراقليلر ضعيف عاجز استقلالدن جوق اوزاق . بنم كبي نامرسلي انسانلرك نصايحي تقدير دن عاجز بني وطنه خائن . انكليز بنده سي ظن ايديورلر . نه بيوك فلاكت بن وطنك أن مخلص بر فدائيسييم هردرلر حقار تلره قاتلاندم مذلتلره تحمل ايتدم . صرف آباء واجد ادمك مرفها يشاد قلري بومبارك بقعة ايجرندر . ياوروم صوك نصيحتم بودركه :

(١) يتيم قاله جق اوفاجق قاردا شليرينه مرحمت (والده نه حرمت) وطنه صداقت (٢) مسلك فيصل وذريتنه صداقت مطلقه . بني عفو ايت ياوروم علي .

عبدالمحسين سعدون

وهوذا التعريب الحرفي الصحيح للنص التركي للوصية .

ولدي وعيني ومستندي علي .

اعف عني لما ارتكبته من جناية ، لأني سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقاً مشرفاً . الأمة تنتظر الخدمة ، والانكليز لا يوافقون . ليس لي ظهير . العراقيون طلاب استقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون كثيراً عن الاستقلال . وهم عاجزون عن تقدير نصائح أرباب الناموس أمثالي . يظنون أني خائن للوطن ، وعبد للانكليز . ما أعظم هذه المصيبة أنا الفدائي الأشد إخلاصاً لوطني . قد كابدت أنواع الاحتقارات وتحملت المذلات في سبيل هذه البقعة المباركة التي عاش فيها آبائي وأجدادي مرفهين .

ولدي نصيحتي الأخيرة لك هي :

(١) أن ترحم إخوانك الصغار الذين سيبقون يتامى وتحترم والدتك وتخلص لوطنك .

(٢) أن تخلص للملك فيصل وذريته إخلاصاً مطلقاً .

اعف عني يا ولدي علي .

التوقيع

عبدالمحسن السعدون

الملحق رقم (٨)

خلافا لما هو متعارف في الحكومات الديمقراطية ، لم تنشر وزارة السعدون الرابعة منهاجها في الصحف ، ولم يعلن رئيسها خطة وزارته السياسية في المجلس النيابي ، غير أن الوزارة كانت قد وضعت لنفسها منهجا سياسيا ذا أسس عامة وشروح كافية ، وأبقته طي الكتمان الى ما بعد انتحار رئيسه .

وهذا نص المنهاج كما نشر في «من ذكرياتي» .

منهج وزارة السعدون الرابعة

❖ أمور سياسية

١ . العمل على جعل مبدأ تطبيق المعاهدة الجديدة من تأريخ توقيعها . أعني قبل الدخول في عصبة الأمم أو تسريع الدخول قبل سنة ١٩٣٢ .

٢ . العمل على رفع كل صيغة احتلالية من صلب المعاهدة الجديدة ، وكل ما ينافي استقلال العراق .

٣ . الأخذ بنظر الاعتبار انتهاء مسؤولية الحكومة البريطانية في قضية الدفاع ، والتدرج بالأعمال وفق التصريح الجديد .

٤ . تطبيق التجنيد العام بصورة سريعة .

٥ . إنجاز المسائل المعلقة كمسألة السكك الحديدية وغيرها من الأمور العمومية .

٦ . حصر السلطات العامة بشخص الوزير . رفع أصول مخابرة رؤساء الدوائر مع المتصرفين .

٧ . جعل المتصرف رئيس القوة الإجرائية في اللواء . ربط جميع الدوائر الفنية وغيرها بالمتصرفية . إصدار أنظمة تعين كيفية العمل في الألوية على هذا الأساس .

٨ . منع المخابرات والمراجعات مع المفتشين الإداريين من قبل الدوائر المركزية .

❖ تنقيح

١ . ربط دائرة الأملاك وجعل وظائفها من جملة وظائف مديرية الواردات كما كانت سابقًا .

٢ . إلغاء دائرة الرستمية ، وتوسيع حقول التجارب في المناطق الزراعية المهمه .
٣ . إلغـاء تشكيـلات وكـالة القيـادة العـامـة وتأسـيس رئاسـة الأركـان في الجـيش ، وإرجـاع السلطات العـامـة في الجـيش الى وزارة الدفـاع ، مـاعـدا أمـور التنظيم ، والتعليم ، وإلغاء التشكيلات المزدوجة في مقر الجيش .
٤ . إلغاء التشكيل الجديد فيما يتعلق بتعريف أمور الواردات في المحاسبة .
٥ . توحيد فروع المحاسبات العامة ، ومزج دائرة التفتيش المالي بهذه الدائرة .
٦ . الاستعاضة بالموظفين العراقيين عن الموظفين الأجانب المستخدمين في وظائف كتابية وحسابية .
٧ . تنقيص عدد المنتسبين الإداريين في الشرطة ، وإلغاء المفتشية التي لم يبق حاجة بالدوائر إليها .
٨ . تنقيح كل ماهو ممكن لترفيه وضعية الميزانية . ومن جملتها إنهاء العقود المعطاة للأجانب من خمس سنوات فما دون ، حسب الإمكان .

❖ تشجيع الأعمال

١ . العمل على جعل المناقصات وغيرها في مجالس الإدارة .
٢ . تأليف لجنة خاصة للمناقصات الخارجية .
٣ . رفع حصر المشتريات بمعرفة (كراون ايجنت)[1] .
٤ . تشجيع المصنوعات الوطنية لاستعمالها في الجيش والشرطة .
٥ . إعادة النظر في التعرفة الكمركية لتشجيع المنتوجات الأهلية .
٦ . إعادة تنسيق الدوائر المركزية في الوزارات لرفع القيود والتأخير الحاصل في إنجاز الأعمال .
٧ . ربط أمور المهاجرة بدائرة النفوس ، وتوسيع أعمال هذه الدائرة .
٨ . تأليف دوائر للإحصاء ، وللنظر في المسائل الاقتصادية العامة .
٩ . تشجيع الزراع على إعمار الأراضي بتشريع يضمن حقوقهم بعين واجباتهم ، والإسراع في تأليف المصارف الأهلية والزراعية ، كمساعدة وإنعاش الزراع والتجار ، ولتأسيس العملة الوطنية .

---

(١) كراون ايجنت (CROWN AGENT) مؤسسة بريطانية تقوم مقام الحكومة في تموين المستعمرات والبلدان المشمولة بالهيمنة الاقتصادية للإمبراطورية .

❖ **إيضاح المنهاج**

١ . الحكومة العراقية هي المسؤولة عن حفظ الأمن والدفاع عن البلاد ، وهذه المسؤولية لا تمنع التعاون عند الحاجة .

التدرج يقصد به أن تمارس الحكومة العراقية سلطاتها ، وتنقح موظفيها ، وأمورها تدريجيا ، بحيث تصبح في وقت قريب متمتعة بالحقوق والكيان الذي يشير اليه التصريح الجديد ، المعبّر عنه بالأسس العامة للمقترحات المقدمة الى الشعب المصري (مادة عامة لعموم الوزارات) .

٢ . إمرار قانون التجنيد - الإسراع في إتمام تسجيل النفوس (دفاع - داخلية) .

٣ . و٤ . المسائل المعلقة أكثرها تتعلق في الأمور المالية ، سواء من جهة الإعفاءات ، أو حسم الملكية ، والواجب أن تسرع الحكومة بمفاوضة الحكومة البريطانية لإنهاء ما يخالف القوانين المرعية ، وأما ما يخالفها فيقتضي إنهاؤها فورًا (مالية - أشغال) .

٥ . إن التعديلات في القانون الأساسي تحتوي على أمور كثيرة ، منها تبديل مبدأ اجتماع المجلس ، وكيفية احتساب المخصصات ، وانتقاء الوزارة من خارج المجلس . . . الخ .

❖ **أمور عامة**

١ . القصد أن يتمتع الوزراء بالسلطات المصرحة في القانون الأساسي لتأييد المسؤولية الموجهه اليهم . فلا يجوز أن يتصرف رؤساء الدوائر بالمسؤوليات المترتبة على الوزير ، والتي هي خارجة عن تمشية أمور دوائرهم . ولهذا الغرض يجب أن تعنون المراسلات باسم الوزارة ، وترسل الأجوبة عنها من الوزارة ، موقعة من الوزير نفسه ، أو بتخويل منه «عن الوزير» ، ولكن لا يجوز التوقيع على الأوراق «عن الوزير» قبل أخذ موافقته على الأمر الصادر من الوزارة ، وهذا لا يشمل طبعا الاستفسارات الاعتيادية ، وإرسال الجداول والتقارير المعتادة ، التي وقع عليها المدير العام ، من غير موافقة الوزير ، ولكن بتخويل منه . والأحوال الشخصية العائدة للموظفين بمسك سجلها في الوزارة ، أما الأمور الفنية التي تجري على أيدي الدوائر الخاصة ، فتسير على مسؤولية «المدير العام» من جهة التحضير ، والقرار بالعمل والتنفيذ منوط بالوزير .

٢ . يقصد تأييد مسؤوليات المتصرفين ، من جهة تمثيلهم للوزير في اللواء ، ولذلك ينبغي توحيد المسؤوليات الإجرائية في شخص المتصرف ، وجعل الشعب مرتبطة به ارتباطًا مباشرًا من جهة الإدارة والإجراء والتنفيذ (عموم الوزارات) .

٣ . لقد توغل المفتشون الإداريون في وظائف الإدارة والإجراء ، خلاف ما هو مصرح لهم في قانون التفتيش ، وأصبحوا يخابرون الدوائر المركزية في قسم عظيم من الوظائف الإجرائية مباشرة . وهذا ما دعا بالنتيجة الى شل يد المتصرفين ، وإلى سير الشعب الإدارية في الألوية وفقا الى آراء المفتشين الإداريين ، فمن الضروري إنهاء هذه الحالة والعمل على ما هو وارد في المادة الثانية (عموم الوزارات) .

❖ **تنقيح**

١ . تغير الغرض من تأسيس دائرة الأملاك وأصبح عملا منحصرا في إدارة المسقفات ، وتفويض الأراضي الأميرية بعقود المزارعة أو على طريق الإيجار ، والنظر في مسائل المنزاعات على الأراضي والحدود ، وهذه الأمور كلها تخص إدارة الواردات ، أكثر من العمل على إحياء الأراضي الأميرية بممارسة وسائط التعمير والاستثمار الحديثة في أملاك الدولة ، كما كان المتصور ، ولذلك لم يبق من حاجة إلى إبقاء هذه الدوائر على هذا النحو ، بل أصبح وجودها باعثا للإسراف في الميزانية ، فمن الضروري إلحاقها بمديرية الواردات وترك ممارسة وسائط التعمير والاستثمار الحديثة لمديرية الزراعة العامة ، بتأسيس حقول التجارب في المناطق الزراعية المهمة (مالية - ري وزراعة) .

٢ . لم تأتِ التجارب والنفقات المصروفة على دائرة الرستمية بالثمرات المنتظرة منها ، فأصبحت هذه الدائرة بكثرة موظفيها الأجانب ، وطرز الإدارة فيها ، عبئًا على دائرة مختصة ، متصلة بمدرسة الزراعة (ري وزراعة) .

٣ . يوجد تعارض بين السلطات المدرجة في الإدارة الملكية بتأليف وكالة القيادة العامة ، وبين سلطات الوزير المؤيدة بموجب القانون الأساسي بموجب المبدأ العام المصرّح في المادة (١) من الأمور العامة . ينبغي الحصول على إرادة ملكية بالغاء الإدارة الاولى . وتأسيس رئاسة أركان الجيش التي تتولى تنظيم الجيش ، وتدريبه ، وتقديم التوصيات من حيث التعليم ، والتنسيق ، وغير ذلك إلى الوزير ، على أن يكون الوزير يتمتع بالمسؤليات المترتبة عليه من جهة تنظيم قوات الدفاع

عن البلاد . وفي نفس تشكيلات المقرّ توجد رئاسات ومديريات مزدوجة : عراقية وبريطانية . فالوقت قد حان لتأليف المقر عى أساس المسؤولية العراقية ، وحصر النصائح والإرشادات البريطانية في شكل بعثة ، وهيئات متفردة تدريبية ، وتنقيص عدد الضباط البريطانيين الى قدر يكفي الى هذا الترتيب (دفاع) .

٤ . تعودت الدوائر المركزية على التوسيع في تشكيلاتها ، وحيازة شكل منفصل في رؤية أمورها . وهذا التوسع أدى الى زيادة النفقات ، وإلى الإخلال بمسؤولية الوزير والمتصرف . ومن جملة ذلك تفريق أمور الواردات لتكون هذه الدائرة مستقلة بأمورها ، وهي التي تجبي الضرائب وتقدرها ، وتمثل أعظم قسم من مسؤولية الوزير تجاه البرلمان ، فينبغي الوقوف عند حد مسؤولية الوزير ومراعاة الاقتصاد .
ولم تأتِ تجربة التوحيد منذ ست سنوات ، والتي سار عليها ، أحمد فهمي بك ، وساسون أفندي ، بنتائج مضرة ، فعليه يقتضي إرجاع التشكيل الى أصله (مالية) .

٥ . تجري المحاسبات بواسطة الخزائن ، وتحت مراقبة دائرة المحاسبات العمومية ، في أكثرية الدوائر الآتية :
الشرطة ، الزراعة ، الصحة ، الأشغال العامة ، الكمارك ، الري ، الدفاع ، ومجلس النواب والبلاط الملكي ، وكانت دائرة المساحة ضمن الدوائر الآنفة الذكر ، إلا أن حساباتها نقلت الى دائرة المحاسبات العمومية منذ مدة قصيرة . فهذه الطريقة لا تلائم الكفاءة في أمور الصرف ومراقبتها ، إذ تجعل الدوائر تسحب الحوالات على الخزائن من غير معرفة الأسباب . وعليه من الضروري أن توحد حسابات الشرطة ، والزراعة ، والصحة ، والكمارك ، مع دائرة المحاسبات العمومية ، على أن ينظر في الدوائر الباقية بعد ذلك (مالية) .

٦ . صرّح قانون استخدام الأجانب بضرورة استخدام العراقيين في الوظائف التي يتمكنون من القيام بها ، والوظائف الكتابية ، والحسابية ، من التي يتمكن العراقيون ، بلا شك ، من القيام بها (عموم الوزارات) .

٧ . إن المفتشين الإداريين أصبحوا كثيري العدد ، بالنظر للتقدم الحاصل في الإدارة ، ويقتضي تنزيل النصف منهم على ما يعتقد ، وإن الشرطة نصفهم تقريبا حاصل على مقاولات لمدة خمس سنين . فلا ينبغي تجديد هذه المقاولات . وتوجد

مفتشيات أخرى ، كمفتشية السجون مثلاً . فلا حاجة الى الاحتفاظ بها بالنظر إلى التقدم الحاصل في إدارة السجون وأعمالها .

٨ . من الممكن الاستغناء عن قسم كبير من الموظفين الأجانب ، الذين يخدمون بعقود لمدة خمس سنين أو أقل . كعقود قصيرة (عموم الوزارات) .

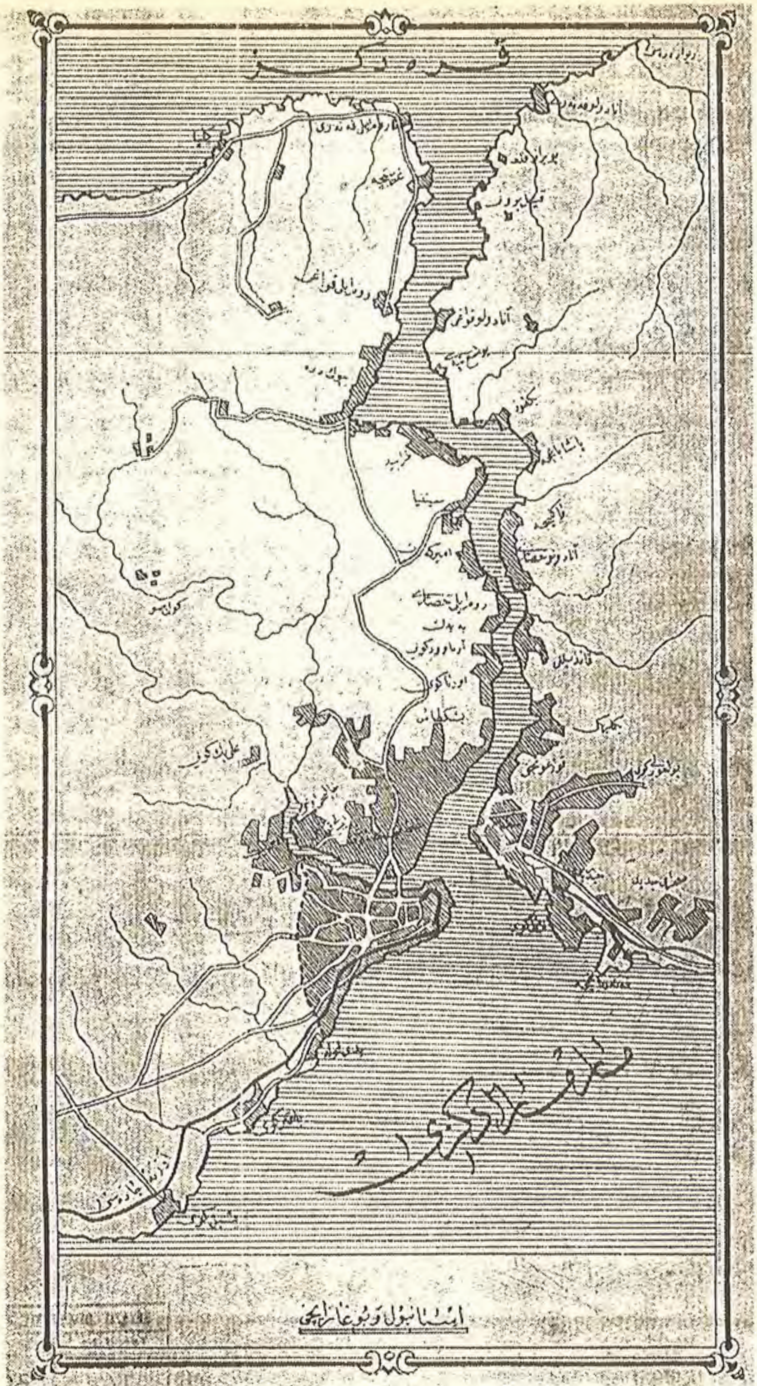
❖ تسريع وتشجيع الأعمال

لا يحتاج هذا القسم إلى إيضاح

هذا هو المنهاج الوزاري الذي احتضنته الوزارة السعدونية الرابعة لنفسها ، وعرضته على القائم بأعمال المعتمد السامي فلم يبدِ أي اعتراض عليه ، من غير أن نذيعه للناس . وهو بمجموعه يرمي الى التخلص من الموظفين الأجانب والتخفيف من صلاحيات ذوي العقود الطويلة ، الذين لا يمكن الاستغناء عنهم بسبب هذه العقود ، وكذلك يرمي الى الاقتصاد في النفقات اقتصادا تاما ، والى تحديد المسؤوليات وحصر الصلاحيات في العراقيين دون غيرهم ، والى تشجيع الصناعات الوطنية وإدخالها في الجيش والشرطة ، والى تطهير الإدارة من الأدران ، وهو منهاج ضخم لو تسنى للوزارة التي وضعته أن تنفذ ربعه لسعدت البلاد وعمرت الأرض وشبع الناس ، وعرف كل واحد ما له من حقوق وما عليه من واجبات .



خارطة اسطنبول الحديثة



خارطة اسطنبول القديمة

ملحق الصور



عبدالعزيز القصاب أيام الدراسة في أسطنبول



عبدالعزيز القصاب أيام الدراسة في
اسطنبول (عام ١٩٠٦)



المدرسة الرشدية (مدرسة أعدادية متوسطة تقع في جانب الرصافة) يظهر بين الطلاب
عبدالعزيز القصاب الرابع من الصف الخامس من يسار الصورة (عام ١٨٩١)



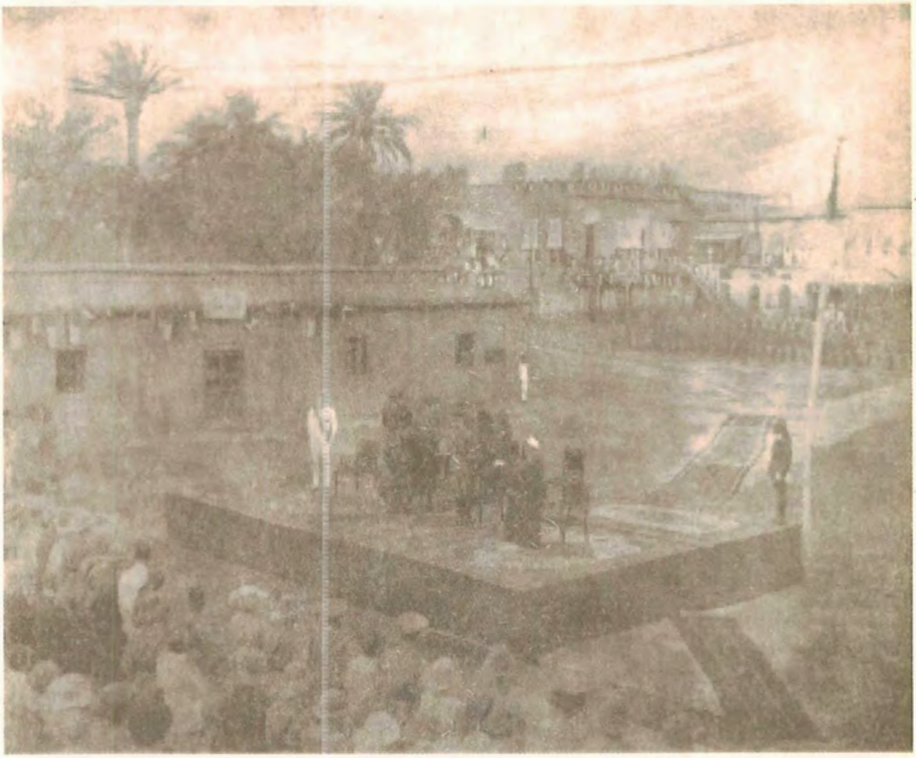
المفتي السيد سلمان الجبوري خال
عبدالعزيز القصاب في اسطنبول



عبدالعزيز القصاب مع أخيه أمين وأبنه الأكبر عبدالمجيد أول سنة قائمقام في السماوة عام ١٩١٤



عبدالعزيز القصاب مع أخيه أمين وأبنه الأكبر عبدالمجيد أول سنة قائمقام في السماوة عام ١٩١٤



جلوس جلالة الملك فيصل الأول على العرش (٢٣ آب ١٩٢١) في ساحة برج الساعة في سراى بغداد – ويظهر المعتمد السامي والقائد العسكري واقفان الأول عن يمين جلالته والثاني عن يساره



زيارة الملك فيصل الأول إلى الموصل ١٢ كانون الأول ١٩٢٤ (يمين الصورة عبد العزيز القصاب متصرف الموصل - كورنوالس المستشار البريطاني وعن يسار الصورة مفتي الموصل)



الملك فيصل الأول في الموصل وإلى جانبه حسن بك رئيس البلدية (١٦ كانون الأول ١٩٢٤)



رؤساء عشائر من الكوت (الرابع من اليمين أمير ربيعة)



محمد فاضل باشا الداغستاني



عبد العزيز القصاب مع بكر قائمقام سنجار (أستعراض عشيرة شمر)



ذكرى مكافحة الأميه في الموصل ٢٥/١٢/١٩٢٤



عبد العزيز القصاب مع ولديه عبد المجيد وخالد (الطفل) عام ١٩٢٥ في الموصل



عبد العزيز القصاب في الموصل ١٩٢٥



لجنة أمميه للأستفتاء ولإجراء مسح للتوزيع السكاني والعرقي والديني في الموصل (٢٦ كانون ثاني ١٩٢٥) من يمين الصورة البطريق الكلداني ، وزير الطيران ، مفتي الموصل ، متصرف الموصل عبدالعزيز القصاب ، وزير المستعمرات ليوبولد أميري ، قائد القوات البريطانية في العراق



الكولونيل ياج رئيس اللجنة الأمميه
في الموصول ١٩٢٥



الكونت تلله كي رئيس لجنة عصبة الأمم
للتحكيم في قضية عروبة الموصل
١٩٢٥



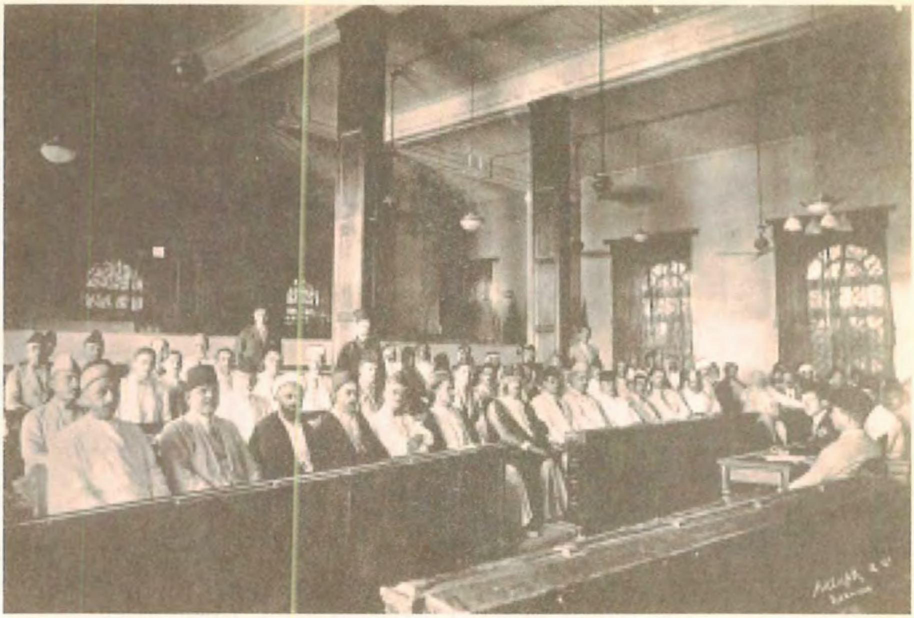
ماركوس عضو في اللجنة الأمميه
في الموصل



حفلة توزيع الجوائز بمدرسة راحيل شمعون ، بغداد
الصف الأمامي من اليمين عبدالمحسن السعدون ، يسار الصورة ساسون حسقيل وناجي القشطيني بالعمامة



المجلس التأسيسي العراقي (١٩٢٣) يترأس المجلس ياسين الهاشمي ونائب الرئيس عبدالمحسن السعدون والواقفون جعفر العسكري وبجانبه نوري السعيد بالملابس العسكرية



المجلس النيابي (١٩٢٩) ويشاهد في الصف الأول جعفر أبو التمن الثاني من اليسار محمد علي قيردار وعبدالحسين الجلبي (معتمراً السدارة)
الصف الأخير من اليسار : عبدالرزاق الأزري ، محمود صبحي الدفتري ، عبدالمحسن السعدون ، وخلفهم ساسون حسقيل وجميل باشا الراوي



المجلس النيابي برئاسة عبدالعزيز القصاب



المجلس النيابي
الصف الأمامي من اليمين السيد عبدالمهدي المنتفكي معتمراً الكوفية والعقال، جعفر باشا العسكري (مكتف اليدين) الرابع إلى يمينه داود الحيدري ومزاحم الباجحي ومحمود صبحي الدفتري وخلفه يوسف غنيمه معتمراً الطربوش



المجلس النيابي ١٩٢٩
الصف الأمامي الجالسون من يمين الصورة: عطوان الياسري، ضياء يونس (نائب عن الموصل)، محمد حسن حيدر (ناصرية)، جمال بابان، محمد زكي (بصره)، عبدالمهدي المنتفكي، الحاج حسين العطيه، عبدالعزيز القصاب (رئيس المجلس)، ياسين الخضيري، عبدالحسين الجلبي، محمد جعفر الحسيني (بصره)، هبه الله المفتي (عفرة)، الأمير محمد ربيعه، البصير.
في الصف الثاني يشاهد: حمدي الباجحي، داود الحيدري، حازم شمدين أغا، أمين زكي، حاج طالب، ساسون حسقيل، معروف جاووك.



عبدالعزيز القصاب الثالث من يمين الصورة في زحلة (أيلول ١٩٢٧) مع محمد عبدالوهاب المطرب المعروف الثاني من يسار الصورة (الواقفون) وأمير الشعراء أحمد شوقي بك الثاني من يسار الصورة (الجالسون)



عبدالمحسن السعدون (تشرين الأول ١٩٢٩)



في منزل عبدالمحسن السعدون بعد انتحاره



الوزارة التي تألفت بعد انتحار عبدالمحسن السعدون (١٩٢٩) من يمين الصورة : عبدالعزيز القصاب - ناجي شوكت - عبدالحسين الجلبي - رئيس الوزراء ناجي السويدي - ياسين الهاشمي - خالد سليمان - أمين زكي



زيارة عناية الملك خان ملك الأفغان لبغداد عام ١٩٢٩ يتوسط الصورة الملك فيصل الأول وعن يمينه ملك الأفغان وقربه عبد العزيز القصاب وعن يساره توفيق السويدي



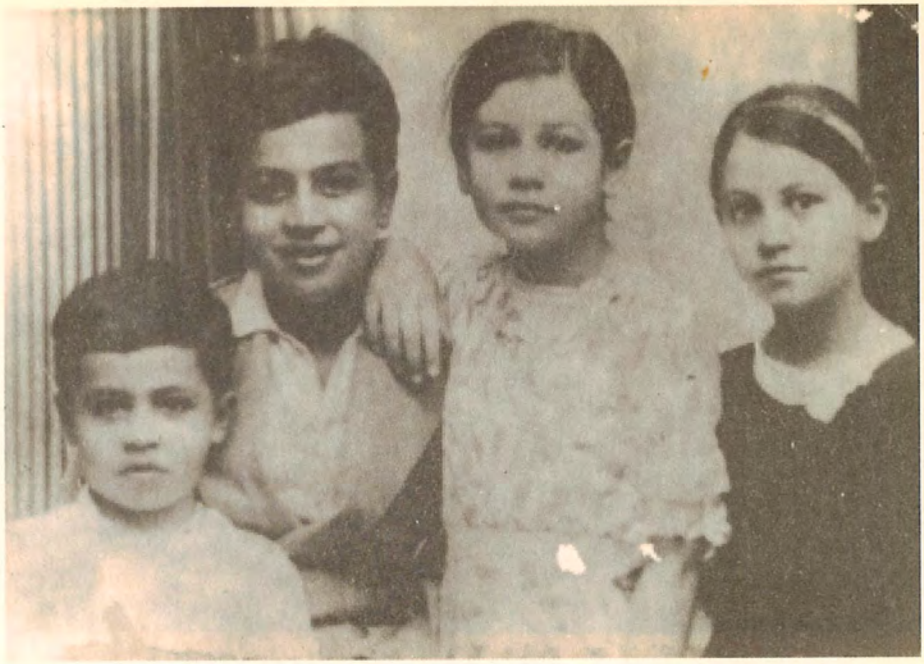
حفل تأبين السر ساسون حسقيل أفندي (وزير المالية بوزارة عبد الرحمن النقيب تشرين الأول ١٩٢٠) في مدرسة الأليانس سنة ١٩٣٢ (٧ أيلول)



وزارة جميل المدفعي ١٩٣٥ ، من اليمين تحسين قدري ، أمين زكي ، توفيق السويدي ، عبد الحسين الجلبي ، جميل المدفعي ، يوسف غنيمة ، عبد العزيز القصاب ، نوري السعيد



عبد العزيز القصاب في مؤتمر المحامين العرب (أنقاذ فلسطين في بلودان) ١٩٣٧
من اليمين : إبراهيم الواعظ ، يونس السبعاوي ، كمال الطائي ، عبد العزيز القصاب ، حمدي الباججي ، محمد بهجة الأثري ، جميل عبد الوهاب ، عبد الرحمن الخضير



أولاد عبد العزيز القصاب في طفولتهم من اليمين سعاد ، بلقيس ، خالد ، سعدون



في زحلة لبنان مع ناجي
السويدي وحمدي
الباججي وخلفهم خالد
القصاب



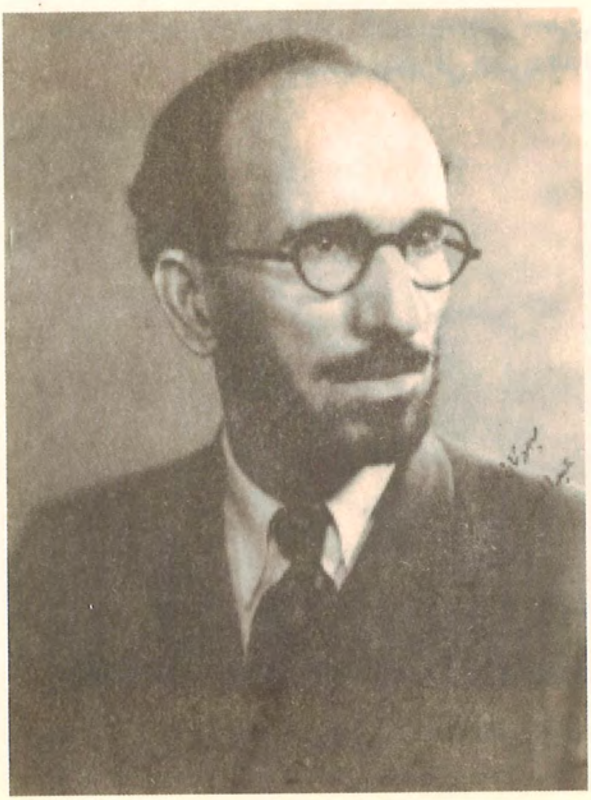
في بعلبك عبد العزيز القصاب الثاني من يمين الصورة ويقف خلفه عبد الله القصاب وبجانبه خالد القصاب . الجالسون على الأرض مصطفى العمري وولديه مؤيد وموفق وبجانبهم سعدون القصاب ويظهر في الصورة الحاج رايح العطية



توديع كورنوالس مستشار الداخلية (شباط ١٩٤٣)
من اليسار عبد العزيز القصاب - كورنوالس - جميل المدفعي



زيارة الوفد اللبناني النيابي إلى العراق سنة ١٩٤٧ عبد العزيز القصاب (الثاني من اليسار)



عجمي باشا السعدون
(٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٧)



هيئة الوصايا على العرش (تموز ١٩٤٧) من يسار الصورة محمد فاضل الجمالي ، سيد عبد المهدي المنتفكي (عضو) ، عبد العزيز القصاب (رئيسًا) ، محمد الصدر (عضو) أثناء استقبالهم كاظم بك الصلح وزير لبنان المفوض في العراق



زيارة العلامة السيد هبه الدين الشهرستاني (شباط ١٩٥٢)
من يمين الصورة السيد جواد هبه الدين ، عبد العزيز القصاب ، عجمي السعدون ، هبة الدين الشهرستاني ، الكابتن عزيز الزمان ، الميجر محمود الحسن صاحب ممثلين عن مؤتمر الشعوب الإسلامية في كراجي ورئيسه خليف الزمان



في قصر الجمهورية في دمشق زيارة الرئيس شكري القوتلي من اليمين عبدالجليل الراوي ، شكري الفوتلي ، عبدالعزيز القصاب ، أمين الراوي ، سنة ١٩٥٥



أفتتاح البنك العربي في بغداد ١٩٥٦/٢/٢٨
الصف الأمامي من اليمين : عبدالغني الدلي ، عبدالله بكر ، برهان باشا أعيان ، عبدالعزيز القصاب ، نديم الباججي ، جميل المدفعي



مع عبدالله الخيال سفير السعودية في بغداد ١٩٥٧



عبدالعزيز القصاب مشاركًا في تشيع شهيد الحرية

M E M O I R S

مذكرات
MEMOIRS



مذكرات عبد العزيز القصّاب
(١٨٨٢م - ١٩٦٥م)

- دوّن عبد العزيز القصّاب مذكّراته كشاهد على الأحداث الّتي عاصرها بدقّةٍ وتجرّدٍ نادرين ، حيث تنقّل في الوظائف الإداريّة من قائمقام في سامرّاء والسماوة والجزيرة (الصويرة) فالسماوة ثانيةً ثمّ الهنديّة وهيت وعانة والزيبار .
- بعد تشكيل الحكومة الوطنيّة العراقيّة ، عيّن قائمقام للواء الكوت ، ثمّ متصرّفًا للكوت ، فكربلاء ، والمنتفك (ذي قار حاليًّا) ، قبل أن يعيّن مديرًا عامًّا للداخليّة ، وفي سنة ١٩٢٤م كان متصرّفًا للواء الموصل عندما حضرت لجنة عصبة الأمم للاستفتاء من أجل تقرير وضع الموصل، حيث بذل القصّاب قصارى جهده لإقرار حقّ العراق في لوائه الشماليّ .
- سنة ١٩٢٦م أسندت إليه حقيبة الداخليّة في وزارة السعدون الثانية ، ثمّ أسندت إليه ثانيةً في وزارة السعدون الثالثة ، كما أسندت إليه حقيبة الداخليّة في وزارة توفيق السويدي ، ثمّ حقيبة الريّ والزراعة في الوزارة السعدونيّة الرابعة ، ثمّ حقيبة العدل في وزارة ناجي السويدي ، وقد عيّن القصّاب بعد ذلك رئيسًا للتفتيش الإداريّ خلفًا لـ (كورنواليس) ، ثمّ وزيرًا للداخليّة في وزارة جميل المدفعي الثالثة ، فمراقبًا للحسابات العامّة .
- انتخب خمس مرّات لعضويّة مجلس النوّاب ، واختير رئيسًا للمجلس في أربع دورات نيابيّة ، ورئيسًا لهيئة الوصاية على العرش عام ١٩٤٧م .
- يمكن اعتبار هذه المذكّرات مرجعًا أصيلاً من مراجع التاريخ العراقيّ المعاصر .

ISBN 9953-36-953-4
9 789953 369532



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
http://www.airpbooks.com